منهجية التربية الدعوية

دار البلدونية

محمد أحمد الراشد

سيفٌ... ومحرابٌ... ودمعةُ عابد

منهجية
التربية الدعوية

***

لوحة الغلاف من الأعمال الفنية للمؤلف

***

دار المحراب

إحياء فقه الدعوة

الكتاب السابع

K-AHMED

منهجية التربية الدعوية

محمد أحمد الراشد

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

دار الخلدونية للنشر والتوزيع

رقم الإيداع القانوني : 2196 ـ 2004

ر د م ك : 9961.932.45.3

05، شارع محمد مسعودي القبة القديمة الجزائر

ها/فا : 021.68.86.49

حقوق الطبع والترجمة محفوظة
لدار المحراب للنشر والتوزيع
فان كوفر / كندا
***

الطبعة الثالثة
طبعة مصححة
1424 هـ/2003م
***

" ترغب دار المحراب أن تلفت نظر مَن كان يعيد طبع كتب إحياء فقه الدعوة من دون إذن بأن اسم "محمد أحمد الراشد" أصبح مسجلاً رسمياً في المحاكم الُأوربية ومنظمات حفظ الحقوق الفكرية التابعة لهيئة الُأمم المتحدة في جنيف ثم لدى السلطات الكندية، وستلاحِق دار المحراب قانونياً بواسطة وكلائها من المحامين في القاهرة وعمّان وبيروت كل من يتجاوز حقوقها ويعيد تصوير أو طباعة كتب سلسلة إحياء فقه الدعوة القديمة والجديدة كلياً أو جزئياً، أو يقوم بتصويرها على الأقراص المدمجة، أو يقوم بترجمتها إلى اللغات الُأخرى، أو يقوم بعرض هذا الكتاب وبقية الكتب الجديدة بخاصة ضمن مواقع الإنترنت، كما ويسري هذا المنع على جميع كتب " محمد أحمد الراشد " التي تنشر خارج سلسلة إحياء فقه الدعوة، وعلى جميع نشريات دار المحراب، كما نود تذكير المكتبات بالالتزام الشرعي والأخلاقي بوقف تصريف النسخ المزورة والتعاون في حفظ الحقوق لأهلها، لأن الله تعالى لا يبارك بمال أو شيء مسروق، والإلتزام بمفاد الوعي الحضاري في قضايا الفكر، والإستجابة لتوصيات اتحاد الناشرين العرب، وفهم وظيفة حفظ الحقوق الفكرية في تفرغ العلماء والمفكرين لواجبهم وتمكينهم من استمرار العطاء والتأليف ورصد أوقاتهم للمساهمة في تطوير النهضة الفكرية المعاصرة وخدمة قضايا الُأمة بالرأي الاجتهادي الإبداعي ، ويتضمن هذا التحذير كذلك منع جميع الجهات التي أذن لها المؤلف سابقاً بطباعة كتبه في بعض البلاد ذات القدرة الشرائية المحدودة من أجل إشاعتها محلياً وإرخاص ثمنها، فقد أساءت بعض هذه الجهات التصرف وحصل منها تصدير ومنافسة لطبعات المؤلف، ولذلك يمنع بعد اليوم كل أحد في أنحاء العالم أجمع من إعادة طبع الكتب كلها الجديدة والقديمة، الصادرة باسم محمد أحمد الراشد منعاً باتاً يعرض المتجاوز للغرامة والمسؤولية "

مقدمة

يوم

كانت الهمّة تامّة لم تنحت منها السنون بعد : كنتُ أجمع بعض إخواني الدعاة في جامعة بغداد، بعدد قليل دون العشرين كل أسبوعين، لنقوم الليل ونتلو القرآن، مع درس دعوي وموعظة مناسبة. ولأن الرقابة كانت هاجسنا : فإنّا كنّا نتجاوز المساجد الظاهرة العامرة إلى مسجد عتيق رطب عريض الجدران واطئ الطاقات والأقواس، بالي الفراش، في زقاق ضيق قديم، يسمى "مسجد حسين باشا "، وهو الوالي العثماني الذي بناه قبل أربعمائة سنة تقريبا، ويبدو أن يد الصيانة لم تمتد إليه آنذاك، فكان التلف ظاهراً في أكثر أرجائه، والجص قد سقط من بعض حيطانه.

لكن أُولئك المائة الروّاد الذين كانوا يتناوبون الحضور أفواجاً صدروا عن إجماع جازم أنهم لم يروا مكاناً تتجلى فيه البركة الربانية ظاهرة كمثل حَرَم ذاك المسجد، وكان أي مشارك يحسّ بروحانية عميقة تحت تلك الأقواس، ويشعر بشعور خاص إذ هو بين تلك الجدران الهرمة يفوق تأثير الموعظة، ويضاعف إخبات القلوب الذي يولّده التهجد والتغنّي بالآي، حتى إذا حَكَمَ وقت أذان الفجر: تصدى لرفع الأذان الحاج احمد رحمه الله، مختار حي الحيدرخانة الذي يقع المسجد فيه، وكان رجلاً ميسوراً لكنه يسكن غرفة في المسجد تطل على ساحة واسعة، فكان إجماعٌ من إخواني أنهم لم يسمعوا أبداً أذاناً جميلاً آسراً مُطرباً كمثل أذانه، وكان عادل الشويخ يقول : يصح البيات في المسجد ثمناً لسماع ذلك الأذان، وأنا أشهد بما شهد به رحمه الله : أني حتى الآن وأنا في الرابعة والستين ما أتلذذ بسماع نغمات أذان تدق أبواب القلب دقاً كنغماته، وآثار أذانه في نفوس أُولئك الدعاة تعدل ما يرجعون به من آثار التلاوة والتهجد.

وتفسير هاتين الظاهرتين عندي ـ والله أعلم ـ : أن هذا المسجد العتيق قد بناه صاحبه بنيّة خالصة، ثم تتابعت أجيال كثيرة من المؤمنين تصلّي فيه وتدعو، فحباه الله تعالى ببركة خاصة ميّزته عن مساجد أخرى، ثم يبدو أن هذا المؤذن الذي هو ليس بأجير كان على شعبة من الإخلاص واقتراف الحسنات، فأودع الله عز وجل في صوته تلك العذوبة والقوة التأثيرية.

وإنما أردت من سرد هذه القصة أن تكون مدخلاً لمعنيين مهمين يجب تقريرهما إذ نحن نبحث منهجية التربية الدعوية :

❑ المعنى الأول : أن الإخلاص وتمام التجرد وعمق الانفعال مع القضية، والبراءة من الأجر الدنيوي : عوامل رئيسة في تقوية أثر كلام الداعية في بقية إخوانه وفي الناس عموماً، وكلما كان الداعية أكثر اندماجاً مع موضوع كلامه، مفرغاً أرجاء قلبه كلها له : كان نفاذه إلى قلوب سامعيه أبعد، حتى لو لم يكن ظاهر الفصاحة، وحتى لو كان يدندن حول جمل تالدة قد حفظها الناس من قبل، فتكرار الأذان خمس مرات في اليوم من عدة مساجد لعشرات السنين تجعل أكثر المسلمين يستقبلونه إذا نودي به استقبالاً عادياً وببرود ربما، ولا يلتفت إلى معانيه العظيمة إلا قلة من المسلمين الذين عمرت قلوبهم بمعاني الإيمان والفقه عمراناً واسعاً، ولكن إخلاص المختار الحاج أحمد وتزيّنه بالحسنات : جعل من كلمات أذانه دروساً كافية لوحدها، وبلاغاً لشباب جامعي يعيشون الزمن الصعب وسلبيات التخليط والاختلاط، **وعلى منهجية التربية الدعوية أن تدرك مغزى هذه الظاهرة، وأن تعمل على إبقاء تعليم الإخلاص وأمثاله من المنازل الأولى في مدارج الصاعدين هدفاً دائماً ومصاحباً لجميع مراحل وجزئيات منهج التربية الدعوية، ليتبارك القول الدعوي مهما كان بسيطاً لم تجمّله فنون البديع، وساكناً لم ينفضه تجديد.**

❑ والمعنى الثاني : أن الدعوة القديمة الراسخة التي تعاقبت على القيام بأمورها أجيال عديدة من الدعاة : يُكوّن الله لها كياناً معنوياً عاطفياً عميق التأثير في قلوب الدعاة والناس، **فيه بركة تجعل القليل كثيراً، والواطئ عالياً، والضيّق واسعاً، والصلد ناطقاً**، كمثل مسجد حسين باشا هذا، وليس لمنهج التربية الدعوية فرصة تأثير كبيرة إن طُبّق في دار حديثة التشييد، جديدة الاسم والرجال والأعراف والتجارب، بل يلزم أن ينطلق تطبيق هذا المنهج المتكامل من بناء دعوي ضربت جذوره عُمقاً، وجلس دعاته من قبل بين يدي جيل أكبر، فيتم التلقين وتحميل التبعة والأمانة والفهم، في توريث هادئ مسترسل غير مشوب بقضاء قاضٍ، ولا صاحَبَه صخب نزاع الوارثين، فيكون اتصال السند والنَسَب، ومن يتجاوز من الدعاة الجدد فيظن أن التجديد الخططي يستلزم كياناً جديداً مستقلاً فإنه يكون قد أبعدَ في الوهم، إذ سوف لا تلامس البركة كيانه الطارئ، ويحرمه من أنفاس المتعاقبين العطرة.

وإذا عرفنا ذلك، وأوجدت تربيتنا بفضل الله تعالى الكتلة الإيمانية المستندة إلى الكيان العريق : فإن الطرف الثالث في إتقان الأمر وتطويره يكون هو الداعية الوارث للأمانة الذي أفلحت التربية في إنتاجه وتعليمه الوفاء، بأن يتصدى ويحمل الهمّ، ويكثر التفكير، ليكتشف مستلزمات الارتقاء والإيغال في الدرب.

حمل همّ التفكير هذا هو نقطة البداية الإبداعية.

وورد في شعر امرئ القيس وصف مجازي على عادة الشعراء لرجلٍ :

" قليل هموم...... ما يبيت بأوجال "

أي ليس يخاف، وهمومه تكاد أن تنعدم، وجعل ذلك وصف مدح.

لكن لم يقل لنا أين مكان هذا في دائرة الحياة ؟ وأين عنوانه ؟

والأمر لا يعدو أن يكون مجازاً وخيالاً، أو يكون وصفاً لمتخلف عن صراع الحياة ترك المعالي لغيره ورضي أن يُقاد.

أما حياتك وحياة كل حُرّ مصلح يريد أن يقود الحياة فكلها هموم ثقيلة، ومسؤوليات، ورهبة، وتأمل عميق في محركات الحياة.

نعم يصح الرجاء، وتنبغي الرغبة، فإن الله تعالى وكيل المؤمنين، لكن من بعد أن تنهكك الأوجال، وتعصرك الحاجات، وتذيبك الأشواق.

تدخل الكير أولاً..... إذا أردت أن تستحيل ذهباً.

وقد قالت الحكماء : **(اعلموا أن أقدامكم إن لم تتقدم بكم، فإن أيديكم لا تَمُدُّ بكم.)** [1].

أي أن الشيء البعيد لن تتناوشه واقفاً مهما مددت يدك وأطلتها وحاولت، ولكن الراغب الجادّ : يتقدم ويقترب، فينال ويحوز ويقطف.

إلا أنه الخطو الواعي الذي يسبقه التأمل الهادئ المستعرض لمفاد التجارب، على طريقة عبد الوهاب عزام في نقد النفس حين تعجّب من الإنسان كيف يشغل عن نفسه؟

---

(1) لطف التدبير للإسكافي /4.

(تتوالى الأيام وهو في شغل من أعمال نافعة أو ضارة، جليلة أو حقيرة، لا يتلبث حيناً ليسأل نفسه : فيم أنت ؟ ولم نهجتَ هذا المنهج ؟ ولم آثرت هذا العمل ؟

والذي يدركه في هذه الشواغل هو ما يخلص إلى عقله وقلبه من خلال هذه الضوضاء المحيطة، والعجاج الثائر، لا يفرغ لتمحيصه، ولا هو مستوحٍ له قلبَه وعقله، فهو يسمع ويقرأ، ذاهباً مع التيار، ويسير ويعمل ماضياً مع الركب.

وإذا خلا الإنسان إلى نفسه، ونفى عن سمعه وعينه حيناً ما يشغلهما كل حين من الأصوات والمرائي، وسمع قلبه في سكون الليل و هدأة السَحَر فعسى أن يفقه في ساعة ما لا يفقه في أيام، بل يُدرك في لمحة ما لم يدرك في سنين، وعسى أن تتنزل عليه في هذه الخلوة من المعاني ما لم يخطر له، وما يحسب أنه بعيد عنه)[2].

وهذا الكتاب هو مجموعة خواطر وتأملات وردت إلى قلبي حين ابتعدتُ عن الضوضاء والعجاج لتمحيص ما هنالك من رصيد دعوي وذخيرة تجريبية وخلجات ضمائر فاه بها أصحابها خلال حواري معهم في جلسات التربية والتعليم في أكثر من بلد، ولما رتبتها ونظرت لها نظرة إجمالية شاملة : أيقنت أن الدعوة الإسلامية تملك حقائق تربوية كثيرة لم توظفها التوظيف الأمثل في منهجيتها التربوية، وأن التوظيف إذا تمّ بإذن الله فإنه سيدفع الدعوة إلى الأمام دفعة قوية، ويجعلها تحتكر الساحة.

إذن ؛ فإن هذه الآراء التي أعتقد صوابها ليست هي " منهجية التربية الدعوية الرسمية المعترف بها والمقرة قيادياً " ؛ وإنما هي مقترحات مني لتطويرها وتوسيعها وتجديدها، ويشفع لها أن الخيال فيها قليل، وربما ينحصر في رؤيتي لما في " الصناعة " من إيحاء تربوي إيجابي، وأما معظمها فإنها قناعات غرستها المعاناة في قلوب الدعاة المربين، وتجارب ناجحة فعلية، لكنها محلية أو محدودة لم يُكتب لها التعميم وتحتاج إلى إقرار جماعي لها لتكون ضمن المنهجية التربوية الدعوية، ثم الكثير مما تناولته إنما هو تعديل وتحليل لقضايا تربوية في المنهج تلقاها الدعاة تلقياً عرفياً لم يصحبه شرح وتفهيم، فبينتُ وجه الفقه الكامن فيها، ولم ابتدع أصلاً ، **إلا أن حرصي كان كبيراً خلال البحث كله على كشف الجانب المنهجي في المفردات التربوية التي تناولها الحديث، وبيان الخط الجامع الموحد لها في سياق ونسق منسجم، ويكفي أن يخرج الداعية**

---

(2) الشوارد /214.

المربي بمثل هذا الانطباع الكلي والنظر المنهجي الذي يتجاوز التجزيء ويرى مفاصل الارتباط بين المفردات التربوية لأقتنع بأن الكتاب قد حقق غايته.

قبل عشرين سنة : خطب فينا فضيلة الأُستاذ المرشد عمر التلمساني رحمه الله، فجمع معاني حاسمة وموازين فاصلة في كلمات قليلة، فقال :

(اعلموا أننا إذا لم نحسن قضية المنهج فستُغتال الدعوة، ولابد من منهج يعلّم العلم الموروث عن أهل السنة والجماعة، والفكر الإخواني هو ما يصدر عن الجماعة، وأما كتابات الكاتبين فهي فكر إسلامي عام).

وأنا اليوم أكثر فهماً لكلامه هذا، وأعمق استيعاباً لمقصده، ولا بُد من نخل كلام الدعاة وإهدار النخالة، وكلامي وكلام الآخرين يجب أن يخضع لهذا الميزان، وبصرامة، و إلاّ تكونت مدارس داخل الجماعة تخدش وحدتها الفكرية، إلا أني أفهم أن فكر الجماعة يجب أن يتطور، والتطور لا يأتي من فراغ، وإنما تدفعه خلفية من الآراء عظيمة الكتلة يدلي بها أهل الفكر من دعاة الجماعة، ونمنحهم حرية في التأمل والاقتراح والنقد، ثم تتولى عملية الانتقاء اختيار ما يمكن أن يضاف إلى فكر الجماعة ويكون الاعتراف به، **وإنما يأتي هذا الكتاب في سياق الإثراء الفكري هذا وفي دائرة توسيع الخيارات، بل كل كتبي كذلك، والدرس المهم الذي ينبغي أن لا نغفل عنه في أمر الفكر بخاصة : أن الاجتهاد ضرورة، والإبداع محرّك، وأن التقليد تراجع، والنمطية قيد، ولذلك يلزم تشجيع الدعاة على البوح بمكنوناتهم، وعلى الحوار، والبحث، والتأليف، ليعمر الفكر الاجتهادي، ووجود الفاصل الانتقائي الذي يصون الفكر الرسمي للجماعة عن أن يختلط به غيره هو الضمانة التي تمنع الخوف من الرأي المرسل وتحوّله إلى مورد للتطوير وإلى مصدر لرؤية الأُفق العريض.**

وفي صورة الغلاف رمز لداعية متلون بمفردات التربية وخصال الأخلاق والمعرفة، بقي واقفاً شامخاً رغم الموانع، يرنوا إلى الأمل في زمن الظلام، وقد أتضح له الطريق.

وتلك هي **اللمسة الجمالية** التي أصوغها لقضية منهجية التربية الدعوية.

ثم لكل من يصاحبني في الإنصات لهذه النبضات العاطفية واصطياد الومضات العقلية سلام. ۞

محمد أحمد الراشد

1 الظاهرة التربوية

مع أوله

محاولاتي في التفتيش عن أُصول فقه الدعوة في المجال التربوي حين عزمت أن أحييه : جبهني قول قيّم ثمين **لأبي عثمان الحيري** الذي هو من ثقات الزهاد وجُلة شيوخ القوم كما يقول ابن القيم في المدارج، حتى إن قوله يمثل عندي **إحاطة تامة بنظرية التربية**، وهو أسبق من التربويين المعاصرين في اكتشاف الظاهرة التربوية وأدواتها وأنماط تأثيرها.

يقول رحمه الله : " **فعل من حكيم في ألف رجل : انفع من موعظة ألف رجل في رجل، وإنما هي مصادفات القلوب من حيث صفاء القلوب عندما يطرقها من واردات الغيوب من المسموعات والمنظورات، فإذا اتفقت : قويت، وإذا اختلفت وتضادت : ضعفت، إلا لأهل الاستقامة والصدق والكمال، فإنهم قد جاوزوا ذلك، وسقطت عنهم رؤية التمييز، فلا يتغيرون، ولكن ربما تجدّد لهم أذكارهم بما يسمعون، وتصفو لهم المشاهدات وقتاً بعد وقت، وذلك زيادة صفاء تَجدّد لهم عند سماع الكلمة** "*.

إن من الحقائق السارية التي ظهرت منذ بداية الحياة الاجتماعية الإنسانية ويغفل عنها البعض **أن التقليد والمحاكاة من صفات الإنسان الاجتماعي، وأنه قابل للتأثر بغيره تأثراً لا يشعر به**، حتى إذا بلغ التأثر حداً في الكثافة كبيراً تحول إلى عقيدة وفكرة ومفهوم ثابت ينقل المتأثر إلى مرحلة تمحيص عقلي لما عند الغير، فيزداد أخذاً لما يوافق عقيدته المتكونة، ويرفض ويعاف ما يضادها.

إن (السمع) و (البصر) هما الأداتان الرئيستان اللتان يتم بهما هذا التأثر اللاشعوري، فالشخص يسمع شيئاً، ويتكرر لديه هذا السماع، فينشغل في التفكير بما سمع، حتى يأخذ عليه تفكيره وقتاً يزداد كلما زاد السماع، وعن طريق دوام التفكير بما سمعه تتحول الأفكار المسموعة إلى عقائد ذاتية عند الشخص يعتنقها

* من كتاب علم القلوب لأبي طالب المكي /59. وتزكية ابن القيم لأبي عثمان في المدارج 447/2

ويحملها، وغالباً ما يصل هذا الاعتناق إلى التعبير عنها بنفس الاصطلاحات والكلمات التي سمعها.

ومثل هذا التأثر السمعي : التأثر البصري، فإن الشخص إذا رأى شيئاً من المناظر، وتكررت عليه مشاهدتها، انشغل تفكيره بها، وصار ميالاً إلى تقليدها ومحاكاتها.

وفي هذا التأثير تستوي المناظر الحسنة أو الكلام الحسن مع المناظر القبيحة أو الكلام القبيح إذا وزنّا الحُسن والقبح بميزان الإسلام. يستوي الخير والشر في قدرتهما على التأثير في المقابل، لأن النفس الإنسانية بذر الله فيها ـ كما قال في كتابه العزيز ـ : كلا المعدنين، و ألهمها الفجور والتقوى معاً.

وهذا التقرير هو الذي يفسر استمرا المجتمعات المختلفة في المحافظة على عقائدها، فليس هو الاجتهاد المحض يقود سكان أوربا إلى اعتناق النصرانية فيتواطأ الجميع على الوصول إلى نتيجة واحدة، وإنما هو التأثر من اللاحق بالسابق. وليس هو الاجتهاد الذي يقود الزنوج إلى عبادة الأصنام والأشباح، وإنما هو تأثر السمع والبصر.

إن التأثير اللاشعوري العفوي يسبق التأثر الشعوري الإرادي عند الشخص ويظل ملازما له حتى عند ظهور إمكانية التأثر الإرادي عنده، ذلك أن الأول يبدأ منذ الطفولة، بينما الثاني، وهو الإرادي المبني على نتائج محاكمات عقلية عند الشخص، لا يكون إلا من بعد حيازته بعض الأفكار التي يجعلها أساساً لوزن ما يسمع وما يرى بها، ويكون قد حازها بتأثر لا شعوري سابق.

وإلى هذا أشار رسول الله ﷺ حين قال : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه و ينصرانه، كما تنتج البهيمة، هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها ؟)[1]. وقال النبي ﷺ أيضاً: (الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل.)[2].

وهذا يعني أن الشخص الذي وصل إلى درجة حيازة أفكار وعقائد معينة، وانتقل إلى مرحلة التأثر الإرادي ؛ بإمكانه أن يوجه الكلام والمناظر العملية باتجاه

---

(1) صحيح البخاري 153/8

(2) رواه أبو داود والترمذي فيما ذكر منصور علي ناصف في التاج الجامع للأصول 74/5. وصححه النووي، كما جاء في تحفة الأحوذي.

ممن يوافق أفكاره وعقائده، كي يسمع كلامه ويرى مناظره من لا زال في مرحلة التأثر اللاشعوري، فيتأثر بها ويقلدها.

إن هذه العملية في توجيه الكلام والمناظر باتجاه معين واحد يعضد فكرة وعقيدة معينتين تسمى عملية(التربية).

إذن ، فإن بإمكان أي شخص ذكي لبق إذا اعتنق فكرة معينة وتلبس بعقيدة خاصة ومفهوم خاص عن الحياة أن يكون (قائدا) و (يربي) الآخرين عن طريق دعوتهم بالكلام إلى مشاركته الرأي وحمل عقيدته، فيشرح عقيدته، ويمدحها، ويفند غيرها، ويريهم بعض المشاهد العملية التي تترجم فيها مفاهيمه إلى وقائع محسوسة بالبصر.

هذا هو الغالب في الحياة البشرية، ولكن الله سبحانه وتعالى حين خلق آدم عليه السلام علمه التوحيد وجعله نبياً، وبعث في أجيال أبنائه أنبياء آخرين، وبذلك صارت عقيدة التوحيد الإسلامية محل تربية، فمنهم من قدر الله أن لا يرى ولا يسمع غير حملتها وكلامهم فأسلم ووحد، ومنهم من ضل عنها بإغواء الشيطان ووسوسته الخفية التي لا ترى وصار يربي غيره وفق ضلاله وساعده الشيطان بأنه فأضل معه جمهرة، ومنهم من نشأ في هذه الجمهرة الضالة، لا يرى ولا يسمع غير ما يصدر من دعاتها ولكن الله يقذف في قلبه من المعاني ما هو أقوى من تأثير كلامهم ومناظر أفعالهم، فيهتدي ويوحد بمنحة من الهداية هي دون النبوة يختص بها بعضا دون بعض لحكمة نجهلها نحن، فالاستثناء دائر في هذه العدد الذي يختصه الله سبحانه بمنحة الهداية، ويبقى ما قلناه من تأثير الكلام والمنظر ساريا في الآخرين، وخير هذا التأثير وشره إنما يسري بقدر الله تعالى، فإن كان الكلام والمنظر يدعوان إلى التوحيد والإسلام وأثرا في البعض فبقدر الله كان هذا التأثير، ولكن المتكلم كان سببا لظهور قدر الخير هذا وفق قانون التأثر الساري في الحياة الاجتماعية الذي قلناه، ومن ضل فبقدر الله ضل، واكتسبوا ضلالهم وفق تأثير قانون التأثير أيضا في الصورة الظاهرة، وإن كان الله سبحانه قد جعل إغواء الشيطان الخفي سببا لا نراه. ونخلص من هذا كله إلى أن التحليل الإسلامي للهداية والضلال لا ينقض ما ندعيه من وجود التأثير التربوي، السمعي والبصري، في الحياة البشرية الجماعية، وأن هذا التأثير هو ستار القدرة الربانية الذي تتمثل به، وعبر أبو عثمان الحيري عن هذه القدرة الربانية التي تتقمص شكل التأثير التربوي المشاهد بأنها (واردات

الغيوب من المسموعات والمنظورات)، وإنما الغيب من القدر الذي لا نعلمه، ولا يجوز الاتكال عليه، فوجب إذن أن نجعل قوانين التأثير التربوي المذكور طريقا للعمل وميزانا لتحليل الظواهر الاجتماعية، وحين أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الله سبحانه قد كتب الهداية والضلال لكل واحد من قبل وكتب جزاءه سألوه : (ألا نتكل يا رسول الله)؟ فقال : (لا، اعملوا، فكل ميسر)(3) وقال : (كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له) (4) ، ومن العمل الذي يدخل في هذا الأمر النبوي الكريم : العمل بهذا القانون التربوي المبني على ظاهرة مشاهدة تصاحب العيش الجماعي، فإنه من الواقع الملموس، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى مثل هذه المعاني في قوله : **(ما استخلف خليفة إلا له بطانتان، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله)**(5) فأقر أن التأثير موجود، ومثل هذا كثير، بل إنه لأمر بديهي، وإنما ذكرناه لغياب بعض البديهيات أحيانا عن البعض.

❑ عوامل القوة والضعف في التأثير التربوي

إن قوة التأثير التربوي للكلام وسرعة ظهوره في المقابل تخضع لمؤثرات عديدة منها :

❑ **نوع الصفات الطبيعية** التي يملكها المربي والتي خلقه الله عليها، كمدى الذكاء، والشجاعة، والصبر، والغضب، وكذا ما يتبع هذه الصفات، كاللباقة وقوة الشخصية.

إن الذكي الصبور الشجاع اللبق الذي لا يغضب أقدر على التربية من صاحب الذكاء القليل الجبان الغضوب الذي لا يصبر وليست عنده لباقة، والأمر ظاهر.

ومثل هذا يصدق أيضا على التلميذ، فهو أسرع إلى التأثر عند وجود هذه الصفات.

ولكن تتبع أحوال المجتمعات واستقراء مستويات رجالها يرينا **أن** أصحاب الصفات الطبيعية الجيدة أقل بكثير من أصحاب قابلية التأثر.

---

(3) (4) (5) صحيح البخاري 8/ 154 /153/ 156.

وكان هذا المعنى هو الذي أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: (الناس كإبل مائة، لا يجد الرجل فيها راحلة)[6].

والراحلة: القوية السهلة السريعة السير، وهي نادرة الوجود، فذكر شراح الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم يشير بذلك إلى ندرة أصحاب المعدن الجيد.

☐ وكذا تحكم سرعة التأثر وقوته تلك التربيات السابقة التي صادفها التلميذ وخضع لها، والتي تخالف التربية الجديدة التي يراد له أن يتأثر بها، أي أن حيازة التلميذ لأفكار وعقائد معينة يجعل عملية تحويله وصرفه عنها إلى ما يناقضها عملية صعبة تستدعي قوة في الكلام وكثافة في المناظر أكثر من تلك التي أكسبته العقائد الأولى. فإن كان الأمر كذلك فأصعب منه وأندر أن يحدث رفض العقيدة الأولى تلقائيا واعتمادا على قوة التفكير والمحاكمات العقلية الذاتية، لدى صاحب العقيدة التي اعتنقها بتأثير لم يشعر به، و لا يحدث هذا التبدل الذاتي إلا عند أفراد قلائل جداً، وإنما الغالب أن يكون الرفض من بعد خضوع جديد لتربية مضادة جديدة. والعكس صحيح أيضاً ؛ فإن التربية في اتجاه معين تؤدي إلى زيادة الاعتناق، وإن ثبات صاحب العقيدة المعينة على عقيدته إزاء ضغط تربوي جديد مخالف لها قليل أيضاً، وإلى هذا المعنى ذهب الحيري حين قال: (إذا اتفقت قويت، وإذا اختلفت وتضادت ضعفت، إلا لأهل الاستقامة والصدق...) فأشار إلى أن الغالب هو القوة عند الاتفاق، وضعف التربية الأولى عند التضاد، وأن الاستثناء نادر، وعبر عنهم بأهل الاستقامة والصدق ؛ لأنه يتحدث عن التربية الإسلامية.

☐ **وتؤثر الظروف الخارجية والفرص الحيوية التي تحيط التلميذ على مدى تأثره وسرعته،** كالصحة والمرض ؛ فالمريض منعزل لا يرى ولا يسمع إلا قليلا، وكالفقر والغنى، فالفقير يساكن الفقراء، والغني يساكن الأغنياء، وكلاهما يحرم من سماع كلام الآخر ورؤية مناظر أفعاله، أو قد يلهي الفقير ما قد يبذله من مجهود مهني عن السماع الكثير، بينما فرص المشافهة والمناطقة لدى الغني أكثر.

كذلك الحزن والفرح ؛ فإن نفس الإنسان تضطرب إذا خولفت نزعاتها الطبيعية الغريزية، فتحزن إذا لم تشبع غرائزها، وتفرح عند إشباعها، وأكثر ما تكون

---

(6) رواه البخاري ومسلم وغيرهما فيما ذكر صاحب التاج الجامع للأصول 64/5.

استعدادا للتربية العقيدية عند الفرح، و أبعد ما تكون عند الحزن ؛ من السأم والملل والخوف.

هذه هي أهم المؤثرات، ولذلك كان الناس على درجات في التأثر.

❑ اختراعات تربوية

أثناء الاستخدام التربوي للكلام والمنظر واستثمار قادة التربية لتأثيرهما وجدوا أن الكلام أصناف، **وأنه يمكنهم تحويره بشكل ما والتفنن في صياغته ليوافق نزعة حب الجمال الأصيلة في الإنسان، وبذلك صار الانفتاح لاستخدام** (الأدب) وسخروا البلاغة النثرية والشعرية في شرح الأفكار والعقائد، بكل ما في البلاغة من إيجاز وإطناب وتشبيه وجناس، وبكل ما في الشعر من تعدد الأوزان، ليوافق كلامهم أي طور تكون عليه نزعة حب الجمال عند الأفراد، ولتلائم كل الأذواق، ثم صاغوا الكثير من أدبهم الفكري في صورة ألحان تزيد التأثير.

ولما رأوا في البعض نزعة أُخرى للتمحيص والموازنة مبعثها الشك الذي يكاد أن يكون من الأخلاق الطبيعية في الإنسان، لجأوا إلى استخدام (**المنطق**) ليقدموا الكلام بشكل متناسق بريء من العيوب الظاهرة، كي يتبدد الشك.

ثم وضعوا (الاصطلاحات) ذات المدلول المعين لزيادة مدى التفهيم، واستخدموا (التاريخ) لزيادة الإقناع عن طريق ضرب الوقائع السابقة كأمثلة على صدق أفكارهم.

وهكذا صار (الأدب) و (المنطق) و (اللغة الاصطلاحية) و(التاريخ) من آلات التربية.

قد لا يكون المربون هم الذين اخترعوها، إلا أنه من المسلم به أنها وضعت في الاستخدام التربوي منذ القدم.

❑ اختلاط التربيات

إن العمليات التربوية ليست عمليات ميكانيكية، إذ لم تبدأ في وقت واحد خلال هذا التاريخ البشري، ولم ينطلق المربون في لحظات واحدة كما ينطلق

المتسابقون في ساحة السباق ليجربوا جهودهم التربوية لمعرفة الأقدر منهم على إقناع الآخرين. هذا من ناحية.

ومن ناحية أُخرى، فإنه ـ في الغالب ـ ما من مرب يستطيع أن يحجز كل وقت تلاميذه ليربيهم، وإن ضرورات الحياة وطلب العيش تجعل التلميذ أعجز من أن يهب لقائده ومربيه كل وقته.

فمن هاتين الناحيتين وجدت ظاهرة (**اختلاط التربيات**) وصار المجتمع خليطاً عجيباً من أشخاص تتنازعهم تربيات عديدة، فإن الدرجات العديدة التي عليها أصحاب كل وجهة تربوية بحسب مدى السماع والرؤية، والدرجات المتعددة التي عليها أولئك الذين تتنازع التربية الجديدة عندهم مع التربية القديمة، كل ذلك **جعل المجتمع وكأن لكل عضو فيه تربية خاصة معينة**، أو أن أصحاب السمت الواحد هم عدد قليل.

ولا شك أن هذه الظاهرة في اختلاط التربيات تحد كثيرا من تأثير الجهود التربوية، **ولذلك لجأ المربون إلى علاج هذه الظاهرة ووضع الحلول لها**.

من هذه الحلول : (التخصص) في استخدام آلات التربية، لعدم استطاعة القوة البشرية عند الفرد الواحد البراعة في استخدامها كلها، وهكذا ظهر في جماعة المربين الناثرون البلغاء والشعراء والمؤرخون، والممثلون المسرحيون، والمغنون، وغيرهم، طلبا للبراعة والإتقان.

ومن هذه الحلول : (التربيات المرحلية)، فقد وجدوا أنهم بحاجة ـ بسبب من انتصار إحدى التربيات المخالفة وطغيانها على غيرها ـ إلى أن يركزوا على مجال واحد يكون أكثر تأثيرا في إبطال مفعول التربية المنتصرة، أو يكون أضمن لاستمرار التلاميذ في صراعهم مع التربية المنتصرة الغالبة ويمدهم بقوة تثبيت.

ومن هذه الحلول : (التركيز على المنظر العملي)، لما وجدوه من زيادة تأثيره على تأثير الكلام. وقد ورد في القرآن والسيرة ما يشير نوع إشارة إلى أن المشاهدة أبلغ في التربية من الكلام المجرد.

قال ابن القيم : (بين الخبر والعيان فرق. وفي المسند مرفوعا : ليس الخبر كالعيان، ولهذا لما أخبر الله موسى أنه قد فتن قومه، وأن السامري أضلهم : لم يحصل له من الغضب والكيفية وإلقاء الألواح ما حصل له عند مشاهدة ذلك)(7).

ومثله طلب إبراهيم عليه السلام اطمئنان القلب بالمنظر حين قال : " رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ؟ قَالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَى، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي. " .

وقريب من هذا ما ورد في السيرة أن رسول الله ﷺ لما فرغ من كتابة هدنة الحديبية مع موفد المشركين سهيل بن عمرو قال لأصحابه : (قوموا فانحروا واحلقوا وأحلوا ـ أي من الإحرام حين نووا العمرة ـ، فلم يجبه أحد إلى ذلك، فرددها ثلاث مرات، فلم يفعلوا ـ أي لشدة حزنهم لما رأوا في ظاهر شروط الهدنة ضيما للمسلمين ـ. فدخل على أم سلمة رضي الله عنها وهو شديد الغضب، فأضطجع، فقالت : ما لك يا رسول الله ؟ مرارا، وهو لا يجيبها، ثم قال : عجبا يا أم سلمة ! إني قلت للناس : إنحروا واحلقوا واحلوا مرارا، فلم يجبني أحد من الناس إلى ذلك، وهم يسمعون كلامي وينظرون في وجهي ! فقالت : يا رسول الله : انطلق أنت إلى هديك فأنحره، فإنهم سيقتدون بك. فاضطبع بثوبه ـ أي أدخله تحت إبطه الأيمن وغطى به الأيسر ـ وخرج ، فأخذ بالحربة ويمم هديه، و أهوى بالحربة على البدنة رافعا صوته : باسم الله والله أكبر، ونحر، فتواثب المسلمون إلى الهدي، و ازدحموا عليه ينحرونه حتى كاد بعضهم يقع على بعض.)(8).

هذا هو التحليل البسيط للظاهرة التربوية بعيدا عن الاصطلاحات المعقدة التي يستعملها الذين يحللونها اليوم، وتحليلنا هو الذي ينسجم مع نظرة الإسلام إلى الفرد العقائدي كقوة يمكنها تغيير مجرى الحياة متى استعمل الطريقة التربوية ونظر إلى أفراد المجتمع على أنهم تلاميذ له.

إن كل المحاولات الإسلامية التي غيرت مجرى التاريخ أو عدلته وقومته بدأت بفرد واحد، فإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، وكل الرسل، صلى الله عليهم وسلم، بدأوا أفرادا، وعن طريق التأثير التربوي آمن بهم البعض، فعاونوهم، فتوسع

---

(7) مدارج السالكين 388/3. وذكر محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله صحة حديث مسند الإمام أحمد الوارد في كلام ابن القيم، وفي شرح العقيدة الطحاوية /315 مثل هذا المعنى.

(8) إمتاع الأسماع للمقريزي 299/1.

الناس حتى غير مجرى الحياة، وخبر المصلحين المجددين من بعد الأنبياء مشهور مستفيض.

وكذلك كل المحاولات غير الإسلامية.

فأصحاب البدع في التاريخ الإسلامي بدأوا أفرادا ثم انتهوا إلى تكوين طوائف واسعة، وماركس وهتلر، كل منهما بدأ فردا واستعمل التأثير التربوي فكون حزبا واستلم الحزب السلطة فتغير مجرى التاريخ، ولا مغير إلا الله، ولا من حركة في هذا الكون إلا بإذنه.
وكذلك هرتزل ووايزمن وأصحابهما، بدأوا أفرادا واستغلوا التأثير التربوي المزدوج في اليهود وشعوب العالم أجمع، فتغير مجرى تاريخ اليهود.

وكل تربية، حين تصل إلى السلطة، تعضد تربيتها بحجب الفكر المخالف لها عن تلاميذها أفراد المجتمع الذين تحكمهم، لينشأ الجيل الجديد في سماع ورؤية لكلام ومناظر التربية المتسلطة الحزبية، والدكتاتوريات.

وهكذا يتضح المنطلق التربوي للحركة الإسلامية الحاضرة، فإن انطلاقتنا انطلاقة تربوية غايتها التأثير في النفس عن طريق السمع والبصر.

وهكذا يتضح أن المعركة التي نخوضها هي معركة تربوية أولا وأخرا.

☐ خضوع التخطيط الحركي للحقيقة التربوية

إن هذا التحليل لظاهرة التربية مفيد جدا للعاملين في الحركة الإسلامية، ذلك أنه يمكننا بواسطته تفسير كل المشاكل التي نلاقيها في العمل الحركي، ويتيح لنا التعرف على أصولها، ووضع الحلول لها.
ويكفي هنا أن نقرر وجوب التربية المرحلية في الخطة الحركية استمدادا من هذه الحقيقة وتبعا للتربيات المضادة التي تجابه الإسلام اليوم، وإذا جمدت الخطة على الأصول التي وضعها الرعيل الأول من الدعاة فإنه سيفوتها خير كثير، وتهدر جهود كثيرة.

ومن هذه الحقائق أيضا أن نستمد **وجوب اعتماد الحركة في عملها على جهاز متكامل الاختصاصات يمهر في وضع (النثر البليغ) و(الشعر الفصيح) و(علم**

التاريخ) و(أسلوب الاستدلال العلمي) في خدمة عقيدة التوحيد وأحكام الإسلام، ومخطئ من يرى غير ذلك، ويظن أن البعد عن ذلك من سمت البساطة الإسلامية، وأثر الإعجاز القرآني البلاغي يفضحه.

وظاهرة اختلاط التربيات تلح على الحركة أيضا **أن تصنع مجتمعاً خاصاً للجُدد والناشئة يستهلك أوقاتهم كلها** ويضمن ابتعادهم عن التلبس بتأثير تربوي جاهلي.

وعموماً فإن الانتهاء من هذه التقريرات والتحليلات يتيح رؤية واضحة جداً لما يترتب عليها من وجوب التفنن في أساليبنا التربوية والإعلامية عبر استعمال المعطيات العصرية في استثمار ظاهرة تأثر النفس الإنسانية بالمسموع والمنظور، ولم يعد طبع الكتب كافياً، ولا إلقاء شعر في المناسبات.

• فما ذكرناه من ابتكار التمثيليات المسرحية كمنظر تربوي مؤثر ينبغي أن نفكر اليوم تفكيراً جدياً في كيفية تطويره إلى **إنتاج أفلام سينمائية جادة، ومسلسلات يمكن أن تعرض في التلفزيون، فيها إبراز لمعاني الإيمان والأخلاق والحياة الأسرية الجادة، ولمعاني الجهاد والجد وسير المجاهدين ومقاومة الاستعمار والثورات الإسلامية، وتصوير أشواق الأحرار، وقبائح الظلم والفساد**، حتى إذا رفضت بعض محطات التلفزيون إذاعتها : أذعناها بوسائلنا الخاصة بين جمهورنا، ومثل هذا العمل قد يحتاج إلى تعاون بين الأقطار ربما.

• **ونجاح الاستعمال الإسلامي لمعطيات الإنترنت، والإقبال الذي قوبلت به بعض المواقع : يحتم إتمام الشوط والتوغل إلى أبعد والتوسع الكمي والنوعي معاً، بحيث نمارس عملاً إعلامياً عريضاً عبر التنسيق بين المواقع العديدة يكون فيه تعويض عن الإعلام التلفزيوني والصحفي الذي تفتقده الدعوة إلاّ قليلاً**، والمفروض أن تؤخذ هذه الفرصة مأخذ الجد، لما سيكون منها من **انعكاسات إيجابية على العملية التربوية الداخلية داخل صف الدعوة تعادل التأثيرات الخارجية على جمهورنا**، والموقع الناجح يحتاج إلى محاضرات، وتقارير، وتحليلات، ومقابلات مع قادة الفكر والدعوة، وتصوير ما في الساحات الساخنة، وترويج خبر النشاطات البعيدة المهمة. مع نقد للكتب الجديدة والمقابلات الفكرية، و إظهار لزعمائنا وقادتنا و قدواتنا. ومن الممكن إنشاء (**بنك الكمبيوتر الدعوي**) في كل قطر لتسهيل بيع أجهزة الكمبيوتر للدعاة بثمن الكلفة وبأقساط طويلة، من اجل

توسيع دائرة الانتفاع من عطاء مواقع الإنترنت الدعوية وإتاحة فرصة المشاهدة الجماعية، وفي ذلك تفصيل يؤخذ مشافهة لا تحيط به الكتابة.

ويتفرع عن مثل هذا إشاعة الكتاب الإسلامي والمجلات بالأقراص المدمجة، وكذا الأفلام والتمثيليات، من أجل تحقيق انتشار أوسع.

ومن أهم ذلك عندي : **استثمار المخزون الفكري والوعظي العظيم الحجم الكامن ضمن ما يقدر بخمسين ألف شريط صوتي ومرئي على الأقل سجلت فيها خطب ومحاضرات وندوات ثقات الدعاة والمفكرين والقادة والوعاظ وخطباء الجمعة خلال السنوات العشرين الماضية، فهذا الكم الهائل لا ينبغي أن يُهمل،** وإنما يجب أن تقوم في كل قطر لجنة لها علاقة باللجنة التربوية، تجرد هذا المقدار الكبير من الأشرطة، وتنتقي منها أحسنه وأجوده وأفصحه وأكثره صواباً وفائدة وأثراً تربوياً، بحيث **تهمل من كل عشرة تسعة** وتأخذ شريطاً واحداً، فستكون الحصيلة خمسة آلاف شريط جيد يمكن أن نجعلها وسيلة تربوية أساسية في البلد بإشاعتها والتركيز عليها **ويبيعها بثمن الكلفة**، ثم ننتقي عشر العشر، **ونركز على خمسمائة شريط نوزعها مجاناً** بأعداد كبيرة على الناس، وبخاصة من سيتيح إسماعها إلى غيره، مثل أصحاب المقاهي، وسائقي التاكسي والحافلات، وبذلك يمكن تحقيق توعية شعبية واسعة النطاق **هي أشبه بثورة فكرية** من دون أن نحتاج إلى جهد موضوعي ؛ لأن الكلام جاهز مسجل، لكنه منسي مهجور، وستكون التأثيرات التربوية من هذا العمل عظيمة، **وتحقق نتيجة حاسمة لصالحنا**، ولكنّا قوم لا نتفنن، ولا نستعمل المتاح، وتسيطر علينا بقية نمطية مضيعة للفرص، وما زال الاستدراك مفتوح الباب، وأولى من ينفذ ذلك : اللجان التربوية.

• وقريب من هذا العمل : **انتقاء أجود الفقرات والجمل والعناوين والشعارات التي أوردتها الصحافة الإسلامية، وحشدها في كراسات صغيرة توزع بين الناس،** على نطاق واسع، فهذا العمل لا يحتاج جهداً موضوعياً ؛ وإنما هو إحياء لما أوردته الصحافة الدعوية خلال السنوات العشرين الماضية عن طريق الاختصار والانتقاء وجمع الشيء إلى مثيله، ففي مجلات : " الدعوة " و " المجتمع " و" الإصلاح " و" الأمان " وغيرها كميات هائلة من الكلام المفيد الذي يمكن **أن يُحدث ثورة أُخرى في الوعي السياسي بخاصة وفي الفكر الإسلامي بعامة،** وقد نسيها الجيل الجديد الصاعد، واستخراج مائة رسالة منها على الأقل

إلى ثلاثمائة ذات ثلاثين صفحة سهلة القراءة، وتوزيعها على مدى شعبي واسع بأقل من ثمن الكلفة، بأقل من ربع دولار، كفيل بأن يحقق نقلة عاطفية وعقلية معاً.

• وما يماثل هذه الأعمال : عملية واسعة لتيسير " **الكتاب الإسلامي الشعبي الزهيد الثمن**"، وهذه قضية لا يعلم خبرها أكثر الناس، ولكني أعلمها جيداً لخبرتي العملية في النشر، فإن أكثر الناشرين اليوم (**ينفخون**) الكتاب عن عمد لجعل ثمنه عالياً وجني أرباح أكبر، بتكبير الحرف، وتوسيع الهامش الأبيض في الصفحة، وتوسعة الفراغ بين الفقرات، والمباعدة بين سطر وسطر، والقارئ لا يحس بذلك، بينما **يمكن تصغير الحرف وإطالة** السطر على حساب الهامش الأبيض في الصفحة وبعض ترتيبات أخرى ليضغط الكتاب إلى ربع حجمه الحالي، وبذلك يتوفر ثمن الورق، وثمن عملية الطبع، وتقل تكاليف التعبئة والنقل والخزن وأشياء أخرى، ويمكن أن يباع الكتاب الذي ثمنه عشرة دولارات اليوم بدولارين فقط، **وبذلك يكون متاحاً للشباب الإسلامي في البلاد الفقيرة شراء الكتب، وتتضاعف الصحوة الإسلامية وآثار العلم الشرعي، وتحدث من الأعمال الأربعة : الإنترنت، والأشرطة المنتقاة، والاقتباسات من الصحافة، والكتاب الشعبي الإسلامي : نقلة استراتيجية واسعة المدى في جوانب الفكر والعلم الشرعي والوعي العام**، ولا يصح أن ننتظر من دور النشر الخاصة تنفيذ عملية الكتاب الشعبي، ولكن إنما يكون ذلك عبر إنشاء دار نشر خيرية يتداعى لها بعض الأغنياء وتدعمها الجمعيات، ومن سار على الدرب وصل، والمتشائم المستصعب لن يبرح مكانه، ويظل يشتكي ويتهم ويتواكل ويحالف الإحباط، **وهذه الخطط تحتاج إلى همم عالية** وأصحاب تجرّد وعزائم واستبشار.

• ويمكن تكميل كل هذا التفنن في استعمال المنظور والمسموع بخطة تربوية خاصة لاصطناع شعراء وقصاص، عبر نادٍ **أدبي إسلامي يرعى القابليات الصاعدة ويداريها** ويعلمها اللغة والأدب والبلاغة، ويستورد لها أديباً أو شاعراً مسلماً كل موسم ليشافهوه ويقتبسوا من هديه البلاغي، فيقوم في كل قطر مثل هذا النادي الذي يضم بين العشرين إلى الخمسين من الشباب الذكي الولع بالأدب، ثم يكون تعاون بين نوادي الأقطار في إصدار **مجلة جامعة تنشر إنتاجهم** وتروجه، وبذلك يمكن **أن نعمم تياراً أدبياً إيمانياً يواكب النقلة الإستراتيجية الفكرية الإعلامية ويتكامل معها.**

وهذه كلها تمثيلات لما يمكن ؛ وإلا **فإن الإبداع كفيل بتوسيع هذا التفنن في استثمار ظاهرة تأثير النفس بالمسموع والمنظور.** ۞

ما رأيت

هزلاً أقرب إلى الجد، أو غَزَلاً أليق بحقائق التوثيق : أصدق في الشعر العربي المعاصر من قول الشاعر السوداني إدريس جمّاع فيما أقتبِسُه لوصف داعية مسلم صاعد....

يا شعلةً طافت خواطرنا حواليها وطفنا....
آنستُ فيك قداسة....
ولمست إشراقاً.... وفناً....
ونظرتُ في عينيك آفاقاً... وأسراراً.... ومعنى. (1)

فالداعية المسلم واعد، يتلألأ وجهه بنور الإيمان والعلم، ولمعات الوعي، والانسجام مع ألوان الفن المعرفي، والقسمات الحضارية، حتى إنك لتدرك ما تصل إليه نظراته من مدى بعيد... وما تنبي عنه من خبر غريب، حتى لتكاد تجد فيها كل المعاني الصوافي العوالي ووصف المنهجية التامة المنبغية له ولمن يصافح ويصاحب.

❑ ركضَ فانكبح... فوازيناه فاتزن...!

وسبب هذه الظاهرة المشرقة والحالة الصائبة التي تبدو وكأنها الاقتراب من الإتقان إذا قسناها بفوضى تلفّ السائبين : أن الداعية المعاصر يستفيد من عطاء **التربية المنهجية الدعوية التي صقلتها تجارب المراحل السابقة وهذّبتها ردود الفعل تجاه أخطاء ارتكبت كشفه ا النقد الإيجابي، وأوضحها الرجوع المتأني إلى الفقه الشرعي والتحليل الموضوعي، وزادتها وضوحاً المعرفة بالواقع والمقارنة التاريخية،** فكان من كل ذلك ما هو أشبه بعملية " النخل " و " الغربلة " بمنخل الموازين والقواعد والتجارب، فنتجت من ذلك " صفوة " مؤهلة للقيادة الناجحة والخطو الموزون و التفلت من المخاطر.

وهذه السابقة الناجحة تشير إلى أنه من الأهمية بمكان أن تتضح الخطة المرحلية وخطة المدى البعيد في أذهان الدعاة في أي قطر، معاً، قبل الخطو

(1) عن جريدة ألوان السودانية عدد 97/10/10.

والممارسة العملية، ليكون الفهم الجامع الشامل حارساً للمسيرة الدعوية من أن يدفعها دعاة مغامرون إلى ارتكاب شطط وتعجل وأعمال ارتجالية غير مدروسة، إذ أن شيوع المعاني الخططية المتفق عليها تؤسس حساسية بالغة لدى الدعاة ضد كل توجه مخالف لها يروج له متهور أو متحمس يخالف القرارات والاختيارات الجماعية التي ما جاءت وما سُنّت إلا بعد شورى وحوار وتقليب لوجوه النظر والاستعانة بالكم التجريبي العظيم في الأقطار الأخرى وعند الأجيال السابقة، وسينتصب كل داعية آن ذاك رقيباً على أعمال أصحابه وأقرانه قبل القيادة ورقابتها، وسيعظ ويكبح جماع الفائر قبل أن يرفع عقيرته، ويمنع الإغراب والشذوذ أن يمتد ويستطيل ويكون قضية، لأنه الأقرب، ويعامل أقرانه على السجية، فيعرف ما هنالك من فلتات الألسن، حيث لا يمنعها تكلف أو حياء حين يكون الخطاب مع الوجوه.

لكن الوصول إلى هذه المنزلة الصائبة من تأسيس الرقابة التلقائية الإيجابية في القاعدة يلزمه وجود شرح للخطط، بوفاء وتفصيل وتمثيل، ونشر لفقه الدعوة، وكشف لمفاد الدراسات الميدانية، وتوصيف الواقع، ومحاولة التفرس في المستقبل، وهذا كله واجب تربوي ريادي ثقيل ليس بالسهل، لكنه إن نفّذ : وَهَب بإذن الله إتقاناً، وتوحيداً لرأي الصف، واستثارة لإبداع الدعاة الكامن، وجرأة على اقتحام الصعب، وأملاً وثقة، وموازين تمنح الانسجام والتجانس، مع الطاعة الواعية، والتعامل الرجولي الرفيع الكابت لكثير من وساوس الفتن.

ماذا نريد، وما هي قضيتنا ؟ وما هي وسائلنا ؟ ومَن هو صديقنا والحليف ؟ ومَن هو المزاحم والعدو ؟ وما هي الثوابت والمتغيرات ؟ وما هو وصف المجتمع الذي نعيش فيه، وعوامل الإيجاب والسلب في تطوره ؟ ووصف الدولة والمحيط الإقليمي والسياسة العالمية : كل ذلك من الأسئلة التي يجب أن يجيب عليها هذا الفقه الذي يُكلف الرواد بصياغته وترويجه بين طبقات الدعاة.

هذا... أو أشبع ما شئت من آراء نشاز، وأخطاء تتعاقب، واقتباس أساليب خفيفة من أحزاب علمانية فوضوية، بل يصل الأمر إلى استعمال أساليب صبيانية، من قتل شرطي، وتحطيم محل خمور، واختطاف سائح، بتأولات ساذجة، وفقه مبتور، ويتركب خطأ على خطأ، فيوتر الوضع الدعوي مع الدولة والناس بلا مبرر.

إن بثّ أخلاق الإيمان في الناس، وبناء الأساس الفكري، وترويج العلم الشرعي، وتربية مجاميع التخصص، وتنويع العمل المؤسسي : كلها معالم خططية يعجز الشاب عن اكتشافها إن لم يلقنه مخضرم.

وذلك هو الدرس الجلي الذي تفصح عنه التطبيقات السابقة الناجحة لخطة التربية المنهجية في طورها الأول، ولذلك نتوقع بإذن الله نتائج أقوى وأعمق تأثيرا إذا حصل تجويد لها بشرح الخطط، ومعرفة الواقع، والدراسات المستقبلية، ومزيد الاطلاع الشرعي، وتوسيع العمل التخطيطي.

والمظنون أن هذا الإتقان المنهجي التربوي يمكن أن تعين على تحققه عشرة أساليب وخطط فرعية تتكامل فيما بينها وتتعاضد لتكوين جانب مهم من الخطة التربوية الشاملة، هو العشر، وبقية الجوانب تبينها الفصول الأخرى تباعا.

❑ الوجوه الخمسة المتكاملة للأداء الأُسري

❑ الخُطة الفرعية الأُولى : تجديد فهمنا لمعنى العمل الأُسري الدعوي وتكليفه بجوانب عريضة أساسية.

فالأداء الأُسري محور مهم في التربية المنهجية لم يستوعبه كل الاستيعاب بعض أهل الاستعجال من الأجيال الجديدة التي أقحمتها كثافة الأحداث العامة في تتبع الخبر السياسي والانشغال عن كثير من أمر التربية، خلافاً لأجيال الدعاة الأُولى التي ساعدها الهدوء على لبث طويل مع المنهج والعبادة والتزكية النفسية، وقد أغضبني يوماً قول داعية أخطأ في اللفظ والوصف فذكر انه يعتبر العمل الأُسري مقدساً، لكني ارتضيت المعنى الصحيح الذي أراده وقصده من وجوب الاحتفاء بهذه الوسيلة المباركة وتعليم الداعية شدة الاحترام لها والتعلق بها والحرص على اغتنام خيراتها الوفيرة، فإنها منبع الفوائد، و المثابة الآمنة التي ينطلق منها الدعاة في التبشير والنذارة والمخالطة الاجتماعية، ثم إليها يكون الإياب، لتجديد الإيمان وترميم ما نحته التحرك.

وقد أفهمتني الأيام والتجارب والممارسة القيادية أن الأداء الأُسري النموذجي الناجح يمكن أن يكون محوراً لخمسة أنواع من الأعمال المتميزة أو وجوه الأداء الفرعية :

- **الوجه الأول : الوجه التربوي المحض**، وتطبيق المنهج، وتلقين الفكر الإسلامي، وتعليم الداعية الثوابت والمتغيرات، وأولويات فقه الدعوة، والتوعية السياسية، وإحسان العبادة، ومصاحبة الجديد في تلاوةٍ وتهجدٍ وتسبيح ودعاء،

ليأنس، ومدار كل ذلك على النقيب بدرجة أولى، وعلى الأقران الذين تتوفر بوجودهم همة جماعية تحمل الجميع على المواكبة والمؤازرة واستحلاء المصاحبة، **ويحتل تعليم الأعراف الدعوية والمفاد التجريبي شطراً مهماً في كل هذا، هو في الحقيقة أكبر من المقدار المدون في المنهج، و بسبب ذلك نرى حصول انقلاب جذري في نمط حياة الشاب** خلال شهور قليلة فقط، ويتميز عمن هم حوله من أشقائه وجيرانه وأقاربه، ويكون أقرب إلى الحكمة والوقار، وقد حدثني أحمد الشيخي قال : كنتُ حافظاً للقرآن منذ أول شبابي ومُعلماً له وأُحافظ على الصلاة، ولكن بعد مصاحبتي للدعاة بثلاثة أشهر قالت لي أُمي : يا أحمد، هنالك سِرٌ لا أدريه، لستَ أحمد الأول، فماذا جرى لك، ومَن أنت الآن ؟ لما رأت من هديه وسمته الجديد، وذلك لأننا نعلّم الشاب في الأُسرة ليس الفكر والحلال والحرام فقط، بل حتى الأذواق الرفيعة، وكيف يجلس وكيف يتكلم وكيف يتصرف في كل شأنه، فأحمد ما كان عاصياً، بل يفوق كثيراً من الدعاة بحفظه القرآن، **إلا أن اللمسة الدعوية فعلت ما فعلت، وغيّرت شخصيته جذرياً**، حتى أثار حاله الجديد استغراب أُمه !! وهذا هو سبب ما أقوله ويقوله كل قيادي من أن صياغة النقيب أهم من تسمية مفردات المنهج، لأننا إذا وجدنا نقيباً واعياً مدركاً لأبعاد مهمته فإنه يبادر آنذاك إلى طبع الدعاة الذين معه بالطابع الدعوي في كل تفاصيله ولو لم يحط بها المنهج، ولذلك تتفاوت مقادير نجاح الأُسر في الأداء، فبعض النقباء أنجح من بعض وأمهر، تبعاً لمقدار علمهم وإتقانهم لفنون التربية من بعد الإيمان والصفات النفسية، وليس القديم من الدعاة بأقل احتياجاً إلى قدوة تلهمه أحواله التأسي ودوام التذكر والانتباه والبقاء على وتيرة عالية من ركوب العزائم وتحمل الشدائد، وأقل أحواله أنه بحاجة إلى قرين يزيل عنه وحشة الطريق الصعب ويجد في التناجي معه سلوة وتصديقاً وتثبيتاً، **ولذلك لم تُجعل الأُسرة عملاً مرحلياً ينتهي، وإنما هي محضن دائم يوفر التكافل المعنوي والمادي معاً، يوصف للمخضرم أيضاً لا المبتدئ فقط**، والفرق عندي أن الجديد بحاجة إلى مجلس أُسري أُسبوعي، يتواصل لثلاث أو أربع سنوات، ثم يكون أسبوعين للمتوسط، وكل شهر للمخضرم، حتى لو كان قيادياً، وإنما يكون هذا التناقص من أجل توفير الأوقات والطاقات لأنواع أُخرى من الأداء الدعوي الإداري والمؤسسي

والإعلامي والعلمي والسياسي، وليس زهداً بالتربية، ويسوّغ هذا التناقض أن التعويل في التربية الأُسرية ليس على مقدار ما يكون تداوله داخل اللقاء من علم أو خبر أو محاسبة، فذلك هو الشطر الأضعف، وإنما على انعكاسات **الارتباط المعنوي والإيحاءات الإيجابية الكثيرة في نفس الملتزم، وجعله مشدوداً تلقائياً إلى جملة الالتزامات التي تم الاتفاق عليها**، والمعروف عرفاً كالمشروط شرطاً، وفي ذلك ما يديم الدأب والتحفز ويقظة الضمير والحواس ودفع الداعية أكثر في الطريق العملي، وهي أحوال يعرفها من ذاقها فقط، ولا يتصور كيفيتها سائب أو ساذج مهما كان مخلصاً راغباً في الجد، ولذلك أزعم أن اللقاء بالنسبة للمخضرم يمكن أن يؤدي نتيجته حتى ولو كان شهرياً فقط.

• **الوجه الثاني : الاحتساب الذي يقوم به النقيب بالتعاون مع بقية الأعضاء تجاه كل عضو يخالف** واجباً إيمانياً أو خلقاً من أخلاق المروءة أو حكماً شرعياً أو دلالة مصلحية عامة، فكما أن أمثال ذلك من وجوه الحِسبة تكون في المجتمع الكبير، فإن نوعاً من الحِسبة الجزئية تتم ممارستها في المجتمع الأُسري الصغير، بل مداها أوسع ويشمل كافة الآداب والذوقيات، ويبدأ الأمر بنهي الداعية عن تهاون في الإحسان لوالديه، أو تقصير في حق الزوجة، مروراً بنهيه عن تكاسل في استعداده الدراسي أو المهني، وأمره باغتنام الفرص لتطوير نفسه مهنياً ومعاشياً، وينتهي الأمر إلى فحص صغائر في حياته، من المبالغة في النظافة، وترتيب يومياته، وتعليمه طرائق التعامل المهذبة وخفض الجناح والرفق ولمسات الحنان، والتعفف عن الفوضوية، أو إزعاج أحد، **والتعلق بالرمزيات والمثاليات والقيم الرفيعة التي هجرها الناس**، وقائمة لا تحصى من أخلاق الإيثار والتعاون وخدمة المجتمع والتزام النظام واحترام حقوق الآخرين والنجدات الخيرية، وشيم الفرسان والأحرار، ويصل الأمر حتى إلى إجباره على مراعاة وصايا الأطباء في الفحص الطبي، واختيار الطعام المفيد الأقل في الدهون والسكريات، بل وإلى تفضيل الدواء الطبيعي المستخرج من الأعشاب على الدواء الكيماوي ما أمكن، وتحريم الدخان، وهجر المشروبات الغازية والشاي والقهوة ربما واستبدالها بعصير الفاكهة، في أشياء أخرى **تجعل الداعية خَلْقاً آخر ليس له مثيل بين الناس**، وكل ذلك إنما يؤخذ من خلال المعايشة والتناصح لا من خلال الكتابة والخطابة، وليس غير النقيب يؤهل لذلك.

• **الوجـه الثالـث : إنجـاز جزء من المهمة التبشيرية**، بتدريب الداعية على فحص وجـرد المجتمع الذي يحيط به، مثل الأقارب والأصدقاء والجيران وزملاء الدراسة والوظيفة، وانتقاء أسماء منهم يوصى بالاتصال الفردي بهم، وتعريفهم بفكر الدعوة وأخبارها ونواياها، سائلاً المناصرة والتأييد، مشجعاً على التزام الصلاة والواجبات الشرعية، ثم لكل استجابة جزئية ما يتلوها، حتى يستوي بعضهم في عداد المؤهلين للتمتع بالتربية الدعوية في سلّمها التدرجي من بعد التمهيدات والمقدمات.

والحقيقة أن المهمة التبشيرية عمل جماعي وفردي معاً، وكافة أنواع العمل الإعلامي والسياسي والوعظي والفكري يؤيد بعضها بعضاً لتكوين تيار تبشيري مؤثر عام يستفيد منه الداعية بالتخصيص، تخصيص الدلالة أو الناس الذين يُرشحون للتعاون والمساهمة في حمل المهمة الدعوية، وكيفية جريان هذه العملية قد تحدثت عنها في الفصل الأخير، وبيّنت أثر وجود الزعامات الظاهرة في ذلك، وتولّد تيار من العمل يحمل حتى الداعية الضعيف على أداء دور في التجميع، وقلت بأن (الجديد ما بين انتباهته من رقدة الغافلين حتى استوائه ضمن الصف يكون قد تعرّض ربما **لألف دفعة تأثيرية قيادية بدرت من مائة داعية قيادي في بلده**، من بين سياسي وأديب وفقيه ومؤرخ وفنان وإعلامي، يتصدرهم القائد الأول بهيبته وسمعته وحسن سمته ودَلّه وهديه. والقابع منهم في زنزانة ليس بأقل تأثيراً وتحفيزاً، عبر قيام قصته كدليل عملي على البذل والثبات)، وذكرت الكثير غير هذا من خطوات العملية في أكثر من مقال، ولكن دور الداعية الفرد يبقى أساسياً في استثمار هذه المعطيات وتخصيص وقوع تأثيرها على أحد ينتقيه، ثم من ورائه النقيب يراقب ويشير عبر موازين هندسة السيطرة التبشيرية والتربوية.

• **الوجـه الرابع : المشاركة في بذل جهد في تنفيذ مقدار معين من الخطة الدعوية العامة** بالتنسيق مع مجموعات الأسر الأخرى، بمعنى أن الأسرة ليست وحدة تربوية فقط، بل وحدة تنفيذية أيضاً، والواجبات المتفرعة عن التوجيهات الخططية كثيرة التنوع قد تبلغ المائة، **فمن الأعمال الصغيرة** : توزيع بيان، أو تعليق لافتة، أو حراسة حفل، أو خدمة ضيف دعوي، أو نقل شيء. **ومن الأعمال المتوسطة** : التظاهر السياسي، وأعمال الاحتجاج، والتصويت الانتخابي، والقيام بدور المفتاح الانتخابي بجلب أصوات آخرين، سواء في انتخابات البرلمان أو النقابات والجمعيات والنوادي التي نريد أن نتصدرها، وكذا جمع التبرعات في بعض الأحوال، والأعمال الإغاثية الدائمة أو الطارئة، وإلقاء دروس ومحاضرات، وكتابة مقالات في الصحافة وتعليقات وردود، ودخول لجان لبناء مسجد أو مدرسة،

والعلم التطوعي في مدارس محو الأُمية أو دورات تقوية للطلاب، أو الإمامة في مسجد احتساباً. ومن الأعمال الكبيرة : الترشيح في الانتخابات، وتأليف كتب، والجهاد في سبيل الله وبذل الروح. وهذه إنما نسوقها كلها كأمثلة، وليس هنا محل شرح الخطة، ولا ذلك غرض هذا الكتاب، وإنما أردنا تأكيد معنى أن تنفيذ هذه الأعمال ينطلق أساساً من العمل الأُسري أو يكون العمل الأُسري طرفاً مشاركاً فيه وفي التنسيق له بوجه من الوجوه.

• **الوجه الخامس : جعل الأُسرة محضناً أولياً لنمو بذور التخصصات** التي تحتاجها الدعوة، فإن العمل الدعوي الناجح الذي يوازي المقاييس العصرية والتطور الحضاري يلزمه الانتقال من العفوية والارتجال والصيحات البدوية والتعميمات الغامضة والمسارعات العاطفية إلى أداء متقن قياسي عبر تمكين أهل التخصص في كل فن، وكل قطر يحتاج إلى وجود عشرات في كل حقل، ونحتاج مائة سياسي قدير ممارسٍ يصلح أحدهم أن يكون رجل دولة، ومائة رجل أعمال متمرس، وخمسين إعلامياً، ومائة تربوي، وعشرة شعراء، وعشرة قصاص، وعشرة مؤرخين في التاريخ الإسلامي، ومثلهم في التاريخ السياسي الحديث والمعاصر، ومائة أستاذ جامعي في حقول الشريعة والقانون والفلسفة والأدب والنقد الأدبي وعلم الاجتماع والاقتصاد واقتصاد النفط والإدارة والتخطيط والجغرافية السياسية واستشراف المستقبل وعلم النفس، وأمثالهم في العلوم التطبيقية وفروع الفيزياء والكيمياء وأنواع الهندسة، ويلاحظ في كل ذلك :

- وجوب حيازة الدكتوراه، وهي هوية لاحتلال المراكز المتقدمة.
- وتكثيف الخبرة والتجرد للفن الذي يتم التخصص فيه، وتطبيق منهج تطوير.
- والعمل مع الأقران كفريق عبر مؤسسات ومراكز حكومية أو دعوية أو شركات.
- والإعلان عن النفس وإشعار الناس بوجودهم وبآرائهم عبر تأليف الكتب والكتابة في الصحف والظهور في التلفزيون وحضور المؤتمرات.

لذلك، ولصعوبة هذه الشروط والمستويات فإن صناعة " داعية متخصص خبير " واحد يلزمه تقدم خمس دعاة ربما لينجح في النهاية واحد، ولذلك يلزم التبكير في توجيه أصحاب الذكاء والقابليات الفطرية الذين تساعدهم ظروفهم العائلية على ذلك، إذ الرحلة طويلة ولا بد من استثمار الفرص التي تتاح، وهذا يمكن أن يكون عبر **جعل الأُسرة محضناً لرعاية التخصصات كل حسب هواه ورغبته**، بأن يكتشف النقيب معدن كل داعية معه فيوجهه إلى اختيار الحقل التخصصي المناسب، ثم

يجعله يطالع في ذلك ما استطاع من دون إهمال لواجبه الجامعي أو المهني، ويعلّمه كيفية تجميع أرشيف خاص به يستله من الصحف، ويجلب له متخصصاً يزوره يوماً للتشجيع والحث وغرس تأثير إقتدائي به، ويجعله يختار بحثاً ضمن تخصصه يلقيه بعد إنجازه كمحاضرة على أقرانه أو يبعثه للنشر في صحيفة، ثم يتيح له اللقاء بأمثاله في نفس التخصص عبر دورة تطويرية، وهكذا بالتدريج ينمو التخصص ونحوز مَن يسير في مدارج الخبرة، وتفصيل الدروب التخصصية لها مقام آخر، إنما أردت التنبيه على كيفية قدح زناد البداية، **وأن الأُسرة هي البيئة التنموية الأُولى**، حتى بعض العمال : يمكنهم أن يختصوا بدراسة العلم الشرعي مثلاً ليمارسوا إرشاد أهل الأرياف والبوادي، أو أن يكونوا شعراء شعبيين باللغة العامية، أو رواة للشعر الشعبي، أو فنانين تشكيليين، أو أبطالاً رياضيين، أو إغاثيين خبراء في العمل الخيري.

❑ نربي السائب من حيث لا يشعر... ونظل نرعى مَن ختَم

❑ **الخطة الفرعية الثانية : أن تكون مهمتنا التربوية أوسع من المنهج التربوي الداخلي، وعليها أن تسعى إلى إحداث تأثيرٍ قَبليٍ وبَعدي.**

وهذا أمر لم يتضح عند كثيرين، ويظنون أن التربية الدعوية إنما هي عملية محدودة محصورة بحفظ آيات وأحاديث ومدارسة كتب وقيام ليل وزيارة قبور للإتعاظ، وهذا وهم، والصواب **أن جميع أنواع الأعمال الدعوية لها مردود تربوي** وانعكاس في نفوس الدعاة والمؤيدين وعموم الناس، فالإعلام عمل تربوي أيضا، يرتفع بالمعنويات، ويعلم الدعاة تحليل الأحداث، ويزودهم بحجج، ويمنحهم منطقاً قوياً في التخطئة والتصويب، ويسهل مهمتهم التبشيرية كثيرا. **كما أن الموقف السياسي الصلب من قيادة الدعوة يربي** على روح التحدي والاستعلاء الإيماني، والممارسة السياسية اليومية لساسة الدعوة تربي الدعاة على إتقان الحذر والتفلّت من الضيق واللباقة في الحديث واغتنام الفرص. **ووجود العمل الخيري المؤسسي يربي** على الإقدام والبذل والاستشهاد، لما يعلمه من خلافة الأخيار له في أهله وولده ورفعهم عن حد الفقر وكفالتهم إن غيّبه ظلم، والأثر التربوي للعلم والكتب أوضح، **والممارسة التجارية تقوي الشخصية**، وتسري عدوى هذه القوة إلى غير التاجر عبر الحياة الجماعية، وبرهنت في فصل لاحق على **أن التربية الجهادية**

تحصـل عبر إيحاءات الصناعة بأكثر مما يأتي منها عن طريق المؤثرات الحماسية، **ثم هل التربية أبعد من اتعاظٍ بحدث قديم يرويه مؤرخ، ورمز عاطفي يترنم به شاعر، واجتهاد جديد يزعمه فقيه ؟**

مـن هـنا فـإن جميع الأعمال الدعوية يمكنها أن تُحدِث تأثيراً قَبْلياً في نفوس أنصـار الدعـوة والمبتدئيـن، بـل فـي أُنـاس لا نعـرفهم يعيشـون في زوايا المجتمع الكبـير، يبلغهم خبرنا أو يقرأون صحافتنا وكتبنا، ويشاهدون وقارنا وعفافنا، وكل ذلـك يربـيهم ويختصـر لـنا الطـريق الـتربوي معهم إذا التحقوا بنا، ومعنى ذلك **أن التربـية الدعويـة لا تـبدأ من الفرد من يوم جلوسه في مجالسنا، بل قبل ذلك بكثير**، وكلمـا زاد إعـلان الدعـوة عـن نفسـها، وأظهـرت زعماءها وعلماءها، وتفننت في طـرائقها، وتنوعت خُططها : زاد هذا التأثير التمهيدي التربوي موضوعياً، وأنتشرت أُفقـياً بصـورة أعـرض، وفي هذا ما يعيدنا إلى ذكر ضرورة توزيع الأشرطة المنتقاة، والرسـائل المسـتلة مـن الصـحف، ونشـر الكـتاب الإسـلامي الشـعبي الرخيص، مع تكثـيف الخطـب والمواعـظ والمحاضـرات والاحـتفالات وإظهار قدوات يستقطبون العامة ويستثمرون آثار الإعلام والأعمال الفكرية التي تواكب كل ذلك.

والمفروض أن تكون هناك تربية بَعدية أيضاً للدعاة الذين يكملون دراسة المنهج وأمضـوا عـدة سـنوات خاضـعين للتربية الأُسرية المكثفة، فإن أمثال هؤلاء عادة ما يـتوزعون علـى اللجـان والمراكز وإدارة المؤسسات وتلبية حاجات الأداء الإعلامي والسياسـي، وقـد تنحت صرامة الإداريات ويبوسة الممارسات السياسية من مخزونهم العاطفـي الإيماني، أو تكون مهنهم مرهقة، مثل التجار والأطباء، لا تدع لهم مجالاً كثـيراً لحضور الأنشطة أو مجالس العلماء في المساجد أو كثافة المطالعة، فهؤلاء وهـؤلاء ينبغـي أن تعيـنهم جهودنـا الـتربوية علـى مواصـلة الـزخم الذي حازوه في سـنوات دراسة المنهج، وأن نلاحقهم وهم في أماكن عملهم بنشرات خاصة تحيطهم علمـاً بمـا لا يمكـن أن تقولــه صـحيفة الدعوة العلنية، وبيومٍ في الشهر يلبثون فيه الـنهار والليل في مسجد للتعبد والتلاوة على طريقة جماعة التبليغ، ربما، وبقدوات يـزورونهم، وبموقـع إنترنـت خـاص بكـل ثُلّة منهم غير الموقع الدعوي العام، ربما، وأقـل ذلـك إرسـال أشـياء بالفاكس لهم والاتصال الهاتفي، و بابتكـارات إبـداعية أُخـرى، مـع ملاحظـة أن وجود أنواع العمل الإعلامي والسياسي قد تغني عن أكثر ذلـك، لوجـود جزئيات كثيرة عندئذ تقوم بتذكير الغائب في مهنته أو المنغمس في إدارتـه وتنتصـب له منها مواعظ وعوامل ربط معنوي، وسيحمله التيار الدعوي العام حـتى ولـو لـم نوجه له جهداً تربوياً خاصاً، **وهذا ما يعظنا بعدم المبالغة في تخيّل ضـعف فـي الدعـاة، إذ الـولاء الإسـلامي الـذي يـبدونه دليل عمران القلب بمعاني**

الإيمان حتى ولو لم يتهجدوا أو يكثروا تلاوة القرآن، إلاّ أن تقوم قرينة على حصول ضعف أخلاقي وإيماني، من جنوح لألفاظ غليظة أو استرسال في الدنيويات أو بخل بمال إذ هو ميسور أو تكبّر وغرور ظاهر، وليس هذا من باب التزهيد بسنن الإيمان والعبادة، بل نرى أن الاحتياط أولى، وإنما أردنا نفي صواب من يُطلق القول بالتضعيف لكل متغيب، **فقد تكون قلوب بعض الغائبين وافرة العمران بمعاني الإيمان ومحركات الولاء الواعي، ولا نقطع وادياً إلا كانوا معنا، حبسهم التأول المستساغ.**

❑ مع القوم سواء..... ثم نزيد

❑ **الخطة الجزئية الثالثة : تكملة المنهج العام بمناهج خاصة، حسب حاجة القطر،** لتفهيم بعض القضايا المحلية، أو حسب حاجة بعض الدعاة.

فقد كان المنهج العالمي العام آخذاً بالمرونة ومال إلى رؤية الخصوصيات، فمنح الأقطار حق إضافة مواد أخرى تستدعيها قضاياها المحلية، أو ظروفها، أو ما هو قريب من ذلك.

فهل حققت الأقطار ذلك ؟

مدى علمي أن هذا الحق لم يُستعمل إلا قليلاً .

فمن الحاجات القطرية الخاصة بالعراق مثلاً : دراسة القضية الكردية بشيء من التفصيل وفق نظرة إسلامية، لأنها قضية مؤثرة حية، وينبغي أن يشمل ذلك مناهج إيران وتركيا، وسوريا بدرجة أقل، لوجود القضية الكردية فيها أيضاً. ويسري نفس الميزان على القضية البربرية في الجزائر والمغرب.

وقضية الاعتزال وتأثر الفكر الإباظي والزيدي به، في عُمان وليبيا والجزائر.

وتفاصيل في القضية الفلسطينية بالنسبة للداعية الفلسطيني تذهب به إلى أبعد من المقدار الموجز الذي يورده المنهج العالمي.

وحبذا لو يوضع كتاب منهجي يقرر تدريسه في أمريكا وأوربا وأستراليا والبيئات المماثلة حول فقه الأقليات والضرورات المؤثرة في أحكام الحلال والحرام، وكيفية التعامل مع النصارى، والمشاكل العائلية للمهاجر، وأمثال ذلك،

ويؤخذ من مجموع ما أفتى به وسيفتي المجلس الأوربي للإفتاء، وملاحظات كثيرة وردت في مجلة " الأوربية " و " الغرباء " من قبل، ومجلات إسلامية أمريكية، والمجلات الصادرة باللغة الإنجليزية أيضاً، مع مشافهة قدماء المهاجرين ورواية تجاربهم، وكذا كلمات المؤتمرات العامة والندوات التخصصية، وما أكثر ذلك، ولكن العلم يُقال وينساه الدعاة في زحمة الأحداث، والحل : أن ينتدب أحدٌ نفسه لجمع ذلك كله بإيجاز في كتاب منهجي ومقرر دراسي.

كذلك أرى أن يسارع كل قطر لتأليف كتاب منهجي يقرر تدريسه في الأُسر في ذلك القطر، فيه تعريف بالأحزاب والجمعيات القائمة فيه، وموجز التاريخ السياسي والاجتماعي، مع لمحة اقتصادية، واستشراف للمستقبل، وسينفع نفس الكتاب في أن يكون ضمن منهج القياديين في أقطار العالم اجمع. ومثله كتاب آخر في تاريخ الجماعة في القطر.

ونفس الميزان يسري من ناحية موضوعية، فالدعاة المهندسون يليق أن تعقد لهم دورة خاصة عن نقل التكنولوجيا، والتكامل الصناعي في العالم الإسلامي، والإبداع العلمي، مثلاً . ومجموعة الإعلاميين تكون لهم دورة إعلامية واستعراض للنقاط الساخنة وكشف ما وراء الظاهر، ويتم تبادل الخبراء بين الأقطار من أجل رفع مستوى القول في هذه الندوات والدورات.

وتبقى الحاجات المحلية أو الموضوعية أوسع من أن نسميها أو نحصرها، وإنما أردنا التنبيه إلى أن المنهج العالمي أعطى حق الإضافة والتكميل، ولكن الأقطار قصّرت.

❑ من تحت داري..... تنبع أنهاري

❑ **الخطة الفرعية الرابعة : الانطلاق من مراكز بحث ومؤسسات دعوية ما استطعنا.**

ولست استنبط هذا من فقه العمل المؤسسي، فلذلك بحوث إدارية تولاها غيري بالشرح، وذكرت أطرافاً من هذا الفقه في فصول أُخرى وكتب أُخرى، ولكني هنا أُشير إلى ما **يكمن في العمل المؤسسي ذاته من إيحاء تربوي خاص أراه ينبثق من فطرة الإنسان في التملك وحيازة الأشياء وجعلها خاصة به، وفطرة الركون إلى مأوى** وبيت يُظله ويشعر فيه بالحرية التامة والخصوصية والحرص على تنميته و عمرانه وتجميله وتوفير وسائل الراحة فيه وإعداده ليكون حصناً يدفع عنه كل

خطر محتمل أثناء الحروب والنكبات، حتى ليخزن فيه كمية من الطعام من باب الاحتياط، **ثم فكرة الانطلاق من مثابة والعودة إليها في كل أعماله**، يضع فيها ما يحتاجه، ويجتمع فيها بالقرين والمماثل، ومع أناس يفهمون أحاسيسه وأفكاره ويحركهم نفس الشعور ويجمعهم هدف مشترك وتسود بينهم ثقة متبادلة، فكل هذا الإحساس الفكري المتنوع يجعل الداعية إذا أنطلق من " **مؤسسة دعوية** " : منحازاً لها، مدافعاً عنها، مفتخراً بها، مرتاداً أنواع المصالح لتطويرها وتوسيعها وتجويد أدائها، حريصاً على سمعتها ومستقبلها، **لأنه شريك في ملكيتها**، وهو من أهل البيت، ليس بغريب ولا طارئ ولا زائر ولا وكيل.

ومركز **البحوث هو الشكل المثالي لهذه المؤسسة**، والمفروض أن نزوده بمكتبة جيدة، ونصور على دسك أرشيف المراكز الأخرى، وهي خدمة أتاحها الكمبيوتر تمنحنا فرصة الاستفادة من عمل جاهز دون أن نكرر الجهد، ثم **نجعل في المراكز عناصر متميزة** فيتشكل من كل ذلك عامل إغراء لجذب دعاة كثيرين كباحثين، فيعمر جانب الوعي السياسي والفكري في الجماعة، ويكون نوع من التشغيل الجيد للطاقات المعطلة والتفعيل لأدوار أصحاب القابليات، وربما يحصل إبداع متميز من عناصر مغمورة، وكل ذلك لوجود استثمار لفطرة التملك والمثابة التي شرحناها، **ولقيام " استدراج " للدعاة إلى مفاصل البذل النظامي المنهجي** يرتكز على الآثار التربوية الطبيعية للجوانب الفطرية، وكثير من الدعاة لا تحركهم ذاتية خاصة بهم، لكن يحركهم التيار العام، ويأنسون للغير إذا رافقهم، ويستوحشون عند الإنفراد، وتجاربنا في هذا الباب كثيرة.

لكن سعة العمل الدعوي وكثرة الدعاة توجب التوسع في إنشاء هذه المؤسسات وجعلها مثابات انطلاق وأوية، وهذا يحصل بالتنويع، حتى ولو أنثلم بعض الوصف المؤسسي في بعضها، فالصحيفة الدعوية " مؤسسة "، والمدرسة الإسلامية " مؤسسة "، وكذا دور النشر، والجمعيات الشرعية، والنوادي الأدبية، والمجامع العلمية والتاريخية، والروابط التخصصية، وحتى الشركات التجارية أحياناً، فيكون من كل ذلك قرابة مائة مؤسسة دعوية، في الواحدة منها العشرة من الدعاة، والعشرين، إلى الخمسين والستين ربما، وبذلك نقضي على الوساوس والبطالة والتسيب والفردية والفوضوية، ويتكامل سير موزون مخطط، وقد أعجبني جداً قول قائد الدعوة في إندونيسيا في مثل هذا الموطن حين قال : **وإذا لم نجد مركزاً أو جمعية أو مدرسة لنحقق مثل هذه التحريكات : أعنا الداعية على افتتاح دكان له أو مكتبة صغيرة، لنعلمه مخالطة الناس** ونيسر له الاتصال بهم، وهو قول صحيح

يـدل علـى وعـي، ونسـي أن يضـيف مـا ذكـرناه مـن استثمار فرصة التملك ومغزى المثابة، وهي معطيات تعدل آثار المنهج الأُسري في القيمة.

❑ عطاء الشمول... ومِنَح الأُصول

❑ الخطـة الفرعـية الخامسـة : تحصــيـل الآثــار الـتـربـوية الحسنة التي ينتجها " الشمول التخطيطي ".

فـبعض الدعـاة يقيمون حاجزاً وهمياً بين مفردات الخطة العامة والخطة التربوية، وكـأن أشـكال الأعمـال التـي لا تسمى باسم التربية ليس لها مردود تربوي، وكأنها أعمـال ميكانيكية صلبة خالية من الروح والعاطفة وتحريك الأحاسيس، وهذا تصور تشـير تجاربنا إلى أنه خطأ محض، وتحليل " الحركة اليومية الدعوية " يدل على وجـود تأثـيرات نفسـية إيجابـية عديـدة الأنـواع تـنـتجها أنـواع النشـاط المؤسسي والمسـاهمات الفكـرية والسياسـية والخـيرية والـتجارية، وتدعنا نؤمن **بأن " صياغة وصـناعة داعـية واحـد " هـي عملـية متشـعبة تؤثـر فـيها جمـيع مفـردات الخطـة وتفاصـيلها**، وليسـت هي نتيجة تطبيق المنهج الأُسري فقط، ويليق أن نستعرض أمثلة منها :

- فنشـر كـتاب إسـلامي جديـد خـارج القطـر نـنجح في استيراده أو إعادة طبعه وتوزيعـه بكـثافة يرفع مستوى الفكر في ثلة واسعة من دعاة القطر، وارتفاع المستوى الفكري إنجاز تربوي بل شك.

- وأعظـم أثـراً مـنه أن ينشـر داعية من أهل القطر نفسه كتاباً إسلامياً، جرياً مع شعور الفطرة الذي شرحناه والإحساس بالفخر نتيجة القربى.

- وللشـريط المسـموع والمـنظور فـوائد مثـيلة، وقد أطنـبنا في شرح ذلك آنفا، وإذا كان المتكلم من أهل البلد كان التأثير أكبر.

- والصحف المستوردة أو المحلية تزيد الوعي وتعلّم التحليل.
- والـنجاح فـي حـيازة عـدد أكبر من الكمبيوترات في المحيط الدعوي يعني نيل فوائـد الإنترنـت، والإطلاع على الصحف العالمية في نفس اليوم، والارتقاء بمستوى الفطـنة لـدى الدعـاة الذيـن يسـتعملونه ومـن هـو قريـب منهم، وجميع ذلك مردود تربوي.

• وحيازة القياديين لسيارات يعني زيادة تنقلهم ومواجهتهم لعموم الدعاة وأنصار الدعوة، ويكون لذلك مردود تربوي آخر.

• وإنشاء مدرسة إسلامية يعني التبكير في غرس الموازين الإسلامية في نفوس الجيل الجديد واختصار الجهد التربوي الخاص.

• ولكل مؤسسة نوع من الأثر الحميد.
ويمكنك اشتقاق أمثلة أخرى.

❑ **وهذا يوجب إتقان الخطة العامة وجعلها شاملة، مع تمدين الأداء وإدخال المخترعات العصرية إلى المجتمع التربوي، فإن أحد وجوه الانتفاع من ذلك : الارتفاع بالمستوى التربوي للدعاة وأنصارهم وذرياتهم**، وليس هذا بكتاب تخطيط عام حتى نصف معنى الشمول ونسمي جميع المفردات الخططية، وإنما أردنا الإشارة إلى أن التربية الدعوية هي أوسع من التكاليف التي نضعها على عاتق اللجان التربوية ونسميها بمنهج وتطوير ودورة وموعظة، وإنما **الأداء الدعوي كله يصبّ في وادي التربية الدعوية، حتى العمل الخيري**، فإن في بعضه : تزويج الشباب وإعفافهم، والزواج رُشدٌ وإنجاز تربوي، وحتى العمل التجاري، فإن الغنى يجعل الداعية الباذل لروحه موقناً أن هناك من سيخلفه في أهله وبنيه، وذلك إنجاز تربوي.

❑ وجمعاً لهذه الإشارات وأمثالها من أقطارها ومكامنها : أستطيع **أن أرفع عشرة شعارات تصلح أن تكون عناوين لمعنى التربية الدعوية، يجمع الواحد منها بين نقيضين في الظاهر وعند المستعجل، ولكنهما يؤديان إلى تكامل بينهما ووسطية**، بريئة من التناقض والتعاكس والتضاد.

فتربيتنا الدعوية تجانسٌ بين عشرة وعشرة :

• **بين الرباطية المستكِنّة..... والنزعة السياحية المتجولة.**
فنحن نأخذ بالتربية التلقينية عبر اللبث في المسجد أو البقاء في " مكان " التربية، من مدرسة أو مؤسسة، ونغرس في قلب الداعية المتتلمذ حب الاعتكاف سويعات كل يوم بين ساريتين أو غير بعيد عن المحراب، يتلو القرآن، ويقرأ الحديث والفقه،ويدعو، ويتفكر، حتى يتقن صنعة التضرع والتوبة والزهد، ولكننا في الوقت نفسه نعلمه أن ذلك إنما هو بعض الحق ومجرد جزء من التربية،

ونصاحبه في جولات وغزوات ندعه يسيح خلالها في زوايا المجتمع، ليتعرف على الأخيار، ويحبب نفسه لأقران له، ويسأل فقيهاً أن يروي له حكماً، ومجربا أن يخبره بقصة، ثم ندعه يزور معرضاً، ويشارك في مهرجان، ويرحل إلى نقطة ساخنة يجمع في محيطها شظايا يرتبها فتفصح عن الخبر اليقين.

• **وبين الجذب والاستدراج إلى المحاضن التربوية... ومتابعة الداعية داخل منزله إلى حين وضع رأسه على وسادته.**

ففي تربيتنا إغراء وتشجيع، بمكتبة وأرشيف، وتدريب على كومبيوتر، وألعاب جماعية وتوفير أجهزة ومحيط نظيف يأنس في أرجائه الصاعد، ولكن نحن معه في بيته أيضاً، عن طريق تربية أخته أو زوجه أو بنته، وبمنهج مطالعة، وجدول محاسبة يسأل فيه نفسه عما سلف منه في كل يوم قبل أن ينام إن كان ازداد خيراً أم استوى يوماه.

• **وبين العمومية للنموذج العادي... والخصوصية للعنصر المتميز ولصاحب الظرف الخاص.**

فالمنهج العالمي كفيل بتوفير حد أدنى من التربية تطبع الداعية بالطابع الخاص وختم "الماركة المسجلة" التي لا تقبل التزوير والتقليد، فترى تايلندياً هو نسخة طبق الأصل من صعيدي، وكردياً كأنه شقيق متحمس في الكاميرون أو نيجيريا، ولكن وراء ذلك دورات ومناهج تطوير لثلة الواعدين، وتنسيق لدراسات التخصص.

• **وبين المبادأة وإحداث المعاني... والاستدراك والترميم.**

فالتربية الدعوية إنشاء أهداف غفل عنها اللاهون، وإكسابُ كل مستجيب جملة معان يحتاجها كان عارياً عنها، وإتحاف جيل الصحوة بخلاصات تجارب المخضرمين قبلهم، الذين طالت معاناتهم حين جبههم تكذيب و سلبت منهم حقوق، **ولذلك تتحقق عبر اللمسة الدعوية الأولى صعقة للجديد، تنقله نقلة، وتمنحه دفعة،** ويستغرب أن كان من قبل غافلاً، فينتفض، وذلك بعض سر لذة البداية التي تحدث عنها الشيوخ، وتصعيد هذه الهزة القلبية العقلية فن مهم من فنون التربية الدعوية يجعل القليل كثيراً، والبطيء سريعا، والرخو صلبا، وكأنه في ذلك يستعير من البركة سرّها فيؤذن له، ولكن إرادة الخير لا يطّرد سيرها، لمعاكسة الشيطان، ولربما زلّ فاضل وتراجع متوغل، فيكون الترميم ومعاودة البناء، من غير ضجر أو استغراب، فإن كل حرب سجال. ومن معنى الاستدراك أيضاً : أن يلحق بالدعوة عالم، أو ربيب دعوة أخرى، فلا نحتاج أن نبدأ معه

بداية من الرحلة التربوية، وإنما من حيث انتهى، ونعتمد رصيده السابق، وينحصر واجب تربيتنا في تكميل النقص، أو تبيين منطق وفقه أعمال درج عليها تقليداً من غير تأمل وفحص.

- **وبين المحلية.... وتجاوز البحار والحدود.**

فتربيتنا تستثمر المعطيات المحلية والطاقات المتوفرة، لكنها تُعان بـمُربين ورواة خِبرة يأتون من أقصى الأرض ربما، لوحدة الخلفية والمنشأ والفكر، من دون أن يحصل تباين. **كما أن التجربة الدعوية لا جنسية لها ولا وطن، فكل التراث التجريبي الدعوي في أي قطر يصلح أن يكون شاهداً للأقطار الأُخرى،** ما لم تصرفه مقتضيات ميزان النسبية.

- **وبين روابط الكتل الإقليمية وقواسمها المشتركة.... والعالمية ذات الأُفق البعيد.**

فالآثار الجغرافية، والتوزعات القومية، والعوامل الاقتصادية : ربما تجعل الأداء الدعوي متقارباً في بعض الأقطار، فيجنح التخطيط إلى توحيدها وتميزها، فأقطار الخليج قد تضمها وحدة خليجية دعوية، والشمال الإفريقي، وجنوب شرق آسيا، والقرن الأفريقي، وجمهوريات آسيا الوسطى، كلها تخضع لهذا الميزان، وينعكس ذلك على التربية وأساليبها ومناهجها، وعلى المؤسسات، لكن هذا الإجراء لا يلغي الانتماء إلى " **الدعوة العالمية** " والشعور بالوحدة الجامعة والأُخوة والقلب المشترك، ثم لا يثلم ذلك ما يفترض من ولاء حاسم للمركز الإرشادي والرمز وتكثيف الانتماء في بؤرة تعيد النشر والإشعاع.

- **وبين الصلابة الصلدة..... والمرونة وقابلية الانثناء وإعمال الاستثناء.**

فعندنا في شرعنا وفقه دعوتنا ثوابت، تتمسك بها تربيتنا وتأخذها بقوة، ولا مجال لاجتهادٍ يغيرها، لكن عندنا أساليب تلائم كل ظرف، **وتخطيط يتكيف، ومرحليات تختار بنسبية** تنسجم مع الواقع والمؤثرات، وفي إفتائنا سد ذريعة وموازنات بين المصالح.

- **وبين التقليد والعرفية والوراثة..... والاجتهادية والتجديد.**

فتربيتنا توجب الأمانة، واقتفاء أثر الجيل المؤسس، والحفاظ على رؤاهم وتفسيرهم لمعنى الدعوة، ودارنا كمثل بيت بناه عصامي، وترعرع فيها ولده، ثم رفل بأركانها الدافئة حَفَدة، فإن الحكم فيها للجدّ، ثم لوصاياه وسمعته وهيبته آثار تظل حيّة إذا مات، وتزداد القيمة المعمارية للمنزل مع التقادم، ولَرُبّ جمالٍ في عتيق، كما يزداد اسم العائلة إشعاعاً كلما نبغ جيل جديد يحافظ على منظومة

الأخلاق والسجايا التي التزم بها الآباء، وما زال كل طائي كريما اليوم وقد مضى ألف عام ونصف ألف على حاتِم وعَدِيّ، إنما المنزل يتجدد طلاؤه، وتستملك له بالشفعة قطعة مجاورة تكون له حديقة تزيد بهاءه، ثم يتزين لاحق بعلم وفن وشعر يضيف كل ذلك إلى منظومة القيم العائلية.

• **وبين الانتماء إلى مجتمع دعوي خاص..... والوفاء للمجتمع العام.**

فنحن رهط الأمل والإصلاح والإستدراك، في سواد غافل يسدر في اللهو والتحاسد والأثرة والتظالم، فما من عَجَب إذا ارتاد الداعية المصالح للدعوة وحكرها عليها وخصّها بماله وجهده، فإنها ستؤول من طريق غير مباشر لاحقاً إلى غير الدعاة، لكن رحمة يعلّمنا إياها الإيمان تجعل بذلنا يفيض ويسيح ليتناوله المجتمع العام كله، حتى الفاسق منهم، حتى الكافر، وهذه صنعة الخيريات الإغاثية أحييناها حين هجرها غيرنا، وكفى بها مثالا، وكفى بنا ذائدين عن مصالح الأمة كلها ضد تطبيع وتخدير واستعمار وغزو فكري وهجمة إفسادية ونظام عالمي، وتربيتنا توصي بكل ذلك، وتدرب عليه، و تطور أساليبه.

• **وبين محدودية الإصطلاح التربوي..... وسعة تأثيرات الأعمال الدعوية كلها وتداخلها مع الجهد التربوي.**

فكل حركات وسكنات المشاركة الدعوية لها مغزى تربوي ومردود أخلاقي وفكري، وليست الإيحاءات القلبية والنفسية للممارسة السياسية بأقل إيجاباً من صعودٍ مهذبٍ في مدارج السالكين، ولا تجديد إحياء علوم الدين بأكثر تثبيتاً لمعنى العزة من موقف نهي عن منكر الظالمين.

❑ وتوكيداً، وتلقيناً للأشباه والنظائر التربوية، والفروق الموضوعية، والمقابلات، والمقارنات، ومنحى التكامل، والإرداف، والجمع، والتتميم، **فإني أُعيد صياغة مجمل المعاني** الآنفة، وأُضيف لها ما يمنحها الإستيفاء، **فأرفع عشر شعارات أُخرى** تمثل عشر حقائق تربوية وموازين وبديهيات، ولربما تغيب البديهية عن ذهن المنشغل باقتحام وتوغل، فيليق التذكير، ويحسُن أن نفهم :

• **أن تربيتنا تنطلق من المسجد..... وتنتهي إلى برلمان ومصنع وشركة.**

ذلك أننا ننوي إصلاح الحياة كلها ووضع أقدامنا في ميادينها المختلفة، من معرفيات وسياسة وتجارة وصناعة، وإنما نبني أساسنا عند المحراب، ونتدارس غيث الغياثي ورسالة الشافعي على حصير، لكن هناك نفير يومي إلى عرصات الحياة حيث يتكدس الناس في سوق وجامعة ونقابة، نوقظ الشعور بالمسؤولية في الغافلين، ونشجع الخائفين، ونهيب بالمستضعف أن يقدم صخرة صغيرة أو طابوقة

فقط، لا نكلّفه أبعد من ذلك، ثم نحن فينا المهندس والبنّاء نبني جدران **قلعة** الإسلام الجديدة، **فواجبنا تخطيطي قيادي، ومهمة الناس الإسناد.**

• **وأن تربيتنا تحافظ على طريقة المشيخة والتلقين..... لكنها تستخدم الإنترنت ومنهجية البحث.**

فإن أنفاس الصالحين مباركة، وجلوس التلميذ باركاً بين يدي أُستاذه ُعرف إيماني أصيل، يعلمه الأدب واحترام الكبير والحفاوة بقول السلف، وحين يتسرع غِرٌ فيزعم أن : نحن رجال وهم رجال، فيخيط الشيخ فاه ويقول : بل رجولة العلم حين بلوغ الأشُدّ، حين الأربعين، والمرء قبل ذلك مسجل في قائمة الجاهلين : يكون في ذلك أبلغ درس لمائة ينظرون، وسيعرفون مقاديرهم، ولا يتقدمون بين يدي فقيه ومفسرٍ، لكن دونهم سعة الإنترنت، والأرشيفات، وعلم الواقع، وخبر المؤمن والكافر، يزعمون ما يشاؤون، وفق منهجية البحث الدقيق فوق الجامعي، وعبر المقارنة والإفتراض والإستقراء ومنطق التعليل والتحليل والتركيب، وتوثيق النقل.

• **وأن تربيتنا تنطلق من التنظير والرأي والفكر..... لكنها تمر بالممارسات والتجريب العملي.**

فلسنا نتقدم جزافاً ولا ارتجالا، **بل نجمع من ذخيرة الفقه عبر القرون صورة فقه الدعوة،** في بيان الغاية والوسيلة، ثم نحرص على وصايا مؤرخ وعسكري وسياسي واقتصادي وإداري لتكتمل الخطة ونصوغ نظرية العمل الإسلامي ونوضح مشروعنا الحضاري الشمولي، ونظل نعدّل ونضيف عبر تحليل مشروعنا واستنطاق تجاربنا في امتدادها العالمي.

• **وأن تربيتنا تستند إلى الذخيرة التراثية..... لكنها توسعها بالفكر المقارن وآراء الفلاسفة وتجارب الأمم.**

فما بين صواب طبقة مالك وأبي حنيفة وتقعيدات طبقة ابن حجر والسيوطي : يكمن فقه عظيم فيه كفاية وغنى ووفاء، لكننا نبحث عن تحسينات أيضاً نزين بها فكرنا، قد يفوه بها فيلسوف أنطقته بقية فطرة، **ونشرح العزة الإيمانية بأناشيد الحرية البليغة التي غنّتها الشعوب، ونقتنبس من المنهجية الديموقراطية في احترام الحقوق وكبت الإستبداد ما يتجمل به أداؤنا السياسي وتتأكد به أنماطنا الشوروية الإسلامية الأصيلة.**

• **وتنزل تربيتنا بالقلب إلى أوطأ الإخبات..... لكنها ترتفع بالعقل إلى أوج الإتقاد.**

فالموعظة تدع الروح تسكن، وتطمئن بالتصديق، حتى ليكون إيمان الداعية مثل مسارعة جدّته العجوز الساذجة البسيطة إلى الإستسلام لقول الله تعالى وأمره وقدره وتأويل حكمته، وإلى عمق محبة النبي ﷺ وتمثيل غاية الاحترام والحياء منه في سِرّها، حتى ليحلّق الداعية ساعة تسبح فيها خواطره مع هدي النبي ﷺ كأنه يتجول معه في طرقات المدينة أو يقف في صفوف بدر يرقبه متجنباً يدعو أو يدخل معه مكة يكسّر الأصنام ويهتف أن جاء الحق وزهق الباطل، ثم يفيق ليكتشف أنه جالس على حصير المسجد، لكن هذا التذلل لله تعالى أو الغرام بسيرة المصطفى ﷺ لا يمنعانه من التفاعل مع **خطة مقاربة حوار العباقرة وتجميع لمعات العقل والولوج في درب الإبداع**، واللبث مع مثل ابن خلدون في استنطاقه ظواهر التاريخ والحضارات، أو مع التوحيدي في وصف خلجات النفس، أو الرازي وهو يكتشف محركات الحياة، أو مع المتنبي وأبي تمام والبحتري وهم يصفون سجايا الأحرار والروحَ إذا استبدت بها العزمات.

- **ونبذل تربيتنا لجمهور واسع، تصديراً للخير.... لكننا نستخلص الصفوة في النهاية.**

فإنّا لا ندري أيّنا الموفق، وأيّ الرجال المهذّب، وفقه العمل الدعوي الذي نتبناه ينفي صواب التكاثر والتكديس والمفاخرة العددية، وإنما يركز على النوعية، لأن محور الأداء الدعوي هو أداء قيادي، نقود الأُمة إلى تحقيق مصالحها، فنحن نصف لها واقعها، ونقترح الحلول لها، وندع السواد الكبير يوالينا وينفذ خطتنا، ومن أجل ذلك فإن عنصر الصفوة هو مبتغانا وهدفنا، الذي هو الذكي القوي الشخصية الشجاع القابل للتطوير، إذ مثل هذا هو المؤهل لأن يقود الناس، ولكن لأننا لا ندري أين تكمن هذه الخصال الإيجابية وفيمن حلّت فإننا نقبل العدد الواسع، ثم ننتقي، ونحفظ البقية للأعمال التنفيذية، **ولا يمنع هذا الإنتقاء من تقديم تربية للجمهور العريض عبر إعلامنا ومدارسنا ودور نشرنا**، في شكل كتب وصحف وأشرطة وقدوات ودورات وندوات، ومواقع إنترنت وقناة تلفزيونية، وقد أسلفنا أن لجميع أنواع الأداء الدعوي أشياء من المردود التربوي.

- **وتحافظ تربيتنا على الشمولية.... لكنها تتعمق في التخصصية.**

وذلك تقتضيه الحقيقة السابقة، فالمنهج العام جامع، والتوازن بين أشكال الأداء أصل، **فلا تطغى سياسة على عبادة وأخلاق، ولا يسبّب تعليم الأحكام الشرعية غلق أبواب التوعية السياسية، ولا ندع رحمة تصاحب الإغاثة الخيرية تغلب مشاعر الجهاد والغلظة على كافر، بل الشمول ديدنٌ وهدف وأسلوب،** لكن خير أجزاء الحق بالنسبة لكل داعية ما جارى رغبته وهواه الخاص وانفعل معه وهام غراماً به، فللإجتهاد الشرعي رجال نحبسهم مع مدونات الفقه، وللبحث السياسي وعاة نرصدهم لاستنطاق الارشيفات، وللإعلام سبّاقون نبعثهم إلى الساحات الساخنة، وللتجارة نفوس عفيفة غنية نتيح لها حضور المعارض الدولية والأسواق، ثم للصناعة مهندس مبدع وممول هادئ الروح لا تستفزه المباغتات، وكلٌ في فلكه يَسْبَحُ ويُسَبّح وتزداد خبرته ونخصّه بمنهج تطوير.

- **أن تربيتنا تتيح للدعاة حرية الحركة والابتكار..... لكنها تربطهم بمحور الالتزام الخططي والأداء المنسّق.**

لإن تنمية المهارات وقابليات الإبداع باتت ركناً في التربية العامة يقتضيها التطور المدني والحضاري، ولا يكون ذلك إلا **بمنح المتربي حق المحاولة والتجريب والجري مع ظنونه،** وتوسعة الصدر أمام أخطائه، إذ الخطأ مدرج الصواب، وتكرار العمل ينقل العامل مرحلة نحو الإتقان، ولكن الخطط تحدد المجال، ألا يكون في الإبتعاد خطر المتاهة والفوضوية.

- وان تربيتنا تعلّم الطاعة والوفاء بالبيعة..... لكنها تقدّم على ذلك التفهيم والإقناع.

فأصل التزامنا رضائي، والمؤمنون عند شروطهم، وإنما طريقتنا في تحصيل الجهد من الباذل : أن نشرح له فقهَ الأعمال، والركنَ في كل خطة والشرطَ والسبب، فيتوغل على بيّنة من الوعي، ولسنا نرضى من التابع التقليد والاستسلام وإلغاء شخصيته، إذ يوشك مثل هذا أن ينفَضّ سريعاً عند الشبهة والصدمة والظن وهاجس السوء وخبر التحريش، ولكن أصحاب الموازين والقواعد والاحتكام إلى الفقه هم الذين يترجمون معاني الجندية والقيادة معاً.

- **وأن تربيتنا تعتمد التأسيس الهادئ..... لكنها تنتظر التأجيج الذي تتيحه روح التحدي.**

فقد علمتنا التجربة أن نضبط العواطف، فلا نخرج إلى تهور وتعجّل، ولا نقفز ونتسور، بل نمشي وندخل من الأبواب، لأن الفطرة ستعمل عملها ولابد في الوقت المناسب، فتتمرد النفوس على كل اعوجاج، بعدما يكسبها السير في الصراط المستقيم وجهتها، فيكون الموقف الصلب الناهي نتيجة حتمية لتصاعد الإيمان والفقه والوعي لا نحتاج معه أمراً وتحريكا وإهابة، ولربما نحتاج وصية يومئذ تعظ بالوسطية والحسنى، خوفاً من إفراط ومبالغة.

وهكذا، بهذه العشارية الثانية نكون قد أكّدنا وشرحنا ما وصفَتْ به العشارية الأُولى مغزى تربيتنا الدعوية وحدودها ونمطها الجامع.

❑ **لكن هذا الشمول ينقلنا بالتالي إلى سؤال مهم نسأل به أنفسنا : هل يلزم أن تكون لجنة التربية من أهل العلم الشرعي ؟**

هذا لأني رأيت في بعض البلاد، وغير العربية بخاصة : إسناد المهمة إلى المشايخ، فلا يوجد فيها مهندس او طبيب أو فيزياوي أو اقتصادي، وهذا إن كان يُستساغ في البدايات، لأن الفكر الدعوي مدون بالعربية والشيخ الشرعي أقدر على تعليمه، فإنه غير مسوَّغ في التوسط والنهايات، ليس فقط لأن شعاراتنا التربوية تحوي الكثير من جوانب المعرفة العصرية والأساليب المتطورة، بل أيضاً **لئلا يحصل فصام بين النوعين من الدعاة، الذين درسوا العلوم الشرعية، والذين اختاروا العلوم التطبيقية**، فينشأ هؤلاء على نوع من الاستقلال عن الشرعيين، وتكون مصادر وعيهم : علوم السياسة والإدارة والتخطيط فقط، ولربما تكون اقتباسات لا يشهد لها العلم الشرعي بالصحة، فيكون تعصب لمبالغ علمهم، فيحصل مثل الفصام النكد الذي تحدث عنه سيد قطب حين سيطرت الجاهلية فأقصت الإحتكام إلى العلم الشرعي في قضايا الحياة، وأخشى أن تحدث صورة مقاربة لذلك داخل الدعوة بين رجلين ونمطين واجتهادين وإن حسنت النوايا، وينشأ " إسلام عصري " متحرر من الضوابط الشرعية واعتماد العموميات ويجنح إلى تساهل وتمرير، والحل يكمن في الاحتياط، **وجعل الداعية صاحب العلم المدني شريكاً في لجنة تربويَة لصاحب العلم الشرعي، يسيران معاً، ويكمل أحدهما الآخر، فيراقب المهندسُ الشيخَ ألاّ يكون رجعياً لا يتجانس مع حقائق العصر، ويراقب الشيخُ الطبيبَ ألا يستعير**

الأفكار بتسرع من دون ضابط فقهي، ثم ينعكس ذلك على المجموع، فتكون وحدة الأجيال وأنواع الدعاة.

فمَن تاب من فصل العنصرين يوشك أن يصيب منهجية التربية الدعوية، ومَن غفل عن سعة معنى التربية، وقصرها على مواعظ : سقط في هوّة الفصام لاحقا، وهذا معنى لا يُنال شرحه إلا مشافهة، ومَن افتقد التجريب: تاه في الإفتراض والظن، حتى تكويه فتنة وينبغ قول جزاف يصدمه.

❑ لمعات ومَضات..... فكثّفتها

❑ الخطة الفرعية السادسة : تجويد التربية التطويرية.

فقد أسلفنا أن التربية الشمولية نقدمها لجمهرة عريضة من أجل أن نكتشف العناصر المتميزة التي يمكن أن تقود مائة نوع من العمل الدعوي، بل أستطيع أن أزعم أن مقياس النجاح التربوي يكمن في مقدار النجاح في تربية هذه الصفوة المختارة ذات النباهة، **فلا بد إذن أن نتقن التربية التطويرية**، وأن نضع لها منهجية رديفة للمنهج الشمولي العام، منها :

محاضرات خاصة، ومطالعة كتب، ورؤية فيديو وأفلام سينمائية ممثلة وتسجيلية، وزيارة ساحات ساخنة، ولقاء بعلماء شرعيين، وحوار مع مفكرين، ومع أُناس مشاهير من رجال الأعمال ومدراء الشركات والمصارف، والصحفيين، والسفراء، وأساتذة الجامعات، مع تدوين الداعية لتقرير ميداني، وبحث موضوعي، في أشياء أُخرى شرحتها رسالة " معاً نتطور " ولست أُحب التكرار.

والدليل على حاجتنا إلى التطوير : أن الشكوى دائمة، وأكثر القادة يلخصون الأزمة بكثرة الأعمال واللجان والمؤسسات والمنابر الدعوية، وقلة الرجال الذين يصلحون لها.

وتقول تجربتي الشخصية **أن التطوير يبدأ من حرص تبديه اللجنة التربوية على اكتشاف العناصر الواعدة اكتشافاً مبكراً**، ورعايتها إذ هي في ظلال المنهج العام قبل تخرجها منه، بزيارة ومكالمة هاتفية ورسالة تشجيع، ومحاولة نقلهم إلى العاصمة ربما إذا كان أحدهم نائيا، وتيسير دراسته الجامعية، وهذا جزء من فقه تكليف اللجان التربوية بالتفتيش والمرور الاسري.

❑ **الخطة الفرعية السابعة : الاستدراك على ضعف بعض النقباء وبعض جوانب المنهج.**

فإن الجماعة أسيرة القَدَر، والمثل يقول " الجُود من الموجود "، ويتم تكليف الأمثل إذا افتقدنا مستجمع الشروط، كما أن المنهج قد يتأخر أحياناً عن مواكبة التطورات وتلبية الحاجات، لطول عملية أي تغيير فيه ومرورها باجتماعات كثيرة ومباحثات قيادية، وبذلك يكون الاستدراك على هاتين الظاهرتين واجباً.

وقد تتعدد الاقتراحات الاستدراكية، فتكون الوصية بتعميم طريقة الدروس الشرعية الجادة في المساجد على يد العلماء المكافئين، أو إظهار زعماء قدوات يرفعون درجة الولاء في نفوس الاتباع ويثيرون العواطف، وكل ذلك صواب، ولكن العمل الاستدراكي الأقوى أثراً فيما أرى يكون في إصدار " **مجلة الخلاصات** " في كل بلد، تلخص المقالات المهمة المتميزة في الصحف الإسلامية وغيرها، والتحليلات المثيلة التي تبثها قناة " الجزيرة " وأمثالها، وخبراً يتهامس به الناس غير منشور، وما في بعض الكتب الجديدة، وتصدر أُسبوعياً، إذ ليس كل نقيب أو داعية يُتاح له حيازة هذه الصحف أو يجد وقتاً طويلاً لقراءتها أو مشاهدة القنوات التلفزيونية، والدليل على أهمية هذا العمل : النجاح الكبير الذي حققته " رسالة الإخوان "، لكن هذه الرسالة غير كافية، لأنها مصاغة مجمعة لتلبية الحاجة في أدنى صورها إلى العالم كله، بينما الخلاصة القطرية تراعي حاجة القطر، ويمكنها التنويع والإطناب، ثم تكون نفس المجلة على موقع خاص في الإنترنت، فيتاح إطلاع أهل الأقطار الأُخرى عليها إن رغبوا، من قيادي ومتخصص وبرلماني ومفكر، فيزيد انعكاسها المفيد ويكون تبادل الرصد بين الأقطار عبر ذلك.

وأظن أن صدور هذه المجلات المستخلصة التي يمكن أن تعيد نشر بعض التقارير والدراسات أيضاً يكون ضرورياً في أربعة أنواع من البلاد إن لم يكن على الامتداد العالمي :

• البلاد غير العربية، لأن سعة الإنتاج الإعلامي والفكري في البلاد العربية أوسع مما هو عليه في بقية العالم الإسلامي، فوجب توحيد مستوى التلقي بين دعاة العالم بترجمة النتاج العربي إلى لغات كثيرة، كل بلد يتولى ما فيه مصلحته.

• البلاد الفقيرة التي لا يستطيع أهلها شراء الكتب والصحف وحيازة الكمبيوتر إلا قليلا ، فوجب تعميم النفع بالمختصر المنتقى.

• البلاد المحكومة بقبضة حديدية وتخضع لرقابة قوية، فإن التعتيم الإعلامي فيها يعزل أهلها عن الأنباء الحقيقية والتحليلات.

• البلاد التي وصلت الدعوة فيها إلى مرحلة خططية متقدمة فاتسعت فيها أعداد المستقلين المتعاونين مع الدعوة من غير التزام، مثل سياسي ورجل أعمال وشيخ قبيلة، وكذا أنواع الحلفاء من التجمعات الإسلامية الصغيرة أو الأحزاب السياسية الصغيرة، فهؤلاء كلهم ليس لهم شوق لتتبع مصادر الأخبار والتحليل مثلنا، ولا لهم وعي يعينهم على تمييز القول، فوجب أن نقوم بتربيتهم وتقريبهم وتوحيد نظراتهم عن طريق مجلة الخلاصة هذه.

وهل بعد هذه الأنواع من البلاد من بلد ؟

هذا يعني أن مجلة الخلاصات ينبغي أن تكون حقيقة في عالم الواقع في كل قطر فوراً، وأن تسند مهمتها إلى لجنة خاصة برئاسة داعية من أصحاب الوعي السياسي مقتدر على الكتابة والتحرير والنقد والتمييز.

❑ اللسان الدعوي الواحد

❑ الخطة الفرعية الثامنة : تدبير التنسيق الموضوعي بين كلام الوعاظ وخطباء الجمعة والإعلاميين وأساتذة الجامعات ومدرسي المدارس، بحيث ينسجم مع قضايا الساعة، ويكون كلامهم صادراً من منطلقات واحدة في التوصيف والتحليل، وبذلك تحدث الظاهرة " الليزرية " في تركيز الضوء وإكسابه قوة الإختراق والنفاذ والتأثير القوي، ويتنقل السامع يومه وليلته بين مصادر الإيحاء هذه فتزداد قناعاته، وتتصاعد حماسته، ويتعاظم ولاؤه للدعوة، وينطق بدوره، ينقل الرأي لجار وجليس وصديق وشقيق، **وهذه هي إحدى أهم الوسائل التربوية القبيلة والبَعدية معاً، ولجنة التربية هي مفصل التنسيق الأهم في ذلك، وتتعاون مع لجان أخرى، وهذه الطريقة هي من عطاء العمل الدعوي،** وتعجز عن أمثالها أعمال المستقلين، **ويتأدى بها استدراك عظيم على أي ضعف في منهجية التربية،** ويزداد أثرها بخاصة في الحالات التي يجري فيها تعتيم إعلامي متعمد يحجب الحقائق عن جمهور المسلمين، ووحدة كلام المتكلمين تقذف تلقائياً في قلوب السامعين معنى لازماً يحس بعين

الإكبار والإعجاب لدعوة ناجحة تقف خلفهم وتلقنهم وتوحد أفكارهم، وهذا الأسْر المعنوي هو بلا شك أحد التمهيدات القوية لبدء المرء تأسيس علاقة مع الدعاة.

❑ ننفض عن ضيفنا غبار وعثاء الضياع

❑ الخطة الفرعية التاسعة : معالجة آثار العيوب الاجتماعية في الداعية، بالوعظ والحوار والتفهيم، وبقدوات يضربون المثل الصحيح.

فالمنهج العالمي حدٌ أدنى وقاسم مشترك، وكذا أمثاله من الكتب التربوية التي يصدرها مؤلفوها يتتبعون في الأغلب المواعظ العامة التي تصلح في كل مجتمع، ولكل جيل، ولكل فرد، ولكن تبدي تجاربنا ومعرفتنا الواقعية أن **كل بلد تشيع فيه سلبيات وعيوب بين الناس ربما تختلف عن البلاد الأُخرى**، ومنشأ ذلك أسباب كثيرة يكشفها تاريخ البلد، ولذلك يلزم أن تضاف إلى المنهج لمسات نسبية تختلف باختلاف البلاد، فيها معالجة لتلك السلبيات، لأن الداعية المنتمي لنا ربما يظل دهراً بعد انتمائه رازحاً تحت تأثيرها، لأنه ربيب المجتمع العام.

• أُنظر مثلاً : لا أُبالية الناس بما يجري للبلد والأُمة من كيد استعماري وظُلم عالمي، أو نشر فساد، ويكاد هذا المرض أن يكون عاماً في معظم البلاد، فكل يقول : نفسي نفسي، والقليل مَن يتصدى للإصلاح والمقاومة والرفض والتضحية ببعض جهده وماله من أجل الصالح العام، ومفتاح علاج ذلك : ترك الفرد يشعر بالمسؤولية العامة وأنه جزء في تكوينها وتفعيل الأعمال الوقائية، **وكذلك إنقاذ الفرد من حالة الإحباط واعتقاد فوات أوان العلاج والإستدراك**، ويكون غرس مثل هذين المعنيين في النفوس بالبحوث والكلام المنطقي، وبأدب وشعر يعززهما، والنجاح في هذا المسعى التربوي يفتح الباب لانضمام مئات أُلوف إلى الدعوة كأعضاء وأنصار، يحبسهم اليوم إحباط أو حرص شخصاني.

• وقريب من هذا : الخوف، ورهبة استولت على النفوس من متاعب تسببها المطالبة بالحقوق، بينما تكمن حماية مؤكدة في سعة عدد المطالبين وتكتلهم، لو كانوا يعلمون، إذ يعجز الظالم عن مقاومة تيار عريض سائد، ففي الكثرة حماية، وهي أنفذ وسائل الدفاع، بينما استطاع الظالم أن يظلم في أماكن عديدة لأنه انفرد بقلّة لا يظاهرها سواد كثير، وهذا المنطق أصل، ولكن ترويج أغاني ديوان الحماسة لأبي تمام جزء من العلاج أيضاً، وتأليف شعراء الدعوة لعشرة دواوين مثله خطوة

أُخرى في العلاج، وعشرة دواوين أُخرى في " **الحرية** " وعشقها، **وما زالت أوتار العاطفة أنفذ سلاح**، وتدوين أخبار البذل وقصص الشهداء تستأصل كل هاجس، ولما قرأت بنتي مدونة شهداء الحماسة في فلسطين استأذنتني فوراً بالتطوع، فأفهمتها أن في الرجال كفاية.

• وأنظر مثلاً : **آثار هجمة المال والترف في البلاد النفطية**، مثل الخليج والسعودية، فقد صرفت جيلاً واسعاً إلى اللهو والاهتمامات المرجوحة، والكلام الأخلاقي الوعظي كثير، ولكن يبدو أن بروز القدوات المحليين بأعداد كبيرة فيه علاج أجدى، وبخاصة : إسناد ذلك بمؤسسات شبابية تتيح اللهو المباح النافع والمغامرات البريّة والبحرية وصعود الجبال وقطع الصحراء وركوب الخيل والجمال، وكل ذلك من التربية القبلية التي لو بذلنا فيها الجهود فإنها لا تضيع، وإنما نجنيها لاحقاً، لأنها تؤدي إلى وجود جيل جدي منفتح النفس قوي الشخصية، وانفتاح النفس هو الشرط الضروري لإبصار الحق وإدراكه وتمييزه، ولذلك فإن **هذا اللهو المباح هو جزء من منهجية التربية الدعوية عند التحليل المتأني**، وإن لم يدركه وينتبه له أكثر الدعاة الذين ما زالوا في أساليبهم المشيخية الرجعية يسدرون.

• ومن العيوب المحلية : تأثر المسلمين في الفلبين بالأعراف النصرانية التي فيها تساهل أخلاقي بصورة خاصة، وإنطلاء دعاية تمازج الثقافات المختلفة في ماليزيا على كثير من المسلمين، إذ نصف الشعب هناك بوذي وهندوسي، فروجّت التربية الحكومية العلمانية لمعنى امتزاج الثقافات من أجل تحقيق وحدة وطنية بزعمها، فأصبح المسلم غير نافر من ثقافة غازية جلبها الاستعمار لتنافسه في عقر داره، وأصبح الماليزي المسلم هيّناً ليّناً يبالغ في الهدوء، في حين تنحت الناحتات من استقلاله المعنوي الثقافي.

❑ الداعية مُعلّم، ثمّ مجاهد..... وذلك عنوان استيفاء المراتب

❑ **الخطة الفرعية العاشرة : الوصول بالداعية إلى مساهمة عملية فعلية في وضع لبنة في البناء الحضاري الإسلامي.**

وهذا البناء الحضاري قد يمنعه عدو، فيكون الجهاد عندئذ هو الطريق الوحيد اللائق، دفاعاً عن الحق في البناء.

وجوهر هذه التربية : نقل الداعية من أن يكون مجرد مستهلك إلى أن يكون منتجاً، وتحويله من النظرية إلى التطبيق العملي، ومن التعميم إلى التخصيص، بأن يتعهد بوضع لبنة في الصرح، ولا يكفي أن يكون محلقاً مع العواطف العالية من دون أن يتميز بنوع إضافة، ونحمله على أن لا يغادر الحياة الدنيا هذه إلا من بعد أن يقدم شيئاً محسوساً يبقى بعده، من كتاب فيه علم، أو تجارة فيها حفظ مال، أو مصنع يقرّب الأُمة خطوة نحو التمكين وبوحي بجهاد، أو أبيات من شعر تسير، أو مؤسسة تخدم غرضا، أو اختراع فيه إبداع، أو لوحة رمزية تجريدية تثير الخبء، وأقل ذلك : المشاركة في بناء مسجد أو تأسيس صندوق خير، ونقبل من صاحب العذر : الترميم والإحياء والصيانة لإنجاز مَن سلف، ومصدر الوعظ في كل ذلك : سؤال الإمام البنا المثير : هل نحن قومٌ عمليون ؟

وكل منهجيتنا التربوية كان الفقهاء يسمونها : " جهاد النفس ".

وقد شرحوا أوصافها وبيّنوا مراتبها.

قال ابن حجر :

(وجهاد النفس أربع مراتب :

- حملها على تعلّم أُمور الدين.
- ثم حملها على العمل بذلك.
- ثم حملها على تعليم من لا يعلم.
- ثم الدعاء إلى توحيد الله وقتال من خالف دينه وجحد نعمته.) [1].

وهذه في الحقيقة هي المراحل التربوية التي تصفها الخطة التربوية الدعوية، فإنها تبدأ بمرحلة التعليم التلقيني القاعد المستكن. ثم تليها مرحلة من التعبّد الكثيف وترويض النفس وتحمل الشدائد. ثم يُدفع الداعية نحو المخالطة الاجتماعية، للتبشير والتعليم وانتقاء الأنصار الجدد وتربيتهم. ثم يتم تنسيبه إلى مجمع التطوير الحضاري وإمداده بالوعي السياسي والفن الإداري والإحساس الجمالي والمنطق البليغ والفكر الأُصولي التقعيدي النقدي، ليجاهد في أحد ميادين الإعلام أو العمل المؤسسي أو النشاط الاقتصادي، وليحوّل هدماً تسبّبه ألحان هزّات الأوتار إلى بناء إنتاجي وجهاد اقتصادي يحول دون سريان خطط

---

(1) فتح الباري 14/ 122 طبعة الحلبي.

التطبيع، ثم من بعد ذلك أن احتاج إلى قعقعة حديد : روينا له إفتاء ابن حجر السديد.

ولن يصل الداعية إلى المرتبة الرابعة ما لم يكن في الأُولى جادّاً مشمّرا، كما قال أبو علي الدقاق فيما نقله ابن حجر بعد قوله الآنف : (مَن لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة : لم يجد من هذه الطريق شَمّة.).

فأول خطوة....

نفضةٌ لها قوة....

ورَبْتَةٌ وضَمّة....

وضغطةٌ وحصرة....

وإلاّ لم يفهم منهجَ التربية الدعوية....

ولم يجد طيبَ ريح التزكية....

ولا شمّة.... ۞

ما يحدث

مـن شبه إجماع الأُمة الإسلامية على رفض الصلح والتطبيع مـع الـيهود، وزيـادة كراهـتها لأمـريكا والفـرح بأي عمل مضـاد لهـا ولو كان ساذجاً لا يصوّبه تخطيط : يدل على **أن الـناس رغـم غفلـتهم ولهوهـم يحـبون أن يقودهـم أحـد ويـسـير بهم في الطرق العوالي.**

ولئـن كـان العمل الإسلامي يتصف برفع الصوت أحياناً، والتحدي، والمواجهة، فـإن الحكمـة، وقوانين فقه الدعوة تلزمنا أن يكون عملنا الدائب صامتاً في أحيان أُخـرى، وأن يكـون متحلـياً بالعـزة الإيمانـية، وإنمـا بـرفق، وأن نمهـر فـي إجراء الموازنـات المصـلحية والمقايسـات النسـبية، فلـيس هـناك مـن الوسـائل والمواقف والخطـط مـا هـو خـير محـض ونفع تام، أو شر مغلق وضرر من كل وجوهه، ولكن يشـاء الله أن تختلط المصالح بالمفاسد دائماً، فيكون حرص الداعية الفقيه في أمر دعوتـه أن يـوازن الموازنات الدقيقة، وأن يتحرى طريق الالتفاف إذا صعبت الـطرق السـالكة، وأن يسـري لـيلاً إذا أرهقته شمس النهار، مع صبرٍ وتحمّل وتجمّل، دون جري مع العواطف والحماسة اللاهبة التي تتهم الموقف الحكيم بالخنوع.

والـذي يشـجعنا علـى هـذه المواقـف ذات المـداراة : **أن الدعـوة الإسلامية قد اسـتتبّت صـفتها العالمـية ونالت بذلك قوة تنعكس على كل أجزائها القطرية، وذلك داخـل تحـت معـادلات الحكومات التي تعلم أن غضبة الدعاة في العالم هي واحدة الآن**، ولذلـك ولّـى زمن المحن الشديدة بإذن الله، وإنما هو المنع من الفرص فقط، والمعاكسـات المحـدودة، والفـرص سانحة اليوم لنشر الفكر الدعوي وتربية عشرات أُلـوف مـن شـباب الإسـلام الصاعد أو مئات أُلوف ربما في بعض البلاد إذا حصل منّا الإتقـان لسياسـة الهـدوء وعـدم توتـير الأجواء وامتصاص الصدمات وحالات الاستفزاز والبعد عن التورط في ردود فعل تؤدي إلى فوضى وعدم استقرار، وهذا لا يعنـي الـتراجع الدائـم، بل نجادل بالحسنى رجـال الإدارة والأمن والإعلام، وتكون مـنا المحاججـة، والاعـتراض، والمناقشة، ولكن من غير أن ندع رجل الشارع يسير بـنا إلـى حالات الحرج والمصادمة، **فإن رجل الشارع تقوده العواطف، ونحن يقودنا التخطيط والنظر البعيد والفكر الموزون.**

ومما يعين على ذلك : **المرابطة الدائمة، كلٌ في بلده، ووقف نزيف هجرة الطاقات من بلادها إلا لضرورة تقدر بقدرها ويعرفها المنصف**، إذ الفرصة مواتية اليوم لكي نقود شعوبنا، وفي الساحة فراغ قيادي، ولا ينبغي الاستشهاد بهجرة من ابتلي بالهجرة متأولاً ثم أصبح أسير أوضاع عائلية وغيرها لا يستطيع منها فكاكا، ولعله اليوم في ندم، فإن في الهجرة انسحابية ووقوع في السلبية إذ الموقف يتطلب الخطوات الإيجابية، وفيها إخلاء للساحة من العاملين إذ مجال الإنتاج متاح، ولسنا ننكر الصعوبة، ولكننا ندعو إخواننا إلى البذل والثبات، فإن المحن سُنة الدعوات، وقد رأيت في مختصر تاريخ الخلفاء للسيوطي خبر عالم بمصر رأى استمرار العيش فيها لما سرى القتل إلى بعض أصحابه أيام الحكم الفاطمي، ورأى الهجرة تركاً للعامة بلا قيادة، فكره ذلك، **والدعوة اليوم في أكثر البلاد هي في دور انفتاح وتوغل في العمق، وتكثير للعدد وتخصص وترسيخ تربوي، وسيكون كل ذلك عاملا حاسماً في كسب المستقبل بإذن الله، وقطرات دم الشهيد الساقط منا ستكون مداداً تكتب به وثيقة تعاهد أنصارنا على المضي في الدرب، وأنفاس السجين ستحرك القلوب المتعلقة به واللاهجة بالدعاء له، وأنين المظلوم سيكون نشيد المسيرة، وهذه أحوال إحسانية تغري اللبيب بالثبات في الساحة، طلباً لأجر انتصابه كقدوة لغيره**، وكل أحوال المؤمن خير، وللسالكين نحو المعالي مدارج ما زالت ترفع أصحابها، والموفق من وفقه الله فصبر واستحلى الأجر وأمسك بالإزميل فنحت في صخر قلوب الغافلين الصلدة حروف القرآن ورباهم على الإيمان من بعد تفريط.

إن السنوات القادمة أراها مفصلية وحاسمة في تطور العمل الدعوي في جميع أنحاء العالم، ويعدها ستكون سعة انتشارنا أكبر عامل وقاية لنا، تمنع الظالم من الإسراف في الأذى، وأما ما دون الإسراف من تحرش سمج فإنه لن يضيرنا إن شاء الله وقد تعودنا عليه، وأنت إذا قطفت وردة جميلة توقّعت أن يجرح شوكها بعض أصابعك، ثم الحياة عطاء كما هي أخذ، والنازل إلى السوق لن يشتري مجانا.

إن كل داعية مجرِّب قد نال حظاً من التربية وحاز شيئاً من الفكر يمكنه أن يكون نقطة إشعاع في هذه الحملة، وأن ينتصب قدوة، وأن يجسِّد معنى الأسوة الحسنة، ويدفع الخط البياني إلى صعود أكثر عبر إتقانه تمثيل الأركان السبعة المتكاملة للقدوة الحسنة في منهجية تربيتنا الدعوية :

❑ **أولا : البعد الجماعي في معنى الإقتداء.**

فإن المربي الدعوي وإن كان مطالباً بالمسارعة إلى كل خير يأمر به، **إلا أنه إنما يذكر الجماعة حين يتكلم**، ويَضرب بها الأمثلة، ويقدم فكرها على أنه الفكر، وإنجازها على أنه الإنجاز، ويفتأ يذكر تاريخها وأبطالها ومناقبها، ليؤسس الولاء لها، ولا نرى أن يقدم نفسه بكلام مهما كان صالحا، وإنما حاله الصامت يتولى التفهيم.

ومن المعاني الواضحة في ذلك : أن الصحوة الإسلامية العالمية المعاصرة أصبح لها وقع معنوي ذاتي ضخم في نفس كل داعية ومراقب، ولذلك ينبغي تنسيب كل مستجيب وصاعد لها، ليفهم أنه جزء من تيارها العام، وأنه يمثل بعض فئة المؤمنين، حتى أن الداعية الفرد إذا أراد الاستدراك وخاطب الناس فإنهم لا يستجيبون له، ليأسهم من تمكنه من شيء، ولكن إذا تصدت جماعة فإنهم ينظرون لها نظرة التفاؤل ورأوا الاستدراك ممكناً وتعاونوا معها، لأنها ليست مجرد جزء في تكوين الصحوة، بل هي إحدى قيادات الصحوة، وما يقال من أن بلداً سرت إليه الصحوة فإنه في الحقيقة إنما صحا ثقةً بحال بلد آخر صحا قبله، فرؤيت من صحوته المحاسن، فكان إقتداء جيرانه، فكيف بأكبر الجماعات، وبدورها القيادي لقيادات الصحوة ولعدد كبير من المؤسسات الإسلامية والأعمال الثقافية والخيرية ؟

ويشكل هذا الربط المعنوي بالشخصية العامة للجماعة وأسمها العَلَم وسجلها الناصع أحد وجوه منهجية التربية الدعوية، ولسنا نستنبط ذلك من خطر إيراد المربي لكلمة " أنا " وكراهة ذلك في العرف الإيماني، فإن ذلك مفروغ منه، وإنما نستنبطه من وعينا لبركة الارتباط بين الفرد والكيان الجماعي وجدواه التربوية العديدة الوجوه، بحيث يحصل على الامتلاء النفسي، وعلى ثقة أعمق من أي ثقة بشخص مفرد، وتصبح للمنتسب هوية معروفة لا تستدعي أن يشرحها، ويتوفر له احترام من المقابل السائب، وهيبة من الخصم، وهي أمور تحصل من مجرد الانتساب بدرجة أولية، ولكن عمق التأثر إنما يحصل بهذا الربط الجماعي وشعوره بأنه قد أوى إلى ركن شديد وتيّار هادر.

❑ **ثانياً : البعد التأصيلي في غرس الإقتداء.**

فلا تكفي مدارسة رسائل الإمام البنا، ولا الكتب الفكرية المعاصرة التي جمعت أنواعاً من الصواب، وإنما يكون أيضاً **تعويد الدعاة الصاعدين على الرجوع إلى مصادر العلم الشرعي الكبرى**، فتعوده على طول لبثٍ مع صحيح البخاري، وتفسير

للقرآن مما كتبه الأئمة، مثل تفسير ابن كثير، وعلى رسالة الشافعي، ومختصر في الفقه على أي مذهب كان، فإن مطالعة هذه الكتب تجعله صاحب حذر واحتياط في أمره الديني، وتمنعه أن يتساهل، ويُستحسن عقد مجالس علم في المساجد لشرح هذه الأُصول.

ويدخل في هذا البعد التأصيلي ذكر سِيَر الفقهاء والزهاد وكبار المجاهدين عبر التاريخ الإسلامي، ثم يكون ذكر سِيَر الدعاة المعاصرين وأعيان دعوتنا.

وبالمقارنة : نجد أن جماعة النور في تركيا يقتصر منهجها على تدريس كتب مؤسسها ولا يتجاوز ذلك، فتنغلق الجماعة، ويكون الولاء لشخص المؤسس فقط، وليس للجماعة، مما اضطر أحد قادتها للإنفصال عنها من أجل تدريس العلوم الشرعية.

□ ثالثاً : البعد المدني والاجتماعي في الإقتداء.

فكل مجتمع صغير داخل المجتمع الكبير له قدوته من أهله، فمجتمع المثقفين له أعرافه وقدواته، على خلاف مجتمع الأُميين، وفي كل خير.

ولا يصلح ناسك يابس للتعامل مع رجال الدولة، كمثل قبيصة بن عقبة السوائي شيخ البخاري وتلميذ سفيان الثوري، لمّا أتاه قائد الجيوش العباسية أبو دُلف العجلي أيام محنة خلق القرآن يستشيره فيما يجب أن يفعل، فأخرج قبيصة كسرة خبز وقال : ما دامت هذه عندي فلستُ بحاجة إلى بحث دنياكم. فرجع المسكين خائباً لا يدري أي محنتي الإسلام أكبر : محنته بالمبتدعة، أم محنته بالثقات أهل اليبوسة ؟

ومن قبل ظهور الكومبيوتر كنت أقول : إن من علامة الداعية المتمدن أن تجد عنده أنواعاً من الورق، والمسطرة، والقلم الأحمر للتأشير، والشريط اللاصق، وبقية الأدوات المكتبية الصغيرة التي تيسّر أمور حياته، وإلى اليوم أجد من هو رجعي متخلف وفي بيته فوضى.

وكم من عيب ذوقي فينا ؟ ابتداء من وضع رجلٍ على أُخرى في مجلس فيه أكابر، مروراً بإهمال فرشاة الأسنان أحياناً، انتهاءً باستعمال التلفون في غير وقته !!

❑ رابعاً : البعد التنويعي في أُسلوب تحصيل الإقتداء.

فبعض الناس تقوده بكلام فقه، وآخر ببيت شعر، وآخر بتحليل سياسي، وآخر بعمل خيري، وآخر بلوحة فنية، حتى إذا استقام أي واحد منهم على الدرب ومنح الولاء : ملت معه إلى التأصيل والجد.

ويتكلم القدوة، ثم يميل إلى الفعل المجرّد أحياناً، وأحياناً يكتفي بإيماءة عين تعاتب.

ونضع أهدافاً كبرى عامة نقود الناس لتحقيقها : فنطلب لهم الحرية وحقوق الإنسان، ونقاوم بهم التطبيع مع العدو، ونتملص وإياهم من ظلم النظام العالمي، ونوجب اقتران التنمية بالشورى ومنع الفساد الإداري.

❑ خامساً : البعد النسبي في الإقتداء.

تبعاً لحاجة الظرف. فوقت الجهاد : القدوة بطل، والصورة المثلى لمتجرد يفدي نفسه و يُتلفها، ويعشق الجنة، ويكون سريع الاستجابة لا تثقله شواغل.

ووقت طغيان المادة : القدوة زاهد عفيف.

وقدوة الحاكم : عالم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وسخِر الغزاليٍ من فقيه يدخل على السلطان فيعظه في التنزه عن البول ثم يخرج ويقول : قد وعظت السلطان.

ثم سخر الرافعي بعده بألف سنة من خطيب يحمّر وجهه، وهو يعلم أنه أول المتخلفين، من يوم رضي أن يحمل سيفاً من... خشب.

❑ سادساً : البُعد القصدي في الإقتداء.

ولا شك في أن خير عمل القدوة ما كان على رسله يدفعه صدق التوجّه، ولكن التكلّف وارد، والتجمّل للمقابل واجب، والإنكار الذي في قوله تعالى : " لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ " لا يمنع حسن القول إنْ تخلّف العمل كما قال المفسرون.

وذكر العلماء أن ترك العمل خوفاً من احتمال الرياء : رياء، بل يكون المرء على السجية، ثم الله يرزق حسن النية.

وإظهار صلاة الجمعة والصلوات الجامعة اليومية فيه من البُعد القصدي شيء. قيل : تظهر بذلك هيبة الإسلام، ويتشجع المسلم الضعيف، ويوحي منظر الصفوف المستقيمة معنى النظام والوحدة والتراصّ.

ولذلك فإن الإعلام الدعوي مكلَّف بإظهار شخصيات الدعوة وقادتها ومفكريها، والدعاية لإنجازات الدعوة، والتواضع في هذا الباب مرجوح.

وكان الزاهد يوسف بن أسباط في عدد من أصحابه وقد مال بهم إلى بعض تبسط ومرح من بعد جد، فدُقت عليهم الباب، فأمرهم بالسكوت والوقار، فأنكر تلميذ منهم ذلك واعتبره من الرياء، فأفهمه يوسفُ وهمه، وأن القادم ربما ظن أن المرح هو حالهم الغالب.

❑ **سابعاً : البُعد الإبداعي.**

إذ في الشيء المبتكر قوة إضافية.
والتجديد في ضرب المثال يأسر قلب المراقب.

قد تكون كلمة واحدة أصيلة لم يقلها أحد من قبل، كالتي قالها شكري لما أمر أتاتورك بإعدامه فانقطع حبل المشنقة به، فقال : كل جاهليتكم رديئة، حتى حبالكم رديئة. وتروى الكلمة عن عمر المختار كذلك.

فانظر كيف يتضاءل أمر الجاهلية عند السامع، حتى أن ما فتلته أصابع الكائدين استحال وهناً رخوا.

ثم في الكتابة إبداع، لولاه لما تميّز بليغ عن هاذِر.
وفي الفقه إبداع، لولاه لما طغى اجتهاد على تقليد.
وفي الإغاثة إبداع، لولاه لما وصل درهم دبي والكويت إلى وراء المحيط.
والإقتداء لا يعني الجمود والحرفية في المتابعة.

بل يتلون القدوة وفقاً لمحيط عمله ونوع المقتدين، طلاباً كانوا أو عمالاً، شباباً أو كهولا.

وكل مُبدع يحتاج أن نمنحه حق الخطأ، ليكون فيه إقدام على تجريب الشيء الجديد الذي ينقدح في ذهنه، و إلاّ فإن الملامة التي يتوقعها تدعه يُحجم.

ومن أسباب الترهل المذموم الذي يُبتلى به بعض القدماء من الدعاة : النمطية والتكرار، وعلاجها بالإبداع الذاتي إن كنا نستطيع أن نُعلّمه إياه، وذلك صعب، أو بإلحاقه بعمل مبتكر يبدعه غيره، فلربما تجدّدت حيوية وخرج بعد ترهل إلى إيجابية.

☐ الصفات الرفيعة اللازمة لكل قدوة

والوصول إلى هذا التوصيف الشامل للقدوة يقذف في القلب معنى سعة مجالها وما هو متاح لها من عمق التأثير، ولذلك يلزمها أن تستند إلى ذخيرة إيمانية أخلاقية وافية هي الأساس الذي ترتكز عليه هذه الفذلكات الإبداعية والقصدية والمدنية، ويُجْمل ذلك : توجه منهجي في التربية الدعوية يحرص دوماً على تحقيق معاني العبادة لله رب العالمين، بمعناها الواسع الذي يطبع كل أعمال المسلم بصبغتها عبر توفر النية، مع وعي فحواها العقائدية السلفية المتنزهة عن الابتداع، وهو توجه يُنتج التقوى في الآخر، ويقف بالمسلم بعيداً عن العصيان والدنايا، بل وعن الأمور المفضولة، بحيث تسيطر على قلبه خشية تأمره بتعب ونَصَب وفطم للنفس عن الهوى، وتنهاه عن دوران في فلك واطئ مع الغافلين.

☐ **وأول ذلك، والمبتدأ بعد الفرائض والسنن الراتبة : تعليم الداعية معاني أسماء الله الحسنى، وتركه يعيش معها، محققاً لمستلزماتها**، إذ لكل اسم ما يليق له من مشاعر القلب وأعماله، ومن أجل ذلك كان " تهذيب مدارج السالكين "، وهو نمط من الكلام الجيّد الذي وُفّق إليه ابن القيّم يتجاوز جدليات الكتب المشهورة في تعليم العقيدة ومنطقها الكلامي، ويميل إلى توسيع الطريقة القرآنية في غرس العقيدة عبر موازين الفطرة، **وبذلك يتحدد مَعلم مهم من معالم منهجية التربية الدعوية التي تخالف منهجية أخرى تتبعها الجامعات الإسلامية وأكثر المدارس الشرعية، حيث ما زالت تلك المؤسسات التعليمية أسيرة كتب المحاجة والردود التي ألفها علماء الفروع الذين جرّدوا نصوص العقيدة وفصولها عما صاحبها من مواعظ، وأخرجوها من السياق المتدرج الذي وردت فيه في القرآن، ففقدت زخم تحريك السياق لمعناها وأثر تعاقب نسَق المعاني القرآنية والرديفة المماثلة في إقرارها في النفوس، ولذلك أضحت نصوصاً يجيد العقل إدراك مبناها، من دون أن**

تنطق القلوب بمعناها، أو أن تنفعل انفعالاً قوياً بمغزاها، وذلك هو السر في أن الجامعات لم تنجب الدعاة إلا قليلاً.

وهذه القضية المنهجية واضحة جداً عند العلماء الدعاة، ومن أبرز مَن ركّز عليها وشرحها فضيلة الشيخ الدكتور عبد الله قادري الأهدل في كتابه "الإيمان هو الأساس"، وتعضد ذلك تنبيهات الدكتور عبد الوهاب الديلمي في مقدمته لهذا الكتاب.

إذن : فالأمر أبعد من أن تدعي لجنة تربوية أنها تعتني بتدريس علم العقيدة والإيمان، إذ يبقى السؤال : **على أي منهج يكون ذلك ؟**

وكخطوة عملية أُولى فإني اقترح اختيار كتاب "الإيمان هو الأساس" كجزء من المنهج في هذا الباب، فإنه مبني على هذه المنهجية الصحيحة الأصيلة.

وقد سبق إمامُ العلماء الدعاة عزُ الدين بن عبد السلام ابنَ القيّم في تقرير هذه المنهجية التربوية في التعبّد بأسماء الله تعالى، وقرنها بعموم الفهم الواجب على قارئ القرآن لآياته إذا تلاها، والتدبّر في معانيها إذا صلّى بها، فقال :

(إن المصلي مأمور إذا قرأ القرآن أن يلاحظ معانيه، وإن كان في آية وعد رجاه، ولهذا قال سبحانه وتعالى : (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) **وإذا كانت آيات الصفات تأمّل تلك الصفة، فإن كانت مشعرة بالتوكل فليعزم عليه، وإن كانت موجبة للحياء فليستحي منه، وإن كانت موجبة للتعظيم فليعظمه، وإن كانت موجبة للحب فليحبه**، وإن كانت حاثة على طاعة الله فليعزم على إتيانه، وإن كانت زاجرة عن معصية فليعزم على اجتنابها، ولا يشغل عن معنى ذكر من الأذكار بمعنى غيره وإن كان أفضل منه لأنه سوء أدب، ولكل مقام مقال يليق به ولا يتعداه، وكذلك لا يشتغل عن معنى من معاني القرآن باستحضار معنى غيره وإن كان أفضل منه، ولذلك تكره قراءة القرآن في الركوع والسجود، ويكره التسبيح في القعود مكان الدعاء، وإذا دعا فليتأدب في الدعاء بالتضرع والإخفاء لقوله تعالى : (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً)، فالتفات الجنان عما ذكرناه إعراض عن الرب سبحانه وتعالى بأفضل أجزاء الإنسان، وليس الالتفات بالأركان كالالتفات بالجنان لأن الالتفات بالجنان، مفوت لهذه المصالح التي هي أعم العبادات ورأس الطاعات وعنها تصلح الأجساد وتستقيم الأبدان، فمن صلى على هذا الوجه كانت صلاته كاملة ناهية عن الفحشاء والمنكر، وعلى هذا يحمل قوله تعالى : (إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) فيكون الألف

واللام فيها للكمال : أن من أتصف بهذه الأحوال والملاحظات كان إذا تحلل من الصلاة قريب العهد بذكر هذه الصفات والأحوال الزاجرة عن الفحشاء والمنكر)[1].

وسبقَ الطبريُ العزَ حين قال في أول تفسيره : (عجبت لمن يقرأ القرآن ولا يعلم تفسيره : كيف يلتذ به ؟).

وليس السلف الذين أكرمهم الله تعالى بالتربية النبوية أو الراشدة هم فقط الذين يفهمون القرآن ومقاصد الآيات على وجهها، وإنما كل من بقيت فطرته على الصفاء ولم تكدرها المكدرات، وكل صاحب سليقة وبديهة، وكل مَن له قلب حي، إذا سمع آيات الله تتلى وأنصت وتدبر : خرّ منيباً، وتصاعد إيمانه، وأخذته الرعدة، ورجف فؤاده، إخباتاً ورهبة وفَرَقاً مما ترتكبه العقول القاصرة، ويكون له إقتداء بما كان عليه السلف من الفهم.

وفي صحيح البخاري عن جبير بن مُطعِم ﷺ قال : (سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية : أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ؟ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ بَلْ لا يُوقِنُونَ. أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ؟ **كاد قلبي أن يطير**.) !.

قال ابن حجر : (قال الخطابي : كأنه انزعج عند سماع هذه الآية لفهمه معناها ومعرفته بما تضمنته، ففهم الحجة فاستدركها بلطيف طبعه، وذلك في قوله تعالى : أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ. قيل : معناه : ليسوا أشد خلقاً من خلق السموات والأرضَ لأنهما خلقتا من غير شيء. أي : هل خُلقوا باطلاً لا يؤمرون ولا ينهون ؟.

وقيل : المعنى : أم خلقوا من غير خالق ؟ وذلك لا يجوز، فلا بد لهم من خالق، وإذا أنكروا الخالق فهم الخالقون لأنفسهم، وذلك في الفساد والبطلان أشد، لأنّ ما لا وجود له كيف يخلق ؟ وإذا بطل الوجهان قامت الحجة.عليهم بأن لهم خالقاً.

ثم قال : أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، أي إنْ جاز لهم أن يدّعوا خلق أنفسهم فليدعوا خلق السموات والأرض، وذلك لا يمكنهم، فقامت الحجة. ثم قال : بل لا يوقنون : فذكر العلة التي عاقتهم عن الإيمان وهو عدم اليقين الذي هو

---

(1) قواعد الأحكام 204/1.

موهبة من الله ولا يحصل إلا بتوفيقه، فلهذا انزعج جُبير حتى كاد قلبه أن يطير)[2].

فانظر قوله : كاد قلبي يطير، وتمثّل لنفسك أنك في مثل موقفه وتسمع تلك الآيات أو غيرها، فإنّ عمق التخيّل ومزيد التدبر والاهتمام وحصر الذهن والفكر ينقلك إلى شيء من الاندماج مع المعاني...

ويكون أمر الإيمان والتدبّر القرآني أتم وأعمق إذا اقترنت هذه الخشية الواعية بمنهجية أُخرى في الاستعانة بالتفسير العلمي للقرآن الكريم في غرس التوحيد والكشف عما جاءت به الآيات من دقائق الإشارات حول عجائب المخلوقات ثم جاءت العلوم المعاصرة تشهد بذلك، مما يجعل المسلم المثقف تام الإيمان بأن القرآن وحيٌ موحى، **وهي منهجية جديدة معاصرة في غرس الإيمان لم تستطع مناهج الجامعات الإسلامية مسايرتها بعد، ويليق بالدعوة أن تتوسع في اعتمادها.**

ولا تحتاج لجان التربية في الدعوات الإسلامية إلى جهد كبير إذا أرادت اللجوء إلى هذه المنهجية في بيان الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، إذ ناب عنها **روّادٌ من أئمة هذا الفن فأحصوا ما هنالك، واستثاروا حمية جمهرة من العلماء المؤمنين للبحث، ونسقوا عبر مؤتمرات عديدة بين الجهود العامة، وشاركوا بنجاح، وهم فضيلة الشيخ عبد المجيد الزنداني، و الأُستاذ الكبير الدكتور زغلول النجار، والطبيب الجرّاح الدكتور أحمد القاضي**، في أمثال لهم، وأحاديثهم في ذلك تأسر القلوب والألباب، وتدفع إلى يقين عميق بالوحي وبعظمة الله تعالى، وما على لجان التربية والإعلام إلا أن تجمع كتبهم ومحاضراتهم وتنتقي منها وتروّج المنتقى، فيتعاظم حجم الإيمان في صفوف الدعاة وأنصارهم وجمهور المنصتين لهم، **وهذه الناحية المنهجية الجديدة غدت سهلة جداً، ولكن الخطط التربوية الدعوية ما زالت أبطأ من سرعة تشهدها بحوث الإعجاز العلمي**، وسجلت قصوراً عن المواكبة لها وموازاتها، ولابد من الإستدراك، ثم لابد من دعوة الأُستاذ النجار بخاصة إلى كل بلد، ليقدح بمحاضراته وعجائب أخباره الزناد، ثم يتولى فريق مختص من بعده بقية المهمة.

نعم.... تشهد الساحة قولاً مستعجلاً ومتكلّفا، لكنه ليس من هؤلاء أصحاب النمط الأوسط والإطلالة على العلم الشرعي والتطبيقي معاً، وإنما من آخرين،

---

(2) فتح الباري 469/8، طبعة السلفية.

وتكوين لجنة عالمية مركزية من بعض العلماء والدعاة لاختيار القول العلمي الصحيح المشهود له بالحقائق يجعلنا في الجانب الآمن بإذن الله، وإلى حين تكوينها يمكن أن تقوم مقامها لجان مصغرة في كل بلد.

وهذا التركيز على الإعجاز العلمي لا يلغي عرض وجوه الإعجاز البلاغي القرآني، ولا إعجاز معانيه وتجددها مع تقادمها، مما اعتنى بإيضاحه علماء الأمة في كل الأجيال.

قال ابن حجر : (ووجوه إعجاز القرآن من جهة حُسن تأليفه والتئام كلماته وفصاحته وإيجازه في مقام الإيجاز، وبلاغته ظاهرة جداً، مع ما انضم إلى ذلك من حُسن نظمه وغرابة أسلوبه مع كونه على خلاف قواعد النظم والشعر، هذا إلى ما اشتمل عليه من الإخبار بالمغيبات مما وقع من أخبار الأمم الماضية مما كان لا يعلمه إلاّ أفراد من أهل الكتاب ولم يُعلم أن النبي ﷺ اجتمع بأحد منهم ولا أخذ عنهم، وبما سيقع فوقع على وفق ما أخبر به في زمنه ﷺ وبعده، هذا مع الهيبة التي تقع عند تلاوته، والخشية التي تلحق سامعه، وعدم دخول الملال والسآمة على قارئه وسامعه، مع تيسير حفظه لمتعلميه وتسهيل سرده لتاليه، ولا ينكر شيئاً من ذلك إلاّ جاهل أو معاند، ولهذا أطلق الأئمة أن أعظم معجزات النبي ﷺ : القرآن، ومن أظهر معجزات القرآن : إبقاؤه مع استمرار الإعجاز.)[3].

ومن أحسن البحوث المعاصرة في بيان هذا الإعجاز المعنوي للقرآن المجيد عبر اختلاف التركيب النحوي واللفظي بحوث الدكتور فاضل صالح السامرائي أحد كبار علماء النحو العرب اليوم ومبرزيهم، وكتبه جديرة بالتداول في الأوساط الدعوية.

وسياق الكلام يتيح لي اقتراح حل لمعضلة الفراغ المنهجي الذي تشعر به الأُسرة عند تقادمها إذا أنهت دراسة المنهج العالمي، وهي مشكلة تجبهني أينما حللت وتكلمت، حتى ليصنّفها بعض الغلاة في عداد مظاهر الترهل الذي يصيب بعض قطاعات الدعوة، فأقول : **العلو فوق هذه الظاهرة السلبية يمكن أن يكون بعقد عشر دورات، كل دورة لسنة،** يجتمع فيها أعضاء عدة أُسر أنهت المنهج أسبوعياً ضمن الدورة، وبتحويل الاجتماع الأسري إلى شهري للإبقاء على روح التكافل والولاء، ويكون تداول موضوع واحد خلال أربعين اجتماع يمكن أن تتاح في

(3) فتح الباري 392/7.

السنة إذا روعي التوقف في رمضان والأعياد والطوارئ، ويكون إسناد كل دورة إلى داعية خبير في موضوعها، يستعين بأمثاله من دعاة القطر، ويستدعي من خارج القطر خبراء يعينونه في إلقاء المحاضرات عند الحاجة، وتكون مشاهدة أفلام الفيديو خلال ذلك مع شرحها، ومناهج مطالعة، ثم تكرر الدورة لآخرين في نفس الوقت.

- وتكون البداية : دورة في العلوم الشرعية بتكثيف، مع استعمال وسائل الإيضاح والطرق المعاصرة في التفهيم، وكل الدعاة من أساتذة العلوم الشرعية في الجامعات يصلحون لهذه المهمة.
- ثم دورة في السياسة والتحليل وفهم الواقع وخفي الأخبار وقضايا الأُمة.
- ودورة في فقه الدعوة وموارده والإدارة والعمل المؤسسي والتخطيط.
- ثم هذه الدورة التي نقولها في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسُنّة المطهرة.
- ثم دورة في الإبداع والاختراع واستنباط الأفكار وحلول المشاكل.
- ثم دورة في التاريخ الإسلامي والتطور الدعوي ومقارنة الحضارات وسير المصلحين.
- ودورة في الفن والعمارة والجماليات.
- ودورة في اللغة والأدب وعواطف الحرية والمثاليات.
- ودورة في الاقتصاد وحقائق الرأسمالية الجديدة وصراع الأموال والنفط.
- ودورة أخيرة منوعة في كل هذه الموضوعات فيها نقد وكلام متقدم.

والمظنون أنه بمثل هذه الدورات : تسري روح جديدة في القدماء، ويكون انتفاء الملل والتكرار والنمطية، وتتعدد القدوات وأشكال الخير والخيِّرين، ويشعر الجميع عند ذاك **بأن منهجية التربية الدعوية هي أوسع بكثير من مجموعة كتب نسميها المنهج**، فيهيمون بها غراما، وتصبح هي صنعة الجميع، حتى تتحول إلى دستور يتعاهدونه، ورييبٍ عزيز يرعونه، وتتأصل فيهم تلقائية تبادر إلى المحاكاة والإضافة والنسج على المنوال، ومن وصل إلى مثل ذلك : فرّ منه الترهل.

لستُ أقول بأن هذا هو الحل السحري وأنه الأوحد، لكنه أحد الحلول المهمة، **ويبقى وجود قضية جامعة عامة مسنودة بقضايا مرحلية مورداً آخر لدوام اليقظة**

والعطـاء، ويـبقى وجود الزعامات الظاهرة التي تقود الجميع عامل تحريك مهم، في موارد أُخرى لإرواء الهمم تحدثت عنها فصول هذا الكتاب.

□ الركن الثاني في الذخيرة الأخلاقية : استشعار المسؤولية الشخصية.

والقواعـد الإيمانـية في ذلك غير قواعـد القوانين، وإنما قـواعدنا حساسة جداً، وتذهـب أبعـد مذهـب فـي تحمـيل المؤمـن مسـؤوليته عـن نفسـه وأعماله، بل عن خلجات ضميره.

وقـد استنبط ابن حجر من حديث (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) أن كل مؤمـن (مرعي باعتبار، راع باعتبار، حتى ولو لم يكن له احد : كان راعياً لجوارحه وحواسه، لأنه يجب عليه أن يقوم بحق الله وحق عباده)[4].

وهذا هو منطق الإصلاح في الحياة الإسلامية.

المؤمـن مسـؤول عـن جوارحـه وحواسـه، وهـي لديـه أمانـة، وقد كلف بجدول أعمال خاصة، وعليه أن يُتم بوفاء.

هـذا الشعور بالمسؤولية يُرهق النفس، ويتلفها، ويجعلها أبداً قلقة متحفزة لبذل جهد مع الباذلين، وفي حالة الاستنفار والاستعداد للدفاع، وراضية بالإيثار.

ومن هنا جعل عَدِي بن حاتم الطائي ﷺ الجهل راحة، فقال :

أعاذل إنّ الجهل من لذة الفتى

وإن المنايا للنفوس بمرصـد

وفـي قولـه إشـارة إلى أن الغفلة عن ذكر الموت لذة، لكن يشير أيضاً إلى أن عـدم علمـك بنكـبات المسـلمين، وقلـة درايـتك بقصـة الصـراع بين الحق والباطل، يمـيلان بـك إلـى ذهـن فاتـر، وروح ساكنة، وتلك هي اللذة في مذهب الدنيـويين، فـتجلس علـى الـتل تـتفرج علـى العـرض المسـرحي، فتقوم دول وتقعد، وتتحالف أحزاب وتتناحر، وتتفجر دماء، وتندق أعناق، وأنت في دعة.

---

(4) فتح الباري 32/3.

لكن المساكين هم الذين اكتوت قلوبهم بحرارة الشعور بالمسؤولية، فغيّبتهم عجاجة الموقف.

هؤلاء هم ورثة التعب حقاً.

هم دعاة الإسلام الذين وضعوا على عواتقهم أحمال شعوب الأُمة الإسلامية وقضاياها، وأُمنيات الفقراء، وتطلعات المظلومين، فنقلهم اختيارهم إلى حركة دائبة وتفكير متصل.

إلا أنهم في لذة أيضاً لا يذوقها القاعدون، هي لذة البذل التي لا تعرفها إلاّ الهمم السامية، ثم لهم في الآخرة اكتيال من نعيم ورضوان.

فرحمة الله عليهم أحياءً وأمواتاً، ما أسرع نفرتهم، وما أجزل عطاءهم.

ولذلك تعارف الناس على أن الوقوف في صفهم غنيمة، وزيادة شرف، وتزكية، وأمان دنيوي وأخروي معا.

❑ الركن الثالث : إنتظار عِظَم الثواب.

بأن يعلم المتصدي لخوض غمار الوكالة عن إخوانه عظم مقدار الأجر الكامن في العمل الذي يُقدم عليه، والأمر فيه أهون من أن يكون غامضاً، إذ يكفيه أن يقيس أمره على أمر إمام محتسب يتم للناس صلاتهم ويقرأ فيهم بآيات واعظة، أو مؤذن محتسب يُنادي ويذكّر أهلَ الإيمان حتى يصحل صوته، فإذا كان أصل القياس وارداً : ورد المعنى الآخر من أن أجر هذا الرائد القدوة أضعاف أضعاف أجر إمامة الصلاة، لما في الاهتمام بأمر ثلّة من المسلمين من التعب والنَصَب والحرمان من الراحات والانقطاع عن الملذات، مع القلق والأحزان والحيرات، وما يتعرض له من حسد الأقران، وسوء الظنون، وغلظة الجاهلين، أو ما يلقاه من أذى الظالمين، **فإن كان في إمامة الصلاة أو الأذان أجر : فهو في إمامة رهط الآمرين بالمعروف ألف أجر**، أو ألف ألف، بحسب نقاء نيته وتجرّد قلبه وسواء توجهه.

❑ **الركن الرابع : الكرم وسعة البذل.**

فإنه يستحب للأمير ولكل قدوة أن يكون كريماً ويتوسع في الصرف من ماله والمال الدعوي العام على مَن يفد إليه أو يكون متحلقاً حوله، وهي سُنة سَنَها أبو بكر الصديق ﷺ، فقد (ذكر عمر بن شَبّة في أخبار المدينة أن دار أبي بكر الصديق التي أذنَ له في إبقاء الخوخة منها إلى المسجد كانت ملاصقة للمسجد،

ولم تزل بيد أبي بكر حتى احتاج إلي شيء يعطيه لبعض مَن وَفَد عليه، فباعها، فاشترتها منه حفصة أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم)[5].

وتعجب اليوم من دعاة أهل مال ليسوا يوزعون غير الزكاة، فإن وفد عليهم وافد أو برزت قضية : اعتذروا أن المال نفد، ويعنون أن الزكاة نفدت، لا تهزهم أمثال هذه القصص ولا يقتدون.

إن منزلة الريادة تقتضي الكرم الواسع، والبذل للناس، وإحياء النمط القديم الذي أندرس، (فمصطنع المعروف، والمبادر إلى أعمال البر : شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد العرب تنزل الربى وارتفاع الأرض، ليشتهر مكانها للمعتفين، وتوقد النار للطارقين، وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام، ليخفى مكانها عن الطالبين، فأولئك علوا أنفسهم وزكوها، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها، وكذا الفاجر أبداً خفي المكان، زمر المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس بركوب المعاصي.)[6].

وخرجَ ابن حجر بمعنى البخل عن أن يكون في المال فقط، فقال في شرح قول النبي ﷺ : " و يُلقي الشح " كعلامة من علامات آخر الزمان : (المراد إلقاؤه في قلوب الناس على اختلاف أحوالهم، حتى يبخل العالم بعلمه فيترك التعليم والفتوى، ويبخل الصانع بصناعته حتى يترك تعليم غيره، ويبخل الغني بماله حتى يهلك الفقير.)[7].

واستطراداً وقياساً نقول : حتى يبخل الداعية بوعيه الدعوي، فيترك البشارة والنذارة ومخالطة الناس ودعوتهم.

فكن كريما، وأربأ بنفسك أن يحشرك الناظرون هذا المحشر ويصنفوك مع هذا الصنف الشحيح، وتحمّل مرارة العمل الدعوي وتربية الأنصار، من أجل صيانة سمعتك لدى الله تعالى، ثم لدى الملائكة، ثم لدى الناس.

❑ الصفة الخامسة : مضاعفة العمل وإتقانه.

إذ ليس يكفي المؤمنَ قيامُه بأدنى درجات الصلاة والجهاد وأعمال المعروف، إنما عليه قصد الكمال فيها، والتمام، والإتقان، ومضاعفة الجهد والبذل، وقد سَمّى النبي ﷺ ذلك " الإنفاق " في تحصيل هذه الفضائل، فقال فيما أخرجه البخاري :

---

(5) فتح الباري 14/8.

(6) للقرطبي في تفسيره 78/20، والمعتفون هم الأضياف ومن يطلب شيئاً. والأولاج :ما يستتر به المارة من المطر، والأهضام : أسافل الأودية، وزمر المروءة : قليلها. كذا قال الشيخ الحفناوي محقق الكتاب.

(7) فتح الباري 123/16.

"منَ أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله : دُعي من أبوابِ ـ يعني الجنة ـ يا عبد الله : هذا خير. فمن كان من أهل الصلاة : دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد : دُعي من باب الجهادِ، ومن كان من أهل الصدقة : دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام : دُعي من باب الصيام وباب الريّان".

قال ابن حجر :

(ويمكن أن يكون المراد بالإنفاق في الصلاة فيما يتعلق بوسائلها من تحصيل آلاتها من طهارة وتطهير ثوب وبدن ومكان ، والإنفاق في الصيام بما يقويه على فعله وخلوص القصد فيه ، والإنفاق في العفو عن الناس يمكن أن يقع بترك ما يجب له من حق ، والإنفاق في التوكل بما ينفقه على نفسه في مرضه المانع له من التصرف في طلب المعاش مع الصبر على المصيبة ، أو ينفق على من أصابه مثل ذلك طلباً للثواب)[8].

وبالتأمل : أجد وأفهم أن تعبير النبي ﷺ " مَن أنفق زوجين " : يعادل التعبير المستعمل اليوم عند العرب في المضاعفة، فكأنه ﷺ يقول : مَن ضاعف مقدار عمله في مقداره الكمّي، ثم أتقنه نوعياً، فهو كذا وكذا. أي أن كلمة زوجين تعني مرتين، وكلمة الإنفاق تعني الإتقان.

❑ **الصفة السادسة : الموازنة بين العبادة ورعاية مصالح المسلمين.**

ففي ثنايا حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ " بئس ما لأحدهم أن يقول : نَسيتُ آية كيت وكيت، بل نُسّي. " الذي رواه البخاري : تكمن قاعدة مهمة في التربية الإسلامية لعناصر الصفوة ذات الاهتمام بقضايا الإسلام والقيام بأموره العظام.

وتعقيباً على هذا الحديث، وعلى أحاديث أُخرى نسب النبي فيها النسيانَ إلى نفسه، وعلى تساؤل البخاري في ترجمة الباب : هل يقول نسيت آية كذا وكذا ؟ : يقول ابن حجر :

(كأنه يريد أن النهي عن قول نسيتُ آية كذا وكذا : ليس للزجر عن هذا اللفظ، بل للزجر عن تعاطي أسباب النسيان المفضية لقول هذا اللفظ.

---

(8) فتح الباري 26/8.

ويحتمل أن يُنزل المنع والإباحة على حالتين :

فمن نشأ نسيانه عن اشتغاله بأمر ديني، كالجهاد : لم يمتنع عليه قول ذلك، لأن النسيان لم ينشأ من إهمال ديني، وعلى ذلك يُحمل ما ورد من ذلك عن النبي ﷺ من نسبة النسيان إلى نفسه.

ومَن نشأ نسيانه عن انشغاله بأمر دنيوي ـ ولا سيما إن كان محظورا ـ : امتنع عليه، لتعاطيه أسباب النسيان).[9]

وهذه قاعدة إيمانية جليلة مهمة جداً يكمن فيها فَرَج واسع على كثير من المؤمنين في كل جيل ممن ترهقهم أُمور الدعوة إلى الله والعناية بمصالح المسلمين حتى تشغلهم عن كثرة تلاوة ومزيد عبادة. ومن الواضح جداً أن إجراء القياس سائغ تماماً لمن أراد للمعاني أن تطّرد إلى أبعد من نسيان الآيات لتشمل جميع أنواع العبادة بعد الفروض، وهي قضية أرهقت دعاة الإسلام نفسياً حتى توهموا في أنفسهم السوء واتهموها، لما ورد من أن السلف كانوا يكرهون الذي ينسى القرآن ويقولون فيه قولاً شديداً، وأن ذلك لا يكون إلا مِن ذنب[10]، وأشكل الأمرُ على فارغين متعطلين عن الجهاد والدعوة ومقدماتهما، فسهل عليهم اتهام الدعاة بكسل وتفريط، لكن يأبى اللهُ إلاّ أن تدون حقائق الفقه بأقلام كبار الفقهاء والمحققين من الأئمة، ليكتشفها "إحياء فقه الدعوة" ويلتقطها لهم فتكون وثيقة براءة في أيادي الدعاة تردّ الشامتَ والعجول.

ويشهد لهذه الطريقة في الثقة بالنفس ما نقله ابن حجر عن النووي أنه قال في تلاوة القرآن :

(والاختيار أن ذلك يختلف بالأشخاص، فمَن كان من أهل الفهم وتدقيق الفكر : استحب له أن يقتصر على القدر الذي لا يختل به المقصود من التدبّر واستخراج المعاني. وكذا مَن كان له شغل بالعلم أو غيره من مهمّات الدين ومصالح المسلمين العامة : يُستحب له أن يقتصر منه على القدر الذي لا يخل بما

(9) فتح الباري 361/10.

(10) فتح الباري 493/10.

هو فيه، ومن لم يكن كذلك فالأولى له الاستكثار ما أمكنه من غير خروج إلى الملل)[11].

وهذا الكلام صريح جداً، وكأن النووي أنشأه كفتوى لداعية معاصر يستفتيه، فدعاه إلى الاطمئنان وأنه على الدرب السليم طالما هو قائم بمصالح المسلمين العامة، ويا ترى مَن أقوم من الدعاة اليوم بهذه المصالح ؟

❑ الصفة السابعة : ركوب العزائم وترك الرُخَص.

فإن الأصل أن يركن الداعية إلى أُمور الجد النافعة المفيدة، وأن يلجأ إلى الأنماط المنتجة، وأن يشح بوقته، حتى المباح يقلل منه : توفيراً لجهده ووقته.

ولما ظهرت الوصية بالإقلال من الصيد وكراهته للدعاة في رسالة " شروط التوثيق " استغربها البعض، ثم رأيت ما يؤيد صواب الوصية، فقد ذكر ابن حجر (إباحة الاصطياد للانتفاع بالصيد للأكل والبيع، وكذا اللهو، بشرط قصد التذكية والانتفاع)، وذكر أن الجمهورَ على ذلك، لكنه استدرك فذكر أن مالكاً كرهه، ونقل عن الليث أنه قال : (لا أعلم حقاً أشبه بباطل منه، فلو لم يقصد الانتفاع به : حرم، لأنه من الفساد في الأرض بإتلاف نفس عَبَثاً، و ينقدح أن يقال: يباح، فإن لازمه وأكثر منه : كُره، لأنه قد يشغله عن بعض الواجبات وكثير من المندوبات.

وأخرج الترمذي من حديث ابن عباس رفعه : "مَن سكن البادية : جفا، ومن اتبع الصيد : غفل"، وله شاهد عن أبي هريرة عند الترمذي أيضاً، وآخر عند الدار قطني في الأفراد من حديث البراء بن عازب، وقال : تفرد به شريك)[12].

ومذهب الليث هذا هو الأليق للدعاة، فإنّ القضايا تزدحم عليهم، والواجبات أكثر من الأوقات، إلا رحلة صيد في كل موسم، **لستُ أُبيحها فقط، بل أُوجبها عليهم، ترويحاً وتسلية للنفس** واستعانة بها على استئناف النشاط، سيما وأن ابن حجر عاد إلى تفسير " من اتبع الصيد غفل " فقال : (هو محمول على من واظب على ذلك حتى يشغله عن غيره من المصالح الدينية وغيرها)[13].

---

(11) فتح الباري 474/10.

(12) فتح الباري 21/12.

(13) فتح الباري 84/12.

والظاهرة الاجتماعية التي رصدها الفقهاء تدعو إلى الاحتياط والأخذ بالعزائم ومغالبة الصعوبة وبذل مزيد من الصبر لئلا يتوسع العوام في الترخص.

قالوا :
(إذا اشتغل العلماء بجمع الحلال : صار العوام آكلين للشبهات.
وإذا صار العالم آكلاً للشبهات : صار العامي آكلاً للحرام.
وإذا صار العالم آكلاً للحرام : صار العامي كافراً، يعني إذا استحلوا).[14].

ويعض الدعاة يمنح نفسه مهلة بعد مهلة من غير دليل، ويظل يصف نفسه بأنه تلميذ الابتداء، وأن أثقال العزم آجلة، يذهل بذلك عن قانون سرعة الإيمان، وعن أن الأمر جد، وعن أن الأمانة قد وضعتها الأقدار على كاهله من يوم برأ الله نسمته واختاره أن يكون داعية.

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود ﷺ أنه لم يكن بين إسلامهم وبين أن عوتبوا بآية " أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ " إلا أربع سنوات.

فهي أربع سنوات فقط مرحلة الابتداء والدلال والغَنَج والرُخص والتمريض والتسويف والمشي الوئيد، ثم بعدها يهز شيخ الدعاة كتفه أن : انتفض، وصرت معلماً بعد أن كنت تلميذاً، وليخشع قلبك.

ولما أحاط المشركون بعاصم بن ثابت وخُبيب وأصحابهما : قال المشركون :

(لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلا .
فقال عاصم : أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك. فقاتلهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نَفَر بالنبل. وبقي خبيب وزيد ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم.).

قال ابن حجر : (وفي الحديث أن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان ولا يمكّن من نفسه ولو قتل، أنفة من أنه يجري عليه حكم كافر. وهذا إذا أراد الأخذ بالشدة، فإن أراد الأخذ بالرخصة فله أن يستأمن.
قال الحسن البصري : لا بأس بذلك.

---

(14) تفسير الرازي 170/2.

وقال سفيان الثوري : أكره ذلك.)[15].

قال القرطبي : (رُوي عن بعض الصحابة أنه قال : إن الرجل إذا رأى منكراً لا يستطيع النكير عليه فليقل ثلاث مرّات : اللهم إنّ هذا منكر، فإذا قال ذلك فقد فعل ما عليه.

وزعم ابن العربي أن مَن رجا زواله وخاف على نفسه من تغييره الضربَ أو القتلَ: جاز له عند أكثر العلماء الاقتحام عند هذا الغَرَر، وإن لم يرجُ زواله فأي فائدة عنده ؟، قال : والذي عندي أن النية إذا خلصت فليقتحم كيف ما كان ولا يبالي)[16].

❑ الصفة الثامنة : الاستجمام بعد الإرهاق.

فإن هذه الحساسية التي تدع الداعية يستشعر مسؤوليته الشخصية في الإصلاح، ثم مضاعفة العمل، ثم اللبث مع العزائم : كل ذلك يولد تعباً بلا شك، ومن اللائق أن يرفق بنفسه أحياناً من أجل أن يعاود التشديد على نفسه، وهي وصية أهل الإبداع والأطباء من بعد الفقهاء.

وقد روى البخاري أن أبا طلحة ﷺ (كان أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل) وأنه تصدق ببعض ذلك، وكان يحب بعض أمواله هذه.

قال ابن حجر : (فيه جواز إضافة حب المال إلى الرجل الفاضل العالم، ولا نقص عليه في ذلك، وقد أخبر تعالى عن الإنسان : " وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ "، والخير هنا : المال، اتفاقاً.

وفيه اتخاذ الحوائط والبساتين ودخول أهل الفضل والعلم فيها، والاستظلال بظلها، والأكل من ثمرها، والراحة والتنزه فيها وقد يكون ذلك مستحباً يترتب عليه الأجر إذا قصد به إجمام النفس من تعب العبادة وتنشيطها للطاعة)[17].

وأحبُّ للقدوات أن يلبثوا يوماً في غابة، أو يصعدوا جبلاً، أو يصحبوا الصيادين في البحر، أو يطيروا بمنطاد، بل أن يفعلوا كل ذلك.

---

(15) فتح الباري 387/8.

(16) تفسيره 32/4.

(17) فتح الباري 326/6.

❑ **الصفة التاسعة : إطالة الصبر.**

فإن ما هو أدل من الاستجمام : أن يصبر الداعية على الأذى، فإنها مهنته، ومهنة أساتذته في الدعوة، ثم مهنة العلماء القدوات، صعوداً إلى الأنبياء عليهم السلام.

بل المبالغة في الصبر، والإمعان في قسر النفس.

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبري
واصبر حتى يحكم الله في أمري
سأصبر حتى يعلم الصبرُ أنني
صبرتُ على شيء أمَرّ من الصبر

وإنما الصبر هو الصبر عند المصائب.

لقول النبي ﷺ في صحيح البخاري : "مَن يُرد الله به خيراً يُصِب منه ؟ ". أي يبتليه بالمصايب.

و لقوله ﷺ، كما عند البخاري أيضاً : "ما يُصيب المسلم من نَصَب ولا وَصَبٍ ولا همٍ ولا حزنٍ ولا أذى ولا غمّ حتى الشوكة يشاكها : إلا كفّر الله بها من خطاياه".

قال ابن حجر : (وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة لكل مؤمن، لأن الآدمي لا ينفك غالباً من ألم، بسبب مرض أو همّ أو نحو ذلك مما ذكر، وأن الأمراض والأوجاع والآلام ـ بدنية كانت أو قلبية ـ تكفّر ذنوب من تقع له).

(وظاهره تعميم جميع الذنوب، لكن الجمهور خصوا ذلك بالصغائر) بسبب حديث " الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان : كفّارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر"، (فحملوا المطلقات الواردة في التكفير على هذا المقيّد. ويحتمل أن يكون معنى الأحاديث التي ظاهرها التعميم أن المذكورات صالحة لتكفير الذنوب، فيكفر الله بها ما شاء من الذنوب، ويكون كثرة التكفير وقلته باعتبار شدة المرض وخفته).

وهل يلزم الصبر ليكون الأجر والتكفير ؟

اختلف الصحابة ومن بعدهم اختلافاً طويلاً، وخرج ابن حجر من الخلاف برأي صواب مقبول فقال : (الذي يظهر أن المصيبة إذا قارنها الصبر : حصل التكفير ورفع الدرجات، على ما تقدم تفصيله، وإن لم يحصل الصبر : نظر : إن لم يحصل من الجزع ما يُذم، من قول أو فعل، فالفضل واسع، لكن المنزلة منحطة عن منزلة الصابر السابق، وإن حصل : فيكون ذلك سبباً لنقص الأجر الموعود به أو التكفير، فقد يستويان، وقد يزيد أحدهما على الآخر، فبقدر ذلك : يقضى لأحدهما على الآخر.)[18].

وقيل لرسول الله ﷺ : " أي الناس أشد بلاءً ؟ قال : الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه. ".

قال ابن حجر : أخرجه الدارمي والنسائي في الكبرى، وابن ماجة، وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم.

قال : الأمثل : أفعل، من المثالة، والجمع أماثل، وهم الفضلاء.

وفي لفظ: " ثم من؟ قال:العلماء، قال : ثم من؟ قال : الصالحون" [19].

قال ابن حجر : (وكان في قصة أُحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة).

(منها : أن عادة الرسل أن تبتلى، وتكون لها العاقبة، كما تقدم في قصة هرقل مع أبي سفيان، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائماً : دخل في المؤمنين من ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين، فلما جرت هذه القصة وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول : عاد التلويح تصريحاً، وعرف المسلمون أنّ لهم عدواً في دورهم، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم.[20].

وفي تعقيباته على قصة الغلام الشهيرة التي تذكر في تفسير حادثة الأخدود الواردة في سورة البروج يقول القرطبي :

---

(18) فتح الباري 214/212/12.

(19) فتح الباري 215/12.

(20) الفتح 350/8.

(قال علماؤنا : أعلَم الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية ما كان يلقاه من وحّد قبلهم من الشدائد، يؤنسهم بذلك، وذكر النبي ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلاقونه من الأذى والآلام، والمشقات التي كانوا عليها، ليتأسوا بمثل هذا الغلام، في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به وبذل نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وعظم صبره، وكذلك الراهب : صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار، وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم : صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا في دينهم).

ثم واصل القرطبي القول، نافياً دعوى نسخ حكم الصبر التي قال بها ابن العربي وغيره، فقال :

(ليس بمنسوخ عندنا، وأن الصبر على ذلك لمن قويت نفسه وصلب دينه أولى، قال الله تعالى مخبراً عن لقمان " يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ "، وروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : " إنّ من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر").

ثم قال (قال علماؤنا : ولقد امتحن كثير من أصحاب النبي ﷺ بالقتل والصلب والتعذيب الشديد، فصبروا، ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك، ويكفيك قصة عاصم وخبيب وأصحابهم وما لقوا من الحروب والمحن والقتل والأسر والحرق وغير ذلك) ثم أشار إلى (أن هذا إجماع ممن قوي في ذلك.) (21).

❑ **الركن العاشر : توطين النفس على البقاء تلميذاً مهما اقتدى به المقتدون.**

ولذلك قال عمر ﷺ يريد الاستدراك المعجِّل :

(تفقهوا قبل أن تسوّدوا)

قال ابن حجر : (لأن الرئيس قد يمنعه الكبر والاحتشام أن يجلس مجلس المتعلمين، ولهذا قال مالك : من عيب القضاء : أن القاضي إذا عُزل لا يرجع إلى مجلسه الذي كان يتعلم فيه.)(22).

---

(21) تفسيره 280/19.

(22) الفتح 175/1.

وقياساً : هـذا هـو عيب الرياسة الدعوية أيضاً، في جميع درجاتها، أو الظهور السيـاسـي والانـتخابـي في البرلمانات والنقابات، أو الظهور الإعلامي، في الصحف والقـنوات الفضـائية، فإنهـا كلهـا تـدع مـن يشـتهر يأنف استمرار جلوسه بين يدي أسـاتذة الفقـه ربما، ويظن في نفسه الكمال والاستغناء، فينقطع، فيستهلك ما جمعه فـي أوائل دربه يوم كان يتواضع ويحمل كتابه تحت إبطه يهرول بين مجالس العلم، فـإذا نفـد مـا معـه : لـم يعد صاحب عطاء، فيضمر صوابه، فيزحزحه متمردون عن منصـبه، يـريدون الـتطوير والـتجديد ومواكـبة الزمـن، فـيلفه يـأس ويأس، فينتهي، وعـندئذ يدرك أن لو كان استقام على الطريقة التربوية لسقاه الله من بركات التلمذة علماً غدقاً، ولكن هيهات، فإن النفس إذا تعودت الشموخ بطرت.

❑ تيّار العمل يستدرك على إبطاء المتهيبين

ومـثلما يفيد هذا الاستعراض الأخلاقي القدوات، وتكون لهم فيه موعظة تحثهم علـى طلـب معالـي الأمور : فإن آخرين من الدعاة تأسرهم رهبة، فيرى أحدهم نفسه إذا كلـف بعمـل دعـوي أنـه غير أهل له، وأنه أقل من أن يرضى بالانتصاب كقدوة، ويـتهم نفسـه بالضعف، وتسيطر عليه روح انسحابية تجعله يخاف من اتخاذ قرار، في حيـن أن الجماعـة تظـن فـيه المقـدرة رغـم شـعوره بالحرج، فهل للجماعة وجه في اجتهادها ؟ وكيف نعالج هذه الحالة من التردد؟

المظـنون : أن اجـتهاد الجماعـة سـائغ في مثل هذا إن شاء الله، ولها تأولات صحيحة عديدة تنطق بها التجارب، منها :

- أنـه مـثلما يَوْجـل لأول وهلة فإن شعوره بالتكليف فيما بعد سيكون عامل تربية لـه، ويمـده بـتقوى ويمعانـاة ترفع من مستوى اهتمامه وانفعاله بقضية الدعوة الجزئية التـي كـلف بهـا، بيـنما الفـراغ إذا استطرد فيه مَن لا تكليف عليه يولد الوساوس ربما. والموازين الإيمانية تعظ الداعية في هذا الموطن بأن الشيطان هو الذي يخيفه ليصـده عـن بـاب مـن أبـواب الـثواب، وأن عليه أن يتوكل على الله تعالى ويراغم الشيطان ؟

- وأن وضـع الداعـية وجهـاً لوجـه مـع مشـاكل العمـل وقضاياه يحفز فيه عوامل الـتحدي ومحـاولات التغلـب علـى المصـاعب، فتنمو تجربته العملية عبر الممارسة حـتى يسـتوي متقـناً للعمـل، بيـنما التعفف عن العمل المسنود إليه يدعه في حالة

استرخاء وبطالة مكتفياً بأدنى تشغيل لحواسه، فلا يتقدم به الحال، وإنما يكون قانعاً بسير الهويني، ومثل هذا القانع لا يتطور.

• أن هذا الداعية المستضعِف لنفسه سوف لا تتركه الجماعة لقَدَره وطاقاته فقط، بل ستحرص على رفع مستواه بالدورات والرقابة الإدارية وتقترح عليه مع الأيام أنواعاً من الأساليب الإبداعية والتطويرية التي يتقن بها أداء مهمته التي كُلِّف بها.

• أنه سينفذ مهمته ليس لوحده، بل مع أقران مماثلين يتكون منهم فريق عمل، ومن ظواهر علم الإدارة : ارتفاع مستوى إتقان بعض الأعمال إذا أُديت عبر فريق عمل متكامل أو متماثل، وقد يكون وجود هذا الداعية ضمن الفريق ضرورياً لتحقيق معنى التكامل، لذلك يجب عليه أن يحث نفسه ويرغمها، لما في ذلك من تشغيل غيره بوجوده، وقد قدمنا أن من أبعاد الاقتداء : البعد القصدي، والتكلّف له، لئلا ينثلم أداء المجموعة، ثم الله أعرف بالنيات وبالتأول الحسن الذي يكمن خلف قسره لنفسه مع استيلاء الكراهة عليه، بل مثل هذا مأجور مرتين إن شاء الله، لأنه يخالف هواه.

• والعكس صحيح أيضاً، فإن من يتوهم الضَعفَ إنما يظن أنه ضعيف قياساً على حالة التنفيذ المنفرد، لكن وجوده ضمن فريق العمل سيرفع همته بالعدوى التي تسري إليه من الآخرين، وسيحمله تيار الأداء الجماعي ولا يكون منفردا.

• ثم إن هذا التردد والتخوف إنما هو من ظواهر الفطرة الإنسانية في الخوف من المجهول، لكن بالمواجهة الفعلية سيقتحم، وعما قريب سينسى أنه تردد، وكل من يوشك أن يدخل معركة حربية يطرأ عليه مثل هذا الهاجس مهما كان شجاعاً، وكل من ينوي الزواج يعتريه قلق مماثل، ثم يأنس لزوجه من غدٍ ويرفل في المودة والرحمة التي يهبها الله لهما.

• وقد يكون فيه ضعف حقاً، لكن ليس هناك أفضل منه، فهو أسير قاعدة استعمال الأمثل فالأمثل والترجيح بين المصالح والمفاسد وسد الذرائع.

• أن الاجتماعات الإدارية فيها حصة من الوقت كبيرة للتداول الفكري وبيان قواعد فقه الدعوة والمفاد التجريبي، وغالباً ما تشهد الاجتماعات حواراً جيداً بين المجتمعين يعتبر مهماً لتطوير آفاق ومفاهيم المتحاورين، فهو منصور بإذن الله بهذا الحوار المسترسل العفوي.

• وربما يكون مصدر خوفه ما يعلمه من اعتياد بعض الدعاة الهجوم اللاذع على أقرانهم إذا أخطأوا، وهذا مرض لا ننكر وجوده، ولكن الفقه الدعوي يمنح القيادي حق الخطأ، والمجال الحر الاستقلالي الذي يسوغ فيه الابتكار، وهذا هو المهم الذي ينبغي أن يلتفت له، وأما مناوشات الأقران فشرٌ لابد منه ينبغي أن يصبر عليه ما دامت النفسِ الإنسانية هي النفس لا تتبدل، ولربما يناله عند تعففه عن العمل وجلوسه عاطلاً نقد أعنف من نقد الخطأ الذي يقع فيه، فالتعاتب والهجوم واللمز سلبيات لا يمكن محوها في الحياة البشرية، ولعل الله يقذف في قلوب العباد حب الحامل لنفسه على فعل الخير إذا علم منه حسن النية، فلا يؤذيه مشاغب، بينما يتخلى الله ربما عن القاعد المتعفف.

• ثم إن العمل المؤسسي إذا صار عُرفاً في الجماعة فإنه سيرفع عن كل الدعاة المكلفين بالعمل كثيراً من الأعباء في الحقيقة، فالرأي شوري ومنسوب إلى قرار جماعي لا إلى أحدهم فقط، والخطط الموضوعة المتوارثة أُصولها ترفع عنه أثقال التفكير، والوسائل التنفيذية توضع تحت استخدامه، من كتب وأشرطة ومجلات دعوية، وهي آلات تعينه ليس هو الصانع لها، ثم المال، والسمعة العامة للجماعة واسمها وتاريخها ومناقب أهلها كل ذلك يعينه ويصنع له ظلاً من الجاه والهيبة يتحرك تحته، وما هو بنكرةٍ يُجابه صعوبات العمل لوحده.

فبهذه التأويلات العشرة لا يبقى عذر لمتخلف يزدري نفسه.

❑ لذلك أولى للمتردد أن يقبل التكليف، ثم :

• يديم الدعاء أن يذلل الله تعالى له المصاعب، وأن يعلّمه ويفقهه ويبصّره الصواب.

• ويطيل الاستغفار ويعتذر لله سبحانه بأن فتوى الضرورة تجعله يقبل، وأن جهل الجماعة بحقيقة أمره غَلَبه وأرغمه.

• ويصارع القدر بالقدر، بأن يرفع من مستواه ما استطاع، بالمطالعة وسؤال أهل العلم والتجربة وأن يتخذ من أسباب التطوير ما يُتاح.

• وانتبه العلامة أبو عبد الله محمد بن عيسى بن أصبغ الأزدي القرطبي المالكي الشهير بابن المُناصِف المتوفى سنة 620 هـ رحمه الله إلى سلوك غريب من مثل **هؤلاء المستضعفين لأنفسهم ربما يوسوس الشيطان لهم به، بأن يحملهم على إهمال**

الحرص على العمل الأصلح ومجاراة أهل الهمم الواطئة فيما هم فيه، يأساً من الأصلح، وكأنهم ينتقمون من إكراههم على عمل لا يرغبون به.

ويورد ابن الـمناصِف الكلام بمناسبة نصيحته لمن يتولى منصب القضاء، فيقول :

(ولا ينبغي له بعد الحصول في هذا المنصب ـ سواءٌ وصل إليه برغبةٍ فيه وطَرَحَ نفسه عليه، أو امتُحن به وعُرض عليه ـ : أن يزهد في طلب الحظ الأخلص، والسَنَن الأصلح، **فربما حَمَله على ذلك استحقارُ نفسه، لكونه ممن لا يستحق هذا المنصب، أو زهدُهُ في أهل عصره ويأسه من استصلاحهم، واستبعاد ما يرجو من علاج أمرهم وأمره أيضاً، لما يراه من عموم الفساد وقلة الإلتفات إلى الخير**، فإنه إن لم يَسْعَ في استصلاح أهل عصره فقد أَسلمَ نفسَه وألقى بيده إلى التهلكة، ويئسَ من تدارك الله تعالى عبادَه بالرحمة، فيلجئه ذلكِ إلى أن يمشي على ما يمشي عليه أهل زمانه، ولا يبالي بأي شيء وقع فيه، لاعتقاده فساد الحال.

وهذا أشد من مصيبة القضاء وأدهى من كل ما يتوقع من البلاء، فليأخذ نفسه بالمجاهدة ويسعى في اكتساب الخير ويطلبه، ويستصلح الناس بالرهبة والرغبة، ويشدّد عليهم في الحق، فإن الله تعالى بفضله يجعل له في ولايته وجميع أُموره فرجاً ومخرجاً). (23).

ونقيس قضية الداعية الممتنع الذي يرفض المنصب الدعوي على مثل هذا القاضي الممتحَن بالقضاء المكرَه عليه، الذي ينقله اليأس من الإصلاح إلى مجاراة أهواء الناس والعياذ بالله لا إلى حملهم على الحق.

وهذه الالتفاتة من هذا النبيل الأندلسي هي جُزء مهم من مكونات علم النفس الإسلامي، ثم علم النفس الدعوي باقتباسنا لها، وكنتُ وما أزال أقول بأن علم النفس الإسلامي عامر غزير الملاحظات، لكنها متناثرة في الكتب وتريد من يبعثها ويحييها، وترجمة هذه الملاحظة في الحال الدعوي أن المكلّف الكاره لا يأخذ

---

(23) عن الشيخ عبد الفتاح أبي غدة في حاشية له على كتاب : الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للقرافي /271، وقد نقله عن تبصرة الحكام لابن فرحون.

القضـية مأخذ الجاد الحريص على التطوير بحيث يتفنن ويبدع، وإنما بمقدار تحلّه القَسَم، ويـتحرى أضـعف رجـال المجموعـة المماثلـة له ليتخذه قدوة لا أقواهم ، فيـتخذ مـن تسيب غيره شاهداً يشهد له، وهذا حالُ متشائمٍ لا يوقن بأن المستقبل لهـذا الدين، ولذلك يصح للجماعة أيضاً أن تتردد في تكليفه إن رأت التمنّع، رغم وجاهة التأويلات العشرة التي نظن أنها تستدرك عليه وتحركه، وتبقى المسألة بذلك نسـبية محضـة، الفاصل فيها هو الحال النفسي المعنوي الذي يستولي على الداعية، أهـو إلى الانفتاح والثقة أقرب أم إلى الانغلاق واليأس والتبرم ؟ والفراسة في ذلك مُحَكّمة. ۞

لماذا

يكون الداعية، أو كلٍ هادف مُيمّم، في بداية أمره : أشجع، وأكثر اندفاعا ، وأسخى، وأنجد ؟؟؟

سؤال صعب، لكن جوابه يهمنا جداً في منهجية التربية الريادية، ويلزم أن نفكر من أجل تفسير هذه الظاهرة الغريبة التي وصفها البعض بأنها " لذة البداية " دون أن يعلّل.

وفي ظني أن هذا المقتحم المظفر كان في ممارسته الأُولى خاماً بريئاً من العيب، على ما خلقه الله تعالى من طبيعة معتدلة وفطرة متناسبة، أبيض الصفحة، سوي الشعور، متزن النفس، وسطي الاختيار، حيادي النزعة، محرًّر الذمة، لذلك يندفع ويتوغلٍ بمحركات الأصالة التي لا يشوبها تعكير، ولم يستهلك بعضها استعمال، ولا ثَلَم كمالها اصطدام، أو نَحَتَ منها احتكاك.

لكنه لا يتحرك في مجالٍ محتكَر له، وإنما هناك العدو والمنافس والحليف المقصّر والنصير الساذج والواعد المتخلّف، **فيكون التحام، أو اشتباك**، أو معركة، **وينجلي الأمر عن إحدى حالات ثلاث :**

- **أن يكون هو المنتصر الغالب**، أو الناجح المتفوق، وهنا ينفتح باب لظهور صفات كامنة في النفس، لكنها كانت سابتة، مثلِ بذرة جافة يسقيها ماء فتنفلق، **فيفصح عن زهو وخيلاء وغرور**، فيقل اندفاعه بسبب هذا الإختلاط النفسي ونتيجته التخديرية، أو بسبب توقف البركة الربانية عن التنزّل عليه، وصمت الملائكة عن الدعاء له وتشجيعه. وأكثر الناس يصرعهم هذا العُجب ويداخل أمرهم بعد الإنجاز رياء، إلا القليل، ولذلك لم يستغلق أيضاً أمر كل فائز عند البداية على فتور لاحق، بل منهم العاقل اللبيب الذي يفتأ ماضيا.

- أو يكون على العكس هو المغلوب المهزوم، وقد ضايقه منافس، وعرقل سيره من هو أقوى منه، من عدو، أو طارئ حسود، فيسيطر عليه يأس، وشعور تثبيط، ويظل يرزح تحت رهق الإحباط إن لم تكن نفسه قوية.

- **أو يكون قد طال دربه** وكثر بذله من دون تحصيل نتيجة سريعة، فهو المتعَب المستنزَف، **ويعتريه ملل يؤدي إلى إبطاء.**

أحـد هـذه المـآلات الثلاثة سيجعل الاستئناف شيئاً غير المضي الأول، وتصبح البداية مجرد ذكريات حلوة، في أحسن أحوالها أنها تنضم إلى الصفات الإيجابية كعـامل تحـريك، وقـد تكـون عـامل تعويق إذا قارنها أسف، ولربما يقترب الداعية ثانـية مـن تـناوش النجاح إذا هُدي إلى طريق الحساب والتخطيط وضبط الاندفاع وقياس الأمور والإذعان لموجبات الحذر والوقاية.

لكن مفتاح العلاج يكمن في أن لا ندعه إلى مقدرته هو، أو نحيله إلى لباقته، بل يجب علينا كمربين أن نقحم أنفسنا في أمره وقضيته، ونشرع في تفهيمه ما يردّه إلى " الإتزان العقائدي " قبل الاتزان التخطيطي، والذي يستند إلى دعامتين :

• **الإيمان العميق بالقَدَر**، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن في ذلك من الحكمة مـا يليق معها التأول، إما برؤية معنى العقوبة فيه، أو الإمتحان، أو تأجيل نصر الله للمؤمـن، ولكـن نفهمـه أيضاً أن إتيان الأسباب وفق ظاهر الشرع من تمام الإيمان، وأن القَـدَر سرٌ مـن أسـرار اللـه تعـالى، لا يمكن لأحد أن يطلّع عليه على سبيل الجـزم، وإن كـان يـؤذن لمؤمـن ربمـا أن يراقب طرائق جريانه من خلال استعراض الـتاريخ وتبدلات الواقع، فيخمّن ويتفرّس فيقيس، وقد يقارب، لكن ذلك لا يمنع أن نصـارع قـدر السـوء بقدر الخير، وجميع أحكام الحـلال الشـرعي تصلح أن نعتقد أنهـا مـن مظـان الأقـدار الخـيرية، فنأتيها، ترجيحاً أن يكون بها دفع للشر. وشرح ذلـك تنتظمه لغتان : عقليه وقلبية، ويحتاج إلى مقارنات كثيرة وتأمّل طويل ومراقبة مكـثفة لحياة الأفراد والجماعات والأمم والدول لكي يتضح، **وإنما تعين على ذلك محـاورات هادئـة بين المربي وتلميذه يكون خلالها تبسيط وصف الحياة، بعيداً عن البلاغـيات والرمـزيات، في محاولة إرجاعِ كل نتيجةٍ إلى جذورها وأسبابها**، ومن خـلال رؤيـة القصـص المـتماثلة : تستنتج معانٍ توضح بعض المسيرة القَدَرية ربما، تكون أصلاً لقياس يتوقع نتيجة مستقبلية لفعل حاضر هو السبب الذي ينتظر نتيجة، وهـذه صـنعة تتفاوت مقادير المسلمين في إتقانها ويؤثر فيها الذكاء وعمق الإيمان معاً، مع طول التجربة وسعة العلم بالتاريخ والواقع.

• **وتصـحيح النـية وتمحـيض الإخـلاص يمـثل الدعامة الثانية**، إذ لابد من تمام الـتجرّد، وتطهـير المقصـد من شوائب الرياء والحسَد وتنافس الأقران، وذلك يكون مـن أصـل العقـيدة أيضـاً، بـأن يصـدّق تصديقاً جازماً لا ريب فيه ولا شك بأن ما يقولـه اللـه تعـالى يفعله، فوراً أو بعد إمهال، وهو سبحانه يراقب عباده وأفعالهم، فيثيـب قبل الآخرة بتيسير في الدنيا وإحلال بركة وإضفاء مهابة ومحبة، أو بصعاب

ورفع بركة وهوان، ومن أشد العقوبة: أن يوكل المرء إلى نفسه، ليست معه قوة الله ولا حوله، ولا يكون معه من الملائكة من يذيع حُبّه ويردّ عنه ويقاتل، وأن يوقن بأن الله تعالى خبير : " وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ "، كما في آية سورة الأنعام، وأنه كإنسان أكبر من الورقة والسمكة والحبّة، وأن الله أشد له مراقبة، فيُربي ما يفعله ويُنميه إذا قصد به وجهه، ويمحقه ويكتب عليه المحو والنسيان والهجران إذا غلب القصد الدنيوي، كالذي سَلَف من المحدث الثقة محمد بن عبدالرحمن بن أبي ذئب شريك مالك بن أنس في إمامة المدينة المشرفة، لما قال حين بلغه بدء تدريس مالك للموطأ واجتماع الناس عنده : لأُصنفنّ موطأً أكبر منه، وكان حسدُ الأقران يحركه ربما، فصنفه، فقال مالك : ما كان لله بقي. ودارت الأعوام والقرون، وإذا بموطأ ابن أبي ذئب لا يعلم به أحد، غير أحاديث قليلة نقلها البخاري في صحيحه، بل حتى ولا توجد مخطوطة لموطأ المنافسة هذا، إذ الأجيال تحتفي بموطأ مالك، حتى أن الدارقطني ألف كتاباً رصد فيه اختلاف ألفاظ تسعين رواية مستقلة كاملة لموطأ مالك عن تسعين من تلامذته، والبخاري وحده انتقى من أربعة عشر رواية منها رواها له شيوخه من تلامذة مالك، عدا ما رواه بواسطة، فانظر البركة، وانظر العقوبة، وانظر شيوع الذكر، وانظر خفوته، وما يشاء الله يفعل، وما يَعِد يكون.

فبهاتين الدعامتين من مراقبة القَدَر وتجريد النية يرجى أن يحوز الداعية الصاعد " الاتزان العقائدي " الذي يحفظ أداءه الدعوي على درب الوسطية، ويحفظ له وتيرة معتدلة من التقدم المستمر بعد عنفوان البداية.

❑ نظرية التكامل

والذي يشير إليه التأمل، واسترجاع ذاكرتي واستعراضي لما رأيت ومرّ في حياتي من قضايا تربوية ومحاورات مع الدعاة المربين : يؤكد لي أن **قضية "التكامل" تحتل أهمية كبيرة في منهجية التربية الدعوية بعد "الاتزان العقائدي"**، فكل فهم أحادي، أو ناقص، وما ينبني عليه من تخطيط أُحادي التوجه، أو ناقص : يؤديان إلى خلل تربوي، في صورة إفراط، أو تفريط، وطغيان جوانب على جوانب. بمعنى أن "التوازن العام" في فهم القضية الدعوية يضطرب، والاضطراب يؤدي إلى مشاكل حتماً، فإذا غفل الدعاة أثناء محاولتهم النقدية لحل تلك المشاكل عن معنى فقدان التكامل كسبب في ذلك فإنهم يدورون في متاهة من التعليلات

ويخترعون لها تأولاً ومنطقاً متكلفاً يزيد الحيرة والإشكال، **ويؤدي الأمر في النهاية إلى تصلب على الطرائق الناقصة والفهم الناقص، وإلى تعصب ربما عند تقادم الخطأ، إذ يتحول الخطأ المفلسَف المتأوَل إلى عُرف تسرع الاتهامات إلى مَن يخرقه، بل إلى تراث له مسحة قدسية ربما إذا انتقل الأمر إلى جيل ثان ينظر بعين الإعجاب إلى الجيل المؤسس الذي أرسى الخطأ**. وهذا هو الذي أراه حَدَث في الجماعات الإسلامية التي عجزت في أول أمرها عن إدراك الشمول ولم تتسنّ لها نظرة تكاملية للأجزاء الدعوية، فلزمها النقص حتى بعد تقلبها في المراحل وتقدمها وتوغلها وتعاقب أجيالها. ذلك **أن الله تعالى خلق " الحياة " في أحسن تقويم**، كما خلق الإنسان في أحسن تقويم، أي ليست أجهزة الإنسان في داخل جسمه وأعضائه وطبيعة عقله وروحه هي فقط في أحسن تقويم تؤدي إلى سواء الأداء، **وإنما البيئة التي من حوله، وظروفه المعاشية، والموارد، والبدائل، والتوزعات القَدَرية : كلها في أحسن تقويم وحساب وتوازن**، بل كل ذلك تفصح عنه حقيقة انفراد الأرض من دون الكواكب بمقومات الحياة التي سخرها الله تعالى لخدمة الإنسان، فإذا لم يتجانس تصرف الإنسان مع التقويم الحيوي الحسَن : تولدت المفارقة، وانثلم التكامل المؤدي إلى التوازن، وقد أدرك بعض قدماء السلف بعض هذه الظاهرة فتكلموا عن "البدايات" صلاحها وصوابها، وتأثيرها في "النهايات"، وذكروا "مبادي الأمر"، ولكن لم يطنبوا في الشرح، وهذه المعاني هي التي جعلتني أُصرح في محاضراتي عن معالم التطور الدعوي بأن "الشمول" الذي استوعبه الإمام البنا رحمه الله مع أول خطوة في دعوته كان إلهاماً ربانياً وتوفيقاً خاصاً، لعجز الكثيرين بعد أكثر من سبعين سنة عن إدراك مثله، ولكونه كان في "مبادي الأمر" فإن أمر الدعوة قد استقام عليه في النهايات.

هذا هو الذي يحدو بنا إلى تقرير " التكامل " الذي ينتج " الشمول " كركن في المنهجية التربوية، لأنّا لا نريد للجيل الوارث الجديد أن يتلقى ذلك تقليداً وتنسيه العواطف مغزاه وسببه وفقهه، بل نريد أن يتلقاه تلقي فهم واستيعاب واجتهاد، ليحسن المحافظة عليه ويشارك في تطويره وتأكيده.

و أُسلوب تقصي المفردات والأجزاء والربط بينها في وحدة متجانسة هو الجانب الأهم في تكوين " التكامل "، وكلما تم اكتشاف جزء وتمت دراسته جيداً وتمكنّا من توصيفه ومعرفة فقهه وإضافته إلى أشباهه وأمثاله : كلما كان الإقتراب من التكامل قد اجتاز خطوة، وهذا هو الذي استعرت له في عنوان الفصل تعبير **" تركيب الشظايا "، كمثل قِطَع الفسيفساء التي تكّون صورة كبيرة**، وسيأتي

في آخر الفصل تمثيل عريض لأجزاء تربوية صغيرة ينبغي أن ينضم بعضها إلى بعض لتكوين جانب من الصورة التربوية الدعوية، وأن يضاف لها مئات أجزاء مثيلة وردت في إحياء فقه الدعوة وفي كتابات الآخرين لإتمام تكوين الصورة، وظني أن الإضافات ستظل تترى واكتشاف الأجزاء سيستمر، بل أظن أن كل سؤال يسأله داعية للمربي يمكن أن يحتل جوابه حيزاً في الصورة التربوية التي ما تكاد تكتمل كلياً بل تظل تزيدها اللمسات الجديدة كمالاً وإشراقاً، حتى ولو بنقطة أو تغيير لون في جزء من خط فيها، **وأقرب مثال تشبيهي تقريبي للمعنى أجده في المهمة التي تولتها وما تزال تتولاها بحوث طلاب الدكتوراه وتقارير الباحثين في تكوين الصورة الحضارية المدنية العلمية الشاملة**، فكل باحث أو طالب إنما يركز على دراسة جزء صغير من حقائق المادة والطاقة والعلاقات، والكتلة الفيزياوية الكيماوية الهندسية التي تقف وراء المخترعات وعمليات الصناعة اليوم تم تشكيلها من عشرات ألوف البحوث الجزئية في خصائص العناصر والتركيب الذري والسبائك والمركبات، مثلاً ، واكتشاف خصائص جديدة يؤدي إلى تطوير مستمر، **وكذلك التربية الدعوية، تتألف من أُلوف الحقائق التجريبية والآراء الاستنباطية التي يكتشفها أساتذة التربية في الدعوة**، مثل فضيلة الأستاذ المرشد عمر التلمساني رحمه الله، وفضيلة الأستاذ المرشد مصطفى مشهور حفظه الله، وقد أكثر، والأستاذ عباس السيسي، والشيوخ والأساتذة : يوسف القرضاوي، وفتحي يكن، وسعيد حوى رحمه الله، ومحمد الوكيل وعلي عبدالحليم وسيّد نوح وجمعة أمين وجاسم مهلهل وعبدالحميد البلالي وعلي الحمادي وعبدالله قادري وعلي بادحدح، والمطلوب أن يستمر هؤلاء وأمثالهم في الإدلاء بالنظر التربوي عبر تأليف الكتب، والكتابة في المجلات التربوية، مثل مجلة " العين " وأخوات لها يجب أن تصدر في البلاد المخضرمة، **ثم ينبغ في كل مفصل زمني داعية يجمع " الشظايا التربوية " التي أدلوا بها في مدونة جامعة، ويتكرر الأمر، فتكون " التربية المتطورة "، وهذه لمسة منهجية مهمة حري بنا أن نتقنها.**

وهذا الجمع للأجزاء الموضوعية في نسق واحد وترتيب أظنه ديدنٌ قديم في منهجية المربين من علماء الأمة الأوائل، لكنّا لا ننتبه أحياناً لفحوى بعض العلم الذي نحتفل به، ولا نرى هذه الصفة المنهجية فيه، فالترتيب الذي قام به الهروي لدرجات الإيمان هو عندي من هذا القبيل، إذ أنه ميّز مائة خلق إيماني وعبادة قلبية، وجعلها في نسق، فهو تجميع أجزاء وتركيب شظايا إذن.

وكذلك صنيع الغزالي في إحياء علوم الدين : قام على إحصاء خصال الإيمان والإحسان والمعروف ورتبها وحشد فروعاً كثيرة تحت كل نوع منها، ونجد لكثير من العلماء عبر استطراداتهم بيان درجات وترتيب عمل معين، كقول ابن القيم في أول فصل الجهاد من زاد المعاد : الجهاد ثلاث عشرة مرتبة، وفقه " الأصول العشرين " للإمام البنا إنه حصرٌ واستقصاء لأجزاء كثيرة توحدها محاور موضوعية تجعلها كتلة واحدة متجانسة، وكل ذلك أراه اقتفاء لأسلوب قرآني تبرزه آية البقرة : " وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى " إلى آخر الآية، وآيات جامعة أخرى، وجوامع كلم النبي ﷺ تقترب من ذلك، حين أحصى السبعة الذين يظلهم الله في ظله، وغير ذلك كثير.

ومن أهم ثمرات هذا الأسلوب أنه يمكننا من اكتشاف ما سميناه : المحاور، والجوامع، وهي القواعد والموازين التي تتركنا على فهم أدق لمكوناتها الجزئية، وتتيح لنا القياس والاشتقاق وتوليد معنى من معنى والأمر شبيه بما فعله الفقهاء من التفريع الكثير في جميع أبواب الفقه، ثم مالوا وانثنوا إلى تصنيفها حسب العلل والدلالات، فاستبانت لهم القواعد الأصولية والفقهية معاً، وشرعوا يستخدمونها للتوليد، واقتفاء أثر ذلك العمل العظيم الرائع الذي قام به الأولون وأدى إلى منهجية متينة للاجتهاد يجعلنا نأمل أن فقهاء التربية الدعوية إذا أحسنوا حصر مقدار واسع من الجزئيات التربوية ثم وضعوها في موازين وقواعد فإن منهجية التربية الدعوية ستكون أمتن، ويتاح عندئذ التوليد والقياس والاستنباط والاجتهاد، على بيّنة وأساس راسخ وتأصيل تربوي سليم.

❑ وراثة جماعية نقية في أطراف الأرض

وينساب التكامل في الحياة الدعوية انسياباً هادئاً غير متكلف، حتى أضحت نتائجه، لطول انسيابه منذ النشأة : أعرافاً يتعارف الدعاة عليها من غير نكير، وهم إلى المحافظة عليها أحوج من ابتكار غيرها، ويليق لكل مخطط أن يسأل نفسه عن مدى انتباه خطته إليها واستيفائها لمقتضياتها.

ويواجهنا التكامل بخمسة وجوه.

أو إننا إذا نظرنا إلى صورته التكعيبية المجسمة فسنرى فيه خمسة أبعاد :

❑ **التكامل في بُعده الزمني :**

فلسنا مجموعة طارئة تولدها ردود أفعال وضرورات آنية، وإنما يضرب جذرنا عمقاً في الزمان الأول، بما أنّا أتباع النبوات، وننتسب إلى إبراهيم عليه السلام، {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ}، وغيرنا قد يكون نسيباً وحسيباً ولكن من غير إتّباع.

وفي القرآن الكريم شواهد كثيرة على تذكير الله تعالى لنا أننا على ملّة إبراهيم ودينه وإسلامه ومناسكه. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يربّي المسلمين على هذا المعنى ويغرس فيهم أنهم يقتفون آثار إبراهيم عليه السلام، وكان من ذلك أنه أرسل الصحابي ابن مربع رضي الله عنه إلى مجمع المسلمين بعرفة يبشرهم، فقال فيما رواه الترمذي : " إني رسولُ رسولِ الله إليكم، يقول لكم : كونوا على مشاعركم، **فإنكم على إرثٍ من إرثِ إبراهيم.** "[1] .

وفي الأيام العادية ما كان أحد يحس بمغزى هذا التكامل، لكن في أيام التطبيع العسر هذا اليوم يتأكد المعنى، ويصير مَعلماً من معالم منهجية التربية الدعوية التي يبذلها الدعاة للمسلمين عامة، من أجل أن يتكرس التمايز التام، وأن ينغرس مفاد أولويتنا بإبراهيم، وأننا نحن الذين لبثنا أوفياء لما كان عليه من بين بنيه، لا يهود الذين انحرفوا وأسرفوا، وأن هذا التصريح النبوي الكريم الذي معنا يعتبر وثيقة تامة ودليلاً قانونياً يبطل الأساس المعنوي الذي تقوم عليه سياسات التطبيع.

وهذا الاتصال بالجذور الماضية العريقة يوجب علينا دراستها وفحصها بدقة، لتوضيح مكامن الفخر ومنابع العاطفة التي تعمر بها قلوبنا، ولاكتشاف أصول الحقوق التي تمنحنا الأولوية، ثم هي التي تبيّن توسطنا كحلقة حاضرة مع مستقبل يمكن أن نؤثر فيه ونصوغ بعض جوانبه ونحجز أمكنة الصف الأول فيه لنا، ولذلك ينبغي أن نستشرفه ونتخيّل صورته والقوى المتسابقة نحوه، وذلك هو سر احتلال **ثلاثية الدراسات التاريخية والتوصيفات الواقعية والاستشرافات المستقبلية لزوايا مهمة في منهجية التربية الدعوية المفترضة،** وقد يصدم اليأسُ صاحبَ نظر مستعجل يرى السطوة الأميركية تامة، لا يدري أن الأيام دولٌ بين الناس، وأن دراسته التاريخية نفسها تريه هذا الميزان الرباني القرآني في وصف مسيرة الحياة، وإن يكاد الذين كفروا ليزلقوننا بأبصارهم إذا رأوا استبشارنا وثقتنا بأنفسنا وسعينا لامتلاك

---

(1) فتح الباري 264/4.

المستقبل، لا يدرون أنه ذِكر وميزان تداول أكيد. يجريه رب العالمين برعايته لمن آمن وثبت وتحدّى وأحسن منهجية التربية الدعوية.

❑ التكامل في بُعده المكاني :

وهو الإمتداد العريض العالمي الذي يستشعره المؤمن بعمق حين يتأمل لفظاً من أحاديث شفاعة النبي ﷺ لأمته، رواه علي بن الحسين بن علي عن رجلٍ من أهل العلم أن النبي ﷺ يقول : " ثم يؤذن لي في الشفاعة، فأقول : **إي ربِّ : عبادك عبدوك في أطراف الأرض.** " (2).

فهو انتشار فسيح يصل أركان الأرض يُنتج كتلة واحدة مندمجة من العابدين لها شخصية واحدة، ويقف المسلم مستشعراً أعلى درجات العزة حين يوقن بأنه جزء من هذه المجموعة الواسعة أُفقياً في البلاد الكثيرة على اختلاف الشعوب والألوان، وعمودياً في الزمن عبر تعاقب الأجيال، ثم يزداد أملاً حين يجد أن انتماءه إلى هذه الكتلة لا يستلزم إذن أحد وموافقته، إنما هي لفظة التوحيد فحسب، ثم يكرر السجود، ثم يزداد ثقة أنه من حياة النعيم قريب، بما منح الله نبيه ﷺ من رحمة وشفقة وشفاعة، ثم كأنه يصل إلى مستوى اليقين بالأمر المحسوم لصالحه إذا لبثت جبهته على الأرض لحظات قليلة قبل هجوعه كل ليلة، بما وصف به ربّه نفسَه أنه الودود اللطيف البر الغفور الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن كثير، ولولا أنه تعالى جبّار منتقم عظيم قهّار لجزم المسلمُ بعبوره، لكنه يعلم أنه والشيطان تغالبا، فكانت الحرب سجالا، فيظل على شعبة من الوجل، ويتمنى أن لو كان نسياً منسياً، كما تمنت مريم وقلّدتها عائشة يوم موتها، أو يودّ أن أُمّه لم تلده، وأنه يخرج من الدنيا كفافاً لا له ولا عليه، كما ودّ عمر. ومن تعاقب السكينة والرهبة في السيطرة على قلب المؤمن يشرع يفهم أسرار حركة الحياة.

إن هذه " العالمية " هي في التخطيط الدعوي ليست مجرد عواطف تملك أقطار قلب المؤمن، ولكنها في الحقيقة خصوصية فريدة من نوعها تتيح المعنى الجامع الذي يوحد المسلمين كلهم، وتجعل تنفيذ الأمور مشتركا، والتعاون واردا، وأيما طاقة أو خبرة في زاوية فإنها تخدم الجميع، ولا تقاس القضية على التسيب الحاصل اليوم والتقاطع، فإنه من نتائج الغفلة الماضية.

حتى داخل القطر الواحد، يحدو تكامل المكان إلى معروف يحيد عنه أهل الدنيا، فالاهتمام الدعوي عندنا يكون بكل أرجاء القطر، لا العاصمة فقط، ولقد

---

(2) قال ابن حجر : رجاله ثقات، وهو صحيح إن كان الرجل صحابياً. فتح الباري 14/10.

يكـون في قرية شيء من خير كثير، وإن كان لا يمنع مضاعفة الرعاية للمركز لكونه موطن صناعة القرار.

ثـم الوحـدة العامـة لا تمنع المنازل الوسطى، التي تترجمها الترتيبات الإقليمية المسـوغة بالـتجاور وتمـاثل البيئة، لأن المثل الأعلى في وحدة الآفاق كلها سيبقى حياً مسيطراً على ما هو دونه.

❑ التكامل في بُعده البشري :

فأول معنى الدعوة : الانخلاع عن الفردية، والصيرورة إلى جماعية.

وفـي الكيان الدعوي : عرب وعجم، وفي الصف الواحد زنجي أسود مع الصيني الأصفر، مع الأبيض المقصور البوسني.

ومسؤولية النذارة تقع عندنا على عواتق الرجال والنسـاء معا.

وفي الدار الدعوية : موظفون، وعمال، ورجال أعمال، وطلاب، ومتعلم، وأُمي، وصحراوي، وريفي، ومدني، بعضهم يردف بعضا.

ومنكـب الفـيزياوي يلاصـقه منكـب فـلاّح، ثـم الطفـل من ناشئة الدعوة يدرج خلفهما.

والأداء الدعوي تحركه قيادة وجندية وجمهور عريض من الموالين.

ونظـرية الأجـيال القـيادية فـي المســار خصصـت مجـالس لشـباب وكهـول مع الشيوخ.

وغلـبة رفـق أبي بكر وازنَ غلبة صلابة خالد، فلما حكم عمر صارت شدة حزمه بحاجـة إلـى أن يوازنهـا رفـق أبـي عبـيدة، ﷺ، فـي تكـامل قـيادي يشـير به الفقه الصحيح.

❑ التكامل في بُعده الموضوعي :

فقـد رصـد الأصـبهاني ظاهـرة (اسـتيلاء النقص على جملة البشر) في كلمته المشـهورة، وهي توجب علينا استقبال أي خير تقدمه جماعة من المسلمين استقبالاً حسـناً، ومـا مـن سـبب وجـيه يدعونـا إلـى الـتوتر والتجهم والانفعال الزائد، فإن الجمـيع أسـرى هـذه الظاهـرة، والأقـدار الربانـية حاكمـة، والأصـل عـدم العـدوان والـتخذيل، وأمـا الـنقص فيتكفل التكامل بحل مشكلته، فإن ضم الرُبع إلى النصف إلـى الـربع ينـتج واحـداً كـاملا، وهـو ما كرر الدعوة إليه فضيلة الشيخ القرضاوي وتمـنى تعـاون الجماعات الإسلامية، من دون أن نهدر قيمة الواحدة منها حتى وإن اعـتراها نقـص، فـإن التنسـيق ينـتج الـتكامل فـي الأداء، وتقاسـم الواجـبات مظنة

الإتقان، كل جماعة فيما تحسن وما هي به مختصة، لكن النفوس إذا انفعلت أغلقت طرق التكامل وهو منها قريب.

❑ التكامل في بُعده التوسّلي :

فوسائلنا شاملة : نعتمد التربية والتزكية النفسية كأساس، وننشر الفكر مسالمين محاورين، لكنا نجاهد لتحصيل حقوقنا ودفع ظلم الظالم إن ظلمنا.

وطريقتنا مدنية، تسخر المخترعات لخدمة القضية الإسلامية، وتدفع الدعاة لإتقان جميع العلوم.

ونحن ننطلق من جانب المحراب، لكن نمر بالمدرسة، والجامعة، والملعب الرياضي، ودار النشر، ومعرض الفن، والشريط، والصحيفة، وموقع الانترنيت، ومركز البحث، وشركة المتاجرة، ومصنع الإنتاج، وقاعة الاحتفال، وساحة المهرجان، وشارع التظاهر، وبيت الأيتام، وقدور الإطعام، وساكني الخيام، والدثور والقصور.

وفي استقصاء أدوات صناعة الحياة مثال تام للتكامل في الوسيلة، وإيضاح لشرف المهن النبيلة.

وفي استدراكنا على الهدم تكامل، لأن ملاحقتنا كانت متنوعة، جسدياً بالمحن، وتنظيمياً بالفتن، وفكرياً بالتطرف القومي والإلحاد الشيوعي، وخلقياً بالفساد، ونفسياً بالتطبيع، لذلك تسعى خطتنا إلى إصلاح شامل، فإن المستجيب قد يتعفف، لكنه يظل مخلط الفكر، منهار العزيمة.

فذلك خبر التكامل في أبعاده الخمسة.

❑ عشارية في التقعيد التربوي

ونحاول أن ننعطف الآن نحو استعراض بعض القواعد التربوية الدعوية التي أساسها التجريب والخبرة، ليس تعليماً لها فقط وترقّب أن يجوّد الدعاة تربيتهم بمراعاتها وتنفيذها، وإنما **هي أيضاً أمثلة لتركيب الشظايا،** فقد كانت أكثر هذه القواعد غير مدونة، ولم يتداول الجيل الأول بعضها بوضوح، ثم انقدحت أُصول وجذور معانيها تدريجياً عند بعضهم، ثم عند الأجيال اللاحقة، حتى حصلت إشارات عديدة متقاربة أتاحت كثرتها ضمّ بعضها إلى بعض لتكون قواعد يعترف

بهـا عـدد كبـير مـن المربيـن الدعويين، وربما نال بعضها الإجماع أو ما هو قريب منه.

□ **القاعدة الأُولى : الحرص على التأصيل الشرعي للأعمال التربوية، وتربية الدعاة على طلب الأصالة.**

لـيس فقط في التفتيش عن دليل شرعي أو اجتهاد فقهي ينفي عنّا البدعة، ولكن **أيضـاً إثـبات أن بعض وسائلنا التربوية ليست من الاجتهادات العصرية أو الإقتباس مـن غـير المسلمين، وإنما هي صنعة إسلامية قديمة ذهب إليها بعض السلف**، وفي ذلـك مـا يجعـل الداعية أكثر اطمئنانا إلى صواب ما يفعل، وأجدر بالفخر في أنه يـنحى مناحي الفقهاء الأولين لا التربويين المعاصرين، ويتولد عنده اعتداد وتمسك أقـوى بالأفعـال المؤصـلة المشـهود لهـا، فنحن نلمس فرحاً يصل إلى درجة النشوة الغامـرة إذا اكتشـف داعـية قول فقيه يلتقي مع مفاد عرف دعوي أو فقرة في الخطة، وكأنه اكتشف وثيقة قضائية تثبت أنه وارث شيء ثمين.

فجـزماً أن كمـية الأفعال التربوية المشهود لها فقهياً هي أكبر في حجمها اليوم فـي الأجـيال اللاحقـة ممـا كـان يعـرفه الجيل المؤسس، وحصل نمو تدريجي في ذلـك، ففـي كـل سـنة يكتشـف باحث تربوي تأصيلاً لعمل، أي تضاف شظية، حتى حصـل تـراكم كثير أدى إلى أن يقعّد التربويون هذه القاعدة، وغرضهم الحث على مـزيد مـن الشـواهد التـي نجدهـا فـي ثـنايا الأبـواب الفقهـية وفـي كتـب التاريخ الإسلامي.

إذن : فوضـع هـذه القـاعدة، وبـذل جهـد بحثـي أو تأليفي أو اجتهادي لتنفيذ مطلوبهـا : هـو جـزء من منهجية التربية الدعوية. ويعجبني جداً في هذا السياق ما كـان فـي الكويـت قبل أكـثر مـن عشرين سنة من تكليف طلاب الدورات أن يضع الواحـد مـنهم بحـثاً فـي جزيـئة تـربوية، فكتبوا وجُمعت البحوث في الأجزاء الخمسـة الضخمة المعروفة باسم " **ممرات الحق** "، وواضح في عمل جماعي مثل هـذا أن بعضـهم يـبدع، وبعضـهم لن يعدو قدره في التقليد، ولكن العمل بمجموعه غزير الفائدة، **وذهب مثلاً لطريقة منهجية حسنة في السعي نحو التكامل والتأصيل.**

□ **القـاعدة الثانية : تجويز الإقتباس المعرفي من الحضارات الأُخرى غير الإسلامية لما لا يصادم حقائق الإيمان وأحكام الشرع ومقاصده.**

فالتأصـيل الآنف أصل، وهذه زيادة تجميلية تكميلية تقصد منها تجويد الأداء، ففـي الآداب والفلسـفات والفـنون وأنمـاط الإدارة ومنهجيات البحث والتحليل لدى

الغرب بخاصة صواب واسع المقدار يمكن أن ينتفع منه المسلم، في الحقل التربوي أو غيره، **لأن الكافر لم ينغلق على خطأ في كل أمره، بل تحركه بقية فطرة أيضاً،** والبقية غير المحرفة من دينه، فلا يمنع حاله من أن أجعل من موازيني الإيمانية والشرعية غربالاً أُغربل به ما عنده، فأستخلص وأدع.

والدليل على ذلك ما نلمسه في التربية " الإبداعية " التي يزداد حجم ما نقتبسه فيها من التجارب الغربية، مما قام به طارق سويدان وعلي الحمادي مثلاً، فقد تلقاها المجتمع الدعوي بالقبول على سبيل الإجمال حتى ولو حصل نقاش في بعض المقتبَسات.

وكذا أساليب الإدارة ومنهجية البحث.

وقد عقدت فصلاً خاصاً في هذا الكتاب لبيان مواطن الالتقاء ولا أُحب أن استطرد هنا، بل سيأتي الأمر مشروحاً.

فالاقتباس حقيقة حاصلة، لا ينفيه غير متنطع متكلف، أو مربّ فائق الحساسية يخاف أن يعتاد الدعاة الاقتباس بلا ميزان حتى يتحول إلى جزاف، وهو تخوف له فيه حق، لكن تربية التأصيل تعادل الاقتباس.

وفحص تاريخ هذا الاقتباس في المحيط الدعوي يرينا معنى انضمام الشظايا إلى بعضها حتى تنضج قاعدة، فإن الاقتباس بدأ بعضه من حيث لا نشعر عبر التربية المدرسية وآثار مطالعة الكتب العامة والصحف، ثم أتى بعضه عن عمد، ولكن كان يمشي على استحياء ووَجَل، ثم ازداد الانفتاح، فصار الأمر عرفاً أو قاعدة في منجية التربية الدعوية.

□ القاعدة الثالثة : أن المعاناة تحقق نضوج الدعاة، وأن الوعي يحصل عبر التراكم البطيء لأحاسيس كثيرة التنوع تنتجها الممارسة العملية، ولذلك يكون التدرج المرحلي في العمل الدعوي هو سبيل الإتقان.

وهذه قاعدة تجريبية محضة، شظاياها التي اجتمعت فكونتها كثيرة جداً، وكان الإمام البنا رحمه الله يتوقع محناً وتكذيباً قياساً على قصص الأنبياء عليهم السلام، لكن ما حصل فاق حجم التوقع بكثير، ومازالت خطة العالم في تعويق مسيرة الدعوة الإسلامية بعد حادثة نيويورك الكبرى تبدي مبتكرات جديدة وإصراراً غريباً من نوعه على اتهام الدعاة مما هم منه براء.

وقد حصل نمو في الوعي لدى الدعاة تناسَبَ طردياً مع الرهق الذي أتعبهم في كل بلد على مدى يومي، من إشاعة مغرضة يروجها شيوعي وملحد و مخابراتي، وتأليب لجهال الناس على الدعاة، وأبدت الغوغاء قابلية لقبول التحريش والأغاليط، ثم كان تأليب علماء السوء على الدعوة، ثم تعدّدت أنواع التنكيل والسجن والتشريد، وكل ذلك سوء يؤذي الداعية، لكنه في نفس الوقت يربيه ويمنحه تمييزاً أكثر لمعنى الحياة والصراع وأدوات التنافس، ويزوده بفهم لطبائع الناس وأخلاقها، ودور الإعلام في ذلك، ومكانة المال في شراء الذمم وإسناد أعمال الخير والشر على حد سواء، **وكل مفردةٍ من مفردات الرهق وردود الفعل كانت شظية، لبثت تجتمع إلى مثيلاتها على مدى طويلٍ، حتى نطق ناطق من أهل التربية رصدها فهتف : أن لدى الدعاة في الآخر وعياً شكّلته المعاناة هو الثمن والثمرة للآلام المبذولة والآهات والحمل الثقيل، وأن المعاناة كانت لذلك قَدَراً ربانياً خيرياً لتطوير التربية الدعوية**، فصدّق آخرون زعمه، ولستُ أنا بآخر المصدقين، وتحولت هذه الحقيقة إلى قاعدة تربوية تترجَم بوجوب تأكيد المرحلية وعدم قفز مرحلة التأسيس ومرحلة الانفتاحِ، وتأجيل الصراع، من غير استسلام للعدو بتوهم أنه يربيني بظلمه، وإنما نصارع قَدَر الشر بقدر من الخير يشهد الفقه أنه يناسب ظرفي وقوتي مقارنة بقوة الخصم، فإن غلبني الظالم فإني موقن بأنها غلبة وقتية، وأتأول تأولاً حسناً حكمة الله في تمكينه الظالم وإرجاء نصره لي : أنه يريد بالمعاناة أن أكون صابراً واعياً، وأن تكون صفوفي نقية من مستعجل ومصلحي.

❑ القاعدة الرابعة : التصرف النسبي واتخاذ البدائل.

وإذا كان أصل هذه القاعدة يستند إلى تأمل واستنباط فإن تفهيمها يحتاج سعة تجربة، وما أظنها مختصة بالمسلم، بل هي من العلم الإنساني العام، وما هي بحديثة، بل تضرب في عمق الزمن، وأتاها كبار القادة في التاريخ، مثل الاسكندر والقياصرة، كما اتبعها الصحابة ونبلاء المسلمين، مثل خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي، ولئن كان استعمالها في الحرب والسياسة أظهر منه في التربية : فإن إعمالها يحتاج إلى فن تربوي، أقله : تربية الأتباع والجند على الامتثال لمقتضياتها، والتي هي خلاف الظاهر في الأغلب، وخلاف ما يسرع إلى البديهة الأُولى وبادي الرأي.

فالمكث والإبطاء والتقدم الواثق والتأني وانتظار الظرف الملائم واكتمال التحشيد : فنون متقاربة مناقضة للحث وسرعة الحسم والإمعان والمبالغة في التوغل.

والمجابهة الصادمة، والمواجهة السافرة، والاصطفاف المتقابل : غير الالتفاف والتملص الذكي والانتشار الواسع بعد تواعد على أجل لاحق.

وبين الشخوص والتواري عشر درجات من العلنية والسرية، والإعلان والتخفي، والصياح والصمت، والفوضى والنظام، والتمركز و التوزع.

وكل ذلك تتحكم فيه توفيقات ربانية وأقدار، وإلهامات وفراسة، وتخطيط ومعادلات رياضية.

واكتشاف اللائق جزء من القضية، لكن الجزء الأهم : كيف تربي على ذلك وتشرح وتقنع وتبقى مطاعا، فكم من مجرب بصير خذله أصحابه وجنوده فاستعجلوا حين أراد السير الموزون، وكم من حصيف أتى لجيشه بالتقريرات العقلية رديفة للسلاح، ولم يؤجج العواطف ويبعث الحماسة، فأبطأت الاستجابة ورحلت الفرصة !!

وهذه القاعدة متكونة من ألف خبر تاريخي قديم، وألف من التاريخ الحديث، وكل خبر مثل شظية، واجتمعت كلها في نظر المربين فجعلوها قاعدة.

❑ **القاعدة الخامسة : الموازنة بين النقائض والمتكاملات.**

فبين التطور والثبات تكامل، والثوابت لابد أن تتيح هامشاً تتحرر حركة المتغيرات ضمنه، ولا يصح أن نحكم على الأساليب والوسائل بالجمود كمن يتلفع ثوباً واحداً دهْرَه كله.

وبين العمل التربوي الخاص في مجتمع الدعاة والعمل العام في المجتمع الواسع نوع تكامل، والذي يرى وجهاً واحداً وميداناً واحداً إنما هو متزمت لم يفقه أثر السواد الأعظم في إحداثِ التغيراتِ الكبرى في مسار الحياة، أو هو على عكسه : لا يفهم كيف تقود الصفوة المختارة السوادَ إلى إجراء النقلات.

وبين القوة الجهادية والقوة العلمية تكامل.

"وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ " .

قال الخطيب البغدادي : (فجعلهم فرقتين، أوجب على أحداهما الجهاد في سبيله، وعلى الأخرى التفقه في دينه، لئلا ينقطع جميعهم إلى الجهاد، فتندرس الشريعة، ولا يتوفروا على طلب العلم فتغلب الكفار على الملة، فحرس بيضة الإسلام بالمجاهدين، وحفظ شريعة الإيمان بالمتعلمين.)[3]

❑ **القاعدة السادسة : أن تربية التحدي عطاؤها أكبر من عطاء التخطيط التربوي.**

وهذا أمر تجريبي محض، وذوقي بحت، ومنطقه لا يقوم حُجة على المخالف، لكنه من مذهبي في التربية.

فالنتيجة المقصودة من التربية الدعوية هي صناعة مؤمن واع يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتقن عملاً ضمن أشكال العملِ الكثيرة التنوع التي يتألف من مجموعها الأداء الدعوي الشمولي ويكون مستعداً لبذل روحه ودمه في سبيل الله إذا اقتضى الصراع ذلك.

من هنا فإن مواكبة المربي لتلميذه في أيام الشدّة والتنافس يعلّمه العزة، والممارسة العملية للنهي عن المنكر: تمنح الداعية الصاعد روح الكبرياء على الجاهلية، والتمرّد على الترويض، والصلابة والثبات، وهذه الطباع والأخلاق الرفيعة هي أرقى الخصال التي تطمح التربية الإيمانية الدعوية إلى تحقيقها، ومن تمثلت فيه سَهُل أن يحوز ما دونها من مراتب الأخلاق بدون تكلف، بل يأنف تلقائياً عن إتباعِ الشهوات ومنازل الدون، ويميل إلى التجمل بالعفاف، ومن كان شجاعاً كان كريماً ولابُد، والمراقبة الاجتماعية تدل على ذلك، وتشير إلى أن **خصال المروءة والنجدة كلها مبدؤها عزة النفس واستبداد شعور الشمم بالعزيز، فيفتأ يطلب الحرية ويتخلق بأخلاق الأحرار.**

فمبلغ اجتهادي أن تربية الداعية على محاسن الأخلاق لا تكون وفق التدرج الصاعد من أدنى إلى أسفل، كما هو شأن القواعد التخطيطية وشأن أكثر طالبي الأُمور الصعبة، بل يسقط اعتماد التدرج هاهنا ونحرص على أن نبدأ من أعلى ثم ننزل، بالعزة وغرس روح التحدي ثم ما هو أدنى.

ولست بالذي يُنكر التخطيط وأهميته، بل أنا داعيته، وإنما أرى أن تحوّل التخطيط إلى هاجس يولد وسوسة، فلربما ينشأ تعقيد تخطيطي بدل التقعيد،

---

(3) الفقيه والمتفقه/11.

وحصوله ينفي السكينة الإيمانية والاسترسال البسيط في موازاة الفطرة وتعمير مشاعر الحماسة ومقارعة الباطل، **والمبالغة في الإستبسار للتخطيط شأنها شأن كل مبالغة، إنما تصنف في السلبيات وإن كان ظاهرها الإيجاب، وحركات الداعية وسكناته تحتاج شيئاً من الحرية، والقرار الشخصي، وسرعة رد الفعل، وإلاّ تصبح حركة الداعية ميكانيكية مبرمجة سلفاً**، بينما أفهم أن التخطيط الصائب هو الذي يتيح خيارات عديدة يضعها بين يدي الداعية المنفذ يختار منها ما يظن أنه الأليق الأصوب، ويتخذ قراره الخياري في يوم التنفيذ نفسه بناء على خارطة الواقع المتغير التي كان قد تدرب على قراءتها، وتكون عملية استعمال الخيارات أشبه بعملية التوافيق والتباديل الرياضية التي تنتج أشكالاً لا نهائية من العلاقات بحسب الارتباط النسبي بين مفرداتها.

❑ **القاعدة السابعة : تقييد المخططين بهدف " واقعي " ليس مطلق الصواب.**

فقد كثرت دندنة المخططين حول وجوب أن يكون الهدف واقعياً متناسباً مع المقدرة التنفيذية التي نملكها، وهم يعنون في مجمل مرادهم : التواضع في تحديد الهدف، ونحت الطموح الزائد، واللجوء إلى حساب شديد، بحيث تصرف جهداً بمقدار الرصيد.

ولستُ أرى ذلك، وأنا أُخالف هذه القاعدة التي ينقلها الدعاة من كتب التخطيط الغربي بنوع تقليد من غير اجتهاد، فإنما وضعت هذه القاعدة لأعمال الشركات التجارية والإدارات الحكومية، لا لمسيرات التغيير الشامل وصناعة الحياة وتحقيق الانعطافات الكبرى في حياة الأمم، **فإن تحويل الوجهة السياسية والاجتماعية يحتاج مقداراً عظيماً من الجرأة والطموح والمغامرة والإقدام على ارتكاب شبه المستحيل**، وتاريخ الثورات والتبدلات الحضارية يدل على ذلك ويشهد لفهمي ويشير إلى صوابي.

وأنا أستند إلى ظاهرتين :

• **ظاهرة إرخاء الفطرة لصاحبها عن كمال التنفيذ وتمامه، بل في نفس كل شخص مكلف بأمرٍ نداءٌ داخلي يغريه بالإبطاء بعد تجاوز مقدار النصف**، فهو ينفذ، ويدأب ربما، لكنه إذا بلغ أكثر من النصف : تخدرت نفسه اللوامة عن الإلحاح عليه، ويأخذ يأمن ملامة الرئيس والقرين، فقد خرج عن حد التقصير. وأزعم أن أكثر البشر على مثل ذلك، مسلمهم وكافرهم، وإنما يتفاوتون في مقدار الترك، وأوان بدء الإنحلال، فمنهم المسرع إلى التسيب، ومنهم من يقارب

الإجـزال، ولذلـك يجـب أن نضع هدفاً أكبر من المـمكـن ليحـصل الممكن، وإلا فلـو ألزمـت نفسك والأتباع بالممكن فقط لحصل دون الممكن، بضغط هذه الظاهرة النفسـية التـي أبصـرتها عـبر طـول مراقـبة الحـركة اليومية لمجموع الدعاة والناس عموما.

• **وظاهـرة تفجّـر الطاقـات المخـبوءة فـي سـاعات الحـزم، وغلـيان الكوامن عند مقـابلات الـتحدي، وتضاعف الأحاسيس يوم المفاصلة، وبلوغ النفس أقصى كرمها وبذلهـا وشـجاعتها إذا وضـح الهدف، وقد لاحظَت الشعوبُ أن العواطف تستنزف كـل المسـتقر فـي الأعمـاق إذا تأججـت، وكـل ذلك يعني أننا بحاجة إلى هدف "واضح " لا هدف "واقعي"، والتجارب تتيح لي أن أسأل من يزعم وجوب الواقعية : مَـن أخـبرك أن مـا تـراه يوم السبوت هو كل الموجود ؟ وكيف تقيس مستويات الطاقـة يـوم التصـعيد على مستواها يوم الراحة والغموض واسترخاء البطالة ؟ وهل رأيـت منثنـيات التاريخ ؟ وهل قارنت ما يسببه الوعي من عطاء إذا العقل بالبرهان والتحلـيل اقتـنع ؟ أو رأيـت نفض القصيدة العصماء من وليدٍ أو أخيه للقلب إذا تطلّع ؟؟؟**

وفـي الانتفاضـة الفلسـطينية الثانـية بخاصة أوضح دليل على حصول أضعاف ما توقعـه أهـل التخطـيط لهـا، وكادت دعوى الواقعية أن تبيع الحوزة والتراث والآمال والمسـتقبل لـولا اكتشـاف نكاية الحجارة، فصار الشباب يتسابقون إلى الاستشهاد، والطموح يقود.

❑ **القـاعدة الثامـنة : طلـب الوحـدة القلبـية المعـنوية بيـن الدعـاة عـبر الممارسة الشوروية.**

ففوائـد الشـورى وبـركاتها عديـدة، وإنمـا نلحظ هنا أثرها التربوي الحسن في توحـيد القلـوب وإحلال التحابّ بين المتشاورين، وهو أمر انتبه إليه الفخر الرازي قديمـاً وبيّـن كـيف أن مـن شـأن المتشـاورين أن يجـتهد : (كـل واحد منهم في استخراج الوجـه الأصـلح فـي تلـك الواقعـة، **فتصـير الأرواح متطابقة متوافقة على تحصـيل أصلح الوجوه فيها، وتطابق الأرواح الطاهرة على الشيء الواحد مما يعين على حصـوله**، وهـذا هو السر عند الاجتماع في الصلوات، وهو السر في أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة المنفرد)[4].

---

(4) تفسيره 54/9.

ففي الممارسة الشورية هذا التدريب على تطابق أرواح الطبقة الريادية واقترابها من أن تكون روحاً واحداً، وعقلاً مشتركاً، وذلك أساس بناء الآراء الجماعية.

وواضح أن اكتشاف هذا الأثر الإيجابي للشورى إنما حصل عن طريق الاستقراء، وتسجيل ملاحظة انضمت إليها ملاحظات مماثلة، على أُسلوب اجتماع الشظايا، فسُجلت كظاهرة.

☐ **القاعدة التاسعة : أن الفكر القويم مبتدأ الإصلاح.**

فإن الفكر هو الذي يقود العمل، والأوهام تقود إلى فوضى، أو طيش، أو دوران في حلقة مفرغة دون نتيجة.

من شهادة التاريخ للفكر : التصورات الساذجة القاصرة التي استولت على علماء الشريعة وبعض الساسة المخلصين حين ألغى أتاتورك الخلافة، فتعالت صيحات في العالم الإسلامي تطالب بإعلان خلافة بديلة في بلد آخر، واشتدت الدعوة لعقد مؤتمر يتولى إعلان خليفة، ومنهم من انطلت عليه تطلعات ملك مصر فؤاد فرشحه للخلافة، لكن الفكر الصائب الذي كان يحمله شكيب أرسلان جعله ينكر ذاك الهراء، ويشير إلى الطريق الصحيح، طريق التربية والبدء من تحت، من تربية الفرد، مما أوردناه في المنطلق، ثم هدي الإمام البنا إلى طريق الاستدراك القويم.

ومن شهادة الوقائع للفكر : المتاهة التي دخلها الشباب المسلم المتحمس عبر التفجيرات وهواية إطلاق الرصاص على شرطي وسائح، وظنون بن لادن أنه ينهك أميركا ويركعها إذا آذاها، وهي خواطر تعتمد المبالغة والخيال الجامح، ولو حاز هؤلاء منهجية التفكير الصحيح واتقنوا التحليل بعد رصد الأداء الحضاري والمدني في أميركا والعالم الغربي لتوقفوا عما هم فيه ولعرفوا **أن المشروع الحضاري الإسلامي أجزل وعوداً وأكثر أملا**، وهو بطئ، لكنه نافذ، وسلمي، لكنه حاسم، وأن الجهاد الدفاعي إنما يؤتي في وقته بعد نضوج المقدمات والتطور المدني والتمهيد التربوي، وقد لا نحتاج إليه إذا أدت جهودنا التطويرية للأُمة الإسلامية إلى موقف شعبي واع موحد يتيح مطالبة متصلبة ملحاحة على تحصيل الحقوق وتتوسل بوسائل السياسة والإعلام واستصراخ قوى المعارضة الغربية لنصرتنا والضغط على بقية التوجهات الاستعمارية، ولا أستثني من ذلك إلا قضية تحرير فلسطين، فإن الجهاد هو الطريق الوحيد فيها.

فهذه أمثلة تدلنا على الجهد المهدر العظيم الذي لو رصده أهله لخدمة المشروع الحضاري الإسلامي لكان خبرنا اليوم غير ما هو عليه، ولو أضفنا إلى ذلك ما سببه الفكر الواهم من ردود فعل غربية زرعت الألغام في طريق العمل الإسلامي العام لاتضح أكثر حجم التعويق.

لذلك فإن من منهجية التربية الدعوية الصحيحة : إيلاء عناية للفكر الإسلامي الصحيح، وترويجه، وتوسيع مداه، ورصد جهود بعض الدعاة له، فما هو بترف كما يظنه البعض ممن يدعون إلى التجرد للعمل والجهاد، بل هو ضرورة وأصل ومقدمة للعمل والجهاد، وإنما يُعرف الحق بالمقايسة، **ونظرة سريعة إلى أدعياء التجرد للجهاد ترينا الفقر الفكري المدقع عندهم مقارنة بالعمران الفكري لدعاة المشروع الحضاري الإسلامي ووفرة الإنتاج فيه.**

وهذه دروس تجريبية آن أن لا نترك الحياء وتأول سد الذرائع يحجزنا عن الصدع بها، فإن أذى الجهاد الموهوم قد تفاقم، وفي استمرار السكوت ضرر وإغراء لساذج أن يحالف الواهم.

وأنا أتساءل : يا ترى لو كان ابن لادن صرف عشرات ملايينه على تأسيس دور نشر للكتاب الإسلامي، ونشر الصحف ومجلات إسلامية عامة ومتخصصة، ومراكز بحوث وتطوير، وإنشاء جامعات ذات منهج إيماني، وسلسلة مدارس عالية المستوى، ومواقع انترنيت، وإنتاج أفلام تخلّد سِيَر المجاهدين، ورسوم متحركة نظيفة للأطفال، وتخريج ألف دكتور في القانون الدولي والدستوري، والعلوم السياسية، والإعلام، والاقتصاد، والتاريخ، والفلسفة، وعلم الحضارات المقارن، إضافة للعلوم الشرعية والأدب والنقد الأدبي : كم كان الأداء الإسلامي العالمي سيتطور ويتقوى ويقترب من التأثير ؟؟ لكن الفقر الفكري يغرّ صاحبه ويحشره في النفق الذي لا مخرج له !! وكل ما يقال عن الإفتراء الاستعماري صحيح، لكنه ما كان ليكون من فراغ، بل وجِد عدو الإسلامِ مسلمين لا يحسنون التخطيط ولا يعرفون الوعي فاستدرجهم فاستدرجوا، ولست أعني ابن لادن هنا بذاته، فقد سبق السيفُ العَذَل، وما شاء الله كان ومضى، ولكني أعني مدرسته، وهذا النمط في الفهم الناقص لمعنى الجهاد، وأُمنية الصرف الواعي للمال إنما أتمناها لغني متحمس أخاف أن يدخل نفقاً ثانياً، فلعله يتعظ ويحالف دعاة الرد الحضاري الشامل، وليأت إلينا نعلمه تفاصيل الدرب الآمن.

❑ **القاعدة العاشرة : أن الحوار بين الدعاة هو الذي يوقظ الأفكار، ليس الإملاء، ولا انفراد النوابغ.**

فإن التعطل الفكري وكبت الإبداع إما أن يتولد من نمط في التصرف لدى بعض القادة يميلون معه إلى الإسراف في منع النقاش، ويكون منهم تبرم من اعتراض وردّ، أو من محاكاة لتصرف المريد الصوفي مع شيخه من الإسراف في التأدب معه حتى يكون كالميت بين يدي الغاسل كما يعبّرون عن حالتهم، وفي الحالتين هناك هدم وتحطيم لشخصية التابع، واستئصال لجذور الإبداع في أعماقه، وليس في ذلك صواب يشفع، **وإنما تنمو الرؤى والأفكار عبر التقابل وحرية القول والتدريب على النقد**، ومنهجية التربية الدعوية فيها عقد مؤتمرات، وإقامة ندوات، لتمكين الداعية من أن يفصح عما يعتقد، فإن كان صواباً وجد طريقاً لتنفيذ، أو كان من الخطأ : تبين له وجهه فانخلع عنه مبكراً قبل تحوله بطول الوقت إلى رأي مستقر.

❑ عشارية ترصد التوجهات التربوية الرئيسة

وهي توجهات نابغة من تركيب الشظايا التربوية أيضاً، أي أن أصل كلٍ منها عدة ملاحظات تربوية صغيرة متقاربة المفاد اجتمع بعضها إلى بعض فصارت تمثل توجهاً تربوياً يشهد له الخبراء بالصواب والقبول.

❑ **التوجّه الأول : إتقان استثمار ركن التدين في النفس البشرية الذي يمنحنا عامل تفوّق دائم على الآخرين.**

فالتدين فطرة مغروسة يدفع إلى صدق المشاركة وعمق الولاء وكثرة البذل، وهذه إنجازات تربوية يتكون منها نصف النجاح التربوي، ولا يمكن لغير المتدين أن يحصل من أتباعه على عشر معشارها أبدا، لأن صاحبنا يتعبّد بها، وغيره مجرّد متوافق كثير الشروط.

والمتدين ثابت على تدينه، وصاحب الرأي متبدل تعصف به الأهواء.

والتدين يفشو بين الناس وينتشر، وأهل الرأي أقل.

وإذ نحن حركة " دينية " فإن ذلك يعني أن إيماننا قد منحنا إمكانية قيادة جمهور عريض من المؤمنين، وأننا كسبنا في الحقيقة نصف المعركة قبل البدء، ولذلك فإن خطابنا السياسي العام يجب أن يفصح أيضاً عن هويته الدينية وموازينه القرآنية، وأن يكون ذلك ركناً في منهجية التربية السياسية الدعوية، ولا يسوغ

التشبه بالأدب السياسي العلماني في زعمه التجرد من الغيبيات، وأقول ذلك لأن بعض الدعاة الذين تعاظمت مقادير مطالعاتهم السياسية والفكرية ورجحت على مقادير ثقافتهم الشرعية يقلدون الخطاب العلماني مِنٍ حيثٍ لا يشعرون ربما، ويجردونه من أُصوله الإيمانية، ومنهم مَن يفعل ذلك عمداً، تأولاً أن العلماني أمهر من الدعاة في صنعة السياسة، فيتشبه بألفاظهم ولغتهم وأساليبهم.

❑ **التوجه الثاني : إستيفاء الاستفادة من عطاء العالمية.**

وعطاء العالمية وافر مبارك، لكننا لم نستثمره كله بعد، ولم نوظف حقائقه في خدمة الدعوة، مع أنه عامل تفوق على الآخرين، فإنهم لا يملكون مثله، وهيهات اجتماعهم في مقام الرجحان الإستراتيجي الدائم بإذن الله.

ففي العالمية حشد طاقات من العالم الإسلامي كله، لا العرب فقط، ولا العجم فقط، فأيما نجاح يصيبه جزء من الدعوة في بلد من البلدان في تربيةِ داعية واحد بتربية عالية المستوى متطورة يعتبر إضافة حقيقية للرصيد في البلاد الأُخرى كلها، لأنه سيكون عامل إسناد وضغط ودعاية، ويمكنه أن يقدم خبرة تخصصية أو فكراً أو مالاً، وأقل ذلك أنه جزء في تكوين الصورة المهابة.

وفي العالمية أمن وبدائلٍ واحتياط، فإن الظلم إن منع عربياً مِن جهرٍ بالحق أو تنفيذٍ لواجب : فإن عجمياً سيتصدى للتعويض والوكالة وإبقاء الجذوة، ولن تضيق الأرض بأحد مع سعة الإنتشار، وهذه قضية فلسطين عادت إسلامية عامة بعد ضيق تعريبها، ويتظاهر لتوضيح حقها أحرار في جكارتا في مسيرة طولها أربعة عشر كيلومترا، وينتهي جهل أهل مدراس والتاميل بها بما يكتب دعاة سريلانكا بالتاميلية في شرحها، فيروج في جنوب الهند، ثم في السنغال وسيراليون والكاميرون قول رصين يتطابق مع نشيد في تترستان بسيبريا يغنيه منتفض خاطوا لسانه مائتي سنة كاملة.

وبالعالمية يتحول الصعب الذي في المشاريع الكبرى إلى سهل بإذن الله، لما فيها من تعاون وتوزيع للثقل.

❑ **التوجه الثالث : كسر القوقعة والخروج إلى الحياة الفسيحة.**

فإن التنافس يحدونا إلى تفاعل اجتماعي واسع. وبالأخص : التعاون مع مستقلين يصعب ضمهم إلى الصف لأسباب شتى، لكنهم من أهل الخير أو الخبرة

أو الوجاهة، وكثير منهم من بقايا الأحزاب المندرسة التي أنهكها الزمن فمال بعض ناشطيها إلى التوبة مما سلف منهم وأيقنوا إذ أفلست أحزابهم وقياداتهم وأفكارهم أن الزمن القادم محكور للدعوة الإسلامية، واستيعابنا لهم يقتضي أن ننفتح نفسياً أولاً، وأن نضيف إلى أخلاقنا رفقاً وسماحة ولمسة حنان، وأن نتذكر مشاهد في السيرة النبوية المطهرة تحول فيها صناديد الكفر إلى أركان في خطط الجهاد، مثل إسلام خالد وعكرمة ﷺ، وينبغي أن نعلم أن تحقيق الكتلة البشرية الضخمة هو أحد الأهداف الإستراتيجية في الخطة الدعوية، وهذا الانفتاح الاجتماعي هو وسيلة رئيسة لحصول ذلك.

وما من شك في أن أصل ابتناء العمل الدعوي إنما كان ويكون على مخالطة الناس من أجل إصلاحهم، ولذلك لا يليق مبدأ العزلة الصوفي لداعية أبداً، لكن هذا لا ينفي ما ركنت إليه التربية الدعوية من اللجوء إلى بعض العزلة من أجل مراجعة النفس والإستدراك والمحاسبة والاكتيال من خواطر الخير المعينة على جولة أُخرى من مخالطة الناس. وكنا نحسب ذلك من مفاد التجريب، حتى اكتشفنا أنها وصية عمرية قديمة.

قال ابن حجر : (قال ابن المبارك في كتاب الرقائق عن شعبة عن خُبيب بن عبدالرحمن عن حفص بن عاصم قال : قال عمر : خذوا حظكم من العزلة)[5].

أما العزلة المذكورة في حديث البخاري " يأتي على الناس زمان خيرُ مالِ المسلم : الغنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر" ، فهي ما يكون زمن الفتن العامة وفي آخر الزمان، كما شرحه ابن حجر فقال : (لفظه هنا صريح في أن المراد بخيرية العزلة أن تقع في آخر الزمان، وأما زمنه ﷺ فكان الجهاد فيه مطلوبا، حتى كان يجب على الأعيان إذا خرج الرسول ﷺ غازياً أن يخرجوا معه، إلا مَن كان معذوراً. وأما مِن بعده فيختلف ذلك باختلاف الأحوال.)، وفي لفظ الخطابي أن تفضيل العزلة أو الاختلاط (يختلف باختلاف متعلقاتهما)[6].

ومن اختلاف الأحوال : كون المرء داعية يتحرق على مصائب المسلمين ويسعى نحو تحصيل العزة لأمة الإسلام، فيلزمه الإختلاط ويحتكر الفضل بذلك، أو يكون بارد الفؤاد من أهل العقول المستريحة والهموم الفردية، فتليق له العزلة،

---

(5) فتح الباري 114/14.

(6) فتح الباري 116/14.

ويكون قد كف شره عن الناس، ولم يكثر سواد اللاغين المشاغبين، ولم ينطق بسوء يؤذي الدعاة، أما الداعية فإنه مصلح يخالط و يصافح.

❑ **التوجه الرابع : اليقين بأن تحقيق العمق التربوي هو الإنجاز الأعظم الذي يقاس به مدى نجاح الدعوة.**

لا النجاح السياسي مهما حرصنا على إمتلاك الساحة السياسية ومهما نجحنا في ذلك، لأن السياسة تستهلك من رصيد الممارس أشياء كثيرة، والتفاعل الاجتماعي ينحت من الطاقة، وجمهورنا قد ينقلب علينا بخطأ أو دعاية مضادة، كما انفض كثير من الأتراك من حول أربكان لما اعتقلت الحكومة عبدالله أوجلان، ولذلك **يجب أن لا نتوغل في السياسة من دون توغل في تحقيق إنجاز تربوي عميق، وذلك ركن في منهجية التربية الدعوية**، فإنها تقيم من نفسها رقيباً على المسار السياسي الدعوي، تكبح جماحه إذا أسرع فتخطاها وتقدم عليها.

وروى الرواة عن الإمام البنا في آخر حياته أنه عاتب إخوانه فقال : شغلتموني بالمقابلات السياسية عن العامل الميكانيكي ذي اليد التي سوّدها الزيت ودخان الآلة !!

لأنه يعلم أن السياسة سجال، فإن اكفهرت الأيام وغلب منافس فإن العامل المتجرد الذي امتلأ إيماناً ووعياً يكون أقدر على قيادة التراجع ثم الاستئناف في الوقت المناسب من مؤمن مترف، وقد أقررنا التكامل بينهما من قبل، لكن التكامل لا ينفي التفاضل النسبي، وكلاً وعد الله الحسنى.

❑ **التوجه الخامس : تربية الدعاة على قبول التعامل مع الحليف.**

وهي تربية نفسية ومداراة معنوية، ينبغي أن تتكيف لها عقول وأرواح الدعاة عبر إيحاءات وعلاج عاطفي ومنطق فقهي وواقعي، وسبب ذلك أن تربية التأسيس علّمت الدعاة التحليق الأخلاقي العالي، والمكوث مع مشاعر العزة والعفاف، والصرامة وفرط الجد في كل شأنهم، ونقاء السريرة، وكمال الأدب، وليس كذلك الحليف مهما كان مقترباً، فإذا جمع التحالف الدعاة مع غيرهم : استوحشوا مما هنالك من قول جزاف وسلوك لم يألف الدعاة مثله، فيكون تباعد قلبي ربما وإن جمعت مصلحة الأُمة الطرفين، وسبب ذلك أن الدعاة عاشوا في بيئة خاصة، واتخذوا استقلال العمل خطة وديدنا، فاعتادوا ذلك، وتولّدت عندهم حساسية

مفـرطة مـن مخالطـة الأغـيار والمشـاركة مع الغرباء عن مفاهيمهم وطباعهم، ولكن الانفـتاح والعمـل السياسي المتقدم يقتضي المناورة، والرضا بمخلص لم يقتبس من اسـتقامة صفوف الصلاة مغزاها، لأنه لم يقف فيها طويلا ، وذلك يقتضي التحالف، أو مـا دونـه من تعاون وتنسيق، ولو ضغط الدعاة على أنفسهم لأوشك صبرهم على مـا لا يـألفون أن يـنفد، **ولذلك كان من تمام ممارسة السياسة أن تسبقها وتقارنها منهجـية خاصـة فـي التربية على التعامل مع الحليف والأقل شراً ومصافحة المخلص الصـلف**، ومـا أصـعب ذلـك على مهذب لاهج بقول الفقهاء يفتأ يتشبه بالملائكة، والتفهـيم وشـرح أحكـام المصـالح وعرض المعادلات السياسية ومقتضياتها : أُمور يليـن معهـا الدعـاة إزاء ضـرورات الـتحالف أو التعاون، وتربية كسر القوقعة الأنفة الذكر تساعد على ذلك إن شاء الله.

❑ **التوجه السادس : الإلتقاء مع حاجة الناس.**

فإنهـا أقـوى المحـركات الدافعـة إلى الولاء، وفي الخدمات البيئية والترميمات الإصـلاحية التـي قدمتها جبهة الإنقاذ في الجزائر قبل الانتخابات البلدية التي فازوا بهـا دلـيل وشـاهد، فـإن الـناس تفـتش عـن المخلص الذي يرعى حاجتها، وآذاها سـلوك السـارقين والوصـوليين ودجـل المنتفعيـن مـن الأزمـات والحـروب الأهلية، وتسـتفزها أخـبار الفسـاد الإداري في دول عريقة لكنها أصبحت مترهلة، **والدعاة هـم الذيـن يرشـحهم القَـدَر الـيوم لتخفـيف متاعـب المستضـعفين وقـيادتهم عـبر الخدمـات المخلصـة وضـرب مـثال الـتجرد والـنجدة والإغاثة، وليس هذا من باب الـربط المصـلحي الـذي يـنكره بعـض فقـهـاء الدعـوة، وإنما هو من باب " كسر الحاجز" الذي أقامه الفسقة بين الناس وبيننا، إذ ينتظر الموالينِ لنا بعد ذلك خير تـربوي كثـير ومنهجـية تربوية عريضة** وفقه شرعي نرويه لهم وخبرُ صدقٍ عن الأولين والآخِريـن، ولكـن الجـناة عـزلوهم بالوشـاية والإعـلام الماجـن عن مقاربة الدعاة، واخـترعوا لهـم قصـص الأشباح، فإذا أريناهم اليد النظيفة غير الملوثة أوشكوا أن يعـودوا إلـى رُشـد واسـتئناس بـرحمة إيمانية حبانا الله بها ما وجدوها عند همّاز ونهّاز.

❑ **التوجه السابع : استثمارنا لنقطة ضعف اتباع النظام العالمي الجديد.**

فـإن الإمّعـات قـد اسـتطابوا التبعـية، لمـا تجلبه من حماية لهم، ولكن الأرض تمـيد، والشـعوب رافضـة، وفـي رجـال الإعـلام وأسـاتذة الجامعات وخبراء مراكز الدراسـات الاسـتراتيجية من يتكلم بكلام جيّد في تعرية التوجّه الأميركي واليهودي

وما هم بدعاة، ولا كل منطلقاتهم إسلامية، ولكن معانيهم تلتقي مع فهمنا ونوع خطابنا، بل هم أمهر منّا في كثير من قولهم وتتاح لهم صراحة نتحاشاها بسبب عنف ردود الفعل التي نتوقعها، **وتولّد من ذلك تيار عام في الناس من كراهية الهيمنة وازدراء فكرة صراع الحضارات، ولكن هذا الوعي الشعبي لا يوازيه عمل حزبي، فقد أفلست الأحزاب العلمانية، ولذلك فإنها أعجز من أن تقود التيار المتأجج، بينما تزداد الدعوة الإسلامية عمراناً بحمد الله، وتطوراً، وتخصصاً، وهي مؤهلة اليوم لقيادة الرافضين واستثمار الفراغ القيادي في الأمة،** وينتظرها نجاح عظيم إذا قدمت نفسها للناس، وكلمة التقديم سهلة في اللسان، ولكن معناها التام تترجمه منهجية تربوية متنوعة الأساليب، فيها تفقيه، وتوعية، ومقارنات تاريخية، وقصائد شعر، وأدب، ومداخل نفسية مناسبة، ولكن يلزمها في المحيط الداخلي أيضاً تطوير للقابليات وتدريب قيادي وثقافة مناسبة للأداء المبتغى مع تأسيس أجهزة خلفية للإمداد بالرأي والرصد، يمكن أن ينفذها المهاجرون إلى البلاد الآمنة.

❑ **التوجه الثامن : المؤتمرات الفكرية القيادية ضرورة موازية لتدابير الإدارة.**

لأن دولاب العمل اليومي الدائر بلا توقف يستهلك القيادات في المتابعة والتوجيه وحل الإشكالات الطارئة، فيجد القيادي نفسه بعد حين في دوامة لا يستطيع الفكاك منها، ويصير مستهلكاً لرصيده، لا ينمو فكرياً رغم إنضاج التجربة له، لكن الفكر يحتاج إلى اجتهاد دائم وتجديد مستمر، والحوار وسيلة أساسية في ذلك، **ولابد أن تنقذ الفئة القيادية نفسها كل موسم مرة على الأقل فتلجأ إلى عقد مؤتمر فكري نقدي يتعالى على اليوميات** والتنفيذ والطلبات والمشاكل ليبصر الكليات ومنابع الرأي والتأملات الحرة والمكتشفات الفقهية المستجدة والتطلعات المستقبلية، ويدار خلال ذلك حوار ُحر يهدف إلى تطوير المنهجية التربوية ومنهجية الأداء السياسي والاجتماعي، وتطوير الخطط بما يناسب الآراء المنقدحة، ولربما يلوح للقائد من المعاني الإبداعية غير المسبوقة شيء يجعله يتحمس له ويندفع، فينبغي عندئذ أن نتيح له مجال إقناع إخوانه بتوجهه الطارف ومحاولة تجريب طرائقه المبتكرة، فإن القائد ليس آلة ميكانيكية تأسره الخطة أسراً شديداً لا تململ معه، أو تأسره تصويتات إخوانه في كل شيء ولعاً بشورى ذات إسراف، بل يليق لنا أن نستمتع باجتهاده إن كان مجتهداً، وأن نفك أسره أحياناً، إذ الإبداع لا يتكرر مع راسفٍ في أغلال الشروط.

❑ **التوجه التاسع : تعريب الأجزاء الأعجمية من الدعوة.**

لأن القرآن عربي، والحديث عربي، والفقه عربي، ومعظم الفكر الإسلامي المعاصر عربي، وأكثر فقه الدعوة والسياسة عربي، **ولا تبلغ الترجمات في نقل المعاني بوفاء مبلغ الفهم المباشر من النص العربي،** كما أن حركة الترجمة لا تواكب الحاجة الدعوية الحقيقية التي تفرضها الخطط والمناهج التربوية، وإنما تتحكم بها النظرات التجارية للناشرين، وربما تكون بعض الترجمات ركيكة، أو لا تفهم سر التعابير الدعوية تماماً، أو يجردها المترجم من العاطفة والبلاغة التي فيها لضعف مستواه اللغوي أو لعجلته، بل وربما يحصل تحريف. كما أن الدعاة لا يستطيعون مواكبة جميع المد الفكري العربي اللغة، لكثرة الكتب والصحف، والحل يكمن في اتخاذ خطوة تخطيطية جريئة بتعريب الدعاة ما أمكن، وتوكيل مؤسسة بذلك، وتبادل التجارب ومناهج تدريس اللغة العربية، وذلك فن فيه تفصيل كثير ليس هذا مكان إيراده، وإنما يستعان بالخبراء وبالوسائل التعليمية **الحديثة ومناهج** جامعة الإمام ابن سعود أو طريقة الأُستاذ خليل الأيوبي، مع **الاستعانة** بالكومبيوتر، ومخالطة العرب، وسماع أشرطة خطب فصحاء الدعاة.

❑ **التوجه العاشر : إتقان صنعة إشاعة الحُبّ في الله.**

فإن التوجهات التسعة كلها ذات مسحةٍ صرامة، وتحتاج دأباً وسهراً وسفراً، حتى يعتري الداعية الإرهاق، ومع الأيام تتراكب الأحمال حتى تكون ثقيلة، فيكون نوع ضجر وتوتر أعصاب قد يؤدي إلى زلل لسان الداعية بلفظ نابٍ أو تصرف جافٍ يكسر قلب المؤاخي الصافي أو المقترب الهافي، فتنبغ موعظة صيانة الحبّ تدعو إلى مداراة واحتياط، تخاطب المرهَق أن يزداد صبرا، ويُبدي حلما، ويمنح حُبا.

وقد روى الأُستاذ **الدكتور** سعيد رمضان عن رجل كبير مارس الدعوة إلى الله سنين طويلة أنه قال له : " يبدو أن أكثر دعاة الإسلام قد تخلفوا عن أداء مهمة هي أخص **مهامهم**، وأن تخلفهم عن أداء هذه المهمة هو السبب الأول وراء كل مشكلة تعترض ركب الدعوة وكل عَثَر يقع فيها...هذه المهمة هي إشاعة الحب بين

القلوب. إنه كما يختص كل أُستاذ بمادة يحسنها ولا يضيره إلا يحسن سواها، **فكذلك الداعي إلى الله يختص بمادة الحب : حب الله وتوثيق عرى المحبة بين القلوب... ولا يضيره كثيراً إن هو نجح في مادته أن يقصر فيما سواها**، لأنه حينئذ يكون قد أرسى الأساس الراسخ في أعماق النفوس، وهيأ المنبت الصالح لكل الفضائل، وأقام الحصن المنيع دون أكثر الفتن. ".

فعقّب رحمه الله على قول محدثه وقال :

(هذا قول حق، ودعاة الإسلام جميعاً في حاجة إلى أن يتدبروه ويطيلوا الوقوف عنده، وأن يحاسبوا أنفسهم !

إن كلمة " الحب " هذه، التي ظلمها الناس، هي الكلمة الكبيرة التي اتسمت بها مواكب الأنبياء وقامت عليها مجتمعاتهم، وهي " الإكسير" الذي جعل صلة أتباعهم بالخير صلة حقيقية تستعذب في سبيله العذاب، كما جعل آصرتهم فيما بينهم آصرة الروح من وراء العقل فلا تختلف باختلاف الرأي، وفوق المصالح المادية فلا تتأثر بهوى خاص.

وإنك لتقرأ القرآن فتطالع مصداق ذلك وتجد مكان هذا الحب أصيلا... تجده في مقام الدعوة هو الوازع الذي تستثيره السماء والغاية التي تلفت إليها القلوب : "قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ"، وتجده في وصف المؤمنين : "وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ"، وتجده في وصف ما بينهم وبين ربهم : "يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ "، وتجده في الحديث عن الخير والشر : "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" و "إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ"، وتجده في صلة المؤمن بالمؤمن نعمة مزجاة يمتن بها الله على عباده مرتين في آية واحدة : "وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً").

❑ **وبعد** : فجميع هذه التوجهات إنما كانت في أُصولها خاطرات وملاحظات جزئية وشظايا، فأنضاف بعضها إلى بعض، فتولّد توجّه بعد توجّه، يعلّم كل منها بعض صنعة المنهجية التربوية، وهي أمثلة لتركيب الشظايا الذي جعلناه أحد أساليب اكتشاف المنهجية الصحيحة عن طريق جرد ومسح النقد التربوي العفوي اليومي وتجميعه في صورة قواعد ووصايا وتوجهات.

والاستثمار الصحيح لهذه التوجهات أن يعكسها القياديون على الخطط التربوية والعامة بشكل مباشر، بأن يستعرض بعضهم في كل بلد هذا الفصل وأمثاله، فيستخرج من كل بضعة أسطر ملاحظة يحولها إلى مادة أو بند في الخطة، تكون ملزمة بعد تصديق القيادة وإقرارها للمذهب الذي تنصح به الملاحظات، وهكذا عن طريق تغذية الخطط بمستلات من آراء نُقّاد التربية الدعوية الذين ذكرنا بعض أسمائهم آنفاً وعبر استعراض وجرد مؤلفاتهم ونصائحهم : تنمو الخطط التربوية الدعوية، وتستقر توجهاتها المنهجية، وليست هذه الاقتباسات والاستعارات من كلامهم بأقل شأناً من كلامهم نفسه، ولا هي بأمر سهل، وإنما تستند إلى تجربة تنفيذية عميقة عند ممارسي التربية والتدريب في كل قطر، ولذلك لا ينبغي الزهد بها، بل النظر إليها على أنها جهد تربوي مكمل لعملية النقد التربوي التي يقوم بها المؤلفون، **وأنها الإجراء التطبيقي لآراء ستظل عائمة إن لم تتداركها اللمسات التنفيذية، فهي لذلك حلقة الوصل ومختبر الكشف ومعيار الواقعية، وتجاربنا تفيد بأن تنفيذ وصايا المنظّرين التربويين يشكّل خبرة خاصة متميزة عن علم التربية نفسه، وإنزال النظر على الواقع إنما هو صنعة خاصة يكون التنفيذي فيها أمهر من المفكر المجتهد المقترح، ربما.**

❑ ألفية ابن سالك في النحو التربوي التركيبي

وعلى غرار ما وجدنا أنفسنا عليه آنفا من تشكيل القواعد والتوجهات التربوية عن طريق تركيب الشظايا : يمكننا أن نستطرد ونستمر في هذا العمل الممتع اللذيذ، والتنادي لتجميع ألف ملاحظة تربوية تكون مادة أولية لتركيب مائة قاعدة، وأنا أتطوع هنا لذكر عشرات من هذه الملاحظات التي انتبهت لها عبر تأمل، أو كانت جواباً مني لسؤال تلميذ سألني، أو ابتنت على قصة وقعت لي. وفي ثنايا الفصول الأخرى من كتابي هذا عشرات شظايا أُخرى غير مستثمرة بعد في تقعيد، وبذلك ترتفع مساهمتي إلى مائة ملاحظة أو تزيد، وواجب التربويين التقاط مثيلاتها من مائة كتاب في التربية الدعوية أو التربية الإسلامية العامة ليبلغوا بها الألف، ويخترعوا من بعض معانيها المتقاربة مواد جديدة في الخطط التربوية، فإذا أتقنوا ذلك : كان عملهم من أوضح الأدلة على أن تربيتنا تتعالى على الارتجال، وأن رهط التربويين في الدعوة يسلك سلوكاً منهجياً صحيحا.

فمن ذلك، مما رأيته فاستحسنته، أو حدث لي، أو أجبت به :

• ما يجري من ابتكار في إندونيسيا من **تنسيب شيخ شرعي لكل أسرة أو مجموعة من الأسر، ليشيع بينهم الفقه ويعوض نقص النقيب.** وهذا استدراك جيد صالح للتعميم في بلاد أخرى، فإن الجماعة تعمل في محيط مدني معقد وتجابه ظروفاً سياسية تحتاج إلى تعامل معها فيه مهارة ومرونة، وربما كان الداعية المهندس أو الطبيب أو المحامي أو العامل أقدر على المناورة والإدارة والتوعية، فيكون هو النقيب، رغم ضعف حصيلته الشرعية، فيكون تكميل النقص من خلال وجود الشيخ معهم، يتكلم ويوضح الغوامض ويفتي، ولسنا نجد شيخاً لكل أسرة، لقلة عدد الشيوخ، ولكن نسدد ونقارب، بمرور الشيخ الواحد على أسر عديدة، وعطاؤه عبر المخالطة في الوقت الحر خارج الاجتماع ربما يكون أكثر.

• وفي إندونيسيا أيضاً طريقة حسنة من **خروج كل أسرتين أو ثلاث في مخيم تربوي صغير،** وهذا أسهل وآمن وأقل جهداً وكلفة وأكثر قابلية للتكرار، وليس غير التقليد يجعل الدعاة يلحّون على عقد المخيمات الواسعة رغم شبهات تحيط بها نحن منها براء، **وابتكار التصغير إبداع يليق أن ينتشر.**

• وسمعت شيئاً في ماليزيا صعقني حين قال رئيس لجنة التربية : نحن نعتني بالتربية فقط، وأما استثمار جهود الدعاة في الإتصال بالناس فمنوط بجمعية معينة. وهذا يعني عدم استيعاب كيفية جريان عملية التبشير بالدعوة، فإن نشر الدعوة عبر الوسائل العامة يمكن أن تقوم به جمعية أو لجنة خاصة، من تأليف كتب، وتوزيع أشرطة، وإقامة حفلات ومهرجانات، ولكن عملية تحريك الداعية يومياً لتبليغ الدعوة في محيطه الطبيعي وتربية المؤيدين فإنها ضمن التربية، وتكون بإدارة محلية، ونمط تجريد التربية من محتواها العملي في التبشير نمط لا نعرفه، لأن كل بيئة صغيرة، من مدرسة أو قرية أو مجتمع مسجدي خاص : لها دقائق تفصيلية يعرفها من يعيش فيها، ثم الأقرب، في الدائرة الاجتماعية المحلية المحدودة، وأما إحالة ذلك إلى رقابة مركزية ففيه تضييع وتعامل مطلق لا يراعي النسبية والخصوصية التي يراعيها النقباء، ويتعرض الأمر لحصول اختلاطات من أنواع شتى ومداخلات ليس من السهل حل تشابكها.

• **ومن المفترض أن نقوم في كل قطر باستثمار طويل الأجل في صورة عناية بالأطفال والناشئة** عبر ثلاث خطط متتالية تتولى الأخوات الثقل التنفيذي في الأوليتين : للأطفال الصغار من سن الرابعة حتى السابعة، يتعلمون خلالها النظام

والانضباط والنظافة والعيش المشترك وأوليات الإبداع، مع حفظ شيء من القرآن والحديث والأناشيد والصيحات. ثم خطة ثانية لمن هم في بداية السنة الثامنة حتى نهاية العاشرة من المميزين، يتعلمون خلالها مكارم الأخلاق وبعض الفصاحة والاصطلاحات، والحوار، ومرحلة أخرى في الإبداع، مع حفظ وأناشيد وهتاف. ثم خطة ثالثة لمن فوق العاشرة إلى الخامسة عشر بإدارة الرجال وانفصال عن البنات إلى إدارة الأخوات يكون فيها عمل كشفي وتدريب رياضي ورحلات وإبداعيات وأوليات فكرية، مع استمرار الحفظ والمطالعة والحوار. وبذلك يكون تفوق هذه العناصر من أبناء الدعاة والمصلين على أقرانهم المتسيبين، ونكسب بهم المستقبل، وفي مفردات مناهج المراحل الثلاث تنويع كثير جداً ليس هنا محل إيراده، والمجرب يفيض على الجديد، وما من شك في أن قضايا الميكانيك والألكترونيات والكومبيوتر والفن والإبداع والرياضة هي مجامع رئيسة إضافة للجانب الشرعي والأخلاقي، وكثير من طاقات الدعاة المعطلة يمكن أن تجد لها مجال تصريف في هذه الأبواب من العمل السهل المبارك، والأيام تمر سريعة، ولقد يقال أن عشر سنوات مضت ولست تشعر إلا كمن أغمض عينه ثم فتحها، **وهذا النوع من التفكير الاستراتيجي يشكل شطراً من منهجية التربية الدعوية المبكرة مع بساطة ما هنالك** واستخدام طاقات مهدرة أصلاً قد تغزوها الوسوسة إن لم تفتح لها هذا الباب من التشغيل.

• وأرى في الفكر وجهاً من الإمتلاء النفسي وإشباع ضرورة فطرية، وهو جزء من الإستقرار، ويدفع القلق، ويميل بالناس إلى الهدوء والسكينة، ثم هو نعم السلوة للحزين، والتشجيع للخائف، ويكون بديلاً عن المربي والقرين، وزميلاً للعصامي المنقطع، والصاعد المنفرد، وهذه من منح الفكر التي يغفل عنها المربي أحياناً، ولذلك ينبغي أن يتصدر الفكر قائمة المنهجيات الأساسية، وأن يكون شيء من العناية المضاعفة به، وواهم من يزعم أن المنحى العملي المجرد أولى، وأكثر إغراباً منه من يعيش على هامش الأحداث السياسية يكتفي بمراقبتها وسماع الأخبار وكأن الحياة ليست أكثر من فيلم سينمائي يشاهده، بل نحن جزء من المشهد، والفكر قائد.

• وأرى بعض تصرفنا التربوي ليس أكثر من ردود فعل فيها مداراة خطر داهم يستفزنا، **والصواب أن تكون تربيتنا ذات مبادرات، وفيها شمول، وتستند إلى تأصيل**، وعندئذ يكون هناك ما يكبت التحرش تلقائياً ويولد يقظة دائمة، ويتحول الأمر من ارتجال تفرضه ردات الفعل إلى تخطيط بعيد النظر، ونحن بحاجة إلى

أن نصنع الحدث، ونصف لأنفسنا مشروعاً ونشرع في إنشائه من نقطة الصفر، فإذا انفلق وتطاول وضرب في العمق جذره: أعقبناه بمشروع آخر نبنيه من مستوى العدم، حتى تعلو سلسلة الأعمال منائر في أُفق مدينة الأعمال الدعوية التي كانت أرضها صحراء قبل أن تلمسها يد الدعاة، لكن المدن يجب أن تخضع لنظرية معمارية واحدة تجانس بين الأركان والمركز وتضفي طابعا متناغما، وكذلك المنهجية التربوية هي إذا أحسنت أداء مهمتها.

• والربط التربوي بين المربي وتلامذته ينبغي أن يكون أميناً، محققاً لمعنى الإقتداء، وتحكمه نية التعبّد، ولكن بعض المربين يذهلون في ساعات الغفلة فيستروحون لربط خاطئ:

كأن يربطهم عن طريق الخدمات وسد الحاجات، وهذه رشوة أو شراء وما هي بتربية، والإغاثة تكون عامة في ساعة العسرة وليست خاصة، ولم نرصد هذا الخطأ في أيام التأسيس والمراحل الوسطى، وإنما يحتمل أن يكون منه شيء في أيام التوسع والمراحل المتقدمة حيث تضعف الرقابة التربوية المركزية ربما، وهذا غير تأليف القلوب الذي يكون التعامل فيه مع رجال خارج الصف.

وكأن يربطهم بكشف الأسرار لهم، لما فيها من لذة وغرابة وإثارة للفضول، وهذا كسب ولاء شخصي لا دعوي عام.

أو يعلمهم طريق الطاعة العمياء، والجندية الصارمة، ويوهمهم أن الخصوصية الدعوية تقتضي ذلك، وليس الأمر كما يقول، بل الطاعة عندنا واعية، وندرب التابع على الحوار بالحسنى وعلى الاجتهاد ونبذ التقليد.

• وكيف يتم الجمع بين الحزم الواجب ووجود داعية مكلف بعمل له تفريط في أداء عمله المنوط به ؟

• الجواب يكمن في أن الأصل قول الحق ورعاية مصلحة الدعوة، وذلك ما يوجبه الحزم، ولكن بالحسنى، وبسد الذرائع المؤدية إلى مفاسد، وهذا يحصل بأن لا نعزله من أول موسم يستلم فيه مهمته، إذ ربما هو في مرحلة إرساء أُسس عمله، وأنه مثل غارس نبتة لم يظهر بعد ثمرها، وإنما نحاسبه بعد مرور موسمين.

• وباللفظ الرقيق لا بالتعنيف المجفل والنقد الجارح القاتل لهمته.

• وبإيجاد بديل لعمله هو أليق به، فيكون كأنه المنقول إلى عمل آخر وليس بالمطرود.

• ثم بعد إعذار وإنذار وتنبيه، ليس فجأة.

• **واستظرفت مشروعاً يقوم به داعية تربوي لتسجيل كلام قادة الدعوة ومخضرمي الدعاة والمشاهير والمفكرين والفقهاء بالصوت والصورة**، يستفزه أن الكثير من وجوه الدعوة ماتوا ولم يخلفوا أثراً يعرّف الأجيال اللاحقة بهم وبفضلهم ورؤاهم الدعوية، فيريد أن يضع مكتبة بصرية سمعية في خدمة الخطة التربوية تعتمد وصايا المشاهير وسيرهم الذاتية. وهذا عمل جيد مبتكر يرفع مستوى التأثير التربوي ويملأ الدعاة الجدد عاطفة ويقوّي عرق الانتساب فيهم ويعمق الولاء وروح الأمانة في وراثة الروّاد والتذكير بدعاء "رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ"، وكلما تقادم عهد هذه التسجيلات ازدادت أهمية، والمفروض أن تعم العملية جميع البلاد في كل العالم، ثم تجمع في مركز، ثم توزع النسخ ثانية في الآفاق ليستخدمها نقباء التربية. وفي فحوى الفكرة دليل على **أن المؤثرات التربوية أوسع من أن تكون كتباً يسميها المنهج**، وأن المنهجية التربوية بحاجة إلى ابتكار وتوسيع ولمسات إبداعية.

• وقرأت للمِقّري قوله في أزهار الرياض أن (الإنسان مغرمٌ ببُنَيّات أفكاره)، فنبهني بذلك إلى سلوك تربوي يجب علينا إزاء صاعد يجرّب ويتشبه ويحاكي ويحاول القول، فيصيب ويعثر، ويوضح ويبهم : أن لا نصدمه ونقتل روح الإبداع فيه، لأنه مغرم ببنيّات أفكاره، يفرح بها ويريد أن يحقق بها شيئاً من ذاته الخاصة ويكتسب هوية مميزة، فلمسة الرفق في بيان وهمه واجبة، ومنطق الإقناع الهادئ معه أولى من تعنيف يتعصب بعده لما يراه، وليس هذا الرفق يكون إزاء كتابة فقط، بل تجاه اقتراحاته أيضاً، وخياله الجامح إذا تجرأ فباح به لأقرانه.

• ويلاقي كلام بعض الدعاة رواجا، ويستقبله المجتمع الدعوي استقبالاً حسناً يغري المتكلم بتقديم مزيد، ويستجيب لكل تشجيع، حتى يتوغل عميقاً، والتجربة تنصح هذا ببعض إبطاء، وأن يكبح جماح الصعود المستمر، تفادياً لحسد الأقران وأهل المكانة الذين سبقوه، لأن النفس الإنسانية هي النفس، ولربما تمكن الشيطان أن يلقي همسة في قلب داعية وافر الفضل مليء اليد بالخير فتقلقه جداً ويغار، وما كنت أفقه هذا المعنى قديما، وآخذ الأمور على ظواهرها بتبسيط، حتى دلّني عليه

عمر أبو جبارة رحمه الله، وكان أعقل مني، ففهمت منه بعض سر الحياة، وعلمت أن التألق ربما يؤدي إلى احتراق.

• ومن ظواهر الحياة الإسلامية المرصودة : أن الفقهاء حين يستلذون العلم والمعيشة بين الكتب تقل تدريجياً أوقات مخالطتهم الإجتماعية، ويظل أحدهم يردد أن خير جليس في الأنام كتاب حتى تستولي عليه العزلة ويستوحش من الناس ولا يصبر على لأواء تربيتهم وإصلاحهم، فيقود الناسَ الدراويشُ والغلاةُ وأنصاف الفقهاء، وذلك أحد أسباب الترديات في أحوال العالم الإسلامي. ومثل هذه الظاهرة يمكن أن تحدث مصغرة في الحياة الدعوية أيضاً، **إذا انزوى ثقات الدعاة ومجربيهم وأهل العلم والتخصص منهم، فيتقدم أهل شهوة الكلام ويتصدر أنصاف الدعاة من غير تصدير** ولا انتخاب ولا إقرار، ولكن بإتقان المخالطة والتقرب ودغدغة المشاعر وبيع المدح والإطراء لكل راغب بالشراء، مما يحملنا على توصية القيادات ووجوه الدعوة أن يوازنوا بين الأعمال الإدارية وواجبهم في مخالطة طبقات الدعاة والقرب من الحياة اليومية للدعاة، لئلا يحدث الفراغ الذي يحتله متطلع، وهذا أحد أسباب تفضيلنا ظهور بعض الزعامات الدعوية والقدوات التربوية، وعلى لجنة التربية أن تعلم **أن التربية ليست هي تدريس كتب فقط أو وعظها لدعاة يقومون الليل، وإنما هي الحضور الدائم في الحياة اليومية المسترسلة أيضاً**، والتعقيب على الحركات والسكنات ولو بإشارة وإيماء إذا عسر التصريح.

• وهذا يقود إلى سؤال : أين تحقيق الكتلة الدعوية في المنطقة السكنية أو على نطاق المدينة الصغيرة، من مزج واختلاط وتزاور؟

أرى أن تزاور العوائل، والحفلات الجامعة، **وإيجاد نوادٍ محلية أو فروع جمعية تكون "مثابة" دائمة ومفصل التقاء** وانتشار دائم متكرر عند الإمكان، مع اقتباسٍ طريقة جماعة التبليغ في التعبّد والاعتكاف في المساجد والتعهد بخدمة بيئية مثلاً على مدى المنطقة مثل جماعة السلام الأخضر، أو إصلاح اجتماعي ضد المخدرات مثلاً، أو مرفق إغاثي تنفيذي لمواساة العوائل الفقيرة، أو محو الأُمية، أو العيادة الطبية التعاونية، أو مركز شباب، وجمعية ترويج الحجاب،

أو مقهى انترنيت تعاوني، وأمثال هـذه المبتكـرات التـي تحقـق التعـارف والامتزاج والتواصي بالحق والتواصي بالصبر والعفاف والأخـلاق والالتـزام الإيماني، وتتيح رقابة سهلة، وسيطرة ممزوجة بحرية تصرف لنسائنا وأولادنا وبناتنا والمقربين منا، وهذه المبتكرات إذا سادت في كل منطقـة مـن المـدن الكبيرة وفي المدن الصغيرة **والقرى فإنها تعتبر خطوة في تحقيـق "المجتمـع المسلم" الذي تهدف إليه الدعوة،** ونكون قد قللـنا الشر الآتي من القنـوات الفضائية وأهل السوء في المجتمع العام، والأمر منـوط بالإمكـان المـالي والأمني، ولكن نسدد ونقارب ما استطعنا، وندرب الناس على التعـاون وبـذل المال لصالح أولادهم، والمردود التربوي من كل ذلك عظيم، ويمكـن أن يـتم تشغيل صغار الدعاة والجدد في أكثر هذه المثابات والنوادي والمراكز من دون إرهاق الكبار والقدماء الذين يرصدون لمهـام ُأخـرى، والجمعيـات الخيريـة مخاطبة بتبديل خططها وتحوير نمطها في الصرف على النكبات الكبرى التـي هي مهمة الحكومات إلى الصرف على المشاريع الصغيرة الدائمة التي فيهـا إصلاح اجتماعي ورعاية للشباب وتحقيق لتطوير مدني عصري للمجتمع، مثل ترويج الكومبيوتر والوسائل الإبداعية في المؤسسات الشبابية، ونظرية تطـوير المساجد الجديدة إلى مراكز إسلامية ببناء طابق تحتي للخـدمات الاجتماعيـة وملاحق يمكن أن توفر نصف المطلوب، والتجربة الميدانية فيها تفصيل كثيـر ووصايا تنفيذية تؤخذ مشافهة لا كتابة.

• وبعض شباب الدعوة فيهم حماسة زائدة وطاقة مخزونة وافرة، يكونون بها أظهر من أقرانهم، فيولدون حرجاً لمربيهم حتى يحـار كيـف يسـلك معهـم ويجاري طاقتهم ويلبي طموحاتهم !

والتجربة تدل على أن إحداث طفرة لهم يقفزون بها إلى مراتب المسـؤولية أمر فيه خطر، فإنهم يظلون بحاجة إلى نضوج عقلي وتوازن نفسي وحكمـة، وكل ذلك لا يأتيهم سريعاً، وإنما يكتسبونه بطول العيش مع الدعوة، وبتجـاوز سن الشباب الأول، من أجل تجاوز احتمالات الغرور والتعـالي، ثـم المعانـاة ضرورية لكي يُنزلوا معاني فقه الدعوة منازلهـا الصـحيحة دون تطـرف إذا صاحبت المسؤولية دورات تطويرية.

والمظنون أن مواكبة طموحات العنصر الفائر إنما تكون بثلاثة حلول متساوية :

ثلث في منهج مطالعة شامل يختاره المربي له، يكلف به تكليفاً أكثر من أصحابه، فيه كتب شرعية وفكرية وتاريخية وأدبية وسياسية، وبذلك نستهلك ونمتص بعض طاقته في خير لا خلاف فيه، ولا بأس من التبكير في دفعه إلى التخصص وصرف جهد فيه من دون إهمال لتفوقه الدراسي الجامعي.

وثلث من وقته نحبب له فيه المسجد والخلوة والتفكر وتلاوة القرآن والحفظ والدعاء والتنفل، فيزداد إلى خير العلم خيرا، وتهدأ نفسه، وتبرز رزانته، ويرجح عقله. ولكن لا يقوى على الاستمرار من دون قرين، فنفتش عن مثيل يزامله.

والثلث الباقي يزوره فيه المربي ويجالسه ويصطحبه معه في غدوه ورواحه ربما، فإن لم يستطع فيستعين بأقرب عنصر له سمت حسن.

وكل هذا إنما هو حديث عن فضلة الوقت، وإلا فهو مشترك مع أقرانه في تنفيذ الواجب الجماعي.

فإذا أبدى تجاوباً مع ما نخططه له وآنسنا منه رشداً : ساغ أن نفتعل له قفزات صغيرة بينها فواصل، لا قفزة واحدة كبيرة.

• والمصارحة في أول ابتداء العيب أفضل، وبدونها قد يكبر العيب ويصعب علاجه. وتعسف صاحب العيب أول مرة عند نصحه محتمل، ولكن أثر تعسفه وضجره قليل السوء، بينما إذا كبر العيب مع الزمن : سرى الأثر وتعدّى. وكان عرفنا الأول هو التناصح وقبوله، ثم ولّد عصر التلفزيون والانفتاح العالمي جرأة في التابعين ورفضاً وإدعاء حقوق ما كانت في جيلنا، **وإنما كانوا يربوننا بالنظرات، وبها فقط تصل رسالة إنذار أو عتاب كاملة** لا تحوج المربي إلى كلام.

ويحسن بالمربي أن يعود تلميذه الصراحة معه في بحث مشاكله، ولا ريب أنه لا يستطيع ذلك معه في الفترة الأولى من تعرفه والتي قد تمتد إلى أشهر، ولكنه يستطيع تنمية شجاعة تلميذه على الصراحة تدريجياً.

وهناك عدة عوامل مساعدة تفتح نفس التلميذ تجاهه، وتنقله من التكتم إلى التشاور وطلب النصيحة والمحاورة المضبوطة بقواعد الاحترام والأدب، ولكن أظهرها : رؤية التلميذ مربيه ملتزماً بأصول النصيحة إذا بادر إلى إسدائها، بأن لا

يصحبها تشهير أو تبكيت، وأن يستعمل خلالها الألفاظ الرقيقة والنبرات الرفيقة، وأن يلقن المربي تلميذه ضمن معاتبته كلمات اعتذار تأتي عبر السياق كأنها عفوية فيستعيرها التلميذ من لسان أستاذه ويجعلها عذراً له، ومسالك اللباقة هنا واسعة.

• وهناك صنف من الدعاة الجُدد فيهم ميل ظاهر إلى الاتصال بالكبار من الدعاة والمسؤولين وتجاوز مربيهم. والتجارب تدل في الأغلب على وجود شوائب من الفضول والاستشراف عندهم، وربما بعض تكبّر على الأقران، وقد تصرعهم الفتن الحادثة ولا يثبتون.

لكن يجب الانتباه إلى حالة مشابهة لها للداعية فيها بعض عذر، وذلك إذا كان ذكياً ويملك طاقة فوّارة، والمربي المباشر لا يشبع تطلعاته، فيضطر إلى تجاوزه، وتمييز هذه الحالة عن التي قبلها إنما هي من وظائف الفراسة، والقرائن مُحَكّمة، فمن رأيناه متواضعاً، ويسأل عن حاجة حقيقية لمعرفة الجواب ولمعرفة ما يعنيه وليس ما لا يعنيه : قبلنا منه شبه الفضول، ونصحنا مربيه بالجد وطلب مزيد العلم.

• وهل يكون التلميذ أفقه من المربي أحياناً ؟

لا يكون ذلك في العادة، والجماعة تراعي في الأغلب أن يكون المربي أفقه من تلامذته، ولم أر في حياتي الدعوية غير أمثلة في الأوقات الاستثنائية الطارئة، ولكني رأيت أن التلميذ يكون أعلم من المربي وليس أفقه، ولذلك تسويغ، فإن التلميذ قد يكون أكثر جمعاً لفروع العلم، ولكن إحاطة المربي بمقاصد الشريعة وكليّاتها ومصالح المسلمين هي التي تميزه وتجعله أعمق فهماً وإن لم يستكثر من علم الفروع وحفظ الحديث والأقوال، وبذلك يكون أجدر وتأميره صحيح، ويترجح ذلك إذا استحضرنا معنى سعة الاحتياجات التربوية وعدم اقتصارها على العلم، فإن الجديد الذي معه العلم يحتاج وعياً سياسياً، وخبرة تنظيمية، وتزكية روحية قلبية، ويفترض أن قديم الانتماء أوعى وأخبر من الجديد، ثم أزكى في الغالب، وبذلك يستوي تأميره موافقاً لنظريات التربية والشروط.

• وكم من مخالفة لنظرية الشروط هذه نجدها عند الدعاة الجدد، من توثيق بخيل ولا يدرون أن البخل أساس الأدواء، أو تساهل مع شاب كان في جماعة إسلامية صغيرة ثم أدرك وفور المصلحة في الالتحاق بالدعوة الأصل ذات الانتشار، ولكن من بعد ما تصلب على طرائق الجدل والفضول التي تلقنها سابقاً، فتكون طبيعته الجدلية الإعتراضية مانعاً لنا من الانتفاع بفضل يحوزه، وكم جرى جديد وراء

خطيب عواطف، واغتر بصيحة جهاد لا يسندها استعداد ولا يشهد لها تخطيط، وكم عذر ملحاح نفسه بعجز ويطلب منا المعجزات.

• ولكن على العكس رجال يسرفون في تضعيف الرهط، ويبالغون في وصف ترهل وتخلّف، ولو جئنا نفحص حال الدعوة عامة لوجدنا مزيد انتشار، ومواصلة إنتاج فكري، ونمو وعي، واجتياز مراحل، وفي كل قطر نوع إبداع أو فتوح أو ممارسة ناجحة أو استثمار صحوة، مما ينفي قول أهل المنظار الأسود، ولا يبرأ أحد من نقص وخطأ وفتور من بعد نشاط، ولكن العبرة بالموازنة، والصواب مازال راجحاً على مقدار الخطأ، مما يشهد أن الدنيا بخير رغم صعوبة الظرف والظلم والألغام المزروعة، فلولا أنصف ناقد، فإن الربّ رحيم لطيف، يبارك وينصر ويأخذ بيد الدعوة حتى وإن كان البذل قليلا، ورأس مالنا حرقةٌ وغضبٌ على الباطل واستعلاء على الفجور إن لم نكن وعاة علماء، وبقلوبنا الكبيرة نعوض ونستدرك على العجز في أعمالنا الصغيرة، وعلى نياتكم ترزقون.

• وفي الزمان القديم وقف قيس بن حَكّومي يحدثني، وكان شاباً وسيماً يتأنق، وفي يدي بطارية كهربائية صغيرة مستهلكة جئت بها لأشتري مثلها، ولكن غلافها مازال يلمع ولا يعرف أحد أنها فارغة من الطاقة إلاّ إذا جرّبها، فقلت مرتجلاً: يا قيس: إحذر أن تكون فارغ القلب مثل هذه البطارية اللامعة المظهر الجوفاء المخبر. ثم هاجرت وانقطعت عنه ورأيته بعد سنوات طويلة فقال: طيلة هذه السنوات ما وقفت أمام المرآة أمشط شعري فأرى جمالي إلا وتذكرت قولك فأعظ نفسي.

وفي هذا دليل على أن التربية تظل أمراً وراء هندسة القول وتأليفه، وأقرب من التخطيطات والمناهج، فإنك لا تدري كيف يكون التأثير، **وربَّ كلمة هامشية عفوية تكون أنفذ من قواعد التربية.**

❑ هذا هو الذي جعلني أُبقي على الآراء والخواطر الآنفة مبعثرة لا يربطها رابط تقعيدي، وما كنت عاجزاً عن أفعل فيها ما فعلت بمثيلاتها من الشظايا التي قبلها فأطلب الأشباه وأجعل منها قواعد، واستخرج المزيد فأجعلها عشارية، ولكني تعمدت إرسالها وتفريقها ومنحها الاستقلال، لأُشجع الداعية المربي على أن يطلب الفوائد التربوية من بين حشد كبير من الشظايا التربوية المتناثرة التي يمكن أن يستخرجها من كتابات المجربين وإخوانه الدعاة الذين سبقوه، وليس التنظير بحتم لازم، وإنما هو صفة كمال، وفي المادة الخام غير المرتبة خير كثير وتعليم

وفير، وواجب المربي أن يقوم باستقراء هادف لكتب الدعوة، وبخاصة كتب المربين، ويجردها ويستعرضها، ليستخرج جملة واسعة من الملاحظات والشظايا التربوية يحشي بها الخطة التربوية، كل في مكانه المناسب، فإذا فعل ذلك فقد أتى نمطاً منهجياً صحيحاً، ويؤذن له أن يمهر في الأداء التربوي، وهذا ما أردت أن يعيه المربون ويمهروا فيه، فإن زادوا على ذلك تنظيراً لما جمعوا وتقعيداً واختراع تسلسل موضوعي فذلك فضل إضافي وإيغال في المنهجية وإتمام وكمال. ۞

من أعظم نِعـم الله عليّ : أن همتي عالية على طول المدى، حتى ليستبد بـي الطموح، ويطرقني بوتيرة قوية، ولا يدوم معي حـزن. وزادتنـي مطالعتـي لكـتاب أخـي عـائض القرنـي المعـنون "لا تحـزن" ثقـة بنفسـي ، وتوكـلاً علـى اللـه تعـالى، حـتى إن الـبأس ليعتريني، ولكن بلا مقام، بل يجلو بسرعة، تثور عليه طبيعتي في التحدي والتجريب والإبـتكار والتجديد واختراع الطريف وكراهة التقليد، حتى أصبحَتْ هذه الحسنات عـيوباً يعيبنـي بهـا أصـحابي ويعيّرونـي بهـا، فـإنهم يرون مني بُعد الأمل إذ اليد قصـيرة، و أُرغمهـم على الجلوس بين يديّ يستمعون لخواطري التخطيطية وأحلامي الدعويـة وهندسـتي المؤسسـية، فتنهال عليّ تهم التحليق في الخيال، والإنغماس في اللاواقعـية، والـتخدّر بحديـث الغـد مع نسيان واجب اليوم، وأنا أطلب لهم الثوب الفضـفاض، فـيأبون إلا القصـير الضيّق، وينظرون من زوايا محددة، تحت مظلة قَطْع نـاقص، بيـنما قَطْعي مكافئ، كثير الزوايا عريضها، بل أنا أجلس في مركز كُرة على كرسي دوّار ميّال يطوف بي على زوايا بلا حدود.

ولسـتُ أدري لم لا يعتمدون صناعة الخيال هذه وهي مركز الإبداع الذي تنطلق مـنه الحـياة الحضـارية والتطورات المدنية، ولم لا يتخيرون من فلتات التأمل الثائر الفائـر القافـز أشـياء توافـق المقـدار والطاقـة والسِّعر والقـانون والمـرحلة وأفهام المنفـّذين، إذ بين الصناعتين علاقة، لكنهم يعطلونها أو يزهدون بها.

بـيد أنـي لم أستسلم، ولم أُبدّل مذهبي في التفكير، وحقي في الطموح المسرف رغـم اجـتماع النكـبات علـيّ والمصـائب، لأنـي مازلـت علـى يقين أنه هو الدرب الصـحيح، وقد بلغ من ثقتي بنفسي وبالعقل الذي وهبني ربي إياه أني أكره أن يقف العلـم قـرناً عـند نقطـة النسبية التي دلّنا عليها آينشتاين لا يزيد عليها ولا يرى ما بعدهـا، أو أن يقـف عشـر سنوات عند نقطة التأثير غير المحلّي التي وصلت إليها فـيزياء الكـم واكتشـاف رقصـات الألكـترون وضـرباته الخاطفـة وإغـرائه للفوتـون وإدلالـه، وكأنـي أرى فـي العلمـاء بعض قصور عن الاجتهاد الذي يتعدى بهم نقطة المـراوحة هـذه، فهَمَمْـت أن أسـتدعي فـيزياوياً يعلمنـي الفيزياء من أولها وألفها وبائهـا، حتى يصل بي إلى النظرية النسبية وآخر خبر الفيزياء الكمية، ومعه رياضي يعلمنـي الرياضـيات ويـبدأ بقصـة الخوارزمـي مع الصفر، ثم ما تعلمته يوم دخلت

المدرسة الابتدائية من أن الواحد زائد الواحد يساوي اثنين، ويتدرج بي إلى المعادلات الصعبة والتوافيق والتباديل والتكامل والتفاضل والمصفوفات والجبر، ويطفقان يُدرباني سنوات، وذهني ينقدح مرة بعد مرة، حتى تخرج الشرارة الآذنة بالمسير بعد الوقوف، فأصرخ صرخة أن قد وجدتها، وجدت ما بعد النسبية وبعد تجارب إسبكت وجدل هاينزبرك وبور حول التأثير اللامحلي الذي يفوق سرعة الضوء. وكنت في شبابي قد قرأت خمسين كتاباً مترجماً إلى العربية في التعريف العام بالذرة وعلومها، ثم قطع الطريق عليّ إرهاق المسؤولية والتفقه اللازم لها.

هو غرور في أعراف البعض، واعتداد زائد، لكنه حق من حقوقي الإنسانية، وواجب من واجباتي الإسلامية، في عرفي وفهمي، وأنا أعظك أخي أن لا تكون رجعياً هيّاباً خوّافاً شاكاً في قدراتك، وأطلب منك أن تكون مثلي : جسوراً على المجهول، مستعملاً للعقل، محلقاً في آفاق المعارف، صيّاداً للخواطر، سؤولاً، محاوراً، مفترضاً، مفجراً لقنابل تنسف المألوف، ثائراً على التخلف، متمرداً على روح التقليد، وأنا أعظك بمواعظ داعية وأبين لك أصول الاجتهاد وحركة الحياة والمنهجيات، وسميت لك أول خطوة بصراحة أنها المنطلق، ولم أعدك بأوهام الدراويش، ولم أكتب لك في النكوص والإستئسار والوسوسة وخبر الجن، وإذا شخت أنا وعجزت وفاتني القطار فالأمل أنك تواصل.

ولو كان وضع منهجية التربية الريادية بيدي وأنا سيد القرار : لجمعت أذكياء الدعوة، من فيزياوي ورياضي ومهندس وطبيب وكيمياوي، ولجعلتهم في مجلس أعلى رديف لمجلس الشورى ومجمع الفقهاء، وأنطت بهم مهمة التفكير الدائم والإفتراض المتجدد والقياس المتوالي، وضرب الأخماس بالأسداس، ليقدموا في كل موسم حصيلة ذهنية عامة لا تنظر إلى إمكان، مع نظرة نقدية شاملة ليس فيها إدهان، ثم يقترحون ويتمنون، حتى ولو كان بعضهم كسولاً في الأداء اليومي، أو مازال أسيراً لبعض تقصير ونقص، ليأتي مجلس الشورى من بعد يميّز، ويبرم وينقض، ويختار عن بيّنة، ويسعى في أفق عريض، فإن اللمعات تقود الخطوات. بل عندي : أن بعض مؤيدي الدعوة، إذا شايعها بصدق وإخلاص، ثم بقي بعض الفسوق والعصيان عالقاً به، لكن القرائن تشهد بحبه لله ورسوله و تعظيمه القرآن : فإن الفتوى في الاستعانة بنتائج تفكيره وسياحات فكره واردة إذا تميّز بذكاء، من غير أن أمنحه حق أمر وإملاء.

ومعترض يعترض : وهل مشكلة الدعوة في عدم إدراك نسبية آينشتاين فضلاً عن استئناف خطوة بعدها ؟

فأقول : نعم، هي بالتأكيد وجه من وجوه الإشكال الدعوي، فإن النسبية لا تُراد لذاتها، ولكن لما يواكبها ويلحق بها وينتج منها ويتكامل معها من حقائق العلم التي تؤدي إلى السيطرة على توجهات السياسة والاقتصاد والأخلاق والثقافة و الإعلام وعموم نواحي الحياة، وانظر إلى بقية قصة آينشتاين : كيف أهدى أميركا القنبلة الذرية، فحسمت أمر الحرب، ثم تقدمت خطوة بعد خطوة في الهيمنة والتأثير على سياسات معظم الدول، واحتكرت للدولار الحقوق، وحصل تركَز الأمور في يدها، بالسلم والعلم والتأثير النفسي وآثار التربية تارة، وبحروب تارة أُخرى، وآخرها حرب الخليج وحرب أفغانستان الثانية والحملة ضد التنظيمات التي تتحرش بها، حتى استوت أميركا على قمة التأثير، وفرضت نظامها العالمي، وأصبحت تملي إرادتها على شعوب الأرض المستضعفة، بل على الجميع حتى ولو كانوا أنزل منها درجة واحدة فقط، ثم اربط هذه النتيجة والنهاية بتلك المقدمة والبداية : تنجلي لك القضية، وتفهم أن مخرج الدعوة إنما هو مخرج حضاري معرفي، وأن دربها درب مدني، و يتضح لك ارتباط المهمة القيادية والمنهجية التربوية باللمعات العلمية، وإذا توغلت أكثر و رأيت التأثير النفسي والسياسي والاقتصادي والعلمي التطبيقي لخطة حرب النجوم على أميركا والإتحاد السوفييتي البائد والعالم لاقتربتَ أكثر في إدراك مفتاح صناعة الحياة.

❑ أسلافنا المتحضرون أصحاب المنهجية والعقل المنفتح

ولستَ حين تفعل ذلك بالمبتدع، لكنك تفخر بحضارة الإسلام من دون أن تدري ما حرّكها، وتضرب سيطرة المسلمين الأوائل على حركة الحياة من دون أن تفطن إلى إنجازاتهم ومنهجيتهم الصحيحة التامة التي أذنتْ لهم أن يبسطوا سلطانهم.

❑ فقبل أكثر من ألف سنة من تحريق الفاتيكان لمن يقول بكروية الأرض ودورانها كان القرآن ينطق ويعلم المسلمين بعض النظر الحضاري فيقول : (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ).

ويظن البعض أن اللفظ ينصرف إلى الحساب والتقدير فقط.

لكن قال البخاري : "قال مجاهد: كحُسبان الرحى".

قال ابن حجر: (وصله الفريابي في تفسيره من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد. ومراده أنهما يجريان على حسب الحركة الرحوية الدورية وعلى وضعها)[1].

ومجاهد من أكابر التابعين، تلميذ ابن عباس.
فالقرآن إذن يقولها، لا كوبر نيكوس، وصدر المسلمين الأول يفهمها.

❑ واستوقفني حرص ابن حجر في تحقيقاته على الرجوع إلى النسخ العتيقة من مدونات الكتب التي هي مظنة الصحة والإتقان.[2]

كقوله في حديث اختلفت النسخ في لفظ منه : (وقد وجدتُه في نسخة قديمة جداً من ابن ماجة قرئت في سنة بضع وسبعين وثلاثمائة، وهي في غاية الإتقان).

فالنمط المعاصر من التحقيق والحرص على المخطوطات كان هو نمط السلف أمثال ابن حجر رحمه الله، ونحن نظنه من تلقين المستشرقين لنا.

وفي ثنايا نقول ابن حجر في الفتح عمن قبله يستوقفنا (ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق صالح بن أحمد بن حنبل قال: قرأت في دواوين هشام بن عبدالملك..) ثم ذكر رسالة من هشام إلى عامله بخراسان،[3] ومعنى ذلك **أن تأسيس مراكز الوثائق إنما هو اختراع إسلامي قديم يكشف عن النزعة الحضارية، بل هاهنا مبالغة في المعنى المنهجي، لأن الدولة العباسية التي عاش في ظلها صالح بن أحمد احتفظت بوثائق الدولة الأُموية،** ولم يمنعها عامل العداوة من تيسير منهجية البحث للباحثين والاحتفاظ بوثائق دولة هم الذين أجهزوا عليها، في حين كانت دول الكفر تميل إلى الحرق ومحو الآثار.

واسمع استدراك ابن حجر على قول للحافظ مغلطاي ينسب فيه حديثاً إلى تفسير ابن عيينة، فكأن ابن حجر حاك في نفسه شيء فراجع نسخة موثقة لهذا التفسير بخط الحافظ الضياء المقدسي.

---

(1) فتح الباري 106/7.
(2) فتح الباري 34/8.
(3) فتح الباري 114/17.

قال ابن حجر: (وعزاه مغلطاي فيما قرأت بخطه لتفسير ابن عيينة، رواية سعيد بن عبدالرحمن عنه. وقد راجعت منه نسخة بخط الحافظ الضياء فلم أجده فيه)[4].

وكذلك عقّب ابن حجر على قول شيخه الهيتمي في زوائد المسانيد حول يوم عاشوراء عند اليهود وأنه يدور في السنة. قال الهيتمي (لا أدري ما معنى هذا).

قال ابن حجر: (ظفرتُ بمعناه في كتاب الآثار القديمة لأبي الريحان البيروني، فذكر ما حاصله أن جهلة اليهود يعتمدون في صيامهم وأعيادهم حساب النجوم، فالسنة عندهم شمسية لا هلالية)[5].

فهو رجوع إلى الكتب المتخصصة لكشف الإشكال.

ومثل هذا كثير مما هو في الحقيقة أصل منهجية البحث الدقيق التي يظن المستعجلون أنها من معطيات هذا العصر.

❑ وذكر المقريزي [6] ما يفيد وجود نسخة من (الياسا) بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد، وهي شريعة الحلال والحرام التي وضعها جنكيزخان وضاهى بها الأديان واخترع له ديناً مُلفقاً.

أقول: ونسوق هذا لمسلمين ضيقي الأُفق يستكبرون أن تحوي مكتباتنا كتب الكفر والضلال من أجل التعرّف عليه ورده، بينما الوعي المنهجي عند أسلافنا كان تاما.

والمفروض أن نتجاوز مقدار هذا التنبيه، ولكن نريد أن نبالغ في تفهيم المبتدئين والمتخلفين.

وقارن ذلك بشريط سمعته يجادل فيه بعض الشباب المتزمت فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله ويطلبون منه الإفتاء بوجوب حرق كتب ابن حجر العسقلاني والنووي لأنهم أشاعرة، وبذل الشيخ رحمه الله جهداً في محاولة تفهيمهم خطأ ما يريدون، لكن الفكرة كانت مستولية عليهم ورفضوا كلامه.

❑ وحين ذكرتُ في صناعة الحياة **ما في التنقيب عن الآثار من تكميل للمواعظ** استغرب البعض واعتبرَ ذلك تشبهاً بالغربيين، وما دروا أن ذلك كان من منهجية

---

(4) فتح الباري 195/5.

(5) فتح الباري فتح الباري 151/5.

(6) خطط المقريزي 358/3 نقلاً عن تاريخ العراق بين إحتلالين لعباس العزاوي 133/1.

السلف، وأن التابعي الفقيه مجاهد بن جبر المكي مثلاً كان كأنه من أساتذة أُكسفورد الذين ينبشون الآثار والأخبار ويتحرون إماطة سر الغرائب في مكامنها، فإنه كان (لا يسمع بأعجوبة إلاّ ذهب لينظر إليها. ذهب إلى حضرموت ليرى بئر برهوت، وذهب إلى بابل وعليه وال، فقال له مجاهد : تعرض عليّ هاروت وماروت. فدعا رجلاً من السحرة فقال : اذهب به. فقال اليهودي : بشرط أن لا تدعو الله عندهما. قال : فذهب به إلى قلعة فقطع منها حجراً ثم قال : خذ برجلي، فهوى به حتى انتهى إلى جوبة)[7]، **أي أن الساحر تدلى في البئر أو الهوة ومجاهد متعلق برجله يهبطان معاً، كأنك ترى مشهداً في فلم مغامرات مثير من أفلام إنديانا جونز، وكل ذلك من أجل التدقيق والتأكد، تحدوه المنهجية.**

❑ بل ذهب الفقه أبعد في النظر الحضاري، فانتبه إلى حاجة تربية الأولاد إلى حدائق الحيوان والفرح بالحيوان الغريب واللعب معه، فقد قال الشافعي : يجوز بيع القرد، لأنه يُعلّم وينتفع به لحفظ المتاع.

وحكى الكَشْفَلِيّ عن ابن شريح : يجوز بيعه لأنه ينتفع به.

فقيل له: ما وجه الإنتفاع به؟

قال : تفرح به الصبيان) [8].

وتداول الفقه أيضاً عدم تحميل الجمل ما لا يطيق، وأول من بدأ بذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد ضرب جَمّالاً لا يرحم جمله.[9].

❑ أحرارٌ أدباء يعشقون الجَمال... يسيرون في الأرض

فهذا النمط الحضاري عند السلف يأذن لنا تضمين منهجية التربية الدعوية أنواعاً من الأداء المعرفي تعتمد إذكاء العاطفة والروح، وتعمير الوجدان والمشاعر، وتحريك القلوب وتنقية الأحاسيس، وتدع النفوس تحلّق، تطلب السمو وتترفع عن دون، وكل ذلك من ضرورات صناعة العنصر الريادي الذي ينفذ المشروع الإسلامي الحضاري.

❑ الأداء الأول : التأمل في الخَلْق، وفحص نظام المخلوقات وبدائع الكون.
وهو نمط إيماني أمر به القرآن، ولكنّا نغفل عنه.

---

(7) تذكرة الحفاظ للذهبي 93/1.
(8) تفسير القرطبي 80/7.
(9) تفسير القرطبي 49/10.

وذلك في قوله تعالى: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (10).

ومع الأسف أننا لم نسر، وإنما سار دارون، فما عدا قدْرَه، فقد أدرك شيئاً من نظام الخلق، لكنه طاش ولم ير خصوصية آدم والبشر، فزعم ما زعم من تخليط، وأما ماعدا ذلك في نظريته من النشوء والارتقاء والتطور فهو صحيح، وهو نظر علمي موزون يجيب على سؤال " كيف بدأ الخلق " القرآني، وليس هناك في جملة جوابه ما ينافي الإيمان، سوى أنه لم يلتفت إلى أن آدم هو خارج السياق الخلقي المتطور، أهبطه إلى الأرض كاملاً، ولم يخضع لظاهرة التطور.

وإطالة النظر إلى حقائق الجينات والكروموسومات تدع المؤمن في عجب، يأسره النظام والتوزع والتدرج والتصاعد، وإذا اقترن ذلك بنظر إلى الذرة وتركيبها ومداراتها وتنوع العناصر بزيادة بروتون بعد آخر لتجلى المعنى النظامي بصورة أبهى.

ثم إذا نظرنا إلى تدرج المخلوقات من ذات خلية واحدة، إلى مخلوقات صغيرة لا ترى، إلى أكبر وأكبر، في توازن خلقي وبيئي لازداد العجب، ومع مقارنتها بنظام الشموس والكواكب السيارة، ومجاميع النجوم العنقودية وتوزعها في أرجاء الكون بانتظام، وأنواع المجرات، مع الثقوب السوداء، مع تمدد الكون واستمرار الخلق: يزداد إيماننا بخالق كل ذلك بهذا التسلسل البديع.

وزرت حدائق "وزلي" في ضواحي لندن مرتين، فرأيتُ عشرات أُلوف أنواع النبات، من فواكه وورود وحشائش، وجملة ما فيها أكثر من مائتين وعشرين ألف شكل من النبات، تنطق بتسبيح الله تعالى خالق الأنواع ومصوّر الجمال، ويمكنك أن تركب الباص الأخضر الريفي إليها من عند ركن المتكلمين في الهايد بارك.

ومازال التلفزيون يعرض لنا في برنامج عالم البحار عجائب الأسماك ومخلوقات الماء ولا تنفد العجائب.

ومفردات الإعجاز القرآني وإعجاز بعض أقوال النبي ﷺ كثيرة، وفيها ما يحير الألباب، وكلام زغلول النجار ومحسن صالح وعبدالمجيد الزنداني وأضرابهم فيه

---

(10) العنكبوت/20.

كلام رصين مؤيد بالبرهان، ويقود علاء الدين المدرس اليوم ببغداد جناحاً إعجازياً آخر.

فهذا كله من منهج تربيتنا الدعوية، لكن ليس الإنصات لعناوين هذه العلوم، وإنما المطالعة المستوعبة لكتب كثيرة قدح زناد البداية فيها الدكتور أحمد زكي في كتاب "مع الله في السماء"، مع مشاهدة عشرات أفلام فيديو خاصة صدرت عن مراكز الإعجاز، وفيديو محاضرات الإعجاز، وفيديو وسائل إيضاح علم الذرة والفيزياء مما ُأنتج في الغرب، مع مقتبسات مما تعرضه قنوات ديسكفري والجغرافية، وأنا أفهم أن اللجنة التربوية في كل بلد إذا كانت حريصة على أداء مهمتها بنجاح فإن عليها أن تجمع كل الكتب المؤلفة في ذلك، وطائفة من المحاضرات المسجلة بالفيديو، وأفلام علمية أصدرتها وكالة " ناسا " للفضاء، ووسائل إيضاح ُأخرى أنتجتها الجامعات المفتوحة في الغرب تذاع عبر التلفزيون، وأشياء ُأخرى، ثم تجعل ثلاثة يختصون بفهمها جيداً من خريجي الفيزياء وعلم الحياة، ليعقدوا دورات تدريسية في البلد للدعاة وغيرهم بحيث يرى الحاضرون مجموعة الأفلام والصور العجيبة بواسطة البروجكتر وتلفزيون 72 بوصة مع شرح واف يقوم به هؤلاء الثلاثة، كلّ في حقله، ويذكرون في شرحهم خلاصة الكتب التي أشرنا إليها، ثم إذا أراد همام أن يستزيد بمطالعة الكتب : أعاروه إياها، أو وفروا خلاصة مطبوعة لها، وربما تدار هذه العملية كلها بواسطة ناد علمي أو مركز إعجاز أو مؤسسة تعليمية خاصة غرضها تعليم ذلك وبيع نسخ لمن يريد الشراء، **وكما تكون اليوم دورات خاصة بالإبداع وبمال يدفعه المشارك : تكون دورات خاصة بعجائب الخلق والإعجاز**، من الذرة وخبر الألكترون، إلى المجرات، ومن الأميبيا والبكتريا والجراثيم إلى الحوت الأزرق، وبذلك تسود تربية إيمانية تغطي على ضعف المناهج إن كان هناك ضعف، وعلى ضعف المربين إن كان، وتعوض وتستدرك على النقص، وأنا أقترح خلال انتظارنا لقناة فضائية علمية إسلامية تخدم هذا التوجه **أن ينتدب بعض الشباب أنفسهم لتاسيس موقع علمي على الانترنيت أو عدة مواقع متخصصة لتنفيذ هذه الأمنيات وعرضها بالصوت والصورة.**

ولقد أشرت في مواضع ُأخرى من كتابي إلى ضرورة التربية القبْلية والبَعدية، وأن نُبكّر في التأثير على فتى مبارك لمّا يستقم في الدرب الواصل إلينا بعد، وكذلك أن نلاحق منتهياً صنعته مناهجنا، فنقدم له إسناداً وترميماً وتعويضاً عما تنحته الأيام، ومثل هذا العمل من الدورات أو مواقع الانترنيت أو القناة الفضائية هو الوسيلة إلى ذلك، وبمثله تكتسب منهجية التربية الدعوية معنى جديداً، وبُعداً طريفا، **وعلى هذا النحو ينبغي أن تتوسع آفاقنا ونتطور في فهم أساليب**

التربية الدعوية، ولا نبقى رجعيين لا نواكب تغيّر المعطيات واختلافات الزمان، والإمام البنا رحمه الله يوم أنشأ نظام الأسر قبل ستين سنة عام 1941 ما كان يُتاح له ما هو متاح اليوم من مخترعات ومادة علمية وإيضاحية، وواجبنا اليوم أن نحافظ على نظام الأسر المبارك الذي أنشأه، ولكن بأن نزيد عليه معطيات العصر، واللجنة التربوية التي لا يتعدى تفكيرها إنجاح اجتماع ُأسري وقيام ليل وتسمية كتب فكرية هي لجنة بحاجة إلى إيقاظ من نوم تغط فيه، فاصحَ يا نايم.... وحّد الدايم، و ُأقسم بالله أن التأمل في الهندسة الطبيعية وحدها يزيد على تأثير محاضرة في التنظيم وفقهه، مثل رؤية بلّورات الثلج وتشعبها عن مركزها، وظاهرة التبلور بصورة عامة.

❑ الأداء الثاني : الترنم بأناشيد الحرية ومناقب الأحرار.

وفي موطن آخر كان تناول قضية الحرية من وجه آخر، فأوجبنا هناك سعياً دعوياً لتأكيد الحقوق والحريات دستورياً، إذ ما غلب العلمانيون الدعاة إلا في أجواء الكبت والظلم، لذلك يلزم تأصيل القضية فقهياً وقانونياً، وإقامة مؤسسات حقوق الإنسان المسلم، وترويج فكر حضاري مقارن يبيّن الإنجازات الإنسانية العامة في صيانة الحريات وتوفير بيئات النهوض ومحاضن الإبداع والتطور الشامل.

أما هنا فنتناول القضية من زاوية ُأخرى تربوية تعتمد **إثارة العواطف والأشواق نحو طلب الحرية**، والتضحية في سبيل نيلها، وبيان سِيَر الأحرار وعلو هممهم وتجردهم، فإننا إذا كسبنا معركة الحرية تربوياً وشعورياً بعد كسبها دستورياً : نكون قد قطعنا نصف الطريق نحو إحلال المشروع الحضاري الإسلامي في عالم الواقع.

وأنا أفهم أن اللجنة التربوية في كل قطر هي مجرد نواة ومركز، وينبغي أن تقيم لها علاقة دائمة تنسيقية مع مائة داعية في بلدها، تحركهم نحو إنتاج يلتقي مع أهدافها المنهجية، فبعضهم لترويج حقائق الخلْق، مما ذكرناه آنفا، وبعضهم لترويج معنى الحرية، والبقية لأغراض ُأخرى.

وعلى رأس وسائل التغني بالحرية : نظم شعراء الدعوة لقصائد تحرك القلوب نحوها، وكتابة المقالات البليغة المفعمة بالرمز والتشبيه والإشارة، وتدوين القصص القصيرة والطويلة التي يكون محورها عشق الحرية ومقاومة الظلم ورفض الاستبداد. ويجب أن نعترف أننا مازلنا فقراء في ذلك، **ولم نستثمر قابلية النفس**.

الإنسانية في إجزال البذل إذا ميّزت الحيف وأحست بثقل الأغلال ولمحت لمعة الحرية تومض من عند آخر الدرب.

وإلى حين نظم شعراء الدعوة لقصائد الحرية: أرى أن يجمع داعية بمصر أبيات الحرية التي فاه بها شعراءٍ مصر كلهم، حتى الذي لم يتدين منهم، ثم يربط بينها، ويخرجه ديواناً مخترعاً مؤلفاً يثير الكوامن.

ثم حُر يوازيه في السودان يقتبس أبيات شعراء السودان في كسر القيد، ويؤلف بينها، يعظنا بها. وعراقي وسوري وفلسطيني ويماني وجزائري، فتكون في الاستخدام التربوي عشرة دواوين لا تحتاج غير جهد يسير، لكنّ قدحها عظيم، ويتمها ديوان فارسي، وتركي، ولستُ آبى أن ينتدب ذوّاقة نفسه ليستخلص لنا من أدب الغرب ديوان الأحرار، وآخر يستعير من الأدب الروسي غرره، ومن أدب الهند، وأدب الصين، فتجتمع معاني الأحرار في العالم أجمع لإسناد قضيتنا وتربية جمهورنا ودعاتنا.

وأنا أرنو إذا أنجزتُ كتبي في فقه الدعوة إلى أن أضع قصيدة الحرية الكبرى من عشرة آلاف بيت موزون ومرسل، أجمعها وأُتم تركيبها من الأدب العربي والعالمي كله، بأن آخذ من كل شاعر أجمل وأرقى ما قال وأدلى به من رمز وتشبيه لحركات القلوب وشرارات العقول، وأضعها في سياق مستمر مسترسل واحد لا تعكره تحقيقات وشروح وملاحظات بحثية، ليتمحض التأثير المعنوي ويهز الأفئدة والأرواح علّها تستجيب إذا صدع الأذان، ومن شاء أن يستعير فكرتي هذه بأن يكون أسرع مني إلى هذه القصيدة الجامعة فله ذلك، ويكون قد أتى شيئاً حسناً، وسوف لن يمنعني إنجازه من تجميع قصيدتي، إذ تبقى الأنفاسُ والأذواق مختلفة، والاستقلال ممكن مع اتحاد الهدف.

❑ الأداء الثالث : توسيع المدى اللغوي، والإقتباس من الأدب.

والفلاسفة يتداولون قصة صحيحة المغزى اعتقد صواب مفادها، فيذكرون أن حُراً رائداً أتى كونفوشيوس حكيم الصين فقال له : أريد أن أُعلّم الناسَ الحرية، فكيف الطريق إلى ذلك ؟

قال كونفوشيوس : عليك باللغة أتْقِنْها....

وهذا جواب صحيح يوجز التجارب، فإن الإنسان كتلة مشاعر وأحاسيس وعواطف وأخلاق، والمقدرة الوصفية هي التي تتعامل مع هذه الكتلة البالغة الرقة والشفافية، والخيال يبقى سائباً ما لم تصفه التعابير، والرموز متقاربة المعاني، ولذلك تحتاج المترادفات لبيان فروقها النسبية، فمن كان ماهراً في التوليد واشتقاق الألفاظ وصياغة الاصطلاحات وقياس الدلالات وتحديد الاستعارات وإطلاق التشبيهات، ويجانس ويطابق ويقفو ويسجع : كان ثري اللغة يستطيع التوصيف والتردد بين النظائر والفروق، وتجسيد الرمز المحض وتشخيص الخيال من بعد التجريد والإطلاق، وربما اخترع للحقيقة الواحدة سبعة وجوه، ويشق للمغلَق خمسة مداخل يستفز المتحفزَ لاختراقها، ثم يوصد الأبواب خلفه، ليأسره ويجنده في معركة التحدي، حيث لا تشفع إلا العزمات، ولذلك فإن التوسع اللغوي ينبغي أن يكون معلماً بارزاً في منهجيتنا التربوية.

ثم الأدب كله وصف لمنازل النفس والروح، إذ العلم يتكلم عن المادة، وأمرنا بحاجة إلى الحماسة وديوانها الذي اختاره أبو تمام، فقد أجاد الأُدباءُ الوصفَ وأوضحوا طريق التقدم الواثق.

وهل يسطيع سياسي أن يغرس قدمه من دون أن يشمخ قلبه مع الشماخ بن ضرار لما أفاق بعد أن صرعه الفقر فباع قوسه العذراء في عكاظ ؟

وفي سلسلة الأفلام الجادة كلها شظايا من الأدب تتكامل لتعزيز مواعظ الإيمان.

ففي فلم "وادينا الأخضر" الذي تدور حوادثه في القرن التاسع عشر خبر أهل قرية يشتغلون في منجم فحم حجري يستبد بهم صاحب المنجم دهراً، ثم تصلهم حملة مكافحة الأُمية، فتتوسع آفاقهم، ويعرفون لأول مرة معنى الطموح وتحسين الأحوال، فيتعسف ربّ العمل معهم، وتكون ردة فعلهم : هجرة جماعية إلى أميركا حيث المستقبل الواعد، وتستولي عليهم روح التحدي والإصرار على تطوير أحوالهم.

وفلم "الأرض الطيبة" المقتبس من قصة كتبتها ابنة السفير الأميركي في الصين وصورت فيها حياة الفلاح الصيني قبل قرن، والبراءة وجمال الحياة الأُولى : فيه مشهد آسر لطيف لزوجة فلاح تمشي وراء زوجها الشاب وهما حديثا عهد بعرس وهو يأكل خوخة، فرمى نواتها، فالتقطتها دون أن يدري، فزرعتها مقابل دارها،

حتى أثمرت بعد سنوات طويلة، فقطفت في مشهد آخر أول ثمرة منها وقدمتها لزوجها وروت له خبر تلك النواة، فيسرّه ذلك، ويكون دليل حبّ وارتباط عميق.

فمثل هذين المعنيين الإيجابيين الفطريين في التحدي الواعي وفي الوفاء : يمكن أن يتخذهما مرب دعوي كشظيتين يضيف لهما مائة شظية أخرى يجمعها ويرسم بها لتلامذته ملامح من حركة الحياة كيف تكون، فمثل هذه الالتفاتات الإنسانية في المعرفة وتجارب الشعوب إنما تحركها الفطرة، ولا يمنع كفر أصحابها أن تكون ضمن منهجيتي التربوية أنا الداعية، وتكون حكمتها رديفة لمعاني الإيمان، وكم في قصص تولستوي وهمنجواي من مشاهد واعظة، ولست أقول بأن نجعل الأدب العالمي مصدر تثقيف للدعاة فيزاحم الثقافة الإسلامية والعلوم الشرعية، ولا أقول بأن الانتقاء منه هو واجب اللجنة التربوية فأُبدد وقتها وجهدها، ولكن استحسن أن ينتدب دعاة فقهاء أنفسهم فيتوكلون عن بقية الدعاة في التقاط مشاهد من هذا الأدب العالمي تلتقي مع التوجه الإسلامي، فيروي الواحد منهم مائة مشهد مقتبس باختصار من قصة مكتوبة أو فلم ممثل، وبذلك تضاف هذه المعاني وتصويرات خلجات النفوس إلى رصيدي الإسلامي من المواعظ والرقائق التربوية مع توفير عصمة عبر الانتقاء الحذر من أن تسري إلى داري عدوى فهم جاهلي غلط.

ونظرة سريعة إلى قصة "الدرس الأخير" القصيرة البارعة تشهد لرأيي بالصواب، وهي تصوّر تلميذاً فرنسياً في مقاطعة الألزاس واللورين ظل متمرداً على أستاذ اللغة الفرنسية ولا يعتني بقواعد لغته ونحوها، حتى احتل الألمان إقليمه في حرب السبعين في القرن التاسع عشر، وقرروا تدريس اللغة الألمانية بدل الفرنسية، فيجمع المدرس تلامذته ليلقي عليهم الدرس الفرنسي الأخير في اسم الفاعل والمفعول، وعندئذ يستولي الندم على الطالب المتمرد المقصّر في تعلّم لغته، ولكن لات حين مندم، فإن المحتل لا يراعي شعور نادم مفرّط، بل يفرض لغته. وهي قصة تنفض أي طالب من أي أُمة كان نفضاً، تدعوه أن يتقن لغته ويعتز بها، ولا يكون العربي أقل تأثراً بها وبمغزاها من الفرنسي.

ولي بحمد الله وعي وانحياز لإسلامي يجعلني اتخذ من الأدب الإسلامي محوراً أساسياً في المنهجية التربوية الدعوية، وإنما أردت تعليم الدعاة إمكان التكميل والتحسين والتزيين بمقتبسات واعية من الآداب العالمية لا أجدها تنافي إيماني وموازيني.

ودليلي في ذلك فعل النبي ﷺ وقوله.

قال ابن حجر : (روى الفاكهي وابن منده من حديث ابن عباس أن الفارعة بنت أبي الصلت أُخت أُمية أتت النبي ﷺ فانشدَته من شعره، فقال : **آمن شعره وكفر قلبه.**

وروى مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردفتُ النبي ﷺ فقال: هل معك من شعر أمية؟ قلت : نعم. فانشدته مائة بيت، فقال : لقد كاد أن يُسلم في شعره)[11].

وهذا هو مستندي في إيراد أبيات لشعراء فساق لهم شعر ماجن ربما، لكن لهم قول حسن بجانبه قالوه ربما في لحظات الأوبة إلى الفطرة أو الاقتراب من التوبة.

وهو الذي يشجعني أيضاً على الإبعاد، وطلب ما ينفع في التربية من الأدب العالمي، فإن من الأُدباء من كفرت قلوبهم وآمنت بعض خواطرهم ومشاهد قصصهم.

والذي ذكرناه من عموم الخيال والرمز الذي ينغمس فيه الأديب، مسلماً كان أو كافرا، لا ينافي العقيدة ولا موازين الشرع، والجفلة التي تصيبنا من ذلك هي بسبب يبوسة مازالت تستولي علينا، وأما السلف فلم يكونوا مثلنا، بل كانوا أكثر واقعية وأوسع أُفقاً وأرحب صدرا، ولا آتى لك بقول متساهل يمكن أن ترده، بل بقول شيخ المتصلبين الإمام ابن تيمية، فإنه رحمه الله يقول :

(والتأليف والتنفير يحصل بالتوهمات، كما يحصل بالحقائق، ولهذا يُؤثِّر قول الشعر في التأليف والتنفير بحيث يحرك النفوس شهوة ونفرة تحريكاً عظيماً، وإن لم يكن الكلام منطبقاً على الحق، لكن لأجل تخييل أو تمثيل).

وكذلك (منزلة الحكايات التي فيها الأمثال المضروبة، فإنّ الأمثال المنظومة والمنثورة إذا كانت حقاً مطابقاً فهي من الشعر الذي هو حكمة، وإن كان فيها تشبيهات شديدة وتخييلات عظيمة أفادت تأليفاً وتنفيراً)[12].

---

(11) فتح الباري 153/8.

(12) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام 650/28.

❑ **الأداء الرابع: استقراء التاريخ وأحداث الزمان.**

إذ تلزمنا قراءة إسلامية للتاريخ، ثم قراءة دعوية أخص، وأكبر مواعظ التاريخ تكمن فيما تعارف عليه الناس من القول بأن التاريخ يعيد نفسه، وهو مختبر الحياة والأفكار والأخلاق، وفيه القرائن الكاشفة عن المخبوء من الطبائع النفسية. وأبدع المؤرخ المسلم حين وصف كتابه بأنه " تجارب الأمم ".

وأول ذلك : الإنصات لرواية القرآن لتاريخ الرسالات وتصرفات الأقوام مع أنبيائهم، وكلّنا يدّعي أنه قد علم ذلك، ولكن لما أُتيح لي في الخلوة أن أختم القرآن مراراً : بدأ علمي بتاريخ الإيمان آنذاك، وأدركت ارتباط حاضري هذا اليوم بإبراهيم عليه السلام صعوداً إلى نوح عليه السلام، وسر تحول النبوة والملك من بني إسحاق إلى بني إسماعيل في شخص نبينا محمد ﷺ، ثم استمرار الملك في أمته إلى قيام الساعة بإذن الله، وهذا هو مفاد الاستشراف الإيماني العقيدي لمستقبلنا مهما تطاولت إسرائيل، فإنها لن تعدو قَدْرها ولا قَدَرها المكتوب لها، وكل داعية بحاجة إلى تجديد فهمه لهذه الرواية القرآنية للتاريخ، ويمكن أن يكون كتاب السنن الكونية للأُستاذ عبدالكريم زيدان معيناً له في التفهيم، وكذا بعض تعقيبات سيّد في الظلال على قصص الأنبياء.

وأما التاريخ الإسلامي فنحن نفتقد حتى الآن مدونة شاملة تتحرى الخبر الصحيح والتحليل الصائب، وحاول الأُستاذ أنور الجندي التعقيب على المفاصل المهمة فقارب، ثم حصلت مشاركات متناثرة للكشف عن نقاط مضيئة أدلى بها محمد الصادق عرجون وأبو الحسن الندوي ومسعود الندوي وعماد الدين خليل، ويحاول اليوم الدكتور عبدالرحمن الحجي عبر مركز كيمبردج للدراسات التاريخية الذي أنشأه حديثاً أن يستقطب جهود الغيورين الذين عزموا على إعادة كتابة التاريخ الإسلامي بعد أن شوهته كتابات تلامذة المستشرقين، وقدم كل من نعمان السامرائي وأكرم العمري وعبدالمجيد النجار ملاحظات حضارية قيمة، والعملية بمجملها صعبة، وستستغرق وقتا، لكثرة الخلط والتشويش البدعي.

وأما القراءة الدعوية للتاريخ الإسلامي فإني شرعت بتدوين محاضراتي القديمة في ذلك، وستصدر "موسوعة معالم التطور الدعوي" في خمسة أجزاء ضخمة قبل نهاية عام 2002 إن شاء الله، وضمنتها صراع السنة والبدعة، وخبر الجهاد ولمعات البوارق، والتطور العلمي، والنضوج الدعوي، والمواقف القيادية، وإضافات النبلاء، ومشاركات أقطار العالم الإسلامي، ومراحل الدعوة المعاصرة، مع

استشراف للمستقبل، وسيشعر الداعية إذا أتم قراءته أنه قد وُلد من جديد، وأنه اكتسب هوية أصيلة، وورث إرثاً من المفاخر ضخما، وأن ما كان يجهله من مناقب أسلافه أكثر مما كان يعلمه، بل يجهل حتى الكثير من صور العطاء المعاصر.

وأما التاريخ السياسي الحديث ففيه من الفوائد للدعاة الشيء الكثير، وكذا المقارنة بين الحضارات، ويبقى أمر الاستيفاء فوق طاقة اللجان التربوية، ولا تستوعب المناهج غير ذكر أسماء كتب للمطالعة، ولذلك أقترح أن يكون في كل بلد ثلاثة أو خمسة من المائة الذين تستعين بهم اللجنة التربوية، يتخصصون في دراسة التاريخ بعمق، ويتولون إلقاء المحاضرات التاريخية في الدروات التطويرية على النمط المنهجي المتطور الذي يستعين بالخواطر والصور والأفلام التسجيلية، ويتقاسمون العمل، فواحد يختص بالتاريخ الإسلامي القديم، وآخر يختص بالتاريخ الإسلامي الحديث، وثالث للتاريخ العثماني، ورابع للتاريخ السياسي العام، وخامس للشخصيات العالمية والقيادات واستعراض سيرهم وأدوارهم، المسلم منهم والكافر، وهذا النمط من إسناد هذه الواجبات الكفائية في تدريس التاريخ أو الاقتباس من الأدب العالمي إلى مختصين هو من الجانب المنهجي في التربية الدعوية.

❑ الأداء الخامس : تنمية الإحساس الفني الجمالي.

فتجربتي تفيد بوجوب تعليم الدعاة القيم الفنية التي هم عُراة منها في الأغلب، ولابد أن نخطو خطوة منهجية تنقذهم من ازدواج الشخصية اللاشعوري المستقبَح، ليتوفر لهم تكامل في الشخصية موزون مقدَّر مخطط.

فالحياة الحاضرة تفرض على الداعية النظر ثم التعامل مع معطيات فنية كثيرة جداً، عبر مطالعة الصحف، والنظر إلى التلفزيون، واستعمال الكومبيوتر، وخلال الدراسة الجامعية، والتجول في المدينة، ودخول الأسواق، وهو يتأثر أثناء كل ذلك بدرجات من التأثر، وفنّانو الجاهلية يصبّون فيه أحاسيسهم وحُزمة من المفاهيم والنظرات والتأولات كل يوم، وهو مستسلم كل الاستسلام لمحاولاتهم، ثم لما آتيه أنا أدعوه إلى استقلال، وإلى فن إيماني، وتجريب ذاتي، وترجمة الشعور الملائكي النقي الصافي، ووصف السمو العالي والجوهر الغالي عبر خط ولون ورمز وإشارة وخشبة وحديدة وطين وخزف وقطعة قماش : يأبى ذلك، وينكر ويزمجر، ويعتصم برجعية ابتدعها ما كتبها الله عليه.

بل الفن تعبير عن حاجة فطرية، وأصله المحرِّك : هيام بالجمال.

وتكون البداية بغرس الإحساس الفني الإسلامي، عبر وسائله المشروعة التي لا شبهة فيها وتلقتها الأمة بالقبول، وعلى رأسها : الخط العربي البديع، والزخرفة الهندسية والنباتية، والعناية بذلك تؤسس حاجزاً نفسياً يحول دون تذوق ما هو غير إسلامي، وهو حاجز ضروري للحفاظ على شخصيتنا الإسلامية المميزة، حتى ولو كان ما هو غير إسلامي ليس محرماً، ولكنْ صار عنواناً لفن قوم آخرين، مثل الأشكال القوطية والرموز الصينية.

لكنّ ذلك لا يمنع **أن أقتبس من الفن العالمي والتشكيلات ما بقي عائماً عاماً لم يلتصق بقوم كعلامة لهم، مثل المدارس الفنية التجريدية والتكعيبية، وأشكال النحت الانسيابي المعاصر** الذي لا يدقق في صورة الجسم وإنما يكتفي بالإيماء إلى الشكل والمعنى دون تفصيل، فهذه اللمسات الفنية التي أتت بها أحدث المدارس الغربية تلتقي في كثير من جوانبها مع المعيار الفني الإسلامي، أو على الأقل : لا تعارضه ولا تصادمه، ويمكن للفنان المسلم أن يستعير أساليب الإيماء تلك ويوظفها للتعبير عن المثاليات الأخلاقية والإيمانية، ومعاني النقاء والعفاف والعزة والشموخ وحقائق الفطرة الحيوية، وهناك كمٌ هائل في اللوحات الغربية من الاستعمال الناجح للألوان وتجانسها وتنافرها وتجاور النقائض أو التدرجات اللونية، ومعطيات الخطوط المستقيمة والمنحنية، والفراغات، والدوائر والمربعات وكل ذلك يخدم الفنان المسلم ويوسع مداركه الفنية، فيبدأ بتقليد واقتباس، وينتهي باجتهاد وإبداع ومذاهب مستقلة.

لكني مازلتُ عند رؤيتي القديمة في أن المجال الفني الإسلامي الرحب إنما يكمن في " الموازين المعمارية " وأشكال العمارة، وأن التعاطي والتعامل المرن مع الفنون المعمارية يمنح الداعية فهماً لفقه الدعوة وحركة الحياة، وأنا أجزم بأنه بين المشاهد المعمارية في التوازن والتدرج والتداخل والاستقلال والبروز والخفاء يكمن علم كثير وخير وفير وحكمة، ولابد لنا من دراسة المدن الجميلة قديمها وحديثها في العالم كله، والأبنية المشهورة، والنوافير والأشكال الرمزية التي تملأ زوايا الشوارع وباحات العمائر العالية في العالم أجمع، مع اللوحات الجدارية الواسعة، وأنا أجزم بأني أستطيع استعارة ومحاكاة خمسة آلاف لوحة وشكل ومفارقة هندسية موضوعة في زوايا شوارع أُوربا وأميركا واليابان وبلاد أُخرى أو عند مداخل البنايات المشهورة ولا يعارض الواحد منها أحكام الشريعة في

الحلال والحرام، ويمكنني أن أُجمّل بها مدينتي الإسلامية، ويلزمني التحوير فيها من أجل استقلال المذهب الفني الإسلامي لا من أجل أنها توحي بمعنى مشبوه.

وأنا أذهب إلى أبعد من مجرد استخدام الأشكال والصور والتصاميم في توسيع الخيال، مما أوصى به مدربو الإبداع، فأقول بتعليم جميع ما نجح فيه الفنانون في العالم أجمع من تكوينات وأشكال وتداخل ألوان وتقاطع خطوط وأبعاد هندسية وتدرجات وتناقضات وتوازٍ وافتراق والتواء، بجمعه وعرضه على الدعاة في حزمة واحدة أو حزم متعاقبة، للوصول بخيالهم وتصوراتهم إلى المدى البعيد الذي بلغته الإنسانية بمجموعها وليس مجرد أنفار منها. وأنا مؤمن بأن هذا هو الطريق الأهم لمنح الدعاة الخيال الخصب المرن، ليس المعين على اكتشاف البدائل فقط والتمكين من الإبداع، بل ليكون أيضاً **مصدراً من مصادر الاتزان النفسي المعنوي الذوقي بعد حقائق الإيمان**. وحين أقول بإيراد ما نجح الفنانون فيه في العالم أجمع فينبغي أن يفسر ذلك بالحسنى، وإنما أعني : إسقاط الحواجز في هذا الباب، والتلقي عن عدد كبير منهم، انتظمتهم أجيال عديدة، ولست أعني الاستقصاء الذي لا يترك صغيرة، فإن ذلك طلب تعجيزي، إنما هو الإكثار والشمول.

وأنا حزين، وأرثي حال الدعوة في كل الأقطار : أنها لم ترزق بعدد من الفنانين يكملون بتربيتهم التخطيطية واللونية تربية ناقلي الروايات الشرعية والمعاني الإيمانية للدعاة بتناسق ألوانهم وحشد تشكيلاتهم، وهي ثغرة كبيرة تكشف عن جانب سلبي في منهجية التربية الدعوية الحاضرة ليس لها تأويل سوى أنها نتاج محدودية القاعدة المعرفية العامة عند واضعيها، وكان سيد قطب رحمه الله قد انتبه لهذا المعنى، وبدأ عرض لمسات فنية في جريدة (الدعوة) الأسبوعية لما تولى رئاسة تحريرها أول الخمسينات، ثم أوقفتها المحنة، وأظن أن ذلك إنما كان لسعة الخلفية الثقافية التي تكونت عند سيّد قبل انضمامه للجماعة، وكنت شاباً صغيراً آنذاك أتعاطى الفن وأقترب من أهله وأحضر معارضهم ببغداد : جواد سليم، وحافظ الدروبي، وفاضل عباس، وفرج عبو، وأضرابهم، وكنت ربما خرجت من اجتماع الأُسرة الدعوي لزيارة معرض لهم، وما كنت أرى في ذلك تناقضاً، ولذلك سرّني آنذاك توجه سيّد رحمه الله، إلا أن انقطاعه بالمحنة تركني رغم تساهل عنده آسفاً أسفاً إيجابياً، به أترصد فرصة لخدمة الإبداع الدعوي عن طريق جمع واستعراض الإجادة الفنية التشكيلية العالمية بخاصة واختيار أحسنها وتجميل ذوق الدعاة برؤيتها وتحسس جمالياتها، ثم طوى عنف الأحداث السياسية والثورية

أحلامي، ومنعتها (رجعية) بعض المتصدين للتربية ممن لا يعلمون خبر الفن ودوره الحيوي المتعدد الوجوه، ثم زادت آلام الغربة كبت أشواقي الفنية وتحجيم حماستي لإدخال الفن كمصدر في التربية الدعوية الإبداعية، إلا أن البذرة لبثت حية في قلبي، وعلامتها : نمط عرفني به إخواني من تجويد اختيار أغلفة كتبي، والتفاتات فنية أضمنها دروسي، ثم أعدت اكتشاف نفسي الآن بعد الستين، وتصاعدت عندي الحماسة الفنية ثانية، وأنا أعلم جيداً أن الكثير من إنتاج الفنانين العالميين في تصوير ذي الروح يدخل في باب الحرام أو المكروه، وأن الإحتياط يوجب ترك ذلك، إذ أني سلفي قبل أن أكون متذوقاً للفن، لكني نويت استقصاء ما وراء ذلك من إبداع الفنانين مما يدخل في دائرة الحلال أو في كراهة مختلف فيها بين الفقهاء تتيح مجالاً لمقاربتها، من تجريد ورمزيات، وأجزاء من الصور تضرب مثالاً للجمال أو توحي بمعنى، أو نجاح في الهندسة اللونية أو التخطيطية، أو الزخرفة، أو تداخلات الحرف العربي وإثراء التشكيل به، ثم إذا اجتمع ذلك عندي أودعته في ثلاثة مجلدات ضخام تكشف اللمسات الناجحة والأشكال والتشكيل اللوني، مع تعقيب على ذلك وكلام نقدي، وأقدم ذلك لمجموع الدعاة هدية تكمل سلسلة إحياء فقه الدعوة إذا انتهيت من تدوينها وتكون أداة وافية بإذن الله لتعمير الجانب الفني والذوقي في الدعاة، وتجعلهم أقرب إلى الإبداع، وبها يكتمل الوصف المنهجي للتربية الدعوية.

سيكون العمل شاقاً، ويكلفني مالاً كثيراً جداً ووقتاً، ويضطرني إلى شراء ألف كتاب للفنانين العرب والمسلمين والغربيين والشرقيين لجردها واقتباس أمثلة منها أو زوايا ونقاط معينة من الصور، ويدعني أزور أيضاً مائة متحف فني عالمي، وأن التقط ألوف الصور بكامرتي، لحشر أكبر مقدار من الإبداع الفني الذي توصل له البشر، وأهبه إلى الدعاة يتربون على إيحاءاته.

وإذا علمتُ أن داعية من دعاة الإسلام له مثل هذا الاستعداد أيضاً وحباه الله بحاسة فنية عالية فإني سأتعاون معه وأنفق عليه ربما من أجل أن يتحفنا بثلاثة مجلدات أخرى تكشف الإبداع من زاوية مختلفة وتكون رصيداً تستقى منه منهجية التربية الدعوية الفنية.

وأنا متحمس بنفس الدرجة إلى أن أجمع بإذن الله ثلاثة مجلدات أُخرى مصورة تكشف الإبداع المعماري في العالم، لتكون مورداً من موارد التربية الدعوية في منهجيتها الجديدة المنمية للإبداع والغارسة لموازين الجمال.

وكنتُ قد أنجزت كتابة فصل مبتكر حوى المعاني التنظيمية والدعوية التي يمكن اقتباسها من الإيحاء المعنوي لمذهب المعماري العراقي رفعت الجادرجي الذي أودعه كتابه النقدي الإبداعي المُسمى " بين الأُخيضر والقصر البلوري "، ونويت أن أضع الكلام هنا ضمن الأداء الفني، لكن هجرتي وتوزع أوراقي أضاعت تلك الكتابة، ولعن الله الظلم والاستفزاز الأمني السياسي، كم يعاكس ويبدد الأداء الحضاري وثمرات الفكر، وإذا عثرت إن شاء الله على تلك الأوراق الضائعة فسأنشرها مستقلة ربما، وتضعها أنت هنا كملحق.

❑ حقائق الميادين وإلهامات المتاحف ومواعظ السياحة

والوسيلة لتحقيق هذه الأنواع من الأداء خاصة وعامة.

• **أما الخاصة : فتكون في الخروج من التربية التقليدية التلقينية إلى منهجية الفحص الميداني، وزيارة المتاحف والآثار ومواقع المعارك والأحداث الكبرى** الشهيرة، واطّراح النظرة السوداوية المتشائمة والسلوك الإنعزالي، والقيام بسياحة واعية ثقافية، وليكن الدعاة مثلي : أول ما أصل إلى مدينة أركض إلى متاحف الآثار، ومتحف التاريخ الطبيعي، والمتحف العلمي، والمتحف الحربي، وأذرع شوارعها وأسواقها ماشيا، حتى المقابر أزورها، أقرأ تاريخ المشاهير من شواهد القبور، وهذه اسطنبول وقفتُ طويلاً عند كل أبنيتها التاريخية وأسوارها، وتجولت في أوربا خمس مرات بالسيارة، ولذلك أنا أعرفها شبراً شبرا، وحين كنت في إيطاليا ذهبت إلى جنوبها لأرى مدينة بومبي التي دمرها بركان فيزوف قبل ألفي سنة وترك فيها شيئاً عَجَبا، ولما حججت أول مرة ذهبت إلى سوق عكاظ، واقتبست بعض المعاني عند سور الصين العظيم، واستلهمت عاطفة في موضع مقتل طليعة المستعمرين ماجلان في جزيرة ماكتان في الفلبين على يد البطل السلطان المسلم لابو لابو ليست أقل من الوعي الذي غمرني في موضع مقتل الجنرال غوردون على ضفاف النيل الأزرق، وتكاملت أحاسيسي حين وقفت في مختبر نيوتن في كيمبردج مع أحاسيس احتفظ بها منذ زمن التلمذة حين زار بنا أستاذنا مدرسة علم المثلثات البابلية في تل محمد ببغداد حيث وجد الآثاريون فيها أكثر من ثلاثين ألف لوح بالخط المسماري في الرياضيات.

ووعي السلف لأهمية السياحة الهادفة كان أكثر من وعينا، ولذلك جعلوها في المنهجية التربوية، وما كانوا أهل مفاهيم رجعية مثلنا نقتصر على التلقين، ولذلك فهم الرازي صفة "السياحة" التي مدح الله بها المؤمنين في القرآن على

ظاهرها، أي في قوله تعالى : (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)[13].

فذكر أن أحد تفسيرات السياحة المقصودة (أن المراد من السائحين: طلاب العلم ينتقلون من بلد إلى بلد في طلب العلم، وهو قول عكرمة).

ثم قال الرازي : (وأقول : للسياحة أثر عظيم في تكميل النفس، لأنه يلقاه أنواع من الضر والبؤس، فلابد له من الصبر عليها، وقد ينقطع زاده، فيحتاج إلى التوكل على الله، وقد يلقى أفاضل مختلفين، فيستفيد من كل أحد فائدة مخصوصة، وقد يلقى الأكابر من الناس، فيستحقر نفسه في مقابلتهم، وقد يصل إلى المرادات الكثيرة فينتفع بها، وقد يشاهد اختلاف أحوال أهل الدنيا بسبب ما خلق الله تعالى في كل طرف من الأحوال الخاصة بهم فتقوى معرفته. **وبالجملة فالسياحة لها آثار قوية في الدين)** [14].

ولماذا لا نطور في أساليب الموعظة فنحدث المسلمين عن أعاجيب البلاد وطبائع الأُمم مع تحديثنا لهم بالآي والفقه ؟

إن الأداء الدعوي يليق له أن يخرّج في كل بلد بعض دعاة من أهل الثقافة الشمولية والسياحة والأدب واللغات إلى جانب الثقافة الشرعية، يتولون أسْر الناس بجميل حديثهم التجريبي المتنوع، ثم يكون حديث العزائم بين ذلك.

لنكن مثل **هداية الله بن عبدالله الحنبلي** الفارسي السورتي المولود سنة 1850م والمتوفى بحيدر آباد عام 1335هـ أول الحرب العالمية الأولى، رحمه الله، وكان من العلماء الذين أبعدوا في السياحة في ذاك الزمن الصعب.

ذكر معاصره العلامة عبد الحي الحسني والد أبي الحسن الندوي أن هداية الله، رحمهم الله جميعاً ، كان (أحد العلماء المبرزين في المعارف) (وسافر للعلم فقرأ النحو والصرف) والكتب الطبية، والصحاح الستة على يد عدد من العلماء، وعلوم القرآن وغيرها وأجازه كثيرون، منهم محدث الهند وعالمها الأكبر نذير حسين، والعلامة حسين بن محسن اليماني نزيل الهند (وسافر إلى الحجاز فحجّ

---

(13) التوبة /112.

(14) تفسيره 162/16.

وزار وسافر إلى بلاد مصر والشام والقدس، وإلى بلاد أُوربا، وإلى بلاد التتر، وإلى بلاد أمريكه، وساح معظم المعمورة، ورأى العجائب من كل بلد وإقليم، وكان باهر الذكاء قوي التصور، كثير البحث عن الحقائق، لطيف الطبع، حسن المحاضرة، فصيح المنطق، مليح الكلام، وكانت مجالسه نزهة الأذهان والعقول، بما لديه من الأخبار التي تشنف الأسماع، والأشعار المهذبة للطباع، والحكايات عن الأقطار البعيدة وأهلها وعجائبها، وكان يعرف اللغات المتنوعة، ويتكلم بالعربي والفارسي والانكليزي والتامل والتلنكو والبنكله والكجراتي وغيرها من غير تصنع وتجشم، كأهل اللسان)[15].

أفلا يكون بعض الدعاة اليوم على مثل ذلك، لتكون مواعظهم نزهة أذهان جيل بردت عواطفهم وأصابهم ملل من نمط وعظي مكرر جامد الألفاظ ليس فيه تفنن وتجديد ؟

وأما الوسيلة العامة : فقناة فضائية ثقافية علمية إسلامية لا تقرب السياسة والإثارة، بل تتجرد للمعرفيات والعلم والفن، وسيأتي في فصل لاحق سبب أقوى لإقتراحها، فإنّا ننتظر منها أن تشيع التوحيد في الأمم وتقوّي إيمان أبناء المسلمين بتربية تعتمد إبراز حقيقة التوحيد التي انتهى إليها مراقبو الفوتون والألكترون عبر فيزياء الكم، وهذه القناة تستلزم صرف مال كثير ووجود كفايات إدارية وعلمية عالية، وهو أمر صعب على القطر الواحد، يسير بإذن الله عند التعاون العالمي، وليس هذا موطن تفاصيل تنفيذها، وإنما نقصد إثارة الانتباه **إلى ضرورة تضمينها منهجية التربية الدعوية الجديدة ورصد أجود مثقفينا لخدمتها وإنجاحها، إذ هاهنا التربية العريضة العميقة، وفيها التعويض عن كل ضعف، وستحدث انقلاباً جذرياً لصالحنا في صراع الإسلام مع جاهلية القرن الحادي والعشرين.** ۞

---

(15) نزهة الخواطر 521/8.

صاحب التجربة يعلم أن التجميع وضم الأنصار إلى الدعوة يتجاوز مجرد تحصيل الولاء للدعوة ممن يمنحه لنا، **وإنما يجب أن يقترن بالولاء فهم ووعي يكون به الموالي على مدرستنا**، وذلك هو واجب المربي مع كل عنصر جديد، يشرح له، ويتخير له من الكتب ما يتقدم به خطوة بعد ُأخرى في طريق حيازة فكرنا الدعوي الخاص واجتهادنا، وأنا أسمي ذلك : " **تمحيض التربية** "، **بحيث ندع الوافد إلينا يميز طريقتنا وأساليبنا من بين ما هو مطروح في الساحة الإسلامية الواسعة، وندعه يعرف موازيننا في العمل والفروق عن غيرنا**، ولا يكفي الفهم العام المجمل، وذلك لأنه سيأخذ مكانه معنا في الصف كداعية منتسب يمثلنا، فيجب إذن أن يقول قولنا ويلتزم فقهنا ومذهب إمامنا، وأما الولاء المجرد فإنه مطلوب أيضاً، ولكن ليس في مراحل التأسيس والتدرج والتوسع، وإنما في المراحل الأخيرة، حين نكون قد أكملنا صفّ صفوفنا، وتحتاج خطتنا السياسية آنذاك إلى جمهور ضاغط نرضى منه أن يقدم لنا الولاء فقط، لأننا نعجز عن تربيته مباشرة بوسائل الاجتماع والشرح والمتابعة، وإنما ندع وسائل إعلامنا العامة تربيه، وُخطب زعمائنا، والكتب إن استطاع أن يقرأ.

سبب "تمحيض المدرسة" أن الناس الذين يملكون أخلاقاً حسنة ويقتربون من أوصاف الصلاح، والذين هم أول من يتوجه إليهم اهتمامنا التجميعي : يخضعون لمؤثرات إسلامية متنوعة، ويسمعون مزيجاً من الآراء يصل محتواها أحياناً إلى حدود التناقض، فتصب فيهم المناهج المدرسية في تدريس الدين، وخطباء الجمعة، والوعاظ، ودروس تلفزيونية، ومقالات إسلامية في الصحف، ومنهم من يشتري كتباً إسلامية لا يتحكم في اختيارها ميزان، **لذلك تكون حصيلتهم خليطاً من فكر سلفي وخلفي، وتفاؤلي وتشاؤمي، واجتهادي وتقليدي، وتشددي وتساهلي، وأصيل وخرافي، ثم إن مقادير استيعابهم مختلفة، والمؤثرات البيئية متنوعة، ولذلك تكون صياغاتهم عديدة، ويلزم ردهم إلى الوسطية والاعتدال التي عندنا، وإلى الفهم الشمولي، والتدرج التخطيطي** الذي تمر كل مراحله بالتربية الإيمانية واستشعار المسؤولية في إصلاح النفس ثم الأسرة ثم المجتمع ثم الحكم.

• **فمن نماذج الموالين لنا رجال لا تكون مبالغ هممهم أكثر من الركض وراء خطباء العاطفة،** فتراهم يلبثون مواسم عديدة في حالة من النشوة النفسية التي سببها الشحنات التي يفرغها فيهم بعض فصحاء الوعاظ أهل الإثارة وتأجيج الحماسة وصنعة تهييج العوام، فيتولد إعجاب عند مثل هذه العناصر الموالية يقود إلى الإمتلاء المعنوي الذي لا يصاحبه تعلّم الأحكام الشرعية، أو المقارنات الفكرية، أو التحليل السياسي، بل ولا التفكر الإيماني الهادئ والتعبّد والتنفل الكثير، ومثل هذا ينبغي أن نرده إلى بعض العقلانية وفهم الواقع، وإلى منهجية علمية، وأهم من ذلك : إخراجه إلى نمط عملي يكون به صاحب مبادرات، وليس مجرد متلقٍ مستروح لدغدغة العواطف التي لا تفرض عليه ضريبة من البذل والتعب في إصلاح غيره أو المشاركة في إصلاح المحيط والمجتمع.

• **ومن نماذج المقربين منا : صاحب علم شرعي، والتزام، لكن تصرعه المبالغة في التقليد المذهبي،** واعتقاد أن إمامه لا يخطئ، وفي ظاهر الأمر أن الداعية يمكن أن يكون مقلداً لأي مذهب من مذاهب أهل السنة والجماعة، لأن دعوتنا لم تر إلزام دعاتها بمذهب من المذاهب الأربعة أو مذهب أهل الحديث، وهذا صحيح، وهو من أسس مدرستنا، ولكن استيعاب الداعية للاجتهاد الدعوي الكثير في مسائل السياسة والحكم والتنظيم والإصلاح الاجتماعي والممارسة الجهادية لن يكون تاماً إذا كانت هناك مبالغة في التقليد، لأننا نعمل في محيط معقد، ويلزم شيء كثير من رؤية المصالح والضرورات، والتجول بين الخيارات التي تتيحها اختلافات الفقهاء يجعل أمرنا أكثر يُسراً، وإنشاء قول جديد أحياناً أمر لابد منه، والداعية المقلد يمكن أن يقلد في أبواب العبادات وأحواله الشخصية، ولكن نعلمه احترام المذاهب كلها، وإمكان الاجتهاد في القضايا العامة، لأن فكرنا الدعوي العام ومنحاه في الوسطية إنما أنبنى على ذلك، وانفتح، وتخيّر، ولجأ إلى موازين وقواعد مستقاة من الفقه المقارن.

• **ومن نماذج من يدور في دائرتنا : أصحاب الأشواق الجهادية النارية،** الذين لا يعترفون باستعداد وتمهيد وتدرج واختيار ظرف فيه مواتاة ، وكلنا نؤمن بالجهاد ونحب الشهادة، وهتاف دعوتنا العتيد أن " الجهاد سبيلنا "، ولكن نؤديه ضمن الشمول، ونمارسه ضمن التخطيط البعيد المدى والاستعداد، والتجربة الأخيرة بعد حادثة أبراج نيويورك وما تلاها من حرب الأفغان الثانية وتصاعد ردود فعل جهادية : هذه التجربة كشفت عن أن الحماسة تغلب أحياناً ما ينبغي أن يكون من

موازنـات عقلانـية ومفـادات فكـرية وتخطيطية، إذ سرت في أوساط إسلامية كثيرة مشـاعر الانـتقام مـن الظلـم الأمريكـي، وأُهـدرت خـلال اختلاط الصيحات أشياء كثـيرة مـن الـنظر الفـقـهـي الصـحيح، والـرؤى المصـلحية، وتـم طرح تصورات سـاذجـة لمعنى الـجهـاد، ونسـيت فـي غمـرة ردود الأفعـال أسـئلة : كـيف يكون الجهاد، ومتى يكون ؟ وأين يكون، وممن يكون، وتجاه من يكون ؟

والأمر الدعوي غير ذلك، ومن أول معاني العمل الجماعي الدعوي الواعي : أن نكون فوق ردود الفعل، وأن ندرس برويّة أحـوال السياسة العالمية، وواقع الأمة الإسلامية، ونضع رؤية شمولية لها أهداف بعيدة ومرحلية، وتكون التربية ركناً أساسياً في ذلك، ثم نثبت على الخطة الناتجة من هذه الرؤية الشمولية، من دون أن تستفزنا طوارئ وأحداث تقحم نفسها.

والـذي حدث من ميل بعض الجمهور الإسلامي إلى استحسان نداء الجهاد غير المـدروس ولا المسـتعَد لـه يفـرض على الدعاة أن يلجأوا مع أنصار الدعوة إلى " تمحـيض المدرسـة " الـذي قلـناه آنفا، وأن يكونوا صرحـاء في تفهيم معنى الجهاد **وبـيان أن الأشـواق العاطفـية الجهاديـة هـي أمر غير الجهاد الواعي المحكوم بخطة ومقـدرة والـذي تلـزمه قـيادة ماهـرة وجـندية متربـية**، والمواقف الدعوية لا تحددها هتافات المتظاهرين الغاضبين، وإنما تمليها أحكام الشرع ودلائل التجارب ومنهجية فهـم الواقـع واستشـراف المستقبل، وإذا كان أصحاب العواطف هم الأكثر، والدعاة أصـحاب الوعـي التخطيطـي هـم الأقـل : فهذه ظاهرة قـديمة ما هي بجديدة، وتدل على مصيبة دائمة، نصبر لها، ولا نطيش، **ونأبى متابعة رجل الشارع، ونبرأ ممن يُفجّر الأبنـية ويسـمي نفسـه مجـاهدا، إذ لـيس غـير مجـازف، وإنما نتبع العلم والتحليل والمقارنـة، ونـتقدم بحكمة وعلى بصيرة، مهما استعجل العاطفيون، واتهـمَـنا بالقعود المغامـرون**، ومحـن الدعوة متنوعة، منها : أن يكذبنا ملحد أو ظالم فاسق، ومنها : أن لا يرتضـي سـيرتنا الموزونة المؤمنون المتهورون، فيتهمونا بالقعود والتخلف عن الجهـاد وتكـون "مشاكسـة إيمانـية" يحـركها الشـيطان في غفلة من نفوس عاشقي الجهـاد حين تستولي العاطفة ولا تدع للعقل والتروي والإنصاف مجالاً، وفي القديم خـرج الخـوارج وهـم أوفر الناس صلاة وقتلوا أمير المؤمنين تقرباً - بزعمهم - إلى الله.

• **ومـن نمـاذج مَـن نطمع فيهم : أتقياء أهل صدق في التوجّه، ولكنهم أهل فتور فـي الـتعلّم، وبيـنهم وبين الكتاب حِجاب**، ولربما بذلنا جـهداً ووقـتاً في تعليمهم

وتربيــتـهم الأُولى، حتى إذا ما أَلِف أحدهم الحياة المسجدية وعرَف "مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين" : مال إلى أُناس يبلّغون الدين ويتعبدون لا يزيدون، لما يجد في بعدهم عن الشمول من سقوط فرائض التعلّم والجهاد والإصلاح الاجتماعي والتغيير السياسي، وقصر الأمر على إصلاح النفس والعبادة، حيث لا يكون مصدر علمه الإسلامي إثناء تطوره في حياته كلها غيرٍ كتابين فقط لا ثالث لهما، أو كتب مَن أسَّس الجماعة فقط ولا تلمس يده كتاباً مما أبدعته أجيال علماء الإسلام على مرّ القرون، ولي تجربة ذات دلالة، فإني أشفقت في يوم من الأيام على بعض مثل هؤلاء القريبين منّا ممن أعلم أنهم لا يملكون مكتبة خاصة في بيوتهم، فحملت بعض الكتب الفقهية إلى أحدهم هدية، فدفعها وأبى وزهد بها، فحملتها إلى آخر مثله : فتملص ورأيت الكراهة في وجهه، كأنه ظن أني سأطالبه بقراءتها، فعلمت أنهم ما حرموا أنفسهم من مكتبة خاصة عن فقر أو تأويل، وإنما هبطت هممهم العلمية إلى درجة لا يثير معها ذكر الكتب شوقاً إليها أو حفاوة بها، كما هو أمرنا أصحاب الشمول، ومات فيهم عِرق التعلّم، وأنهم على غير استعداد للتحوّل عن أقدارهم ودفع قَدَر الجهل بقدر المعرفة والبراهين ولو كانوا من العابدين.

• **وعلى النقيض من هؤلاء : تقي يطالع ويقرأ ويقتني، لكنٍ استفزته بدع في حياة المسلمين، فيقصر اهتمامه على إنكارها عليهم،** ويهجم هجوماً في ذلك بلا رفق ولا نسبية، ولا يعينه أُفق عريض، وإنما يشرع يدندن حول صغائر ويدع التفكير في مصائب المسلمين الكبرى.

فجميع هذه النماذج من الممكن أن تجد لها في صفوف دعوتنا مكاناً، وذلك هو أحد أسباب الانخزال أو الفتن، والعلاج المنهجي إنما يكون بحرص المربي الذي يتصل بهم على " تمحيض المدرسة " وشيء من القول الصريح، وإبقاء الواحد من هؤلاء خارج الصفوف أولى وآمن، مع بذل المودة لهم وإدامة الصداقة وأنواع الخدمة والشفاعة الحسنة، لأن نقاء الصف ضروري، ووحدة الفهم أساس، ولسنا نهدر فقه شروط التوثيق من أجل تكاثر.

❑ الترميم وسدّ النقص من ضرورات منهجية التربية

وفي ظني إن فترة العمل الدعوي الماضية في بعض الأقطار شهدت "تسربات" أثناء غياب عملية "التمحيض" هذه، إما لزحمة الأعمال، أو لقلة الآلة

التربوية في يد المربين، وبخاصة : الكتب المنهجية التي تحوي منطقاً وعلماً يعالج هذه الظواهر وأمثالها.

لذلك أقترح سلسلة من الكتابات التكميلية للفكر الدعوي العامر بحمد الله، وهو كثير مبارك وافر الصواب عميم النفع، ولكنه لم يكتمل بعد، وفيه ثغرات يجب أن نملأها، ومتون قديمة يجب أن تنالها يد الترميم والتجديد والإضافة، واللجان التربوية في الأقطار المخضرمة هي التي يجب أن تقدح الزناد، بتحريك بعض الدعاة من أهل الطاقة الفكرية لإنتاج شيء في ذلك، ثم تتولى الظاهرة الحيوية العامة إبقاء الأصلح الأقوى منطقاً وبرهانا، أو ينبع لاحق يتولى جمع محاسن الكتابات في الموضوع الواحد ويودعها مع إضافاته ومقارناته في مدونة منهجية هي أتم من أُصولها، وهذه هي سُنة التطور العلمي والمعرفي دوما.

وأرى أن المحاور الرئيسة في هذا الترميم والتكميل هي :

❑ **أولاً : توظيف الكم الهائل من الدراسات الجامعية ورسائل الماجستير والدكتوراه التي تلتقي مع فكرنا وأهدافنا في خدمة عمليات الإعلام الدعوي ونشر الفكر والتربية القبلية والبعدية،** وهذه خطوة لا بد منها، وبعض هذه الرسائل قد تحتاج الاختصار والتهذيب حتى تكون الاستفادة منها أمثل، وبعضها مغمور يحتاج إلى إبراز، وبعضها لم يطبع أصلاً، وعدد ما هو بهذا الوصف منها لا يقل عن ألف رسالة وبحث من بين خمسة آلاف أنتجها الدارسون، ولذلك ينبغي أن تودع هذه المهمة إلى " مؤسسة " خاصة تتجرد لهذا العمل بهذا الميزان من الانتقاء الدعوي لا بموازين أُخرى، **وإذا نجحنا في ذلك فإنا نكون قد أنجزنا عملاً أصيلاً هو من أدل معاني منهجية التربية الدعوية، ونكون قد أتممنا جرد خلاصة عقول ألف مختص ووضعناها في خدمة الدعوة،** كان أحدهم قد تجرّد أكثر من ثلاث سنوات عن الملهيات لينجز بحثه، مع العلم أن الأوساط الدعوية محرومة اليوم حتى من "ببلوغرافيا" تقوم بإحصاء ما هنالك والتعريف به بنظرة دعوية لا عامة، وهذا عزوف لا سبب له، والكتاب العام قد تناله أيدي بعض الدعاة فيجعلونه من مراجع مؤلفاتهم، لكن وضع الختم الدعوي عليه من قبل هذه المؤسسة يجعل رواجه بينهم أوسع، ويد التهذيب والاختصار تضاعف مدى الانتفاع منه.

❑ **ثانياً : التوظيف المنهجي للكم الهائل من التحليل السياسي الإسلامي والوصف الأمين للوقائع والأحداث مما حوته مقالات المجلات الدعوية** مثل : الدعوة، والمجتمع، وقضايا دولية، والإصلاح، والسبيل، ورسالة الإخوان، فإن المقالات

تنسى، وإذا تقادم عهد المجلة فلربما تهمل وتُتلف، بينما تحوي أكثر المقالات والتحليلات موازين دائمة النفع، وأنواعاً من الأخبار نادرة، واللائق أن نديم الانتفاع منها عبر تصنيفها موضوعياً، والتصرف فيها بالحذف والاختصار، وخلط معانيها ومفرداتها في تبويب جديد، بحيث ينتج منها أكثر من عشرين كتاب ربما حول قضايا : فلسطين وخطط الصلح، والنظام العالمي الأمريكي، وحروب الأفغان، وحرب الخليج، وحصار العراق، والصراع حول النفط، والحريات، ونزاع المياه، وحكم الجنرالات، وأوضاع البوسنة والبلقان، و أوضاع المسلمين في آسيا الوسطى، والعنف في الجزائر، ومشكلة جنوب السودان، وتفتيت إندونيسيا، وأمثال ذلك، وأنا أُقدر وأفهم أن جعل أي كتاب منها أو غيره كتاباً منهجياً هو من الأُمور الصعبة التي تحكمها موازين كثيرة، وبخاصة ما في ذلك من إيحاء الإعتراف بمعانيه وتبنِي الجماعة لها، إذ في الأمر حساسية تمنع ذلك، وإنما أدعوا إلى حل هذه القضية المعضلة بحل وسيط يتمثل في ابتكار ما يمكن أن نسميه " الكتاب المزكَى " أو " الكتاب المقترَح "، وهي سلسلة كتب تصدر عن مؤسسة دعوية خاصة يتم إعلانها لهذا الغرض، بحيث تضع مقدمة للكتاب ترشحه خلالها للمطالعة والرواج بين الدعاة، لا على أنه كتاب يمثل وجهة نظر رسمية للجماعة، ولكن على أنه من الكتب النافعة التي تلتقي عموماً مع توجهات فكر الجماعة وتحليلها، **وإذا أتممنا هذه الخطوة وواصلنا نشر ما سيتراكم لاحقاً فسنكون قد خطونا خطوة واسعة في سبيل تحقيق منهجية التربية الدعوية وضاعفنا حجم الوعي السياسي في الأوساط الدعوية من دون جهد كبير**، إذ أن أصول هذا الوعي مدونة في مقالات قديمة صدرت ولكنها نسيت، ولا تحتاج غير عملية " إحياء " وبعث وترويج.

❑ **ثالثاً : مواصلة منهجي في تهذيب بعض كتب الأئمة الأولين وتحويرها وإجراء بعض التكييف لها لتكون أكثر نفعاً في الاستخدام التربوي الدعوي**، وقد أنجزت بحمد الله ونشرت : تهذيب مدارج السالكين، وتهذيب العقيدة الطحاوية، فكان لهما أثر بحمد الله طيب في التربية الدعوية، وصدر الآن غيث الغياثي على نفس الطريقة، وإحياء الإحياء ليس ببعيد إن شاء الله، ويحتاج الأمر جهداً آخر يقدمه بعض الدعاة لإنجاز تهذيب كتب نافعة أُخرى، ونكون بذلك قد خطَطنا خطاً واضحاً في منهجية التربية الدعوية، ولكن هذه العملية التهذيبية لا يصلح لها مبتدئ يظن أن الأمر لا يتعدى حذف شيء وإقرار شيء، بل هو أمر ذوقي دقيق يقوم على موازين وتجربة تربوية وخلفية علمية وحصيلة نقدية، وإنما يصلح له متمرس أطال التدريس، وأقول هذا لأني وجدت بعض الدعاة الجدد يستشرفون لهذا التهذيب،

ويظنون أنهم إن لم يستطيعوا التأليف فإن عملية التهذيب أسهل وهي في نطاق الاستطاعة، وليس الأمر كذلك.

❑ **رابعاً : استعراض حاضر العالم الإسلامي في تقارير دقيقة وافية تصدر في سلسلة كتب ذات معيار منهجي موحد،** كل قطر في كتاب مستقل، وتكون هذه السلسلة آنذاك ركناً في منهجية التطوير التربوي القيادي مثلما هي لعموم الدعاة أيضاً، وأنا عندي مثلاً الخبر اليقين عن ثلاثة أقطار لا أظن أن أحداً يبلغ معرفتي بها : ماليزيا، وإيران، والعراق بلدي، ثم السودان إلى حدٍ ما، وكثير غيري أعرف به مني، وأنا أنوي أن أكتب عنها، وقد حاضرت عنها كثيرا. ولو انتدب آخرون أنفسهم للكتابة عما هم أدرى به من غيرهم لتكاملت السلسلة، كمثل الأُستاذ كمال الهلباوي الذي هو أعلم الدعاة بخبر أفغانستان، مثلاً، والأُستاذ الصادق عبد الماجد أعلم الدعاة بالسودان بلده.

وعلى نمط ما سبق أُشير إلى وجود كمٍ هائل من أخبار العالم الإسلامي وتحليل أوضاعه في المجلات الإسلامية والدعوية يحتاج إلى استلال وإعادة صياغة وترتيب، قد نسيه الناس، لكن مجلدات اكثر من ثلاثين سنة لمجلة المجتمع وحدها تكفي لوضع موسوعة عن العالم الإسلامي. وكذا التقارير المودعة لدى كبرى المؤسسات الإسلامية والجمعيات الإغاثية والجامعات، هي لوحدها يمكن أن نستنبط منها موسوعة، مثل التقارير المحفوظة في إدارة الأزهر، وجامعة المدينة المنورة، وجامعة محمد بن سعود، ورابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وهيئة الإغاثة بجدة، وعشر جمعيات إغاثية أُخرى. وبماثل ذلك خبرة وتقويمات محفوظة في الصدور لا يستطيع أصحابها لها صياغة أو لا يجدون وقتا، ويلزم أن يستنطقهم مستنطق ويأخذ ما عندهم قبل أن يموتوا، وذلك هو واجب من سينتدب نفسه لوضع هذه الكتب.

❑ **خامساً : تعليم الزهديات، ومواعظ الموت، وذكر الآخرة، لأن حياة الترف المعاصرة قد غوت حتى الفقير في قريته النائية،** إذ ليس هو النعيم فقط يلهي، وكثرة المال والرفل في أطايب الملبس والمطعم والمركب، كما هو شأن من يعيش في الخليج وأُوربا وعموم الغرب، وإنما أصبحت القنوات الفضائية تلهي عن العبادة والتلاوة و وتيرة الجد التي سادت أوساط الدعاة من قبل، ولا بد من معادلة الأمر بتخويف ونذارة وذكر خبر القبر وكشف أحابيل الشيطان الذي يفتأ يدعو إلى النار.

وقد فهم ابن حجر من قول النبي ﷺ فيما أخرجه البخاري : "أنا آخذ بحُجَزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها" : أنه (إشارة إلى أن الإنسان إلى النذير أحوج منه إلى البشير، لأنّ جِبلّته مائلة إلى الحظ العاجل دون الحظ الآجل)[1].

وذلك هو مذهب الحسن البصري رحمه الله، فإنه كان يقول : (مَن علم أن الموت مورده، والقيامة موعده، والوقوف بين يدي الله مشهده : فحقّه أن يطول في الدنيا حزنه)[2].

ويشهد له قول النبي ﷺ عند البخاري : " لو تعلمون ما أعلم : لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرا".

والمدونات القديمة في المواعظ عظيمة البركة، لكن إنما ينتفع منها من يأنس إلى أُسلوب الفقهاء ويعرف لغتهم، **والعملية التربوية الدعوية بحاجة اليوم إلى موعظة بأُسلوب مجدد، ولغة عصرية، وشواهد شعرية حديثة، مع تمثيلات تلائم أذواق اليوم ومستنبطة من نمط الحياة التي يحياها الناس الآن**، وقد شرعت بحمد الله في إصدار سلسلة " **مواعظ داعية** " بهذه المواصفات، و التي ستبلغ عشرات الرسائل إن شاء الله، فيها إيمانيات وأخلاقيات مخلوطة بلمسات دعوية، والمفروض أن يتوسع هذا التيار الوعظي الدعوي ويدلي أصحاب التجربة التربوية بدلوهم، ويجعلوا من ذلك مَعلماً من معالم منهجية التربية الدعوية، وهو مَعلم عريق، بل أول معاني منهجية التربية الإسلامية، وينبغي أن يدوم، مع تجويد وتحسين واعتناء بالأُسلوب، فإن البلاغة إنما تطلب ها هنا، وفيها زيادة جمال للمعنى، ولا يسوغ الإرخاص.

❑ **سادساً : ترشيد معنى الجهاد، و نقض الأفكار البنلادنية، إذ أن تيار العنف الذي يسمي نفسه بتيار الجهاد لا يعتمد مجرد إثارة العاطفة الجهادية التي قلنا آنفاً بوجوب معالجة أمرها بالتمحيص، وإنما أصبح يفتي نفسه ويجتهد في أمر الجهاد بنوع تكلف يلوي المعاني والمأثور عن السلف من أئمة الفقه، ولابد من ردود ترجع الأمور إلى نصابها القويم** على نمط ما فعل الأُستاذ البهنساوي وغيره في الرد على تيار التكفير، ونحن بحاجة إلى كتاب منهجي في ذلك، يتناول المسألة فقهياً بالبرهان والدليل، وواقعياً بذكر مفاد التخطيط والموازنات، وفضيلة الشيخ القرضاوي فارس هذه الحَلَبة، وعند غيره خير وفير وعلم ظهير لسنا به بزاهدين، وما لم تدرس المسألة بصراحة فإن تيار الاستعجال سيظل يضع العراقيل في طريق العمل

(1) فتح الباري 100/14.
(2) فتح الباري 102/14.

الإسلامي الحضاري الواعي، بل وقد اكتشف رجال المخابرات ذلك وركبوا الموجة وأصبحوا يشجعون نمو هذه التيارات لما فيها من تعويق للعمل الدعوي، حتى إذا خرج عن سيطرتهم رجعوا يوسعون العنف مسبة ولوما، وإنما هو من صنع أيديهم، يجدون الرجل التقي النقي الذي تستبد به عاطفة الجهاد، فيدسون له من رجالهم من يشجعه ويكون له عونا، وهي لعبة معروفة للوعاة.

❑ **سابعاً : تأليف كتاب منهجي يعرّف بالتشيع عقيدة وفقهاً وفكراً وتاريخاً وخطة، بلسان هادئ رفيق ونَفَس علمي بحت، لأننا دعوة تلتزم عقيدة أهل السُنّة والجماعة،** وتحرص الثورة الإيرانية بخاصة على ترويج الفكر الشيعي اليوم في أنحاء العالم السُنّي، وأكثر الشعوب الإسلامية لا تعرف من خبر التشيع شيئا، لذلك وجَبَ الاحتياط وتعليم الفروق، وليس هذا من التفرقة، ونحن أبرياء من أسلوب هجومي لاذع كان قد ركن إليه إحسان إلهي ظهير، فولد توتراً وتعكيراً، وإنما الصائب هو أسلوب الدكتور علي السالوس، الذي التزم المناقشة العلمية الهادئة، وليس الحرص على وحدة المسلمين ينافي سعي أطراف الوحدة أن يتعرفوا على أقوال المقابل،وتعرّف الشيعي على مذاهب أهل السُنّة أمر يعنيه، وقد كتب الكاتبون في ذلك شيئاً كثيراً سار في جميع الأوساط، ولكن تعرفي كسُنّي على أمر التشيع بالمقابل أمر يعنيني، ولا يجوز الامتناع عنه بتوهم حصول الفرقة، فإن السلبيات إنما يأتي بها القول العنيف، والبحث الذي يعتمد الأدلة والمنطق مباح و يأتي بالخير دائما، والقضية حساسة جداً، ولكن الحساسية لا تلغي حقي في نصر فقهي وفكري، وإنما تمنعني أن أعتدي وأستفز.

❑ **ثامناً : تصويب مدارس الفكر الإسلامي المعاصر،** فإن هذه المدارس عديدة، منها فكر فيه اجتهاد خاص، مثل فكر الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله، وحسن الترابي، وفكر أسلمة العلوم الذي يتبناه المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن. ومنها فكر يميل إلى العلمانية ويحاول عرض الإسلام من وجهة نظر علمانية ـ إسلامية ـ قومية تجعل الإسلام أحد مقومات النهضة، مثل فكر محمد عابد الجابري. ومنها فكر يميل إلى التوسع في الاجتهاد، مثل ما يذهب إليه الأساتذة كمال أبو المجد وطارق البشري ومحمد عمارة، ومدرسة الإخوان فيها افتراق عن هذه المدارس كلها في كثير من دقائقها، أصولاً وتفريعاً، وفكر الإمام البنا رحمه الله حذِر في التأويل الذي توسع فيه هؤلاء، مع وجود قاسم مشترك بينه وبين هذه المدارس، وهي تنتشر بين الناس، وتؤثر في جمهورنا وأنصار دعوتنا، ولذلك يجب ممارسة عمليةٍ نقديةٍ عامة لها بلسان هادئ ومنطق علمي فقهي بحت، ولا أرى أن

يكـون الاكـتفاء ببحوث يكتبها دعاة أفراد، وإنما **إنشاء مؤسسة فكرية دعوية تتولى عقـد نـدوات جماعـية بيـن مفكـري الإخوان، وتكون حصيلة هذه الندوات المتكررة الكثـيرة هـي المادة النقدية، ليعمل الدعاة على بيّنة، ويميزوا القول المخالف، وهذا الجهـد أراه مـن أدلّ مؤشــرات إتقانـنا لمنهجـية التربية الدعوية**، وهو جهد غائب مفقـود الآن مـع ضرورته، ويلتقي مع طريقة " تمحيض المدرسة " الآنفة الذكر، بل هـو الوجـه الآخـر النظري العام لها، وإذا زعم أحد أن فكر الإمام البنا لا يخالف هـذه المـدارس فـإنّ زعمـه لا يغـير مـن وجـوب هذه العملية النقدية، إذ أن القول بوجـود المفارقـة حاصـل مـتداول، ويكون من حق الدعاة أن تفهمهم هذه الندوات عـدم صـحة وجـود المفارقـة، وهـذا قـول نقولـه جـدلاً للتدلـيل علـى ضرورة هذه الـندوات، وإلاّ فـإن الاخـتلاف مرصود، والوحدة الفكرية في الجماعة مطلوبة، وهي أسـاس الوحدة التنظيمية والعاطفية والتربوية، ولا يصح أن نمشي على استحياء، إذ أن الدعـاة عرضـة للـتأثر بالفكـر المتساهل المخالف، ولابد من صراحة النقد، ولا يقتضي ذلك إثارة معركة ولا تفسيق المقابل، وإنما نقارع بالحجة وكفى.

❑ **تاسـعاً : تأكـيد الموقـف الدعـوي في الوسطية والاعتدال الفقهي**، لأن التيارين النقيضـين السـلفي والصـوفي أصـبحا عالميين أيضاً، ولهما مراكز ومجلات ومنابر ومواقـع إنترنـت ومؤتمـرات وأنصـار، ولهما تأثير على جمهورنا، وأشد ما في ذلك تجـريد السـلفية لـنا مـن صفة السلفية التي نحن أساتذتها، وتجريد الصوفية لنا من صـفتنا التربوية الإيمانية وزعمهم أننا لا نتقن ذلك، وهذا هو شأن المعتدل الوسطي دائمـاً، لا يرضـى عنه من في الطرفين، وقد قرأت لفضيلة الشيخ القدوة الشجاع نبيل المغـرب عـبد السلام ياسين نفع الله به مقالاً في كتابه " الإسلام غداً " يذهب فيه إلـى أن دعـاة حـركة الإخـوان قـد بلغـوا مـبـلغاً حسـناً في إتقان التنظيم والإدارة وتخطـيط العمـل الدعـوي، لكـنهم لـم يتعمقوا في التربية الإيمانية، ويقابلهم رجال التصـوف الذيـن زكـت قلوبهـم مـن دون معـرفة فنون الإدارة، وقد أقلقه هذا النقص المـتقابل مـن الطرفيـن، فتمنى امتزاج الطائفتين وحصول تكامل بين فكر حسن البنا وفكـر محـي الديـن بـن عربـي، فأذهـلـنـي ذلــك، وعرفــت أن الـشيخ بحاجة إلى " تمحيض المدرسة " وأنه يتأول لابن عربي ويذهب بعيداً جداً.

وقـد اسـتوفى الشـيخ القرضـاوي فـي " أولويـات الحركة " شرح معنى وسطية الفكـر والاعـتدال، ولاحـظ أن التربـية هـي المدخـل الأساسي لأي حركة إسلامية، والمهـم هـو تكويـن الطلـيعة المسـلمة المـرجوة لنصـرة الإسـلام، المتخلقة بأخلاق الإيمـان حقّـا، ولا يكفـي أن يكـون هـناك أنصاف مؤمنين وأرباع، وهؤلاء الطليعة

يتعلمون تقوى القلوب قبل أعمال الجوارح، على طرائق الحسن البصري والفضيل، ويركزون على إخلاص النية وتجريد القصد، ثم مراقبة الله عند العمل، ثم محاسبة النفس بصرامة، ثم التوكل على الله وتسليم الزمام إليه.

قال : لكن الإخلاص لا يكفي وحده، إنما تجب معه معرفة الصواب وأهون الضررين وأرجح المصلحتين، مع قدر من الاجتهاد في حقل من الحقول، وهذا لا يتم إلا بقدر من العلم، وببذل الوسع واستفراغ الجهد.

ومشكلة الحركة الإسلامية اليوم تكمن في أن القاعدة فيها أكبر من قدرة القيادة، ولذلك لابد من إعداد القيادات التي لها قدرات فكرية ونفسية وعملية إلى جوار الشروط الإيمانية والأخلاقية. وليست القيادة هي الشخص الذي يكون في القمة، بل هي مجموعة عريضة تخطط وتفجّر الطاقات، ولا ينبغي أن تقف القيادات التاريخية عقبة أمام صعود المواهب الشابة، ولابد من اطراح فكرة اختيار القائد مدى الحياة. ثم إن تربية هذه المجموعة يُستحسن أن تكون عن طريق معهد خاص ذي قسم داخلي يتعايش فيه طلبته، ويخضعون لمنهج واسع يدرّسه أساتذة من أهل الفكر الناضج.

وصفات هذا الفكر عند الأُستاذ القرضاوي أنه :

● **فكر علمي** : لا يقبل دعوى بغير دليل، ولا نتائج بلا مقدمات، وندرس قضايا الاقتصاد والسياسة والتعليم بروح علمية لا ارتجالية ولا عاطفية، وذلك بتغليب النظرة الموضوعية، واحترام الاختصاصات، وتقويم تجارب الماضي، مع الاستعداد للاعتراف بالخطأ، والقيام بالاستقراء والإحصاء، واحترام الرأي الآخر ما دام في باب يسعه الاجتهاد.

وأيضا : لا نزعم أن وراء كل شيء أيدٍ خفية، فإن التعميم خطأ، وضرر ذلك أنه يدفعنا إلى اليأس، ويعوقنا عن نقد أنفسنا.

● **وهو فكر واقعي** : يقوم على الموازنة بين الطموح والإمكانات، والانسحاب يكون أحياناً فتحاً، كما كان من خالد رضي الله عنه يوم مؤتة، فلا نتهور.

ومنه : إنهاء الجدل في قضايا صفات الله تعالى، وخلق القرآن، والمعارك بين السلفية و الأشاعرة.

وكذا الجدل حول الجهاد هل هو هجومي أم دفاعي ؟ فالباحثون منقسمون، والأولى تأجيل هذا الجدل، لأننا لم نقم بعد بالجهاد العيني لإنقاذ فلسطين وغيرها من البلاد المغتصبة، ولأننا عالة في التسليح على أعدائنا، ومنهم نشتري السلاح، فكيف نهجم عليهم ؟ ولأننا لم نقم بكل وسائل التبليغ السلمية، من كلمة مسموعة ومقروءة تساعد على نشر الإسلام وتُغني عن الحرب.

- **وهو فكر سلفي** : يحتكم للنصوص، ويرد المتشابهات إلى المحكمات، والظنيات إلى القطعيات، والمصير إلى الاجتهاد دون التقليد، وذم البدع وتركها.

وقد ظُلمت السلفية من أنصارها كظلم أعدائها لها، وذلك حين ركزوا على بعض مسائل الفقه وعلم الكلام وأثاروا حولها المعارك، إذ المهم أن نأخذ منهج السلف لا مجرّد أقوالهم الجزئية. وخير مَن مثّل الفكر السلفي في العصر الحديث هو الشيخ رشيد رضا رحمه الله.

- **وفكر تجديدي** : يؤمن بالاجتهاد ويتبنى التجديد، والتجديد وارد في الحديث المشهور، ولكن علينا أن نحدد معنى التجديد حتى لا يتلاعب به المتلاعبون، فتجديد الشيء هو إعادته أقرب ما يكون إلى صورته الأولى، والمحافظة على جوهره وخصائصه.

والتجديد يشمل تجديد الفهم، والفقه فيه، وهذا تجديد فكري. وتجديد الإيمان، وهذا تجديد روحي. وتجديد العمل والدعوة، وهذا تجديد عملي.

وهناك منطقة لا يدخلها التجديد، وهي القطعيات.

ويجب تجديد الوسائل أيضاً بما يناسب الزمان والمكان، حتى وسائل الإمام البنا يمكن تجديدها، وهو نفسه لم يكن جامداً، بل يمكن أن نعيد بحث نظام " الأُسرة " في التنظيم : صعوداً نحو الوسائل السياسية والجبهات والمحالفات.

إن الجمود آفة من آفات الفكر الحركي. الجمود على شكل معيّن في التنظيم، وعلى وسائل معينة في التربية، وعلى مراحل معينة في الوصول إلى الهدف.

وأخشى ما نخشاه على الحركة الإسلامية أن تضيق بالمفكرين الأحرار من أبنائها وأن تغلق النوافذ في وجه التجديد والاجتهاد، وعندئذ تتسرب الكفايات

العقلية القادرة من بين صفوف الدعوة ويبقى المقلدون الذين يحبون أن يبقى القديم على قِدمه.

- **وفكر وسطي** : بعيداً عن الغلو والتقصير.

وهو وسط في كل شيء.

- والبعض لا يرى الألوان، بل عنده أبيض وأسود فقط.

وفي الخمسينات والستينات خصوصاً راج الفكر الذي ينزع إلى الرفض والتشاؤم والاتهام، وظهر تكفير، ويرى الأستاذ القرضاوي أن كتابات سيد قطب رحمه الله قد ساعدت على ذلك، ويرى أن الحركة لابد لها من التغلب على فكر المحنة، أو فكر الأزمة، لتنتقل إلى الفكر الوسطي المعتدل المعبّر عن وسَطية الأُمة المسلمة، ووسطية المنهج الإسلامي.

ثم الوسطية ملازمة للتيسير ورفع الحرج والتخفيف في الفتوى.

- وفكر مستقبلي : يرنو إلى الغد، ولا ينحصر في الحاضر، وفي القرآن مثل ذلك، فيه بشارة أن" سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ " وفيه تنبيه إلى أن الروم من بَعد غلبهم سيَغلبون.

❑ عاشراً : توفير كتب المنهج ومستلزماته في كل قطر.

وهي قضية تنفيذية بحتة، لكن أهميتها توجب بحثها ها هنا، بأن نعيد طبع الكتب التي ندرت في السوق مما هي ضمن كتب الدراسة في المنهج أو كتب المطالعة، مع إحسان توزيعها، وتسريبها إذا منعت. فإن التجارب تفيد بأن جمهور الدعاة في بعض الأقطار يعاني من ظاهرة عدم وجود بعض كتب المنهج، والحل الأمثل في ذلك أن يوكل أمر توفيرها في كل قطر إلى مكتبة تكلّف بهذه المهمة، ويستحسن توفير طبعات شعبية رخيصة في البلاد الفقيرة بالاتفاق مع المؤلفين عبر مكتبة عالمية مؤتمنة لا تعتدي على حقوق المؤلفين بتوزيع الرخيص في البلاد الغنية.

- وهذه التوجهات العشرة في سد النقص أو توسيع ما هو صغير أكثرها كما هو ملاحظ : مركزي غير قطري، ولكن يمكن تنفيذه باتفاق المركز مع الأقطار،

ويتقاسم الأدوار وتوزيع الواجبات، فينبغي الانتباه لذلك، كما إن بعض هذه الكتابات المطلوبة قد لا تستطيعها اللجان التربوية نفسها، إنما المطلوب أن تنسّق مع بعض الكتّاب والمفكرين لتدوينها، والمعنى المهم الذي قصدناه أن لا ننتظر ما يجود به المؤلفون لنجعله منهجاً، بل أن نحصي الموجود عندنا، ثم نحدد الثغرات والنواقص ونضع خطة لكتابتها بالتعاون مع أهل الفكر والدعاة من أساتذة الجامعات وعلماء الشرع، سواء ما أشرت إليه من توجهات ومواضيع، وذلك مبلغ اجتهادي ومفاد خبرتي ، أو غير ذلك من مواضيع ترى اللجان وجوب توفرها، ولو تم عقد مؤتمرات مصغرة لاكتشاف النقص لكان ذلك حسنا، لندفع قَدَر العَدَم بقَدَر الوجود، إذ السلبية باطلة، والله الموفق، وهو الذي يعين مَن يصارع أقدار النقص.

❑ لوازم العمل التربوي المتقدم

ومن معاني المناورة التربوية أيضاً : الاستجابة التطويرية لمقتضيات الحاجة والتوسع وتغير الحقائق الميدانية، إذ لكل زمان ومرحلة ما يناسبها، والمرونة واجبة، ولابد من مواكبة تطلعات الدعاة، والاستفادة من المعطيات المدنية الجديدة، مع العلم بأننا لا نستطيع دائما تحديد ما هو تربوي فقط من هذه الوسائل التطويرية، إذ يندر أن يكون لعمل ما وجه واحد من النفع، بل ربما تكون الوجوه عديدة، ويكون التأثير تربوياً وتنظيمياً وسياسياً في آن واحد.

وأرى أن التطوير يجري في ثلاثة خطوط :

- إيجاد مؤسسات، أو القيام بأعمال تخدم العمل المؤسسي.
- وتطوير الدعاة بالتربية القيادية.
- وأساليب إدارية وعلمية وإبداعية ترفع مستوى الأداء.

❑ **ففي الخط المؤسسي :**

• **الانطلاق من مركز بحوث ذي مكتبة متطورة**، وذكرناه بوفاء في موضع آخر، وأشرنا إلى آثاره التربوية الحسنة وما يؤدي إليه من شعور التجاوب مع الفطرة في الامتلاك والحيازة، ونشير هنا إلى ما يمكن أن تقوم به خطط المركز من مناورات تربوية متنوعة، ومن أظهرها :

استطاعة تشغيل عدد وفير من الدعاة ببحوث وندوات وتقارير ميدانية، بحيث ترتفع البطالة عنهم وتمتنع الوسوسة. ومنها أيضاً: الإملاء المعنوي لوجود المركز، حيث تميل العناصر الفوضوية والارتجالية إلى الأداء النظامي المرتب المتناسق خوفاً من رقابة مفترضة ونظرات ناقدة يوحيها وجود المركز بين ظهرانيهم، كمثل رب العائلة يراقب أبناءه، والوجود القيادي رقيب كذلك، لكن المركز أقرب إلى حياة الدعاة اليومية. ومنها أيضاً : إبقاء عرق الإبداع حيّاً في نفوس الدعاة، وتعمير الحاسة الخاصة به، لأن من مفهوم البديهة في عمل المراكز : ترويج الابتكار، والإتيان بجديد، والانتفاض على التقليد، وافتراض مجاراة العصر وموازاة أحدث ما في سوق الفكر وأساليب التربية والتدريب، والدعاة في مثل هذا يتجاوبون مع المركز ويحاولون إرضاء ظن رجاله بهم، لما يعلمون من أنهم إنما انتصبوا لذلك، بينما يمتزج شخوص القيادة بمعنى الهيبة والسيطرة والسطوة والصرامة والضبط، وهي صفات تجعل الدعاة في حياء واحترام مضاعف، وربما في وجل، في حين يكون الانطلاق مع السجية عند التعامل مع باحثي المركز، والحواجز زائلة ابتداء، ويظهر استرسال في التعامل المفتوح السهل يقدح زناد الإبداع.

• **إصدار مجلة تكون محوراً للأداء الفكري للعناصر النابهة من الدعاة**، يتحلقون حولها، وبها يحتفون، ولومضتها يورون، فتربيهم على دوام اليقظة والإنشداد إلى الهدف ومواصلة العطاء وكمال الإيجابية، وبذلك نحوز تشغيلاً لفئة أخرى غير الفئة التي حرّكها المركز، فضلاً عن آثارها التربوية العامة في جمهور قرائها، وآثارها الإعلامية والفكرية، **بل لها أثر مباشر في إكساب مجموعة محرريها وكتّابها " هوية " خاصة بها يُعرفون في المجتمع العام، بل يتعدى أمرهم الحدود فيُعرفون عالمياً إذا انتشرت المجلة، وهذه الهوية هي مفتاح باب التطور**، إذ لا يبقى حائزها سائباً عائماً مركوناً في هامش ومدار مغلق، وإنما منسوباً إلى مجموعة قِيَم أذكتها المجلة، وممثلاً لها، وحامياً ومروّجاً، ومنادياً بها ومالكا، أي يكون نقطة إشعاع مستقلة، وذلك يعني ثباتاً على الدرب، وتثبيتاً لعشرات من حوله تسري لهم عدواه، كما يعني ذلك تأسيس وازع ذاتي للتطور ينعكس أيضاً على مَن في بيئته الدعوية، وهكذا تكون مناورة التحريك التربوية، كل وسيلة تتكفل بتحريك ثلّة، كمثل جيش صدر له أمر التعبية والسير إلى الجبهة، فمنهم من يركب السيارات، ومنهم من تحمله الطائرات، وتتكفل البواخر بخدمة، والقطارات، فيكون الحشد الذي تحسم هيبته الأمر دون حاجة لرمي وقتال.

• **إتقـان اسـتعمال مواقـع الإنترنت الدعوية**، وإكثارها، ورصد كفايات عالية لها، لتكون محوراً ثالثاً في التشغيل وإدامة الصلة، واستثمار عامل السرعة في نشر الخبر والتحليل والنظر، وكما أن لهذه المواقع أبعاداً عالمية، وأُخرى تمس تربيتنا لجمهورنا وجميع الصالحين، فإن لها بعداً قطرياً خاصاً داخلياً له أهميته في الوحدة إزاء الأحداث وفي تحديد المواقف، لتوفر عامل السرعة في الإبلاغ، والمتابعة المباشرة، وانفتاح الطريق بين القادة والقاعدة، وتجربتنا في ذلك ما تزال في أولها، وينتظرنا خير كثير يأتي من هذه الإنترنت التي هبطت علينا هدية شبه مجانية قلبت الموازين لصالحنا، وفتقت على مكممي الأفواه فتوقاً، وكسرت الاحتكار الإعلامي، والمهم أن تتذكر اللجان التربوية جيداً أن نصف حجم المناورة التربوية التي نحتاجها يمكن أن يتوفر عبر التفنن في استخدام هذه المنحة الربانية، وأظن أنه يليق جداً عقد أكثر من مؤتمر في كل بلد بين المربين وأهل الفكر من الدعاة ومهندسي الكمبيوتر للوصول إلى تصورات وافية في الاستخدام الأمثل للمواقع، وستكون العملية كلها منفذ تشغيل لرهط آخر من الدعاة يمنع البطالة عنهم، ويضعهم تلقائياً في تيار العمل والإنتاج المثمر، فوق الفوائد العديدة التي نكسبها من ذلك والتأثيرات التربوية والإعلامية في نفوس الدعاة والأنصار معاً، بل وفي الغرباء، فلربما يلهو فضولي فتستقر كلمة في قلبه يسمعها من الموقع، فتكون بداية إنصات جاد، ثم يقظة، ثم اقتراب.

• **أداء الدور القطري في القناة الفضائية الإسلامية الثقافية العالمية**، وهي قناة ينتهي فصل " الفيزياء الدعوية " في هذا الكتاب إلى اقتراحها، وأخالها ستكون إن شاء الله، إذ تلك هي سُنّة التطور، وما أظن أن التفريط يمكن أن يستطرد لأكثر من المقدار الذي حصل، ولكل متسيب أوان توبة إذا كان معدنه نقياً، ولكل راقد تكبير يوقظه ليسبّح إن كان مؤمناً، وستكون من بعد جفلة ذكر ميزانية القناة سكينة ترجع بالراغبين الخائفين إلى تفكير بأناة وهدوء يكتشفون معه قرب رحمة الله تعالى لدعوته وإمكان جمع ما يظنونه صعباً إذا وكلوا الأُمور إلى أهلها.

وهذه القناة ستكون العنوان الأكبر في منهجية التربية الدعوية الجديدة، وستقلب المعادلات، من غير اضطرار لعنف وشجار وصِدام، بل بالعمل، ومفهوم الحضارة، والآية وتقرير المختبر.

فماذا أعددنا لها وهي قريبة تكاد أن تُشرق ؟

صعوبتها ليست الصعوبة المالية، إنما صعوبة المادة الموضوعية، وإعداد البرامج، ووسائل الإيضاح، ووجوب علو لغة التحليل والشرح، والنظرات الشمولية الناقدة، ودقّة التقارير العلمية، وهذه أمور لا يمكن أن تفي بها المجموعة التي ستتولى الإدارة الثقافية لمشروع القناة مهما كانت واسعة وجديرة، وستقتبس جزماً من الإنتاج الغربي العلمي بكثرة، وقد يلزمها تحوير بعضه، ولكن الرفد الأساسي ينبغي أن يأتيها من مجموعات قطرية كثيرة تبتدع كل مجموعة لنفسها طريقة و أسلوباً وفناً في التفهيم والإخراج وتبسيط العلوم واستعمال المشوقات، ولذلك ينبغي التبكير في ندب بعض الدعاة في كل قطر من أهل المستوى الثقافي العالي أو أهل الاختصاص والخبرة، ليقوموا بتحضير ندوات، ودروس مشروحة مؤيدة بوسائل الإيضاح، وتصوير الحياة البرية وعجائب الخلق في قطرهم، والأدوات العلمية الأثرية المحفوظة في متاحفه والتي تشهد بالتفوق الإسلامي الحضاري، مع تصوير دقائق فن العمارة الإسلامية، ثم محاورات مع العلماء والمفكرين والأبطال والشعراء والساسة في بلدهم ممن عرفوا بنقاء السيرة والجد والإخلاص، وجعل كل ذلك وأشياء أخرى يبتكرونها رصيداً لهذه القناة العالمية.

- **توجيه الأدوار الإيجابية التي تقوم بها الجمعيات الإسلامية العامة في التربية عبر محاضراتها ومواسمها الثقافية ومهرجاناتها وإصداراتها الفكرية ودوراتها الشرعية وأماسيها الأدبية، وعبر استخدام بيئتها النظيفة في حماية الشباب بأشكال النشاط الشبابي والرياضي**، وهذا الجهد قائم بحمد الله بصورة طيبة في بلاد كثيرة، ولكن باستقلال، وكأن هذه الأنشطة ليس لها مردود تربوي، والواجب فيما أرى أن يكون للجنة التربية ضلع فيها، ومشاركة في وضع هندستها و خططها، بما يحقق الانسجام في الأداء التربوي المتنوع، وتكمن في ذلك قابلية مثيلة لقابلية الحزمة الليزرية التي تنتج من توحيد قول الواعظ والخطيب والصحفي والأستاذ الجامعي، مما ذكرناه في فصل آخر.

حتى العمل الخيري عبر جمعياته له وجه تربوي تدريبي مؤكد، فهو يتيح تشغيل ثلّة نمنع عنها البطالة، على نحو ما يؤدي إليه عمل المركز والمجلة، ثم هو يضع الداعية وجهاً لوجه مع الناس، ويخرجه من العزلة، ويعلّمه التعامل مع الناس، ويمنحه منبراً ينطلق منه ويختصر له الطريق، ولذلك لابد من الخروج في الأداء الإغاثي عن النمط الرتيب الإداري الذي يجعل القضية ميكانيكية، إلى نمط جديد فيه توسيع القاعدة التوزيعية الممارسة لإيصال الإغاثة إلى أهلها على طريقة التطوع المجاني، لتحقيق انفعال عاطفي وانفتاح نفسي، مع غرس ثقة وتحصيل خبرة.

• **ممارسة التحريك المركزي عبر غرفة عمليات لها أساليب سيطرة ورقابة وتنسيق،** وهذا الإبتكار الإداري الذي تعمل به الجيوش والإدارات الواسعة وتشكيلات إدارة الأزمات : نافع جداً، لأن تراكم القرارات القيادية، والخطط التي تقرها القيادات، وتوصيات المؤتمرات، والالتزامات العالمية، والاستجابة لتحديات التطور السياسي اليومي، والإعلامي والثقافي : كل ذلك يجعل المسجِّل على قائمة التنفيذ ألف نوع من العمل، وكل نوع من العمل يقتضي جهداً يقدمه عدد من الدعاة يُسمون بأسمائهم أو يشار إليهم بصفاتهم، وبذلك تتوسع الجمهرة التنفيذية إلى ألوف دعاة، كلٌ يُعنى بأمر ويرابط على ثغر ويسد حاجة، والقيادة إنما تكلَّف بفكر ونظر واجتهاد وتقويم واتخاذ قرار، لا بمتابعة تنفيذية، لذلك وَجَب إسناد التنفيذ والتحريك إلى غرفة عمليات، لا تتابع التحشيد فقط، بل حتى الواجبات الفردية في إعداد بحث، أو كتابة مقال، أو عقد ندوة، **وغياب غرفة السيطرة هذه أراه هو المسؤول جزئياً عن الضعف والترهل إذا ظهرا،** فكم من قرار صحيح تطويه الأيام، وتكليف ينسى، على أن الأمر لا يعني سَوقاً عسكرياً بغلظة، ولا التضحية بأواصر الأخوة الرحيمة.

❑ **وفي خط التربية التطويرية :**

• **التأكيد على دورات التخصص** ذات المحاضرات، والمطالعة المكثفة، والتحاور مع الخبراء ووجوه الإدارة والسياسة والاقتصاد، مما فصّلناه في " معاً نتطور ".

• ثم كلية الأركان الدعوية المقترحة في " المسار ".

• **وينبغي أن تحتل مشاهدات الأفلام والفيديو مساحة واسعة في هذه العملية التطويرية،** ولكني أرى قلة الاهتمام بذلك، و أدعو إلى أن تكون هذه المشاهدات توجهاً رئيساً في الفهم الجديد لمنهجية التربية الدعوية، وأن تكون اللجنة التربوية في القطر هي المسؤولة عن تجميع هذه الأشرطة بالتعاون مع المركز وجهات أُخرى، وأن تشترى شاشة عرض 72 إنج للعرض، وما أظن أن العناوين ستكون أقل من ألف عنوان، وبعضها في أكثر من شريط، وهي خليط من ندوات دعوية متميزة، وخطب لمشاهير الدعاة ذات أهمية استثنائية، وبرامج غربية مترجمة عن الحروب والأحداث الكبيرة و الشخصيات السياسية المهمة، مع أفلام ممثلة لقصص شهيرة، وأفلام تسجيلية توثيقية لأحداث غدت مفاصل في التاريخ الحديث والمعاصر، مع أفلام علمية، وتعريف بالعالم الإسلامي، وأنا مقتنع بأن وعي الداعية، وفتح عينه على حقائق الحياة والصراع، وتوسيع إدراكه لمعنى الشر وطبائع أهله، ومعنى الخير : إنما يمر بعضه عبر هذه المشاهدات، والعلم والمطالعات قد تجعل الرجل صالحاً،

ولكن تبقى فيه بقية من بساطة، ومعرفة قصة الحياة مصورة تتكفل بعلاج شطر كبير من هذه البساطة ويتحول الداعية بعدها إلى نباهة تتيح له إتقان دوره الدعوي، وربما تغرس في أعماق نفسه الرغبة في أن يترك أثراً في صناعة الحياة أسوة بهؤلاء الذين تركوا بصماتهم وآثارهم ممن رأى سِيَرهم وعرَفَ بذلهم، من بين محق ومبطل، وسيرى لقطات حقيقية حية لأبطال عشقوا الحرية، ولتضحيات جماعية، ولأفكار بدأت بومضة في عقل رائد، فبشّر بها، فغدت فكراً سائداً له دولة، فيدأبُ يقتدي.

- **وتسمية التخصصات المفيدة في قائمة طويلة، وتنسيب داعية لكل تخصص منها** أو أكثر، ليكون هو المستشار، ومبعوث الدعوة إلى مؤتمر موضوع التخصص، والكاتب فيه في صحفنا، والمحلل له في تلفزيوننا أو وسائل الإعلام عامة، والسفير الدعوي إلى موطن تخصصه، والمحاضر فيه في الدورات وكلية الأركان، وواضع الكتاب المنهجي فيه، في فوائد أخرى.

وتبدأ هذه الحملة التخصصية في كل قطر بتنسيب داعية لكل قطر آخر يدرسه بإمعان ويتعرف على خبر الدعوة فيه والأحزاب والحكومة، وعلى جغرافيته وسياسته واقتصاده وتاريخه، وهي أقطار العالم الإسلامي، ويصح تكليف داعية واحد بمنطقة إقليمية تضم عدة أقطار تجمعها ظروف متشابهة، ثم بعض الأقطار غير الإسلامية إذا كانت مهمة أو فيها أقلية إسلامية، فهذا لوحده سيبرز خمسين من أهل الخبرة ربما، ففي اليمن مثلاً يلتزم داعية دراسة السودان، ويكون خبيراً به، وآخر للصومال، وآخر للإمارات، وهكذا، وقد يكون أحدهم لدراسة جنوب شرق أسيا كلها.

ثم يلزم داعية أو أكثر تكوين خبرة له بأسعار النفط و أُوبك، وآخر بمنظمة التجارة العالمية وآثارها على البلاد الفقيرة، وآخر بالتخطيط الإستراتيجي، في سلسلة من الاهتمامات الموضوعية المماثلة توجد لنا بعد سنين عشرين خبيراً.

ثم يكون دفع وتشجيع وإقحام ومساعدة بعض الدعاة لنيل الدكتوراه في الأدب والإعلام والتاريخ والاقتصاد السياسي والقانون الدولي والقانون الدستوري وأمثال ذلك في سلسلة أُخرى تنتج لنا بعد بضع سنين ثلاثين خبيراً.

وهكذا تتكفل المناورة التربوية برفع البطالة عن مائة داعية على الأقل وتضعهم في شغل خير دائم، وقد ذكرت في فصل آخر هذا المنحى التخصصي، وأردت من تكراره هنا الإشارة إلى آثاره التربوية، ثم إلى تكامله مع الاقتراحات الأُخرى القريبة

منه، وإلى العمدية التخصصية التي ننتظرها من لجنة التربية في ذلك وعدم ترك الأمر إلى مقادير هِمم أفراد الدعاة أنفسهم.

وتجربتنا تفيد أن بعض من سيُكلف سيكون نزعه ضعيفاً، ويكسل بعد حين ربما، ولا أرى أن تكون ردة فعلنا تجاهه قوية، إذ أنه سيستدرك لاحقاً حين يرى أقرانه قد أنتجوا، ونمو الخبرة في ذلك بطيء عادة، ولا يأتي بقفزة، ومن اللائق أن نهدي لكل داعية يدرج في درب التخصص بعض كتب في موضوع تخصصه، ونعلمه كيفية صنع أرشيف له، ونشجعه بتمويل رحلة إلى البلد المختص به، أو ندفع له بعض نفقات دراسته العليا إذا كانت في نفس الموضوع.

• ويبقى طريق صياغة الشخصية الإسلامية الدعوية أقرب من ذلك لمن شاء أن يستقيم، وفي التواضع بركة مؤكدة مجربة، ومع اللبث الطويل في المساجد مابين الصلوات يأتي إلهام وتتفتح بصائر، وفي زيارة المقابر موعظة توقظ من غفلة، والجلوس مع فقراء الناس ومحاورتهم يطلع الداعية على وجه من الحياة ينبغي أن يعلم خبره لتتوازن تطلعاته، ثم في ارتياد مجالس العلم الشرعي وثني الركب بين يدي المشايخ نوع وقار هو بحاجة إليه، ورزانة ورجولة ونضوج، وكانت هذه هي وسائل الرسوخ في جيلنا عند نشأتنا، **ثم نبغ عصر الكمبيوتر فرفع الاسترسال مع البساطة، وأصبح الإيمان الألكتروني هو السائر في الساحة، ووجب علينا أن نقبل ونساير التطور، إنما أنا أخشى التحرك الميكانيكي والاستئسار إلى البرمجة، إذ في عمران العواطف الأمل، وأخاف أن تطرأ يبوسة، فلولا احتاط منغمس لغده.**

وعندي أن اللبث لموسم في مكان هادئ يعادل الأمر، مثل ثلاثة أشهر يقضيها الداعية في قرية إسلامية في عمق أدغال أفريقيا، أو عزلة في واحة صغيرة في صحراء ذات رمال، أو على قمة جبل شاهق، أو في جزيرة نائية، وكنت سابقاً أقول بلبث في أماكن الجدّ الساخنة ومواطن النكبات، ولكن أهل العنف منعونا بتهورهم، فحرمت علينا الكثير من الأماكن.

إنما ما يزال ممكناً أن يرحل سبعة معاً إلى محاضن العلم، مثل الأزهر والقيروان وفاس ومكناس ولكنو بالهند، ليشافهوا العلماء ويزدادوا خيرا، ثم يعاودوا في سنة أُخرى القيام برحلة لفحص الآثار الإسلامية ببغداد ودمشق والقاهرة وإيران وتركيا والجزائر والمغرب والأندلس، وعندئذ ستطبع النفس بطابع خاص، وتُغرس الأصالة وأحاسيسها ومحركاتها.

وتقليداً لعمر بن عبد العزيز رحمه الله حين جعل رقيباً عليه ينبهه إذا غفل : هممتُ أن أقول بوجوب تفريغ داعية محتسب مهنته أن يدق أبواب الدعاة ويقحم نفسه في شأن إخوانه، ويقول خمس لاءات فقط : **لا تغتر، لا تتبطر، لا تكسل، لا تغفل، لا تنس أن تسقي القلب فإنه عطشان.**

❑ **وأما في خط الأساليب الإدارية والإبداعية فيمكن :**

• **إبراز رموز وزعامة دعوية عامة :** فإن ذلك من الاستجابة لفطرة مغروسة في النفوس في متابعة قدوة ووكيل ورائد يتقدم، وفي الروح فراغ لا تملؤه إلا صورة زعيم يقود، وعلى ذلك مدار التحريك وإبقاء النبضات وإذكاء المشاعر، وانظر ما جلبه شخوص الإمام البنا والسباعي والصواف رحمهم الله من آثار تجميعية وتربوية حسنة، وما فعلته شخصية أربكان في أتباعه، وصدارة محفوظ النحناح لمسيرة السلم الحازم الواعي، وأنا أعجب من بقاء أجزاء من الحركة حتى الآن بلا زعامة، مع أن بعضها مخضرم، مثل العراق، ثم يأتيك من يلوم الأفراد وأنهم لا يبادرون ولا يواصلون النشاط، ولا أدري كيف تسوغ الملامة وقد انثلم التكامل وفُقدت حلقة في سلسلة التحريك ؟

إن وضوح الهدف عامل تحريك، وإشهار قضية عامل آخر، ووجود آلة إعلامية عامل، والمنابر والمنطلقات والمؤسسات عامل، وكذا أيضاً في نفس السياق : وجود رموز وقيادة ظاهرة نازلة إلى الساحة تتكلم وتكون قريبة من الأتباع : عامل آخر من أهم العوامل، وإذا اقترن وجودها بفكر ومؤلفات : كان أمرها أتم، وإذا حالت الظروف الأمنية دون بروز الزعامة : لزم ظهور زعامة مهاجرة تنتصب مثالاً، فإن العالم اليوم كقرية واحدة، والخبر والتأثير يتجاوز الحدود ويخترق.

بل ومِلت في " أُصول الإفتاء والاجتهاد" إلى إظهار أُبّهة الزعامة، وأوردت قول الفقهاء في ذلك.

وإذا سمحت الظروف فإني أرى أن يكون للقائد ديوان عام يُطل فيه على الناس عامة من بعد الدعاة، ويستقبل فيه الوفود، ويولم الولائم لكبار الضيوف، ولذلك يجب توفير ميزانية له وطبّاخ وسكرتارية وحرس، فإن ذلك يجلب نصف الولاء المطلوب.

ولستُ أقول بأن اللجنة التربوية تتولى ذلك، ولكني أُفوضها أن تدافع عن نفسها إذا اتهمها متهِم بضمور النتيجة التربوية إذا لم يكن ثمّ زعيم ظاهر.

• **تقليل الاجتماعات الأُسرية للقدماء، والاجتماعات الإدارية العامة، لتوفير وقت للنشاط والتطوير.** وكذا في محيط الشباب : تقليل الألعاب الرياضية بما يتيح مجال التعليم والسيرة الجادة.

فلماذا لا أجعل الاجتماع الأسري شهرياً لمن أتم مواصلة المنهج أربع سنوات متواصلة أُسبوعياً ؟

وقد عدّ الشيخ القرضاوي (من مظاهر التعصب : المبالغة في المحافظة على الأشكال التنظيمية للحزب أو للجماعة، كأنها أُمورٌ تعبّدية، حتى يضحّى في بعض الأحيان بمصلحة الدعوة الإسلامية، والأمة الإسلامية كيلا تخدش الصورة التنظيمية.

وهذا خطأ شنيع في الفهم، فالأشكال التنظيمية "وسائل وأدوات" تتغير بتغير الزمان والمكان والإنسان، وليست أصناماً تعبد أو غايات تقصد لذاتها، كما يفهم ذلك من تصرفات بعض الغلاة في احترام التنظيم) (3).

• ممارسة حوار دائم بين الدعاة عبر مؤتمرات صغيرة و موسعة، وتعليمهم الصنعة النقدية الشورية، وذلك من أدل أنماط طلب الإبداع ولمعة الفكر والفهم المرن، وماذا يعني تخريج عناصر كثيرة مقلدة بتربية تلقينية مجردة من دون آفاق منفتحة ؟

ولكن هذا الحِوار يكون خطراً ويؤدي إلى تبّرم وظلم وقولُ جزاف ما لم تتوفر سبعة شروط تضمن حسن التداول :

• **وجود تربية روحية عامرة بالمواعظ والرقائق**، وأقل ذلك توفير الكتب التي فيها تذكير بمعاني الآخرة والزهد، كي تكبح جماح الاستعلاء على المؤمنين، وتمنع الغرور، وترُدّ الجميع إلى إنصاف.

• **وضوح النظرية السياسية الإسلامية الدعوية بخاصة، وعموم الفكر**، من أجل أن يحتكم الجميع إلى موازين وقواعد ومبادئ سَبَقَ اتفاقهم عليها واعترفوا بها، فيقل القول الشاذ والغريب، وتخصيص النظرية السياسية بالذكر لأن أكثر الاختلافات إنما تكون في المواقف السياسية.

• **أن تكون هذه المؤتمرات في زمن العافية ووحدة الصف**، فإن كانت هناك فتنة : سددنا كل ذريعة للجدل وأرجأنا المندوب من أجل الفرض.

---

(3) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم /133.

• **وضوح نظرية شروط التوثيق و التأمير،** لئلا ينخدع الشباب بذي لسان ومستشرف.

• **وأن تكون المجموعة قد تجاوزت حد المراهقة ونضجت مرحلتها.**

• **مع وجود قدوات ودعاة قدماء من أهل الدين والتأني والحكمة،** ليعجلوا الرد على واهم يحرف الحوار إلى تحديات، ولكي يكون ثمّ حياء منهم يحفظ الجميع في دائرة الهدوء.

• **أن لا يكون ثَمّ إكثار من الحوار على حساب العمل،** فتغلب علينا صنعة الكلام والتمني والخيال والتحليق وراء الواقع، وكل إفراط شين، والعياذ بالله من علم لا ينفع.

فإذا توفرت هذه الشروط : كان تعليم صنعة النقد مصدر خير إن شاء الله، إذ ليس من قلّد في كلامه و آرائه كمن استقل ووَصَفَ من بعد معاناة وتجربة واستفزاز لمكنون الأفكار عبر حوار.

وإذا وصفْتَ الشيءَ متّبعاً لم تخلُ من زللٍ ومن وهمِ

ومن كلامي الذي لم يُنشر :

إن (الانحراف في فهم وظيفة النقد هو أحد أكثر وجوه الخطأ في فهم سَنَن الحياة والتاريخ، وأبلغها نأياً عن المنهجية وعن التأثير في عالم الواقع، ولا يملك مرتكب هذا الخطأ غير المراقبة المتشائمة السلبية العاجزة عن تقليل الشر أو تكثيف الخير، ولو أنصف المتأسفون أنفسهم لرأوا في جريان القدر الذي **تعرضت** له الجماعة حكمة مرافقة هي واضحة ليست خفية.

ونحن أبرياء من بدعة الاستسلام للقدر، ولنا وعي يدعونا إلى مصارعة القدر **بالقدر،** ولكننا ندعوا المتشائم إلى الاعتراف معنا بأن محاولات الأمس لم يكن سندها نضوج الكفايات الإسلامية بوفرة تماثل الحاجة، وأننا **كنا نحاول أمراً صعباً معقداً برجال دون دربة شاملة**).

(وهذا المقدار من القول هو تجربة مستفادة ووعي حادث مستجد لاحق، ليس لنا أن نلزم جيل الأمس بمنطق اكتسبناه اليوم.

أن التبدلات السياسية والفكرية العامة هي بمنزلة المنعطفات الرئيسة في الحياة، ولن يختصر لها الزمان، وإنما تعتمد على عملية نضوج متسلسل هو إلى الإبطاء

أقـرب، ولن تستطيع الفكاك من التدرج والتتابع والانتظار، فإن التبدل هو من الأُمور ذات البال، ولن يفرض التطور نفسه في الساحة دفعة واحدة وكتلة صماء، ولكنه يتجزأ إلى أجزاء، وتنقسم مقدماته، فتكون محاولات التنمية والتكميل، والتفافات التفتيش عن البدائل.

وإذن، فإن المرحلة السابقة لم تكن هدراً لتبدي أسفك، بل لعملك جذور وأُصول متمثلة في تلك المرحلة، ولن تستطيع أن تنطلق من نقطة جديدة، وإنما تلك الانطلاقة الأُولى منذ العشرينات هي البداية، وقد صالت وجالت في ميدان التطور والتكيف، وتلزمك مثل تلك الجولات إذا استأنفتَ، وكما أنك ابن أبيك صدقاً فإنك أخو الرعيل السابق حقاً، وإليهم تنتسب، شئت أم أبيت، وقد نضج اليوم دعاة كثير عددهم، فاصعد عالياً في بنائك راسياً على أساس الأمس الوطيد، داعياً رباً رحيماً أن يغفر لك ولإخوانك الذين سبقوك بالإيمان، بلسان فصيح، فإنهم قد علموك الفصاحة.).

بعض دعاة الإسلام من المربين، وبعض قادة الدعوة : يستبد بهم اليأس حين يتعاملون مع حالة فتور عام في أتباعهم، وتسرع إليهم ردة فعل من إبطاء الضعاف، أو قلة بذل أصحاب القدمين، الذين يسيرون بقدم إلى الآخرة، ويجيزون لأنفسهم أن تظل القدم الأُخرى بين حطام الدنيا.

هؤلاء القادة الجافلون، وفي حالة من الذهول عن حقائق الحياة التي فطر الله الناس عليها، والنسيان لقسمة الله أرزاق ومقادير العقول والهمم وحركات القلوب كقسمته أرزاق المال : **يستسهلون انتهاج نهج التشدد في عضوية الجماعة الدعوية، ويبدأون يبشرون بمناقب جماعة خفية، يسرح بهم الخيال إلى الظن بأن في تكوينها الحل لأنواع الأزمات وأشكال النقص، عماد تكوينها: العباقرة، والأشداء الأذكياء، وأصحاب الجلد وكثرة العطاء، وأقوياء الشخصية، وأهل الصبر، ومن فيهم نزعة المبادأة والمبادرة والريادة واكتشاف الجديد واقتحام الخطر. وأما الضعاف، والأقل ذكاء، والابطأ انغماساً في يوميات النشاط، وأهل العرج ولهث الربو، والذين ينظرون من طرف خفي أو جلي إلى بعض المتاع : فمكانهم عند هؤلاء القادة : الواجهات، والجماعات الإسلامية الأُخرى، ومؤسسات نبتدعها، وحسبنا أن نوزع الصفوة الأقوياء الذين معنا على هذه الواجهات والجماعات والمؤسسات، يشاركون في إدارتها، ويقربونها من مفاهيمنا وطرائقنا وأهدافنا، بحيث ينتج من عمل الجميع نسق عام يخدم مصلحة الإسلام في البلد، من دون كشف ارتباط أفراد الصفوة هؤلاء في جماعة مركزية واحدة، وإنما يخفون حقيقتهم على طول المدى.**

وهذا النوع من التفكير التخطيطي فيه استهواء، وبريق يغري بعض المستعجلين، فيهيمون غراماً بتكوين مثل هذه الجماعة المركزية المستترة، ويلتصق حلم تكوينها بشغاف قلوبهم، حتى ليظنون أن ما هم عليه هو مفاد الوعي إذا أستتم، وترجمة معنى التطور إذا استوى، وأنه خلاصة التجريب، وآية النضوج. لكن ما وراء ذلك من التحليل المتأني يُبدي خطورة هذا التوجه، ويبدي احتمالات كبيرة لأنواع من المشاكل التربوية والنفسية والعملية، بل ينال الفكر فيطعنه ويثلمه، بل يطال موازين

الإيمان والفطرة، فيعطلها، وأقل ما فيه أنه عدول عن طريقة الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله وأعراف الإخوان المتوارثة، ولسنا نقول بعصمة الإمام، ولا بأن الشكل التنظيمي والمنهج التربوي والفكر الدعوي إذ سنها الإمام وطورها خلفاؤه أضحت نهاية التخطيط وخاتمة الفهم، وإنما نحن نؤمن بالتطوير، وعدم تقديس الشكل التنظيمي، لكنا نلحظ كلما تقدم بنا العمر وتعمقت تجاربنا الميدانية وأطلنا التأمل و وازنًا النتائج وسرنا في الآفاق العربية والأعجمية : أن الإمام البنا رحمه الله لم يصدر فحسب عن اجتهاد وفهم جزل سليم في رؤية أبعاد الدعوة وشمولها، ثم في بنائه لها ونشرها، وإنما صدر عن إلهام رباني أيضاً، فألهمه الله تعالى الصواب إلهاماً، **فجمع بين المثقف والأمي، والصغير والكبير، والحضري والبدوي، والشجاع والمتهيب، والذكي والبطيء، والقوي والضعيف، والغني والفقير، والمتجرد والمخلط، رجالاً ونساء، وجعلهم كلهم كتلة مندمجة في جماعة واحدة تحاول تقديم النموذج الإسلامي النظري والعملي معاً، وأن تقترب منه ما استطاعت، سافرة معلنة عن نفسها،** إلا ما تقضيه ضرورات الابتداء والتأسيس الأول، أو بعض الظروف القاسية الشديدة الشاذة، وقد انعقد إجماع قادة الإخوان في الآفاق على انتهاج هذا النمط، وجعلوه عنواناً للصواب، ولقنه السابق لكل لاحق، في توارث تؤدي إليه القناعات عبر منهج تربوي متكامل، سهل على مطبقيه ـ بإذن الله ـ تخريج أخ في نواكشوط بموريتانيا غرباً، هو نسخة طبق الأصل من آخر في مدينة مراوي بالفلبين شرقاً، أو داعية في تترستان بروسيا هو شقيق ثانٍ في موزمبيق بأفريقيا، والذين بين هذه الآفاق الأربعة كلهم كذلك سواء.

نحن لا ننفي صواب الانبثاث في الأحزاب والجماعات الأُخرى ، وفي المؤسسات ومرافق الدولة والمجتمع، ومحاولة إصلاحها بمعاني الإسلام كلها وترشيدها بحسب الاستطاعة وتقريبها من التعاون، وتوحيد مفاهيم أهلها والتنسيق بين أهدافها، وإحلال التكامل وتقاسم الأدوار بينها، بل هذا أصل من أصول التخطيط السليم، ومَعلم من معالم الوعي والنضوج القيادي الذي يفترض فيه ترك الإنعزال، واطراح المشاعر السلبية، من اعتقاد الفوقية والتميز، أو دعوى احتكار الصواب، أو الشهادة على مسلم بجنة أو نار، وإنما تقديم النصح وبذله لأئمة المسلمين وعامتهم.

لكن هذا الجهد في التوعية والتنسيق يجب أن تقوم به جماعة مركزية واضحة معلنة، تمثل الدعوة بمفهومنا، حيث يراها البدوي، والفلاح في القرية النائية، وصياد السمك على شاطئ البحر، كما يراها الأُستاذ الجامعي، والمحامي،

والمهندس، والطبيب، والتاجر، كما يراها الناشئ المراهق، كما يراها الملك والرئيس والوزير وضابط الجيش والشرطة، فتكون في انتصابها السامق أُسوة، وحقيقة معنوية مجسدة، وشاهد عصر، ورقيب جيل، تأمر بالمعروف والإيمان والمصالح والعزة والوحدة والنجدة، وتنهى عن المنكر والفساد والفحشاء والبدعة والهزيمة، وتصدع بأذان الجهاد في كل واد تنطلق منه صرخة مستضعف.

هذا هو الأصل الذي ألفينا عليه إخواننا القدماء، والرعيل الأول، وقد أخذوا بكفوفنا، وربطوا كل معنى بإصبع، ثم ثنوه : إعلاماً بانعقاد الفهم والعرف وقبول الإرث والتزام العهد، وبذلك نؤمن، وللوفاء نسعى، وكل تجاوز لهذا الإعلان يجعلنا نواجه عشرين نوعاً من السلب والضرر وتعطيل الطاقات، بل والانحراف ربما إذا طال زمن الاختفاء.

ومجموع ما سنسرد من التحليل والتسبيب يشكل درساً تاماً في بيان الارتباط بين الشكل التنظيمي والتخطيط التربوي، ويكشف عن علاقة متبادلة بينهما وتأثير متقابل، ويه ومن خلاله سنعرف خيراً خفياً من أخبار منهجية التربية الدعوية، يقنعنا بضرورة فحص الخطط كلها، تنظيمية أو سياسية أو اجتماعية، وأن نمنع الجزاف والذهاب مع الهواجس أو الاقتباس غير الواعي من خطط الآخرين، إذ الحياة كلها واحدة مجتمعة، إن تنوعت فروعها فإن قاعدة سفلى مشتركة تربط بينها تخضعها لظاهرة الاستطراق الفيزياوية وتجعل التأثير المتبادل حتماً مقضياً، لأن أساس حركات الحياة هو التعامل مع النفوس، والنفوس حساسة شفافة، لامّة وناشرة، تمتص كما تعكس، وتشَتّت كما تبلور، ويختلف الأداء بحسب النقاء أو الإعتام، والتحدب أو السواء، لتنتج من كل ذلك أحوال تربوية كثيرة جداً في عددها، لكل حالة منها فتواها الخاصة، وتكون الحاجة إلى النسبية في فهمها وتقدير نتائجها حاجة مؤكدة.

❑ فأول خبر رفض المبالغة في الاصطفاء والذهاب بعيداً في الاختفاء : ما عليه الدعوة من الفكر الشمولي الذي وفق له الإمام حسن البنا رحمه الله توفيقاً، وبين عنوانه في أول الأصول العشرين، حتى أن حركات إسلامية مازالت تؤسس بعد أكثر من سبعين سنة من صدعه بالشمول تعجز عن أن تواكب شموله وتفهمه، وتظل قاصرة، أُحادية الفهم والهدف، أو ثنائية، فتكون سياسية فقط، أو تربوية فقط، أو تعبدية فقط، وفكرنا الشامل لا يجسده ولا يعبر عنه إلا تنظيم متنوع القدرات والطاقات يستطيع ترجمة الشمول في عالم الواقع إذا أُتيحت له الفرصة وانفتحت

ميادين التنافس الحر من خلال عدد كثيف من الدعاة مؤهل لأداء الواجبات المتنوعة التي يتطلبها الشمول، **أما الواجهات فإنها أعجز عن أن توفر هذا الشمول التعليمي التدريبي التربوي القادر على تنفيذ عملية تكامل في الأداء، بسبب منهجها القاصر،** كما أن تنظيم الصفوة المركزي يهب أعداداً من الثقات أصحاب الكفاية أقل مما يلزم لتنفيذ الإصلاح الشامل أو التغيير الشامل، وبذلك نواجه أحد الإشكالين، ووضع كهذا ليس له من حل آنذاك غير تطوير إحدى الواجهات لتقدم فكراً شاملاً وأساليب تنفيذ شاملة، وهذا رجوع إلى نقطة البداية، والتفاف مرهق من غير حاجة إليه، بل إلغاء لمغزى الواجهات، إذ انعقدت أعراف الدعاة على أن الواجهة كيان صيغ ليكون ناقصاً أو أحادي الهدف والوسيلة، ويكمن خلفها تخطيط عمدي يصر على القصور، لا اعتقاداً بجدوى القصور، ولكن لتناسب هذه الواجهة أفراداً من الناس هم أعجز عن تناول الشمول وتصوره وتمثيله، فيرضون بنصف أو ثلث أو ربع، بل وعشر، ونرضى منهم ذلك، فنخترع لهم الإطار الجامع. أو يكون أفراد غيرهم غلب وهمهم الحقائق، إلا قليلاً من صواب أدركوه يوافق ما نحن عليه، فيكون هذا القليل قاسماً مشتركاً بيننا وبينهم، ونرضى خيرهم القليل، لأننا نستطيع عبر الفنون التنظيمية أن نجعله يتكامل مع قليل آخر من نوع آخر، ثم مع آخر، ليتقوى جانب الشمول الذي تقدمه الجماعة المركزية، وفي ذلك حديث تفصيلي ليست هذه مناسبته، وإنما أردنا الإشارة إلى أن الواجهات لا تطالب بشمول أصلاً، وإلا لبطل مسوغ إبرازها واستمرارها، فإذا اقترنت هذه الحقيقة بوجود تنظيم مركزي نخبوي اصطفائي متشدد الشروط : قلت أعداد ممثلي الشمول في الميدان، بحيث لا يتم بهم إصلاح عريض، أو تغيير شامل، لأن الجماعة المركزية هي المحضن الوحيد الذي يستطيع أن يقدم تربية وتدريباً ترتقي بهما مستويات الناقصين المنضمين إليها عبر منهجية ذات مراحل متتابعة، وصبر على تسويف المسوفين، ومداراة رفيقة تأخذ بالأيدي، فتنتشل من وهدات الكسل، وتعين على جلاء الشبهات والأوهام عبر حوار ومنطق وإقناع، ولك أن تتأمل حال حكومة الإنقاذ الإسلامية وأزمتها المتمثلة بوضوح في قلة العناصر المؤهلة لاحتلال المراكز القيادية في الدولة أو أدوات السيطرة، كالإعلام والنشاط الاقتصادي والعمل المؤسسي والمشاركة المعرفية الحضارية. فهذا إن حدث في السودان الذي اختطت الحركة الإسلامية فيه خطة العلن بأوسع مداها، وتوسعت في العمل الجبهوي المفتوح، فكيف بما يمكن أن يحدث في بلاد أُخرى تختط خطة الخفاء وانتقاء الأشداء فقط ؟ لا شك أن الأزمة ستكون أعمق، أو : يستعان بمجموعة ليس بينهم تجانس، ولا يوحدهم فهم مشترك، يلتقطون من مختلف الواجهات

والمجموعات والأحزاب الإسلامية. نعم، هم مسلمون، والقاسم المشترك موجود، ولكن ما وراء ذلك من تباين الاجتهاد يُلغم الميدان باحتمالات الخلاف والتناطح والتعصب للأسماء والمجاميع، وليس من حركة تنفي هذه الاحتمالات السيئة بهيبتها المستمدة من رسوخ أعرافها وسعة انتشارها وصفاء فكرها وثقلها الميداني الذي يمنع الهواجس ابتداء أن تجد لها محلاً في نفوس الأقران المتنافسين مهما استظلوا بمظلة الإسلام العامة الواسعة إذا لم يكن ثم تخصيص من بعد التعميم، ولم يكن انتقال إلى أساليب وطرائق عمل واحدة وليس إلى فكر واحد فحسب.

❑ **ومن خبر الرفض أيضاً : أن من واجب الدعوة : تقديم صورة نموذجية للعمل الإسلامي يراها الناس لتكون الميزان وأداة القياس التي يقيس الناس بها غيرنا ممن هم في الساحة، فيقارنون بين المثال الكامل الذي نقدمه، والقطع الناقص الذي يستسهله غيرنا،** ثم أيضاً : ليرى هذا النموذج أُناس لا نستطيع أن نصل لهم مباشرة أو أن نخاطبهم وجهاً لوجه، فينوب منظر الجماعة الشاخصة وفكرها المعلن المنسوب لها صراحة عن اللقاء الفردي والمجالسة، فتتحرك فيهم معاني الإنصاف المركوز في الفطر السليمة، فيأتوننا ناصرين متبعين مصافحين. ثم أيضاً : ليكون العمل الشاخص الواضح غير المحجوب داحضاً لكل افتراء وتشويش وكذب واتهام يلجأ إليه عدو أو حاسد جاهل. وأيضاً : ليرسخ الاسم المعلن للجماعة فتكون له مع الأيام قيمة معنوية مرتبطة ببطولات أسلفها دعاتنا، ومواقف ثبات، وبذل، وجهاد، ومناقب كثيرة متنوعة، فيزداد الداعية إيماناً بصواب ما هو عليه، ويلتصق القريب، ويرجع الشارد.

كل هذا العطاء الإيجابي يتوفر لنا من خلال الجماعة المركزية المعلنة، أما التواري وإنابة الواجهات : فيمنع هذا العطاء المتعدد الأوجه، ويمنح الواجهات هذه المزايا، فتنمو على حساب الأصل الذي قدمنا في السبب الأول أنه الأحرى والأحق، في الحين الذي لا نستطيع فيه التوجيه الكامل للواجهات والأحزاب الأخرى التي نعينها بدعاتنا المبثوثين فيها، وتبقى صورتها دون النموذجية المبتغاة، وتلبث دون سيطرة رقابتنا العاصمة من الهفوات والإغراب والمواقف الهشة أو التهورات المعكرة لصفاء الوقت.

بل يكمن خطر أكبر محتمل جداً، يأتي في صورة مبادرة بعض أصحاب الإحساس الفطري السليم من قادة الجماعات الأخرى إلى تمثيل الصورة النموذجية وادعائها وتقديمها إلى الناس بدلاً عنا، وسينافسونا على حيازة جمهورنا المناصر

لـنا، فـي الحين الذي تقصر بهم أفكارهم وأساليبهم عن توفير متطلبات هذا المثال النموذجـي، فـيدعونه إذ هـو نـاقص، فـيكون الضـرر المـتولد فـي الناس المراقبين للحـركات الإسـلامية ضـرراً كبـيراً، يأتـي فـي صـورة إحباط أو ضعف ثقة أو نقد جـارح، وربما يكون دفاع هؤلاء الدعاة عن أنفسهم إزاء ظنون الناس الباطلة مقترناً بغضـب واتهـام مقـابل للـناس، فيـنفر عامة المسلمين نتيجة ذلك، **وتحاصر الحركة الإسـلامية حصـاراً اجتماعـياً قبل أن يكون حصاراً حكومياً سياسياً أمنياً**، وما ذاك إلا لضـعف الأنـاة عـند هؤلاء الدعاة، وقلة صبرهم على ظن السوء وكلام التخذيل الـرديء الـذي ابتلي به العوام، وهو الصبر الذي نمهر فيه نحن أهل الشمول، ودربنا أنفسـنا علـيه تدريـباً، بالـتحالم وقهـر هوى النفس، ثم رسخته فينا المحن المتكررة والسـجون الطويلة والظلم المؤلم، بل بالغنا في ذلك حتى أصبح من نشيدنا المسلي لقلوبنا أن : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

❑ **ومـن أسـباب الـرفض كذلـك : أن هـذا الـتوجه يأتـي مناقضـاً لنجاح دعوتنا الشـمولية فـي الوصـول إلـى امتداد عالمي كامل تحت قيادة واحدة**، وهو أمر ثقيل فـي مـيزان العمل العلماني، بله في ميزان العمل الدعوي الإسلامي، ومن ثمرات هذه العالمـية أن التناصر صار أقوى، والتكافل أعمق. ويقترن وجود أي جزء من أجزاء الحـركة فـي أي بلد بهيبة تردع الظالم أن يسرف في ظلمه، كما تتاح عبر العالمية الاسـتفادة مـن الـتجارب، والـرأي الاستشـاري، وتبادل الخبرات والمهارات، والرفد بالمال والرجال، في أشكال أُخرى كثيرة من أشكال المنافع، إضافة إلى الثقة التي تـنغرس فـي نفـس كل داعية ناشئ جديد أو مؤيد محب حين يعلم أن الحركة التي ينتسـب لهـا ويـراها فـي نشاطها اليومي إنما هي جزء محلي من كلٍ عالمي ممتد، فيطمئـن قلـبه، ويبدأ يدرك أنه يتعامل مع حركة لا كبقية الحركات، وإنما هو أمام حقيقة عظيمة، فيستأسر، وتجره الجاذبية العارمة.

إن الـنمط النخـبوي المسـتخفي لا ينسـجم مـع هـذا العطـاء العالمـي الوافـر الخيرات، وفـي هـذا الـنمط تخلـف عـن توظـيف هذا العطاء محلياً لصالحه، لأن المسـاررة تمنع إمكانية الانتساب إلى العالمية وادعاء بنوتها، وسوف لن يعرف صلة القربى هذه إلا من ينصت لشرح خاص في مجلس مغلق، وقليل ما هم، إذ لا يمكن اسـتخدام الوسائل الإعلامية في الفخر بالعالمية، لان ذلك ينافي ما اختارته الصفوة مـن الاخـتفاء والـتواري، **وبذلـك تتضـح المفارقة الغريبة في هذا التوجه المتجاهل لعصـر العالمـية**، وينكشـف التضاد الذي لم يقصده هؤلاء الإخوة الذين بالغوا، إذا مـا ثـم إلا نظـر تخطيطـي قصـر بـه التقلـيد والإقتـباس الجـزاف فـي موطن يحتاج

الاجتهاد، وأول هذا الاجتهاد : إدراك البُعد العالمي، والتجانس معه، والتحرك في إطاره، والتمتع بعطائه السخي.

❑ **ومن منطق الرفض أيضاً** : أن العمل النخبوي ربما كان صحيحاً قبل نصف قرن، حيث كان ثقل المحن الشديدة يرهقنا في كثير من البلاد، وحيث لم يكن العمل الدعوي قد تطور بما فيه الكفاية، وأما إذ نحن نعيش نهاية الربع الأول من القرن الخامس عشر للهجرة الشريفة، وبداية القرن الحادي والعشرين، **فإن المبالغة في الإصطفاء تأتي متناقضة مع القفزات التطويرية التي حققتها الدعوة بحمد الله تعالى في معظم الأقطار، بحيث أصبحت أقرب بإذن الله إلى التمكين أو المشاركة في القرار السياسي، مما يستدعي ظهوراً من ناحية، وتواجداً معلناً في الميدان، لنقود جمهور الصحوة الإسلامية قيادة** مباشرة تجني ثمرات بذلنا المتدرج المتواصل الطويل الذي أنضجته البركة الربانية بعد استكماله لشروط المراحل التخطيطية المتتابعة وعبوره الناجح لعقبات التأسيس ثم الانفتاح ثم التوغل والإنبثاث والإنتشار. ثم من ناحية أخرى : يتيح أن نري المؤيد والعدو معاً من أنفسنا قوة، تشجع الأول، وتردع الثاني عن تحديث نفسه برجوع إلى الوراء يمارس معه البطش الأرعن والإرهاب الأمني الفاشل الذي بدأ ينقرض بعدما ثبت فشله في حصار العمل الإسلامي وأدى إلى صحوة ضاعفت وجودنا وقوتنا أضعافاً .

ليس هذا مكان الحديث عن معالم تطور الدعوة والمكتسبات التي تحققت في كل مرحلة، إذ خصصنا لذلك كتاباً خاصاً، ولكنا نحب الإشارة العامة إلى أن التسلسل المنطقي لخطوات التقدم الدعوي قد وضعنا اليوم في المرحلة قبل الأخيرة، وقد حققت الدعوة بحمد الله ثورة فكرية، وتوعية جماهيرية، وخبرات تخصصية. كما أذكت روح الجهاد، واستفادت من أعمال العلماء الذين قدموا جهوداً فردية أحيت المخطوطات العربية ونقلت العلم الشرعي نقلة واسعة ونشرته في الآفاق حتى دخل مقدار منه كل بيت مسلم. كما استفادت من جهد أفراد آخرين أتاحوا للاقتصاد الإسلامي غير الربوي أن يحتل موضع قدم بعد عدم. كما تأقلمت مع طابع العصر في العمل المؤسسي، وسخرت الأشرطة السمعية والمرئية والكمبيوتر والانترنيت لخدمة الغرض الدعوي، ونتج من كل ذلك تطور نوعي لا يليق أن تستلمه أياد رخوة في الواجهات، ولا أن تحتفل به آمال عائمة غير راكزة تحملها الجماعات التي لم يعركها ويفركها الشمول، وإنما يجب أن يكون هذا الاستلام والاحتفال من قبل الصفوة نفسها، بالاسم الدعوي القديم الراسخ أو باسم معلن على الأقل، وتخلف أحد هذين الشرطين يهدر الاستفادة الحقيقية من معطيات هذا

التطور، ويتحول إلى مجرد مداعبات شعورية، ودغدغات عاطفية، لا تؤثر في الواقع. وإحالة هذا الواجب في الاستفادة إلى نفس الصفوة يؤدونه باسم واجهة محدودة أو جماعة ناقصة يجعل أحد الشرطين غائباً، ويتقلص النجاح.

☐ **ومن حجج الرفض أيضاً : ضعف منتظر في الأداء التنفيذي داخل مجموعة الصفوة، لغياب التكامل في نوعيات العاملين،** وهذه الالتفاتة تحتاج تأملاً عميقاً في طبيعة النفس البشرية، وطبيعة تكون المجتمعات، وطبيعة حركة الحياة، والشرح لكل ذلك يطول، وليس هذا سياقه، وإنما نشير إشارة عامة إلى المغزى العظيم في قول الشرع : كل ميسر لما خلق له، فهذه حقيقة كبيرة من حقائق الحياة إذ تجاوزها الدعاة اضطربت أحوالهم. ذلك أن العمل الدعوي الشامل الكامل كثير الأجزاء والأنواع والمفردات، وأكثر من نصفه له **طبيعة تنفيذية لا تحتاج الذكاء الخارق ولا الجلادة والقوة،** وإنما يؤديها دعاة أقرب إلى السذاجة ربما، وبعفوية مسترسلة يقودها الإيمان الفطري البسيط، وفي أدائهم إحسان وتجويد وإتقان ليس من السهل أن يكون على مثله الذكي القوي الشجاع، بل ربما **تعجز النخبة عن هذا الأداء، إذ لم تخلق له،** وإنما خلق أولئك، ليزدادوا أجراً، ولئلا يحتكر الأذكياء وأهل الدثور الدرجات عند الله، فجعل الله تعالى لكل صنف دوراً هم أليق له وأنسب، فإذا انعزل كل عفريت من الأنس مع أمثاله في نادي العباقرة : فمن ينفذ هذه الحلقات المكملة في سلسلة الأعمال الدعوية ؟

كلا ، بل للعنصر المحدود مكانته، ويجب أن يقف بجانب المبدع، وجدار الدعوة فيه طابوق من ذهب، ومن فضة، ومن نحاس، ومن حديد، وفيه قوارير، وقصر الذهب قد تميعه وتسيله الحرارة الشديدة رغم كونه أثقل من الحديد أربع مرات، لا يحتمل الحرارة فيذوب، كما أن قلعة الحديد الصلدة تفتقد البريق واللمعان والجمال، وإنما قامت الفنون على مذهب تجانس الألوان وتعددها وتدرجها، وكذا تقوم الحياة على اجتماع درجات الناس.

يصطف عندنا في الجماعة المركزية الظاهرة : الفلاح بجنب الطبيب، والعامل بجنب المهندس، والطالب مع الأستاذ، والمرأة خلف الرجل، والذكي أمام المحدود، والشجاع يصافح المتردد، والقوي يدفع الضعيف، والمسرع يسحب المبطىء، إذ كل ميسر لما خلق له، لكن البديهيات تغيب أحيانا، ويذهل العباقرة عن أسرار جريان القدر الرباني وطرائق وروده، وفي تاريخنا الخاص والتاريخ الإسلامي العام قصص عجيبة وأحداث غريبة تكشف روعة توزع الأقدار والأدوار،

وفيها موعظة تنهى عن الزهد بانضمام الأشعث الأغبر ذي الطمرين، وترحب بمن يتقن حرفين، وأما ما سلف من الحرص على كل ذي قوة في الشخصية ذكي، في المنطلق والمسار أو في هذا الكتاب، فإنما هو تفضيل لا نجادل فيه، ويُفهم بالحسنى، أو هو وصية مرحلية عند التأسيس، لما فيه من أهوال، وأما ما بعد ذلك فإن باب الدعوة مفتوح لكل من أقبل بإخلاص، وكم من دعاة في آخر الصفوف لا يفتقدهم أحد إن غابوا : قدموا خدمات دعوية متنوعة، وسطروا قصص شجاعة، وإذا خلصت النوايا : بورك في أعمال أصحابها، ولا يعرف هذه الحروف من كتاب الإيمان ومدونة القدر وسفر البَرَكة غير منغمس في البُركة، بُركة البذل الدعوي .

❑ **وفي سياق المنطق الرافض : يبرز ضعف التكامل التربوي كمظهر سلبي آخر من سلبيات التنظيم المحدود المصطفى. ذلك أن تجارب الأيام أقنعتنا بأن الآثار التربوية لا يقدمها المنهج التربوي فقط، وإنما تقدمها أيضاً : المعيشة المشتركة في المجتمع الدعوي الواسع،** إذ هناك تأثير متبادل بين كل داعية والدعاة الآخرين، هو يؤثر فيهم بمنظره ومخبره وقوله، وهم يؤثرون فيه بالمقابل. ومن المظاهر الغريبة في الحياة : أن الأمي، والأقل ذكاء، وأصحاب المهن الشاقة : يكونون في الأغلب أقرب إلى الصفاء والإخلاص والتواضع والبذل والنجدة وأخلاق المروءة من جيل المثقفين وأصحاب المهن الرفيعة وأهل الأموال، فينتصب أولئك قدوات لهؤلاء في هذه الخصال الحميدة عبر الاختلاط اليومي والاحتكاك المباشر والعيش المشترك. لكن الطائفة الثانية تقدم للأولى وعياً وفكراً هي أمهر فيهما، وتخطيطاً، ونظراً استراتيجياً، ورؤية مستقبلية، وهذا من التوزيع القدري الرباني لأنواع الكفايات كما وزع أرزاق المال، وهو من أصداء الاستعاذة العمرية من جلد الفاجر وعجز الثقة.

كما أن الشباب أكثر جدية وفورة وحيوية وحماسة من جيل الشيوخ، وتسري حرارتهم إلى جميع أفراد الجماعة، بينما يبذل الشيوخ حكمة وأناة وحلماً وتقديرات واقعية وإهابة بدرس كل شأن بروية قبل الإقدام عليه، فتتعادل الأمور داخل الجماعة، وتنتج من ذلك تربية نفسية متعادلة متوازنة.

كما أن القروي والبدوي يمثلان الوفاء والكرم ويجسدان معاني الفطرة السليمة وبراءة القلب من الدغل وظنون السوء، في الحين الذي يُقدم أبناء المدن الأنماط

المدنية والحضارية، واستخدام المخترعات الحديثة، ويؤصلون لمعاني الإدارة والمنهجية.

وكل هذا العطاء المتقابل يحرسه علم الشرع الذي يصدع به العلماء من الدعاة، وتنتج من كل هذه الموارد المتباينة حقيقة تربوية عظيمة المقدار تعدل في حجمها حصيلة المنهج التربوي أو تفوقه، وبها يظهر معنى التكامل التربوي الذي بشرنا به، لكن التواري والاقتصار على النخبة يكاد يعدم هذا العطاء المتكامل ويستبدله بتربية أُحادية الوصف، ربما تحقق مداً في الوعي والفكر والتخطيط وأعمال العقول، لكن يعكر عليها جزر في العاطفة والروحانية وأعمال القلوب.

بل خذوه قولاً صريحاً صادقاً ليس للجزاف فيه نصيب : أن الطبقة القيادية العليا نفسها محتاجة إلى هذه التأثيرات الإيجابية الصاعدة إليها من طبقات الأتباع الدنيا، بل من جدد ما زالوا يرضعون الوعي في حلقات الابتداء، لأن القادة بشر، ويعتري قلوبهم التقلب، ويوسوس لهم الشيطان، وربما يلينون لضغوط الأيام أو إغرائها ولابد لهم من هذه المعيشة الجماعية لتدوم جذوتهم متقدة، وتظل قلوبهم مخبتة وأفئدتهم أبعد عن اليبوس.

❑ ومن جدل الرفض : أن الدعوة مكلفة بتقديم قيادات عالية المستوى إلى الجمهور ليتم الإقتداء، وليتحلق الأخيار حول الزعامة وتحت الراية المرئية الخافقة في الساحة، فإذا كان هؤلاء القادة مختفون فإن هذه العملية الجماهيرية ستضطرب وتضعف جداً.

والذي وجدنا عليه الدعوة في تاريخها المبارك : أن قادتها انتصبوا قادة لجمهور المسلمين كما انتصبوا قادة لخاصة الأعوان، وأعلنوا عن أنفسهم، وخطبوا، وألفوا، ونزلوا إلى الشارع، وصعدوا المنابر، وجابوا الآفاق، وعقدوا المؤتمرات، ودخلوا على الحكام واعظين، وكل ذلك باسمهم الصريح ولقبهم الدعوي. وأول من فعل ذلك : المؤسس الإمام حسن البنا رحمه الله، وحذا حذوه السباعي في سوريا، والصواف في العراق، وعلي طالب الله في السودان، رحمهم الله، ومحمد عبد الرحمن خليفة في الأردن، مد الله في عمره. ثم سار خلفاء الإمام بسيرته، وقاد الأستاذ الهضيبي رحمه الله الجماعة علانية، ثم الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله. ولنا درس شاهد في مزايا ظهور الأُستاذ محفوظ النحناح صادعاً بالثوابت، ونزول الأستاذ عبد المجيد ذنيبات إلى الشارع يمنع التطبيع،

وتبشير الأُستاذ فتحي يكن بالأفكار، فهل يصح أن تكون الدعوة في بلاد أخرى يتيمة لا أب لها يفخر بها ويتغنى بمحاسنها ؟

نحن لا نقول أن حركة التاريخ تسببها الزعامات الملهمة فقط، التي تتمتع بجاذبية تؤهلها للقبول الواسع لدى الناس، والذي نعتقده أن التحولات الكبيرة تصنعها عوامل كثيرة، لكن وجود الزعامة المتقدمة للصفوف، الحاضرة في كل المشاهد، الهاتفة بالحق الصريح : هو من أعظم وأهم هذه العوامل، ويصح في فقهنا الدعوي أن تختفي هذه القيادة، ولكن عند التأسيس، بسبب أمني، ولتحاشي سلبيات أخرى، أو تغيب نفسها أيام الشدائد، أو أن يوجد في بلدها حاكم جبار من ذرية فرعون، وأما حيث تكون الأجواء الحرة : فإن الأصل الظهور، والتوسع في التجميع، وقبولٍ جميع المسلمين في الصف، قويهم وضعيفهم، من أجل أن نحشد حشداً عددياً كبيراً هو لازم لعمليات صعودنا في البلاد التي تنتهج النهج الديمقراطي بخاصة، حيث يكون ضعيفنا الساذج المتواضع إذا نطق بمعاني الدعوة : خير وأعزٍ وأكفأ وأطهر وأفصح من ألف علماني في الساحة وهبت الدعاية لأحدهم بريقاً، وسريرته داكنة، وضخمت وسائل الإعلام صورته، وحقيقته جوفاء.

❑ **وسبب آخر للرفض يشهد به التعقيد النفسي الذي يلوث عملية تبعية القياديين المبثوثين في الواجهات والأحزاب الأخرى والمؤسسات لقيادة مركزية خفية.** وينتج هذا الخلل في النفس بخاصة إذا تطور التابع، وتوسع في عمله، ونجح في استقطاب عدد كبير حوله، أو أنجز نتائج تسجل في عداد المناقب والمآثر المميزة، فإن الزهو سيكون قريباً منه جداً آنذاك، وتظهر في لغته كلمة أنا، ورطانة تنافي لهجة المؤمنين، فيحاول الاستقلال عن الأصل، ويسهل عليه قطع الجذر الأسفل إذا رأى الثمرات عالية، فتموت شجرته في الموسم القابل، ويكون قد خسر نفسه وخسرناه. ولم يجرؤ مثل هذا على الاستقلال إلا بسبب أن سمعة القيادة المركزية لم تتطور بموازاة تطوره هو لتكون مهابة مطاعة مسيطرة، وإنما أبعدها الاختفاء عن أن تملأ أعين الدعاة والناس، وأن تنسب لها المنجزات، أو تكون شريكة فيها على الأقل. وتظل الأيام والمواسم تنحت من ذكرها، حتى يضمحل، وتستروح لذلك ربما، تواضعاً أو بتأويل آخر، حتى تتخدر، فتأخذها سِنة، فيصبح الواجهي والحزبي والمؤسسي صيحات مركوزة في أعماق رؤوسهم من يوم اشتهروا، فتجفل القيادة الغائبة جفلة الغافل أو النائم إذا انفجرت بجانبه قنبلة، فتحاول الاستدراك والأمر والنهي والنقض والإبرام بتعجل، فلا تجد لها مصدقاً، أو بها مؤمناً، ولات حين ترميم.

ينبغي أن لا تذهب بنا المثاليات والرمزيات بعيداً، وأن نوقن أننا في محاولتنا الدعوية إنما نحاول أمراً صعباً لا يمكن الجزم بالضمانات فيه، لأننا نتعامل مع نفوس بشرية، والشيطان حي، فنحن نحسن الظن بالدعاة، وبهذا أمرنا الشرع، ونوزع الدعاة على ثغور الدعوة ونمنحهم الألقاب التنظيمية تغليباً لهذا الظن الحسن، وتفاؤلاً وتجريباً، عسى الله أن يوفق ويرحم. أما أن نعطي أخوتنا وكالة عامة مفتوحة دون حساب ورقابة ونقاش وفحص فأمر فيه نظر، إذ يخطئ الوكيل ويصيب، وإذا كان الرقيب يتشبه بالنساك القدماء ولا يضع ختمه وتوقيعه وصورته على وثائق البناء علانية وبشهود فلربما يخرج البناؤون من نوافذ البناء ليسجلوه لدى دائرة البلدية والشهر العقاري باسمهم حتى ولو سيطر الرقيب على الباب، وقد يخرج أحدهم من نافذة عليا بلا مبالاة، مصراً على الهرب، فيسقط، فيموت في شبه انتحار.

وهذا صحيح أيضاً في التحليل المعاكس الذي يوفر دليلاً آخر للرفض، فمن ناحية طبيعة النفس البشرية : إن لم تشعر طبقة القياديين المركزيين المختفين أن شخصياتهم الخاصة وأسماءهم ملتصقة بكل عمل ونجاح يتحقق، واسمة له بوسمهم: فإن هممهم ستضعف تدريجياً، إلا من رحم ربك، إذ تلك هي طبيعة النفس، تحب الثناء والتشجيع ودعاء الآخرين لها وتقديمهم الشكر وبذل الحمد، ولعل في قوله تعالى على لسان المؤمنين : " وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً "، مسحة خفيفة من هذا المعنى غير ظاهرة، إذ الأليق أن تفسر رغبة المؤمن بإمامة المتقين بحرصه على نيل اجر الإمامة وثواب تأسي الآخرين به، وكونه رائداً سبق إلى المقدمة. وفي قوله النبي ﷺ : (من لا يشكر الناس لا يشكر الله) إيماءة أجلى إلى حق المؤمن في انتظار الشكر، لكن قول الإمام الغزالي أصرح حين قال : (لولا الرياء لذهبت تسعة أعشار العلم)، ومثل العلم : أعمال إسلامية أخرى، يفترض أن فاعليها وممارسيها أقرب إلى التجرد وأبعد عن شوائب النيات، ولكن تسعة أعشار العلماء يؤلفون ويصنفون الدواوين النافعة بعيون ترنو إلى نعيم الآخرة وحسن الجزاء، ولكن بآذان منتصبة لالتقاط كلمات الإعجاب والتقدير التي سيقولها من يقرأ إنتاجهم، وتلك شعبة من الرياء، لكن جعلها الله تعالى سبباً لعمران العلوم ووقف الأوقاف وبذل الخيرات، ولولاها لاضمحل العلم وقلت المساجد والمدارس الشرعية. وقضية قيادة المسلمين ينبغي أن تحلل وتفهم ضمن هذا السياق، فإن القيادي إن طال اختفاؤه وذهل المسلمون عن تعبه وسهره وكده لفكره وإنفاقه لصحته وأوقاته وتفريطه في حق نفسه وعياله، ثم لم يسمع حثاً

وشهادات تشهد بأدائه ما عليه : فلربما يضعف عن العطاء بتدرج غير مرئي لا يلتفت إليه نفسه ولا الذين من حوله، ويجنح إلى البرود والفتور، وهي سلبيات تجر إلى سلسلة من العيوب فيما بعد، أقلها : سرعة غضبه إذا انتقده ناقد، ويكون حساساً جداً لا تستطيع أن تمسه بزنبقة بيضاء أو بريشة طاووس، ولا أن تمسحه ولو بمسك أو عنبر، وما ذاك إلا لتخلف رقم في معادلة القيادة يتمثل في وجوب تمتع القيادي بمنظره بين إخوانه وتصدره ومشيه قبل الصفوف وسماعه الدعاء، حتى ولو لم يسمع كلمة الشكر الصريحة، وليس كل هذا من تهوين أمر الرياء والغفلة عن دونيته وانخفاض رتبته ورتبة مقترفه، ولكنه تذكير من الغزالي ومنا بحقيقة من حقائق الحياة وبسلوك شائع مرجوح لا ينجو منه إلا أشداء المؤمنين ومن يرتقي نسبهم إلى أبي بكر الصديق ﷺ، وهم قلة نادرة قدرها الغزالي بعشر العلماء، أي وأيضاً : عُشر المنفقين، وعشر الدعاة، وعشر القياديين، تطبيقاً للمعادلة الغزالية الرياضية التي هي من الدرجة الرابعة ولا يفهمها حق فهمها غير ألمعي مجرب طال انغماسه في يوميات العمل الدعوي عشرات السنين، وشهد نمو ونضوج ونهاية عدة أجيال من الدعاة.

وقريب من هذا ما تمناه عمر أن لو كان ابنه عبد الله أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سأل عن الشجرة التي تشبه المؤمن، فقد (استدل به مالك على أن الخواطر التي تقع في القلب من محبة الثناء على أعمال الخير : لا يقدح فيها، إذا كان أصلها لله. وذلك مستفاد من تمني عمر المذكور، ووجه تمني عمر رضي الله عنه ما طبع الإنسان عليه من محبة الخير لنفسه ولولده، ولتظهر فضيلة الولد في الفهم من صغره، وليزداد من النبي ﷺ حظوة).(1)

وقريب من هذا أيضاً قول ربيعة الرأي : لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يُضَيِّع نفسَه).

قال ابن حجر : (ومراد ربيعة أن من كان فيه فهم وقابلية للعلم : لا ينبغي أن يهمل نفسه فيترك الانشغال، لئلا يؤدي ذلك إلى رفع العلم. أو مراده الحث على نشر العلم في أهله لئلا يموت العالم قبل ذلك فيؤدي إلى رفع العلم. أو مراده أن يشهر العالم نفسه، ويتصدى للأخذ عنه لئلا يضيع علمه. وقيل : مراده تعظيم العلم وتوقيره فلا يهين نفسه بأن يجعله عرضاً للدنيا. وهذا معنى حسن، لكن اللائق بتبويب المصنف ما تقدم).(2) أي البخاري الذي أخرج قول ربيعة.

---

(1) فتح الباري 156/1.

(2) فتح الباري 188/1.

أي أن ابن حجرٍ يُرجّح أن أحد المعاني المرادة من قول ربيعة : أن يشهر العالم نفسه، فهي شهرة تراد لإتقان المهمة العلمية والدعوية، وليس لها مع الرياء علاقة وإن أشبهت الرياء أو صرعت قليل الإخلاص فأدخلته في الرياء، والله العاصم.

هذا إذا كان صف الأتباع نقياً، وكان منهم إنصاف وعدل، وفيهم خشية لله تعالى، بحيث يبقى موقفهم حيادياً، لا يجرحون، مثلما أنهم لا يمدحون، وأما إذا كان في الصف مشاغبون تغريهم الوساوس وتسهل عليهم الغيبة: فإن الضرر يكون أكبر، ذلك أنهم سيلمزون المطوعين في صدقات القيادة، ويكيلون لهم تهماً ربما، لأنهم لا يرونهم ولا يميزون بذلهم الصامت، فتضيق صدور المظلومين، وتحبسهم عن مواصلة الإنتاج صدمات موسمية مؤلمة، ويضع المرتاب في قلب كل قيادي جمرة، فيتمنى إذ تلذعه أن تسعفه عينه بدموع تبردها أو تطفيها، ولكن الإباء يمنع، وخلق الشمم يمسك مآقي الحر أن تدمع، حتى إذا تورم كبد القيادي والتهب وبلغ الحزن مداه: دخل الشيطان على الخط، يعظ القيادي بتضييع نفسه في الزحام، عبر بحث علمي أو غرق في تجارة، أو ينصحه بعفاف وانزواء وتبتل وتفرد على قمة جبل أو أطراف غابة، هرباً من قوم آخوه، ثم هم لا يرحمون ولا يشكرون.

❑ **ومن الأسباب في اطراح الخصوصية ووجوب الشمولية في التنظيم: أنه لا أحد يدري أين تكمن استعدادات الإبداع الخفية، وفي من حلت المقدرة على أداء دورٍ قيادي إذا نضجت الظروف المحيطة وتوفر المحفز،** والتقارير الميدانية تشير كثيراً إلى بروز مفاجئ لعنصر مغمور، كان قابعاً في المؤخرة، فتحدث حادثة تهزه أو موقف يثير إعجابه، فينتفض، فإذا هو في المقدمة، وتظهر منه مهارات ما كان أقرانه ومربوه يظنون تحليه بها، ولولا أنه يوم ضعفه وانسحابه كان محاطاً ببعض النشطين لما تيسر له هذا الصعود، لكنها أحاسيس ومحفزات ظلت تنمو في الحقيقة قليلاً قليلاً، في تطور بطيء أتاحته شمولية التنظيم، حتى إذا تضخمت كمية التأثر الإيجابي : طفح الخير وانفلقت البذرة وانشقت التربة، في سياق طبيعي يوافق سنن الحياة، لكن الذي ليس عنده علم التربية يظن أن التحول كان مفاجئاً، والتجارب تشهد أن ذلك كان متوقعاً، إنما كان الظرف يحتاج الحادثة الهازة التي تكون مثل صعقة التفجير أو تحريك الزناد، كالبذرة التي انشقت عن خضرة ولبثت تنتظر رعداً يكسر التربة التي تغطيها، وبرقاً يسمدها، وغيثاً يرويها، ولذلك يجب أن تفتح أبواب تنظيمك لكل مسلم سوي تشهد له القرائن بصدق التوجه، فإنك لا تدري لمن سيوهب التوفيق، **وأما الحرص على النخبة فقط والتقاط الصفوة فحسب:**

فمنهج يضيق عليك النمو القيادي، ويزهدك في أناس ربما أتم القدر الرباني تدوين أسمائهم في سجل القياديين، ولكن الملائكة لم تدفعهم بعد إلى مواضعهم، لحكمة خفية علينا، وتسلسل مرتبط بزمن، ولكل صعود كتاب، كما أن لكل ميلاد وأجل كتاب، والإذعان لهذا المنطق قاعدة من قواعد الإيمان تشير لها الآيات، كما أن التسليم بوجوب الشمول التنظيمي ميزان من موازين الوعي تدلي به فلسفة التاريخ الدعوي، والقول بأن هذا المنطق يسري على هؤلاء الضعفاء حتى في الواجهات أيضاً وإذ هم في الأحزاب الإسلامية الأخرى إذا بثثناهم فيها : قول لا يصح، **لأن تنظيمنا الشمولي يقف خلفه فكر شمولي أيضاً، فينتجان قيادياً شمولياً**، ومحركات الاستيقاظ والنهوض والصعود في تنظيمنا تمتاز بالقوة المناسبة لهذه التربية القيادية، تبعاً لتربيتنا الشمولية ولمواقفنا الصلبة وأهدافنا الكبيرة وامتدادنا التاريخي الضارب في العمق، وانتشارنا المكاني الواصل إلى جميع القارات وأبعد الآفاق، وليس كذلك محيط الواجهات، إذ المحفزات هناك أضعف، بسبب أُحادية الفكر أو لين المواقف أو تواضع الأهداف أو حداثة النشأة أو القصور عن العالمية.

بل جرى عرف الدعوة أن نذهب لأبعد من هذا بأن نفتح أبوابنا لكل تائب من رجال الأحزاب العلمانية إذا أدت فراستنا إلى تصديق توبته وأفادت القرائن بعزمه على استدراك ما فرط فيه في أيام غفلته الخالية، ذلك لأننا عبر تحليلنا وفهمنا لتاريخ العالم الإسلامي المعاصر نوقن بأن معظم المسلمين الذين نشطوا ضمن التيارات الوطنية والقومية بعيداً عن الالتزام الإسلامي إنما هم ضحايا تربية مستوردة فرضت عليهم، وتم تشكيل أفكارهم وعواطفهم عبر إعلام قوي مسيطر جاثم بالقوة غسل أدمغتهم وقلوبهم، بل لا نفهم قضية بعثي خانق للحريات أو شيوعي صريح بالإلحاد إلا بهذا الفهم أنهم كلهم ضحايا، ولذلك نفسح المجال في صفوفنا لكل تائب منهم يلتزم الصلاة والعفاف والحلال ، ويمنح الولاء لدعاة الإسلام، مهما كانت سكرته الأولى طويلة وقبيحة، فإن الإيمان يجب ما قبله، ومن وأجبنا أن نأخذ بيده وننتشله من الوهدة، وأن نتيح له أن يخدم القضية الإسلامية بمثل ما خدم به القضية العلمانية أو أكثر، لعل الحسنات يذهبن السيئات، ونؤاخيه بإخلاص، ونقدم حسن الظن، ولا نخاف من ذلك، ولا نخضع لوسوسة تحاول إقناعنا بأنه يتجسس، أو لم يتمحض، أو يطلب حماية، لأن مذهبنا هذا قائم على تجربة راسخة أقنعتنا بأن الجماعة أقوى دائماً من الفرد، وأنه إن كان يغشنا فلن يتمكن من إحداث أذى بالغ، إنما هي وخزات فحسب، وتبقى الجماعة سائرة

بتمكن وسيطرة وبخاصة أننا نملك سلماً متدرجاً لطريقة العضوية، يبدأ به الوافد إلينا بحقوق محدودة، ثم نصعد به رويداً رويداً.

والدرس الكامن في ذكر هذه الحقيقة حول سعة الصفوف الدعوية واحتوائها للتائب بجنب النقي يشير إلى ضد مذهب النخبوية الاصطفائية التي تشترط النقاء التام وبياض سجل الداعية منذ النشأة والفتوة، والقول بأن النخبة يمكن أن تضم مثل هذا التائب إذا كان قوي الصفات قول فيه مجازفة، لأن المحضن التربوي في النمط النخبوي السري يتقلص جداً، ولا يقدم تربية متكاملة لهذا التائب وإن كان يمده بخبرة عملية وافرة، لكن نمط الانفتاح الشمولي الذي ندعو إليه يقدم هذه التربية لهذا التائب، لأن سعة العدد، والأعمال الظاهرة والنشاط المشترك وتبادل التأثير التربوي بين الدعاة بعفوية مسترسلة، كل ذلك يجعل التربية أسهل والأخلاق أعمر والعاطفة أعلى والإيمان أعمق.

❑ **ويظل الرفض يستند إلى أسباب أخرى، من أهمها : أن الالتزام الشرعي في الواجهات والمؤسسات يكون أقل مما هو في التنظيم الأصلي،** لطبيعة تكوينها التي توافق غرضاً محدوداً تنفذه بواسطة أعضاء هم أو زوجاتهم دون مستوى الالتزام الكامل، كسفور الزوجة مثلاً، ولا تحثهم بيعة أسلفوها تأمرهم بالطاعة في السراء والضراء، ومن ثم ينفتح باب التأول في الواجهات لأكثر من المدى الذي وقف عنده دعاة الأصل، ويستمرئ الواجهي الترخص حتى يفرط، ربما، فيتولد محيط ينقل العدوى إلى مبعوثينا من الدعاة إلى تلك الواجهة أو المؤسسة يمنعهم من الإنكار على النقص أو اللين، إذ الواجهات لاستيعاب أنصاف المسلمين، والأثلاث، والأرباع، ولأصحاب قلة التحمل والهيبة من الصراع وضرائبه، ولمن تتوقد همته لكن سفور زوجته يمنع انضمامه لنا، فينحت صمت هؤلاء على العيب الذي يرونه من مخزون الحساسية الإيمانية الذي غرسته فيهم التربية الدعوية، ومع توالي الأيام تصبح ردود الفعل عندهم لمظاهر النقص لدى الواجهي أضعف، بل يكاد أحدهم يتخلق بخلق المداهنة باسم المداراة، فتتشوه الصياغة الشخصية لدعاتنا، ويخبو نور في وجوههم أضاءته روح التحدي والجهاد، وأذكته خطواتهم مع الدعاة الكمل نحو المعالي وفق منهجية التربية الدعوية الآخذة بالعزائم، الغارسة لمشاعر العزة. هذا إذا كان الضعفاء الذين يمثلوننا في الواجهة قد آوتهم صفوفنا من قبل وخضعوا لتربيتنا المتشددة، فيكون النحت من الفضائل، وأما إذا كنا نقصر عضوية الجماعة على النخبة، ونسد الأبواب بوجه من نتهمهم بالضعف وقصور القابليات، ونرسلهم إلى الواجهات والمؤسسات ابتداء : فلا يكون ثمة نحت ولا استهلاك،

إذ لا مخزون أصلاً، وإنما تكون طبيعتهم رخوة منذ النشأة الأولى، وتكبت الأهداف الواجهية الصغيرة طموحاتهم الكبيرة التي أيقظتها فيهم لذة البداية، ويتم ترويضهم وتدجينهم من حيث لا نشعر نحن ولا يشعرون، **لأن فقه إنشاء الواجهة مبني على الترخص وقبول المترخصين، أو يغلب طموحهم محاولات الترويض، لنقاء الجوهر المركوز في قلوب المتهمين زوراً بالضعف، ولمعرفتهم خبر المعالي من خلال المطالعة إن أخرستنا تأولات النخبوية عن إخباره به. وحين يستبد بهم اليقين بأننا لا نشبع تطلعاتهم، ثم لا يجدون سلوتهم في دارنا أو في دار الضيافة التي أحلناهم إليها : يهجروننا نحو الجماعات الإسلامية العنفية المتهورة وتبدأ قصة طويلة وحلقة مفرغة من المآسي والمشاكل والسجون والدماء، ويبدأ الإعلام يزمجر بمقولات مكافحة الإرهاب والأصولية، فننشغل من حيث أردنا الراحة، ونكون قد غذينا مصادر التطرف بوهم الاقتصار على الصفوة، وهذا لوحده درس تجريبي لو وعاه دعاة النخبوية لكفاهم، ولعدلوا عن وهمهم. ثم هو درس لو وعته أجهزة المخابرات المحلية والعالمية لعرفت أن إتاحة المجال لتنظيمنا الشمولي ليعمل وينشط بحرية هو أنجح حل لمشكلة التطرف والعنف، بما لنا من مفهوم حضاري وسياسات موزونة، وأن امتازت مواقفنا بالحزم ومطالبنا بالشدة، تبعاً لبعد العلمانية عن صريح القرآن، لكنهم قوم لا يفقهون.**

ويوجد في علم الإدارة وعلم الحرب فصل يسمونه (القرارات المهلكة)، وكأن قرار الاكتفاء بالنخبة ينتمي إلى هذا النوع، وفي اليوم الذي تتخذ فيه الجماعة خطتها الاصطفائية : تكون قد أعلنت أيضاً ميلاد الجماعات المتطرفة.

والاستطراد يفيد بأن التطرف ولد في كل بلد ابتلى به يوم اتخذت المخابرات قرارها المهلك بمحاربة دعوتنا الشمولية وتجفيف منابعها، وقول قائلهم : أن الجماعات المتطرفة خرجت من عباءة الإخوان : قول صحيح في أصله، لكنه مزور محرف في لفظه، والصواب : أن الجماعات المتطرفة أُخرجت عن عباءة الأخوان، أي : أن جيل هؤلاء الشباب المخلص المتحمس الشجاع منعته المخابرات أول شبابه أن ينتمي إلى الإخوان، للحصار المفروض، فتسيّب، فلما استووا على أشدهم رجالاً : وجدوا في التطرف تفريغاً لطاقاتهم المكبوتة، ولو كانوا سمح لهم بالاستظلال تحت عباءة الأخوان لرفلوا بالوعي وبفقه الموازنات القرضاوية والمنهجية المتدرجة ذات المدى البعيد، لكن المخابرات تتخبط، والحاكم الذي يأمرها أحد اثنين : إما أن يكون مخلصاً يوازينا في الكفاءة والحق، وعندئذ لا مسوغ لخوفه من مطالبتنا بأن يكون الانتخاب الحر القاضي الفيصل بيننا وإياه، كما تفعل جميع الأمم حتى عباد الوثن والبقر، إذ سينافسنا من موطن الرجحان،

ومعه الأموال وأجهزة الدعاية ومناهج التربية المدرسية وهيبة السلطة وطبيعة أكثر الناس في طاعة الرؤساء، ونحن الفقراء في خندق الحرمان والتواضع، فلماذا الوجل ؟ أو يكون الحاكم ظالماً أو مقصراً أو سارقاً للأموال العامة أو ضعيف الكفاية، فيكون دعاة الإسلام أحق بالحكم منه، وتكون مطالبنا سائغة، لكنها خطة اليهود في استثناء العالم الإسلامي، والعربي بخاصة، من الاحتكام إلى الأعراف الانتخابية واحترام حقوق الإنسان وتمتيع الناس بالحرية، مما يجري لا في الغرب فقط، بل في أمثال الهند والفلبين وتايلند وفي عمق غابات أفريقيا، وما ذاك إلا لحماية إسرائيل من احتمالات إحياء دعاة الإسلام لروح الجهاد إذا حكموا.

❑ ويحسن أن نتطرق إلى شرح علاقة خفية جداً بين المفهوم الحضاري عبر الممارسة المعرفية الإسلامية، وبين التطرف، وأساس ذلك : أن الفحص الدقيق يُبدي وجود عاطفة رابطة بين الأديب والفنان والمفكر من جهة، وبين الجمهور المتلقي لإنتاجهم، تزداد تأثيراً كلما اقترب هؤلاء من جمهورهم وخالطوهم وميزوهم وعقدوا صداقة معهم، وقد يصل التأثر إلى درجة الوله والهيام، بحيث يستأسر الجمهور لشاعر أو رسام أو خطيب. فإذا كان انتساب هؤلاء المعرفيين إلى الجماعة الشمولية واضحاً : كان اعتقاد الشمول في تمام القوة عند المعجبين التابعين، كنتيجة ملحقة بالفن المثير للمتعة أو الأدب الرافع للمعنوية أو المدغدغ لأحاسيس الفطرة. أما إذا كان انتسابهم المعلن لا يعدو جمعية تخصصية أو واجهة قاصرة فإن النتيجة الملحقة لا تعدو قدرها المتواضع الهزيل المقترن بالهدف الأحادي الذي قامت من أجله العصبة الأدبية أو النادي الفني أو الرابطة العلمية، أو ما قارب ذلك، ويبقى الجمهور ماشياً نحونا على استحياء، ليس بالفوّار المنتفض المتحدي للاسواء المستلذ بالتضحيات. ومن ظواهر الحياة: أن الفنان والأديب ومعظم المعرفيين يحتاجون وقتاً حُراً للتأمل هو من شروط الإبداع، ولا يستطيعون تحمل مشقة العمل القيادي التنظيمي وما فيه من متاعب الاجتماعات الطويلة والسفر والتفتيش الميداني، ومعنى ذلك : أن التنظيم النخبوي سيزهد في وجودهم داخله، ويحولهم إلى المؤسسات، فيضعف تأثيرهم، لضعف الهدف الكامن خلف العاطفة التي تربطهم بجمهورهم. وهذا التحليل يوجب أن نجعل تنظيمنا شمولياً، فيه مكان واسع لكل مسلم، سواء من كانت له مشاركة في العملية القيادية التنظيمية وأداء الواجب السياسي أو لم يكن، ويشهرون انتماءهم، فإذا أبدع أحدهم في جانب معرفي : كان ذلك أوفى دليل على أنه من صناع الحياة الحضارية وقادتها، وإن لم يكن من قادة التنظيم والسياسة، فنبعث به إلى الجمعية التخصصية أو الرابطة التي تضم أمثاله ليستوي إبداعه ويتأصل من خلال البيئة

المشجعة التي تفهمه والنجي المماثل الذي يصحح له وينقد عن علم وخبرة، لكن مع بقاء هويته كعضو في الجماعة الشمولية، شامخاً به مفاخرا . ويتوالي ذلك وزيادة عدد المبدعين : يشيع المفهوم الحضاري، وتنمو التأثيرات المعرفية، ويعتدل قطاع واسع من الجيل الإسلامي، تفطمه ألوان الرسام أو لقطات الكاميرا أو جمال ألفاظ الشاعر عن رضع فكر متطرف أو وسوسة الشيطان بخطوة تهورية، ولكن من أين نأتي بنخبوي لبق يفهم هذا التحليل، أو رئيس مخابرات حريص على مصالح البلاد يستوعب هذا المنطق والتعليل.

إن القول بأن المبدع يعتبر من النخبة وسيضمه الصف حتماً قول فيه مغالطة، لأننا نتحدث عن مسلم لم يظهر إبداعه بعد لتضمه، لكن التربية الشمولية تطلق كوامن إبداعه، فيعود أستاذاً بعد ما كان تلميذاً، فالمبدع قبل إبداعه يكون في حالة شرود ذهني وتأمل صامت ليستوي إبداعه، لذلك يزهد فيه النخبوي ويظنه عديم النفع.

❑ ثم ما زالت أسباب الرفض لم تنته، فمنها : أن تواري النخبة في تنظيمها المركزي وظهور الضعفاء في الواجهات سيجعل الرواج بعد توالي السنين لأسماء هؤلاء الأضعف، ويكونون هم والذين معهم في الواجهة ممن ليسوا من رجال الدعوة الشمولية أقرب إلى جني ثمرات العمل ونتائج الصراع إذا وجدت مناسبة، كانتخابات أو تغيير كبير، فتستلم المناصب الحكومية عناصر أقل كفاية من أن تقدم نموذج حكومة إسلامية أو إدارة واعية لقضية إسلامية ضخمة الحجم، وتكون الآراء السلبية التي سيكونها الشعب عن الإسلاميين متعبة لنا أشد التعب إذا أردنا الاستدراك وتصحيح النظر، وإذا كان بعض الواجهيين ممن لم يأخذوا الكتاب الدعوي بقوة ولم يؤتوا الشمول صبياناً مع ناشئة الدعوة هم الذين يتصدرون فإن الحكومات المحلية أو العالمية قد تشتريهم أو يذعنوا لإغراء المال الوفير والدنيويات الزائلة، أو قد تشتري منهم موقفاً واحداً، ويفتي أحدهم نفسه بجواز ذلك، وما أوسع التأول عند من لم يستتم صفاء قلبه ونقاء مصادر علمه، وبذلك تتلوث السمعة، وتزرع ألغام في طريقنا، وكم هو كثير مكر أهل السوء، وكم هو فرحهم إذا اكتشفوا مفصلاً ضعيفاً في الآلة الهادرة أو ركناً واهياً في البناء الباسق.

❑ وليس آخر الأسباب : ما سيكون عليه أداء النخبة من قلة الانسجام مع العطاء الدعوي العالمي الذي يستن طريقة الشمول التنظيمي المغايرة، وكذا مع

طبيعة العمل في المنطقة، أي في البلاد المحيطة ببلد التنظيم النخبوي، أو القريبة منه، فمما لا شك فيه أن هناك تأثيرات متبادلة إقليمية بين أجزاء الدعوة المتجاورة التي تجمعها وحدة جغرافية واجتماعية تنتجان على الأغلب تقارباً اقتصادياً وسياسياً، فأقطار الجزيرة العربية تتبادل هذا التأثير، وشمال أفريقيا، والقرن الأفريقي وعموم شرق أفريقيا، وجنوب شرق آسيا، فإذا انفرد قطر بتطبيق نظرية تنظيمية نشاز : تولد شذوذ وتخلف عن تصدير المحاسن إليه واستيرادها منه، لاختلاف الأنماط التنظيمية، وهذه سلبية في الأداء يجب التفطن لها، خوفاً أن يكون تنظيماً يتيماً لا يمسح على رأسه ضيف خارجي، أو على الأقل : ينشأ عصامياً معتمداً على نفسه فقط، فيطول طريقه، ولا يكون له حليف خارجي ومؤاخ يؤاخيه يهديه الطيبات أيام الرخاء ويكفله يوم الشدة، وليس يكون ذلك عن لؤم في أهل الشمول التنظيمي يمنعهم، أو انتقام، أو تلقين درس عقابي، ولكنها طبيعة في النفس الإنسانية، إذ سيكون ذلك القطر في واد، ومرحلة، وقضية، وهموم، والحلقة المحيطة به في وديان أخرى ومراحل مغايرة وقضايا من جنس آخر، ويحصل تقاطع في المواقف يؤدي إلى قطيعة في الظاهر، وما هي كذلك، بل المحبة القلبية الأخوية أعمر ما تكون، ولكنه تضاد النظريتين.

• **فلولا كان من الأجيال القيادية أُولوا بقية ينهون عن الإغراب والتفرد في الفهم والأسلوب، ويستوعبون جميع هذه الأسباب التي تنتصب درساً كاملاً في تأثير الشكل التنظيمي في منهجية التربية**، ولو أضفنا إلى ذلك محاذير أمنية أكبر من المعتادة متوقعة عند انكشاف التنظيم النخبوي : لكان إيماننا بالشمول أعمق، لأن الخصم قد يظن أن المبالغة في الاصطفاء ما كانت إلا لوجود أسرار عظيمة وخطط خطيرة، أو لأن امتياز الأعضاء بالصفات العالية يغريه بالضرب، إذ على أي داعية وقعت يده كان الألم أكبر، إذ ما ثم غير نبيل وشديد وذكي.

• **أكبر الظن أن الدافع المحرك لاعتقاد صواب نظرية النخبة المتوارية هو تقليد لطريقة الماسونية في التأثير**، إذ أن رؤوسها مختفية، لكنها تحرك كل بلد بواسطة رجالها المبثوثين في نوادي الروتاري والليونز وأمثالها، وهذا القياس هو قياس مع الفارق كما يقول أهل أصول الفقه، لأننا أصحاب دين وشعائر وأخلاق وحلال وحرام، ونريد من أعضائنا الالتزام بها، والتعبد والتأله، ولا تعمر هذه الخصال إلا عبر تنظيم علني مفتوح ويتبادل النصح فيه جميع أنواع المسلمين، صغيرهم، وكبيرهم، غنيهم وفقيرهم، أميهم ومثقفهم، عربيهم وأعجميهم، رجالهم ونساؤهم، يجمعهم صعيد واحد، وتتكون بهم بيئة مساعدة على العفاف وتزكية الأنفس. أما الماسونية فحركة هدامة لا تلتزم بدين أو خلق، بل تتعمد نشر الفساد وتجعله وسيلة

لكسب الأعضاء والمتنفذين، وبذلك لا تضرها سريتها. ومن هنا بالغ الأستاذ المودودي رحمه الله في (تذكرة دعاة الإسلام) في نقض نظرية السرية في العمل، ورأى أنها قد تقود إلى باطنية، وحاشا دعاة الإسلام من ذلك، ولكن لجفلته أصل، فقد تكون باطنية الاعتقاد مستبعدة، لكن باطنية الأذواق وطرائق التعامل وطلب الطاعة العمياء تشبهاً بالماسونية كلها بدع محتملة الحدوث، عبر الإملاء النفسي والأجواء اليابسة التي لا تنديها طراوة استرسال الفطر البريئة لدعاة الإسلام في تعاملهم الأخوي في الأرض الرحبة تحت الشمس في رياض الشمولية التنظيمية والشمولية الفكرية معاً، برعاية تربية ذات منهجية محكمة.

ويعض وسوسة النخبوية السرية تمليها أحياناً ضغوط واقعية، حين يتوسع التنظيم الدعوي في سياسة رفد الواجهات بأحسن عناصره، ويبعث طائفة أخرى من نبلائه إلى الأحزاب الإسلامية الأخرى، لا تجسساً عليها، بل تقريباً لها منا وترشيداً وتمكيناً، ثم يلتفت القائد فيجد أن من بقي معه من الأشداء قليل لا يتوازن بهم عمل كامل، وأن الضعفاء أصبحوا عبئاً ثقيلاً على الإدارة التنظيمية والتربوية، فيبدأ التفكير بغلق موارد الضعف، وانتهاج النخبوية، ليعتدل مستقبله، ويكتشف أنه في ورطة حقيقية : إن فرط بأحسن دعاته ووهبهم إلى الواجهات والأحزاب الأخرى فقد حكم على نفسه بالضعف، وأن بخل واحتكر المعادن الثمينة فإن سياسات التحالف والتآخي والتقارب بين الأحزاب الإسلامية والواجهات ستضعف، وأحلى الحلين مر. والصواب الذي يوافق فقه الدعوة الموروث : إن عنايته بترسيخ وتوسيع تنظيمه الشمولي الأصلي المعلن أولى وأكد، لأن هذا الانكفاء سيكون مرحلياً فقط وإلى حين، وحين يشتد عود تنظيمه، ويتوسع بما فيه الكفاية : يؤذن له آنذاك أن يبدي كرمه ويبعث بعض الأشداء الذين معه إلى الكتل الأخرى ينفعونها بأنواع النفع، من وعي وتخطيط وحث على التآخي ورفد بالمال، وغير ذلك، وكأن بعثه لبعوثه كان استعجالاً أوقعه في ورطة ولدت اضطراباً في صفه، فحدثته نفسه بالاصطفاء، ناسياً أسبابنا المنطقية الناقضة.

إن هذه الحجج التي سقناها لا تنفي كلام سيد قطب رحمه الله في وجوب الصفوة والقاعدة الصلبة، إذ يفسر كلامه بالحسنى، ولم يرد في سطوره ما ينفي تجميع الأقل ذكاء والأضعف وغير الجريء، لكنه أراد تكثيف العناية بتربية الرجال حتى تتكون هذا الصفوة التي تثبت على الحق عند الخطوب والشدائد كما ثبتت صفوة الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر وبعد الفتح في هوازن ويوم الردة. كما أن هذه الحجج لا تنفي ما ذهبنا إليه في المنطلق والمسار من الدعوة إلى فقه الاصطفاء والحرص على الأذكياء الشجعان، فإن الحسنى تشرح المقصد ثانية، ومن ذا الذي يجرؤ على أن يناقش صحة تفضيل حيازة الذكي الشجاع إذا كان بالإمكان ذلك، أما أن يتطور الأمر إلى أن يكون شرطاً في الانضمام، ونغلق بابنا أمام غيرهما: فابتداع وتكلف نبرؤ منه. والذي نعتقده أن صفة الصفوة تكمن في شعور الداعية بالعزة، وفي مفاهيمه السليمة، ولو كان أمياً عديم الخبرة، وكان أخي في

الله عبد الملك السمين الأعظمي رحمه الله بقالاً يبيع الخضر والفاكهة و الأجبان في محل صغير نظيف، لكنه كان يدخل في حوارات جادة مع بعض عملائه من الوزراء ورجال السياسة العلمانية، وكان أحدهم أحمد حسن البكر الذي صار رئيساً للجمهورية، وكانت حجج عبد الملك على طول المدى هي الأقوى، ولسانه الأفصح.

لكن مع وضوح منطقنا في الرفض، والظن بأنه مقنع لكل نخبوي أن يعدل عن رأيه ويرجع إلى الشمولية : هل الصيرورة إلى اختيار نظرية الصفوة المتوارية يدخل في الحرام، أو يخرج أصحابها عن أن يوصفوا بأنهم جزء من الدعوة الإسلامية ؟

لا يقول فقيه من فقهاء الدعوة بمثل ذلك، ولا يفتي أحد بحرمة أو تخطئة أبدية، لان فقه الشكل التنظيمي فقه مرن يستجيب للظروف، والمذهب المشهور فيه أنه ليس من الثوابت، بل من المتغيرات، والاجتهاد فيه سائغ، وإنما معظم حديثنا يدور حول حجم المصالح أو كيفية درء المفاسد التي يجلبها كل نمط من أنماط التنظيم، **ونحن نقر بأن نظرية اصطفاء النخبة وتواريها وأدارتها للأقمار التوابع لها بجاذبيتها المركزية المسيطرة يمكن أن تعد في عداد النظريات الدعوية الإسلامية، وجزء الدعوة المتكون منها هو جزء من الدعوة الإسلامية العامة، لكنه ليس هو دعوة الإخوان المعروفة، قطعاً جزماً، إنما هي دعوة أخرى يمكن أن تتعاون معها حركة الإخوان، وتحالفها، وتنصرها وتدعو لأصحابها بكل خير، من غير أن تعترف بها كجزء منها يمثلها أو يمثل فهمها ونمطها في العمل.**

ويتأكد هذا المعنى جلياً إذا أطلنا النظر إلى حقيقة هذا الخلاف، فالتأمل يوضح أن قضية النخبوية تتعدى أن تكون مجرد قضية متعلقة بالشكل التنظيمي، وإنما هي متعلقة بموضوعه وبشروط الانتماء إليه، مما يجعل للثوابت الشرعية والدعوية فيه نصيب كبير ويقلص نسبة المتغيرات، لان الاختلاف تعدى أن تسأل نفسك : كيف أنظم من جمعتهم ؟ وإنما : من هم الذين أنظمهم ؟ فهو ليس بأمر شكلي، بل من صلب فقه توصيف الداعية، وهذا مذهب آخر في القضية يقلص المرونة التي يتذرع بها من يصنف الأمر في دائرة الشكلية العديدة الأنماط. والقلب يشهد لصالح هذا الفهم، ونظن أنه هو الصواب.

والله يوفق الدعاة إلى الأصلح ويلهمهم إياه إذا أصابت قلوبهم وإن أخطأت اجتهاداتهم. ۞

8 منهجية الأداء الريادي

مما تعظ بـه "منهجـيةُ التربـية الدعويـة" الدعـاةَ : أنها تشعرهم وجـوبَ " المنهجية " أثناء التصدي لعملية التربية، وأننا ينبغـي أن نمارسـها انطلاقـاً مـن نظـرة شـاملة كلـية، وفق مقدمـات متتابعة، في مرحلية متدرجة، وموضوعية متكاملة، ويُعتبر غرس هذا المعنى في (اللاشعور) لدى الداعية وتلقينه إياه حتى يغدو سليقة لديه : أهم من التفاصيل التـي تـم إيـرادها وشرحها، لأن التعودِ على هذه الممارسات المنهجية من شأنه أن يـنقل الداعـية مـن ضِـيق التقلـيد وتخلّفـه إلى رحابة النظرات الاجتهادية، وعندئذ يتمكـن مـن اكتشـاف طرائق التربية الملائمة لسد حاجاته بكل تفاصيلها من خلال التفكـير الذاتـي والمحاولات التلقائية والمبادرات الجريئة، فيقفز فوق الحَيرة إن لم تصله تجارب الآخرين، ويهجر الارتجال إن هجمت عليه المعضلات، وتتضح أمامه آفـاق القواعـد والموازيـن والقرائـن التـي تعينه على الاستنباط الصحيح لفقه التربية أو فقـه أي عمـل دعوي سياسي أو تنظيمي آخر، حتى يستوي مبدعاً أصيلاً، وحُراً رانـياً إلـى الـتطور والازديـاد، ويكـون الطموح أظهر أخلاقه، ولوامع الآمال تجذبه وتحـدوه إلـى غايـات بعيدة قاصية لا يقنع دونها بقليل، بل يظل يتوغل بخطو واسع وقلب ثابت، لشعوره بأنه في صحبة الدليل.

وهذا المكسب الثمين يغرينا بأن نتدرب على التعامل مع هذه المعاني من خلال مَـثَلٍ آخـر مـتمم يكمـن فـي" منهجـية الأداء الريادي "، ولا تراد التربية المتقدمة لـنلهج فقـط بتعداد مناقب مَن ينجح في اكتسابها ونفخر بإجتيازه لمراحلها ؛ وإنما تـراد لـنزود المـيدان بـرواد يمارسون العملية الريادية فعلاً ، ويحملون هموم الدعوة والأمـة، ويتصـدون لـرفع البـناء طبقة أعلى، من بعد ما رسخت الأسس ويسر الله اليوم أسباب سبق السابقين.

أي أنـنا نـريد هـنا أن نـتعرف علـى الريادي إذ هو في المعمعة وجهاً لوجه مع كثافة الواجبات المطلوبة منه : كيف يسلك ويتصرف ويمارس ؟ لا بمعنى أننا نريد بسـط الحديـث عـن سياسـاته في كل حقل، إذ أن ذلك من الأمور الموضوعية التي تخـتـص بهـا دراســات أُخـرى، ولـكـن بمـعنى التعرف على "نمط الأداء" وكيفية

وفائـه بالمهمـة التـي أُنيطـت به، وتعامله مع المركز الفوقي الذي وضعه إخوانه فيه، وتحقيقه للأمل المعقود عليه، أنه المقدمة ورأس النفيضة.

فـإذا نجحـنا فـي تعويـد الريادي على الطرائق المنهجية التي يتعرف عبرها على كيفـية الأداء : كان من المكاسب الكبيرة، إذ سيكتشف كل تفاصيل أنماط الأداء بنفسـه ويشـكل ذاتـي إن لـم يقـم الذين سبقوه برواياتها له، وتتكرر صورة أُخرى من الظاهـرة الإبداعية، وفي ذلك ما يكفي، وحسبنا أنه تعلّم الصعود في مدارج استلهام التجارب وقراءة المحيط.

ولا يضير الريادي هنا أنه قد يتوصل إلى طريقة في فهم المعنى الريادي تخالف مـا علـيه أسـلافه أو أقرانه، فإنّ ذلك من حقه، ونرى أن اختلاف مذاهب الدعاة في فهـم العملـية الريادية هو من الأمور السائغة، بل إن تعدّد المذاهب هو من علامات احـتمال حصـول الـتطور الدعـوي، وسـتكون المحـاورات الشورية في الجماعة نِعم الأداء فـي التحكـيم بيـن هـذه المذاهب المتعددة، فيُقبل منها ويُرد بحسب ما عند النقاد من علم وخلفيات تجريبية وإحاطات واقعية وإلهامات رحمانية.

وينسحب هذا المعنى على الآراء الواردة في هذه الدراسة، فإنها ليست أكثر من اجـتهاد فـي فهـم الأداء الريادي يقبل النقض، ويَرِد عليه الرد ، ما دام النقد يصدر عـن منهجـية ثالـثة لا تعكـرها شـهوة. وفي هذا المعنى ما ينبهنا إلى أن (العمِلية الدعوية الشاملة) إنما تحكمها سلسلة منهجيات متكاملة علينا أن نحيط بها خُبرا، فـي حـرص يلـيق أن نبالغ فيه، وأن ننظر لها على أنها المفتاح الأكثر سلاسة تجاه المغالـيق التـي أرهقـت فقهنا الدعوي إذ هو يسعى نحو النضوج، وأتعبت تاريخنا إذ كنا نسعى نحو الوصول.

❑ إسم على مُسمّى

ونمـيل إلـى تخصـيص الإشـارة إلـى ثلاثـة عناصر ترتكز عليها منهجية الأداء الريادي هي الأهم على ما نعتقد، ولكل مجتهد منحاه وفهمه وقناعاته.

❑ العنصـر الأول : ويمكـن منحه عنوان " تحقيق الاسم " فعلاً، أي تفرغ وتجرد **العنصـر الـريادي لمهمـته القـيادية وممارسـته الشـعورية والعملـية لها، بحيث يحقق صـفتها المفهومـة عُـرفاً ولغـة، ولـيس هو بالعنصر التنفيذي والريادي معاً ويشكل**

مزدوج، أي الذي يستعمل حقه في الأمر والنهي خلال ساعة مواتية يقتنصها من بين أيام مليئة بأثقال التنفيذ ومتاعبه وهمومه.

إننا إذا نظرنا إلى معظم العناصر الريادية اليوم مثلما بالأمس : نجد تخلياً تحت ضغط الظروف والحاجات عن المعنى الحقيقي للعملية الريادية، وإشغالاً لهم بالجزئيات ولوازم التحركات اليومية وصغائر الأمور التي يفترض أن تقوم بها الطبقات التنفيذية المتعددة من الدعاة، وفي هذا ظلم للدعوة من حيث لا ندري، ووضع لأنفسنا في الضيق، وحرمان من الإطلالة الفوقية التي يفترض في الريادي أن يتحف الدعوة بخبرها اليقيني أو الظني لتعرف مستقبلها ومسارها. ونريد بالظني ما استند إلى تحليل ونظر مجرد واجتهاد استقرائي ولم يستند إلى وقائع ثابتة، وهذا النمط مطلوب من الريادي أيضاً، بل هو الغالب.

فكما أن الشاعر المرهف الحس يحلق عالياً مع سُحُب الرمزية والمثاليات والأخيلة ثم يعود متفائلاً يغني للرهط القريب منه من قومه ويحدوهم بالثقة الجازمة حيناً وبالأمنيات الراجية حيناً إلى أرض المستقبل، وينتشلهم من وهدة الأحزان والتلكؤ والتشاؤم، فيحييهم بأناشيده من بعد يأس وانكفاء، فإن الريادي الحائز على شروط الريادة، الأهل المكافئ : يسيح في عرصات الفكر والتأمل والموازنات والإحصائيات، ويفهم الواقع المحيط في واديه وما وراء الروابي، ثم يؤوب يبشر الدعاة بالفرص، وينقد وضعهم، ويغربل الأخبار الواصفة لأحوالهم، لينطق بتصويب أو بتخطئة، ويشير عليهم بالرأي الواثق.

لكنك كما أنك لا تنتظر أغنية حالمة رقيقة من شاعر جائع قد أرهقتْ يده مطرقة أو فاس يسعى بهما إلى أن يسد رمقه، مع أنه قد يُتحفك بروائع من مثاني التوجّع ورباعيات الآلام : فكذلك الريادي الذي ينوء تحت أثقال التنفيذ : ربما تقعد به همومه ومتاعبه عن صعود ربوة مجاورة قد تتيح له أن يرى بنظرة شمولية كل الساحة العريضة ليحدد مكانة الدعوة فيها وحاجتها وثغرات انكشافها وتمييز الركن الشديد في بنائها.

بحروف أُخرى نقول : إننا حين ننتخب عصبة من رجالنا ونضعهم في المكانة الريادية فإن علينا أن نعينهم في تحقيقهم لعملية الريادة، وهذه الإعانة تتجلى في أن نترك لهم فراغاً كثيراً يزدادون خلاله علماً ومطالعة وفحصاً للواقع واطلاعاً، ونتركهم يتحاورون بينهم بكثافة من أجل استفزاز قابلياتهم التحليلية والتأملية الكامنة في أعماق عقولهم وقلوبهم، وندعهم يلتقون بقطاعات المجتمع العام في

بلدهم وشخصياته من أجل مزيد من الحوار والأخبار، ثم ليسيحوا في البلاد الأُخرى قريبها وبعيدها لتتاح لهم رؤية الرياديين الآخرين وحَمَلة الفكر والعلم الشرعي ورجال السياسة ورؤوس المؤسسات وأنواع الخبراء ليقتبسوا مما عندهم، ثم يرجعوا من بعد ذلك بالرأي الذي يُرجى أن يكون أنضج، فيقولوا في مواقف الدعوة وخططها وسياساتها عن تمكّن ونظر شمولي يكافئ سعة وتنوّع المؤثرات التي تترك بصماتها على واقع الدعوة والمحيط العام، فيكون أمرهم ونهيهم له سَنَد ومرجع من التأمل والعلم والفحص الميداني، وأما أن نُتعِب مَن انتخبناهم ووضعناهم في الموطن الريادي بكبائر وصغائر من التنفيذ وأعمال التكافل و مؤانسة الدعاة وملاطفة الجدد : فإن ذلك مما ينحت من جدية الممارسة الريادية ولا شك، والوقوع في هذا الخطأ ينشأ تارة مِن وهمٍ في التخطيط ورسم هيكل الجماعة الإداري، بحيث نلهيهم بما ليس هو من مهنتهم الريادية المفترضة، وتارة ينشأ من قصور في الريادي نفسه في فهم مركزه، فيظل يحن إلى مخالطة جميع طبقات الدعاة، ويشغل نفسه بالشفاعات وجمع التبرعات، ويبذر وقته بحضور الولائم وتطييب خواطر الأصحاب، وفي كل ذلك مزاحمة للمطالعة والتفكر الهادئ والسياحة النافعة، مع عظيم ما في ثنايا هذه الأعمال المفضولة من ثواب ودلائل تواضع، بل وحتى الفائدة الحركية فيها محققّة جزماً، لأنها تجمع القلوب حوله وتوفر أحد الجوانب الأُخرى في شخصيته الريادية هذه، ولابد له من تعادل وموازنات، وهو مخاطب قبل نشرِ حبّه وجمع الأفئدة حوله بإبداء الرأي الناضج والقرار الملائم، مما ينبني جزماً على ما ذكرنا من طول التأمل وعمق الحوار مع الرياديين الآخرين وسعة العلم ودقة الخبرة بالواقع، ولو كنا نؤمن بالريادة الفردية لأعطينا هذا الجمع للقلوب أهمية أكبر، ولكننا نؤمن بتعميق الولاء للجماعة، ككلٍ أولاً، ويأتي إيماننا بجمع القلوب حول الرواد فيها كفرعٍ لاحِقٍ فقط، مشتق من مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : " حب الأنصار من الإيمان " ومن مثل إرشاده صلى الله عليه وسلم بالاستغفار للأمراء.

ويسود في كثير من الأقطار مفهوم وجوب توزيع رئاسة اللجان على الرواد، فيكون أحدهم رئيس اللجنة السياسية، وآخر رئيس اللجنة التربوية، وهكذا، أو توزيع مسؤولية مناطق العمل والقطاعات عليهم، طلباً لقوة الرئاسة في هذه الحالة، وضمان تمثيل اللجنة أو القطاع في الأوساط الريادية، مع توفير التكامل الموضوعي.

وهـذا العُـرف يحتاج إلى مراجعة، لأن اللجنة تحتاج من الجهد المكثّف ما قد لا يوفـره الـريادي لهـا، فتضـعف، أو يمـنحها جهـده فـيكون نزعه الريادي ضعيفاً، بالعكس، أو ربما يأخذها الرائد بتكلّف عندئذ وفي أعضاء اللجنة مَن هو أمهر منه لـو اسـتلمها، فـنحرم اللجنة من رئاسة ناجحة، وأقل الضرر يتمثل في احتمال تبدل رئاسة اللجنة عند تجدد انتخاب الرواد وحصول نتائج تأتي بمجموعة جديدة، ومثل هـذه السـلبيات تضـطرنا إلـى طـرح المسألة على بساط البحث التخطيطي مجدداً، والعـرف الذي جرى على اعتبار هذه التكاليف من البديهيات التي تعلو على النقاش إنمـا هو عرف نما برعاية نظرات تقليدية وقناعة ترضى باليسير، وتميل إلى الحلول الوسـط، وإلـى المـبالغة فـي الحـذر، ولربما أدّى استئناف النظر إلى تقرير وجوب **تمكيـن الـريادي مـن ريادتـه وتمـتعه بحقيقة اسمه، ومنحه " حق " التأمل والتفكر واسـترجاع الذاكرة والحوار النظري والتعلم، بل ومنحه أيضا "حق" الراحة والتمتع بالطيـبات المـباحة وبـزوجه ومالـه وولـده، لتسـتوي نفسـه وتجود قريحته وتنفطم شهوته عن قلق وتتبع، فيجوّد رأيه وقراره.**

ويجبهـنا هـنا اعتراض يرى في احتمال تبدل مجموعة الرواد عند كل انتخاب نقضـاً لهـذه الإيجابـية التـي سـيحوزها الـرائد، إذ سُـتحرم المجموعة الجديدة من العناصـر التـي نضـجت وأقصـاها الانـتخاب. ودفـع هذا الاعتراض جدّ بسيط، لأن العناصـر الـريادية التي أنضجها التأمل والحوار والتعلم ووفرت لها الراحة والسكينة سـتكون علـى العكـس قوية الموقف في الانتخابات اللاحقة، وسيكون نضوجها أهم أسباب تكرر انتخابها، وعند ذلك يكون هذا المنحى الذي نستصوبه من عدم إرهاق الـرواد بالـأمور التنفـيذية أهـم سـبب يـؤدي بنا إلى تحقيق ثبات المجموعة وعدم ضـياع الـتجربة أو إقـلاق العمل مع كل تبديل، ويمكن زيادة الطمأنينة بإبقاء ثلث القدماء مثلاً من رواد المجموعة لا ينالهم التبديل بالانتخاب بل بالتعيين من الأمير كـي تـبقى الممارسـة اللاحقة مربوطة بالتجربة السابقة وغير منقطعة عنها، بأن يكون إبقاء الأكثر خبرة.

أمـا تحقـيق كـون المجموعـة الـريادية متكاملة التخصص فهذا ممكن أيضاً من دون توزيـع رئاسـة اللجـان المنوعة على أعضائها، وذلك إنما يكون عبر توعية مَن ينتخـبهم بفقـه الانـتخاب وموازيـنه، وتحمـيلهم مهمة ملاحظة (التوازن) بين نزعات الذيـن يمـنحون ثقـتهم لهـم، بـأن يحرصـوا علـى انتخاب داعية مشهور بوفرة العلم الشـرعي، مـع آخر عُرفت عنه جودة الرأي، والوعي السياسي، وثالث تربوي المنحى مـن أهـل العمـق فـي العـبادة، ورابع يعرف كل طبقات الدعاة وهو شديد المخالطة

لهـم، وخـامس نسّـابة مـن رجال المجالس والمنتديات العامة والمعرفة الاجتماعية، وهكـذا، فيـتحقق الـتكامل. ومـن الممكـن أن يكون كل واحد من هؤلاء هو همزة الوصـل بين اللجنة المختصة بمثل نزعته وبين المجموعة الريادية، ويكون هو مصبّ إنـتاجها ودراسـاتها وتوصـياتها، بحيث ينقل ذلك عنها من غير أن يجتمع باللجنة أسـبوعياً ومـن غـير رئاسـة لها، بل هو الواسطة فقط بين الطرفين، والممثل والناقل الأميـن والـناقد البصـير، ولـربما يحسـن أن يجتمع باللجنة اجتماعاً موسمياً فقط، أربع مرات في السنة، فتكون أنواع الخير قد اجتمعت بهذا الحل الذي وفّـر للريادي وقـته ومكّـنه مـن الدوران في الفلك العالي، ووفّـر لكل لجنة حرّيتها وتسليمها إلى يد متفرغة لها تهبها وافر العناية.

إن الداعـية الـذي لـم يـتعود التفكـير الجـريء وشـق شرانق المألوفات سيشتق لشـفاعتنا للـرواد هذه من الشطح أوصافاً، ويسأل : ماذا سيفعل الرائد إذن ؟ وهل سـيبقى فارغاً بلا عمل إذ الغير في الإنهاك ؟ ونقول : سيتأمل لمصلحتك، ويصطاد الخواطر ليرسم طريق رهطك، وذلك أصعب العمل وأسماه.

☐ نصنع لك المنبر..... وعليك الصعود

☐ **أمـا العنصـر الثانـي فـي منهجـية الأداء الـريادي وفـق اجـتهادنا فهـو "الـثقة بالصـاعدين"**، فـإن معادن الدعاة المؤهلين للعمل المتقدم قليلة ونادرة، وما من مرة نبحـث فـيه أمـر تنسـيب الـبعض إلـى المراكز المتقدمة في بناء الجماعة أو نبدي رغبتـنا في الجري مع سرعة الآمال التخطيطية بالميل إلى التنويع والتوسيع أو إنزال القـدوات إلـى مـيدان العمـل الجماهـيري العـام إلا وتكـثر الشكايات أننا لا نجد الأكفـياء الذيـن يمـلأون الأعيـن ويُصـدقون الظنون ويحملون المهمة عند جدارة، فـيعود الـنقاش إلـى تحجـيم العـدد أو تقلـيص التنويع أو تأجيل التكليف، وتبدأ مواعـظ وجـوب الواقعـية تـترى، يـردف بعضـها بعضـا، وتبور أسواق الآمال معطية الفرصـة لـرواج دعـاوى القـناعة والـتدرج والعقلانية، **وتغدو المثالية تهمة بإمكانها إيقاف أجود الخطط وتعطيل أدق الدراسات.**

وكـل ذلـك حـقٌ، واللـه، وإنّ الطـيش لَمُـتلِف، وإنّ الجُـزاف لَمُـبدِّد، ومواعـظ العقلانـية والقـناعة صادقة، ولكنها كما أنها تريد من المستعجلين أن لا يبالغوا في تيسـير الـأمور وتسـهيل الشـروط، فإنهـا مطالـبة بـأن لا تبالغ هي أيضاً في النشاؤم والتضـعيف وتعقـيد الاختـيار، والحسـنى تتضـمن الخـير فـي جميع جوانب الحياة،

والاعتدال فضيلة، وحلّ معضلة ندرة الثقات إنما يكون في استعداد نفسي عندنا للثقة بطبقة واسعة من الدعاة أهل الذكاء ودلائل الإيمان وإن كانوا بحاجة بعد إلى علم وخبرة ووعي، بأن نضعهم في المراكز الكثيرة الشاغرة ونستمر معهم في التدريب والتربية التطويرية، فإن المعاناة ستكون ملهمة لهم وعامل تحريك، وعلينا أن ننتظر نضوجهم الحتمي بإذن الله بعد مدة من تكليفهم، وهم خلال معاناتهم يسمعون محاضرات الرواد لهم، الشارحة لفقه الدعوة وتاريخها وخفايا السياسة و موازين التخطيط، ويطالعون الكتب المنوعة المكملة لمسموعاتهم وفق قائمةٍ منهجية، ويسيحون في الأقطار الأُخرى لملاقاة القياديين والاقتداء بالناجح منهم، وزيادة جدوى السياحة بلقاء المفكرين والعلماء، والحوار معهم، وفي الرحيل إلى المؤتمرات والساحات الساخنة وقت سخونتها إتمام لشروط النجاح هذه، ونتوقع نسبة عالية بإذن الله مِن النجاح من خلال هذه المنهجية في الأداء، التي يقترن فيها التكليف بالتطوير معاً، ولا بد من وجود البطيء المستعصي على آمالنا في الارتقاء السريع به، كأي ظاهرة في الحياة عموما، ثم لابد من وجود المغرور الذي يسيء تفسير حُسن الظن به، فيرتكب العسف ويلفّه التيه والإدلال ويهلك نفسه، لأن الشيطان يغري، والقلوب بين واسع وضيّق، ولكن هذا العجز في فِراستنا وقصورها عن اكتشاف هؤلاء قبل إناطة الأعمال بهم لا يلغي الصدق في الشطر الأكبر الآخر منها.

ويعود هنا مَن يُنكر جُرأتنا ليعترض، مفترضاً أنين الجماعة تحت ضغط أخطاء هؤلاء الجُدد في المسؤولية، وسائلاً عن التصرّف إزاء احتمال غرورهم.

وإنما هو أنينه ليس أنين الجماعة، والجماعة بخير دائما، ويهب التقويم قُصور بعض رجالها لإحسان الآخرين منهم، ولسنا نحتاج في هذا الموطن إلا إلى ضغط على النفس وصبر وتكيّف معنوي نسوغ معه وجود الصاعدين الذين لم يتموا الشوط في مراكز المسؤولية، فإن أجواء توجّس الخيفة التي نشيعها قد تقذف في قلوبهم الوسوسة، فيقعوا في الخطأ من فرط الرهبة وتوقّع الملامة، بينما يُسرع بهم موقف التشجيع والدعاء ومنح الثقة نحو الصواب إسراعا، وإذا كان أمير الجماعة مهابا، وله طاعة وافرة، ويسود مجامع الدعاة الاعتراف بفضله، ثم إذا كانت عصبة الرواد في الصف الأول الذين معه على مثل ذلك ولها سمعة طيبة بين طبقات الدعاة : فإن غرور المغرورين لن يضر بإذن الله، وستبقى الجماعة محفوظة بهؤلاء القدوات الذين يعيدون الأُمور إلى نصابها، كلما تعرّضت لخطر الانحراف وضوضاء اللغو، ولن يخاف حيصة المغرورين غير ضعيف النزع قليل الاكتراث بالتطوير، وليس في الحياة

مصلحة محضة ولا مفسدة محضة، إلا يسيرا، وإنما تأتي معظم الأُمور مختلطة، فما رجحت مصلحته على مفسدته : حَرَصنا عليه، وجزء " الثقة بالصاعدين " من منهجية الأداء الريادي " مختلط بمفسدة قليلة نعترف بها، ولكن الفوائد أكبر، والتوكل على الله أعظم.

❑ نحن الخلفاء في الأرض

❑ العنصر الثالث :

" مواكبة نزعات الطموح ".

فإنّا نفهم أن التخطيط داخل ضمن عملية الأداء الريادي، وفي التخطيط مذاهب ونزعات متباينة، ومن هنا فإنه يترك بصماته الخاصة على الصفة المنهجية في هذا الأداء، ويغاير بين اجتهادات المجتهدين فيها وطرائقهم وفهمهم لمعنى اقتحام المستقبل، والمستقبل غيب مجهول مثل بحر الظلمات عند السابقين، ولذلك تختلف خطوات الواقفين على شواطئه، مِن بين صاحب حذر شديد يمد رجله نصف مدّ، ليلمس إبهام قدمه ماءه مختبِراً قبل مدها كاملة، وآخر غطّاس لا يكترث، وفاز باللذة الجسور. ولكن **كما إن العِلم غير المباشر يقوم مقام الرؤية والخبرة المباشرة أحياناً، كمثل اليقين بكروية الأرض الذي أقنعَ زمرة مقدامة على اقتحام بحر الظلمات وإن لم يختبروه مباشرة بتدريج، فأوصلهم يقينهم إلى البر الذي حلم به الحالمون : فإن استقراء أخبار الأُمم أيضاً وتاريخ السياسة وظواهر الحضارات والعلم بكروية الحياة ودورانها وفق موازين ثابتة يغري المستقرئين بسرعة المضي والجسارة والإقدام في عالم الدعوات.**

نرى الطموح، وبمثلِ هذا المنطق نشكر صاحب موعظة التأنّي على حُسن نيته، ونردّ تهمة التهور التي يُتهَم بها كل طامح، **فإنا لا نجري إلى مجهول وظلمات، بل إلى وعد رباني وبشائر، واستقراء العلوم والتواريخ يودع في قلوبنا السكينة.**

وأعتى خصوم الطموح : الإسراف في الاحتياط في بعض الأقطار، حتى لكأنه قَذَف الرُعبَ في القلوب وأصبحت الحركة بطيئة السير إذ الأيام تتلاحق بسرعة و ما نكاد نلحق بمتغيراتها، وصار الوعي الاحتياطي الذي بثثناه دهراً عامل تعويق حين فسره المفسرون بما لا تحتمل نصوصه، ولقد تقدم علينا التافهون من شتى الأحزاب، وآن للدعاة أن يستدركوا.

وماذا على الدعوة لو تضمخ نفرٍ بدمائهم وجلس مئات بين يدي محقق وُقذف بعضهم في الزنازين ؟ أليست هي سنة السياسة ؟ أم نريد المغانم بلا مغارم ؟ وكيف يتحلق حولك أُلوف الأنصار ما لم تقدم التضحيات. وإذا لم تملك البداية فكيف ترشح نفسك للنهاية ؟

هي الحياة ما وجدنا في عَرَصاتها غير صراع وتحديات، فمتى يتوب الذين اخترعوا المقدار الزائد في الحذر.

ولنا وعي بحمد الله يمنعنا من الارتجال والطيش والتوترات وردود الفعل الساذجة لحوادث السياسة المتكررة، ولكننا نناقش مبدأ الاستعداد للتضحية ومبدأ الطموح الحالم، وكل منهما ينبني على الآخر ويتولد منه.

فليخض الرواد البحر ويستنفروا الدعاة للخوض معهم، فإن الله معوضهم عن كل فاتر بعشرة من الفائرين الذين يصبرون على اللأواء والكد والحرمان.

إن مبدأ الطموح يدعو كل مجموعة ريادية أن تستكمل بناء اللجان والمؤسسات، وأن تتوسع في التنسيق مع المسلمين الأفراد الذين يأبون الانضمام لعلّة ما، وليكن لها ولع بالعلم، فإن آثاره بعيدة، وبالتطوير، فإنه فتّاح المغاليق وسدّاد الشواغر.

ويجمل هنا أن يتذكر الرواد جملة شعارات تخطيطية بالغة الأهمية، ولينقشها كل رائد على راحة كفّه، ليتذكرها كلما نظر إليها، فإنها من مكملات مذهبه في الأداء الريادي، وليكتب على راحته الطاهرة بعد وضوء بالماء والثلج والبَرَد :

- أننا نقود الطاقات الإسلامية في المجتمع، ولا نشترط أن ننفذ كل أنواع الخير بأيدينا.

- وأننا نسعى لصنع الجو المحيط الخارجي المساعد، لنحمي الداخل ونمهد للعاملين.

- وأننا ننوّع وسائلنا وفنون تأثيرنا لنوافق تنوع أذواق الناس.

- وأننا نراعي تنوع مهارات الدعاة ونستثمرها جميعاً في ساحات العمل المتنوعة.
- وأن علينا التفاعل مع المجتمع وحمل هموم الناس بلا احتجاب وعزلة.

- وأن نَنْفُذ إلى مراكز الثقل.

- وأن نستعد مبكراً لواجبات خططية مؤجلة لمراحل متقدمة.

- وأن التطبيق المأسور إلى الإمكانات الواقعية لا يلغي صواب التخطيط الطافح بالآمال، لِتشخص المثالية كهدف مرئي نسعى إليه، ثم لا يكلف الله عند التنفيذ نفساً إلاّ وُسعها.

- وأن العملية الريادية الناجحة هي التي ترسم جدولاً تنفيذياً تترجم فيه أماني المخططين والمفكرين والفقهاء إلى واجبات محدّدة منسوبة إلى شخص وزمان ومكان.

- وأن الخُطة الشاملة هي من دعائم وحدة الجماعة معنوياً ونفسياً وتنظيميا.

وكل هذه الشعارات في هذه العُشارية تنتصب معالم بارزة ومفاصل رئيسة في منهجية الأداء الريادي المكملة لمنهجية التربية الدعوية. ۞

منهجية التجانس مع عصر التخصص

9

غالباً ما تنطلق رؤى الفقه الدعوي من خبر يستفز الأعماق فيقود الداعية إلى التفكير الملي، فيراجع حساباته، فيكتشف مصادر خير قريبة منه قد ذهل عنها.

وقد شدني وأنا أطالع حياة المسلمين الأُولى : أن الصحابة زمن عثمان، ﷺ جميعا، رشحوا سعيد بن العاص ﷺ لضبط عربية القرآن عند تدوينه، بينما هو صحابي صغير، مما يدل على **أن أمر المسلمين منذ القديم كان يقوم على وجود أهل الخبرة والاختصاص، والرجوع إليهم فيما اختصوا فيه.**

كانوا جميعاً عرباً فصحاء، لكن برز من بينهم سعيد بن العاص الأُموي كخبير لغوي.

ففي فتح الباري نقلاً عن أبي داود أن عثمان ﷺ سأل : من اكتبُ الناس؟ قالوا : كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت. قال : فأي الناس أعرب ؟ وفي رواية : أفصح ؟ قالوا : سعيد بن العاص. قال عثمان : فليمل سعيد وليكتب زيد. ومن طريق سعيد بن عبد العزيز أن عربية القرآن أُقيمت على لسان سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أُمية، لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله ﷺ.

قال ابن حجر: (وقد أدرك سعيد بن العاص هذا من حياة النبي ﷺ تسع سنين. قال ابن سعد، وعدوه لذلك في الصحابة، وحديثه عن عثمان وعائشة في صحيح مسلم، واستعمله عثمان على الكوفة ومعاوية على المدينة، وكان من أجواد قريش وحلمائها، وكان معاوية يقول : لكل قوم كريم وكريمنا سعيد..).

ويتضح أمر سعيد أكثر حين تفهم ما يعنيه مولده المتأخر، فهو صحابي صغير، وكان كبار الصحابة مازالوا يوم تدوين المصحف أحياء، ومع ذلك قدم عثمان رضي الله عنه قوله لعلمه الواسع بلغة العرب.

ومثل هذا الخبر كان كافيا لتحفيزي إلى إعادة مراجعة قضية التخصص في الأداء الدعوي، فأطلت التأمل، فخرجت بقناعة أن ما مضى من تسويف قد تجاوز حد الكفاية والإشباع بكل المعايير، وأن كل أعذار التأخير قد روعيت، **وأنه لابد من تكثيف الدور التخصصي في المرحلة الحاضرة من مراحل الأداء الدعوي في العالم أجمع، عبر التدريب في مؤسسات المجتمع والدولة معاً، إضافة إلى مؤسساتنا، وعبر الإعلان عن النفس والمخالطة العامة.**

أنا لا أعيب خطط الدعوة، ولا أتهمها، وأنا بريء من شباب ينشغلون بلوم الجيل الماضي الذي بذل ووفى وصدق وربىّ ومنح الهبات وسنّ سنن المعروف وكشف الدرب وأدى الأمانة.

أنا الوفي لمن ربّاني، والصديق المحترم لأقراني، والمملوء أملاً بجيل الصحوة الجديد الصاعد، ولا أتهم أحداً ، ولا أنا بناكر للجميل.

كل الذي أ قوله: أن الخطط الدعوية الماضية قد أدت الذي عليها،واجتازت بالدعاة المراحل، ونجحت في تحقيق أهدافها، من نشر أفقي للدعوة، وتدوين للفكر الإسلامي الحديث، وتربية إيمانية أخلاقية لجيل واسع، وإرساء لثوابت الدعوة، وتجديد للهمم، وعناية بقضايا الأمة ونكباتها، وإحياء لروح الجهاد ونشر وعي سياسي، وبعث الثقة ومحو الإحباط، ونجدات خيرية على امتداد الساحة، وتأسيس مدارس ومساجد ومياتم، ومحاربة جهل، وإماتة بدع، وترويج سنن، وحفظ موضع قدم لرجال الإسلام في عرصات المنافسة.

أقول : ثم الدعوة الإسلامية الآن في مرحلة جديدة، مرحلة قيادة الناس قيادة عريضة، ولذلك أنادي بخطة جديدة، وبتطوير، ورفع طبقة أخرى من البناء فوق طوابق السلف.

وعنوان هذا التطوير: الممارسة التخصصية في ميادين الحياة جميعها، من علوم وآداب وإعلام وفنون واقتصاد وسياسة.

نعم أريد أن أُفهم إخواني دعاة الإسلام صناعة الحياة، بعد أن اكتشفت أنهم مازالوا لا يفهمونها، ولآطرنّهم على ذلك أطراً، وأحصرهم في زاوية حتى يعلنوها

توبة مكفّرة لذنوب الارتجال والتبسيط غير مشوبة بزهد متكلف أو تواضع ينحيهم جانباً ويفسح المجال لصولات أعدائهم واسعا.

لسنا أول أثنين إذ تكتشف معي أيها الأخ أن الإسلام بسيط، وأن الإيمان قريب من طالبه، وأن الزهد يمدك بشعور من العزة تتكبر به على جميع أنماط الحياة الجاهلية ومخادعاتها ومتاع الدنيا الزائل.

قد أرشدني ابن المسيب قبلك، ثم الثوري، ثم ابن حنبل، وعلموني بساطة الإسلام وسماحة الإيمان، فأنا من بعدهم مؤمن بأن هذا الدين القيم إنما هو دين الفطرة، ومن لاذ بالعفاف فقد اكتفى، وهو سيد الزمان والمكان، وفوق جميع عبيد الشهوات.

لكن هذا المؤمن هو المؤمن الفرد الذي تمنحه قوة الإيمان عصمة من الذوبان في المحيط الجاهلي، فيعيش مستعلياً مستقلاً ثابتاً راسخاً، لا يأبه لمغريات أو محن.

إنما أنا أريد مؤمنا آخر، هو أخو هذا المؤمن في مناقبه هذه، لكنه المسيطر على زمام الحياة، يقودها، ويعلم الناس من مركز السلطة ومنبع القوة علم الإيمان، وهذه الحياة هي المعقدة، ولذلك كانت خطته لاعتلائها معقدة غير بسيطة ولا مرتجلة ولا سطحية، وليس الإيمان هو المعقد.

☐ مع الناس... في جلبة أسواقهم نتربى

الشرط الضروري لولادة هذه التخصصات تهيئة البيئة الملائمة، وهذه البيئة تتمثل في ممارسة عملية **لهذا التخصص في المحيط العام وليس في المحيط الدعوي الخاص**، إذ هناك السعة والمكان الرحب والعلاقات الكثيفة مع جميع الناس وكل التوجهات، بما تتيح من دوافع تنافسية وتحديات متواصلة تضع الداعية في هيئة التحفز الدائم والمحاولة المستمرة.

وهذا يعني لزوم الخروج إلى حالة العلانية، أي أن يعلن الداعية عن نفسه كمسلم ملتزم، وأن يجهر بآرائه في قضايا المجال الذي تخصص فيه وفي غيرها، إن أجاد ذلك أيضاً، ولا يلزم أن يذكر صفته كعضو في جماعة، ولكن تخمينات المتعاملين معه قد تقترب بهم من كشف هويته، ولا أجد حرجا في ذلك، وأرى أن

يتقبل هذه الاحتمالات لوفور المصالح، بل حتى المخابرات الحكومية قد تكتشف معدنه، ولا أجد حرجاً ثانياً في ذلك، إذ غاية ما سيكون منها أن تمنعه من تولي الوظائف العامة ذات التأثير، وفي الوزارات السيادية بخاصة، وقد ذهب عهد المحن الطويلة والسجون الرهيبة، وساعدت التطورات المدنية ومظاهر الديمقراطية على هذا الذهاب، وما ثم إلا محن محدودة ندفعها ثمناً لنشاطنا وممارستنا التخصصية، أو مضايقات في بلاد قليلة نستثنيها من تخطيطنا التطوري، هذا إن لزم الأمر، وقد أصبح الإرهاب الحكومي سلاحاً ذا حدين، لأن حرمان الداعية من حقوقه السياسية والمدنية سيوجد حالة مستمرة من التوتر الاجتماعي والسياسي يستثمر في المآل لصالح الدعوة وتكون الحكومة هي الخاسرة، بما مهدت من أسباب تغييرها، وكم من حاكم كان ضحية خطط خاطئة مارستها مخابراته عن ضيق نظر وإتباع لأساليب بالية من الكبت تجاوزها الزمن، والامتزاج العالمي المتزايد، والإعلام العالمي الذي دخل كل بيت، وعدوى الحرية، ودعوات حفظ حقوق الإنسان، كلها عوامل تعمل لصالحنا كدعاة وليس لصالح الحكومات.

وانطلاقا من هذه الحقائق، أو على الأقل : عبر هذا التحليل الذي أنا به مقتنع : أصبحت أحمل عقيدة راسخة بأن أطوار العمل السري المتكتم قد استحالت ضرراً بعد أن كانت ضرورة، وإن المرحلة التي فرضتها قد ولت وانتهت، وأننا نعيش مرحلة جديدة يليق لها الإعلان عن النفس، والعمل الصريح، وكشف العناصر، ورفع الحواجز.

أنا الآن حين أدقق حساباتنا الماضية و أُراجع أحوالنا : أرى أن السرية قد ولدت فينا الانكفاء على النفس، والعزلة عن الناس، والرضا بالعيش في مجتمع صغير جداً صنعناه لأنفسنا، والوحشة من مخالطة المجتمع الكبير الواسع الذي يحتوي مجاري الحياة العديدة، وبسبب طول مدة هذا الانكفاء الذي استساغته نفوسنا والسجن الاختياري الذي لجأنا إليه قتلت فينا قابلية الإبداع وضمرت الروح الاجتهادية وتقلصت النزعة القيادية، ولا ينمو تخصص بدون هذه اللوازم، وبذلك أصبحنا نرى الداعية يراوح في مكانه سنوات طويلة بلا تطور في علومه وخبراته وشخصيته، ويفضل العيش في الظل، والمؤخرة.

يجب وضع حد لهذا النمط الخاطئ من التعامل مع الحياة وحركتها.

يلزمنا اقتحام لمجتمعات الناس، وأن نرشح أنفسنا لقيادتهم، أو على الأقل كمرحلة أُولى : أن نقترب منهم لنستفيد من قابلياتهم وعلومهم وأموالهم وإسالتها

إلى وادي الإسلام، ومثل هذه المهمة تقتضي أن نتجاوز وجودنا في جمعية إسلامية، ومجلة إسلامية، ومدرسة إسلامية، وشركة إسلامية، وجامعات إسلامية، وفي باقي سلسلة المؤسسات الإسلامية التي حصرنا أنفسنا فيها.

وجود هذه السلسلة مهم جداً ولا أنكر ذلك، لأنها تمثل الوجود الإسلامي المستقل، وتشخص كمثال على ما نريد، وهي التي تضمن عدم ذوبان الدعوة في المحيط، وإليها يفئ الدعاة عند التعب وهبوط الإيمان، فتتجدد العزائم وتتنقى الدماء.

لكن لا نحصر أنفسنا في حدود هذه المؤسسات الإسلامية، بل نوزع عناصرنا ليكونوا أعضاء في الجمعيات الأُخرى والنوادي والنقابات، ومحررين في الصحف الأُخرى، ومدرسين في الجامعات العلمانية، وفي المدارس الخاصة التي ينشؤها غيرنا، وأن نشارك في التجارات من ليس داعية من أجل أن نكون أعضاء في مجالس إدارات الشركات التي يكون لبعضنا فيها حصة، وأن يعمل بعضنا في البنوك الربوية من أجل حيازة خبرتها والتدخل في صرف بعض أموالها بما يسهل تجارات الدعاة، وثم أن نرسل بعضاً آخر للدخول في الأحزاب الحكومية والأحزاب غير الإلحادية من أجل وصولهم بعد سنوات إلى مراكز قيادية في هذه الأحزاب وتوجيهها لصالح الإسلام وبما يقلل الشر ويزيد الخير.

ولي من الناحية الشرعية إفتاء بتجويز هذه المخالطة الربوية والحزبية للداعية المسلم إذا أتاها بنية الإصلاح ومن خلال خطة جماعية وليس لتحصيل منافع شخصية، وقد تابعت في هذا الإفتاء بالحل غيري، وليس هذا هو موطن التفصيل الفقهي في هذا الباب، وإنما شرحته في كتابي (أُصول الاجتهاد في فقه الدعوة).

ويستغرب بعض الدعاة من مثل هذا الكلام، ويرون أن التأثير الإسلامي الذي يبتغيه الدعاة الذين يعملون ضمن مؤسسات غير إسلامية سيكون ضئيلاً محدودا. ولذلك هم في شك من صواب هذا التخطيط.

وظاهر الأمر يمنحهم تأييداً لظنونهم، إذ أن الانطلاق الإيماني المستقل أقرب إلى التأثير في المقابل، والهوية الواضحة تساعد على تفهيم القول وعلى ربط السامع بالقائل، وعلى أنواع من الامتزاج المعنوي والاسترواح النفسي، وهذه فوائد عظيمة ينبغي أن لا يغفل عنها أي داعية حين يمارس مهمته، وأنا للوضوح مؤيد،

وللاستقلال أدعو، بل كان مبتدأ كلامي هو وجوب الإعلان الصريح عن أنفسنا، ويدرت مني حماسة نحو ذلك حدت بالبعض أن ينصحني بالإبطاء وبترجيح الحقائق الواقعية على المثاليات العائمة، وأنا اعترف بأن هذا النوع من الحماسة وسرعة الاعتناق للخواطر البراقة هو نقطة ضعف رئيسة في تكويني، **ولكني مع ذلك أرى أن في كثافة انتماء عناصرنا إلى المؤسسات غير الإسلامية فوائد باطنة عديدة تزيد على ما في ظاهر الأمر من مصلحة التأثير**، ذلك أن السعي الدعوي لا يقتصر على محاولة قذف أفكارنا وآرائنا في عقول وقلوب أُناس جدد نحاول تحصيل استجابتهم لنا، لتوسيع قاعدتنا وعدد عناصرنا، وإنما يتعدى هذا السعي الدعوي ذلك إلى أهداف أُخرى كلها تصب في النهاية في صالح الدعوة.

❑ منها : **تنمية بقايا الخير لدى رجال المؤسسات الأُخرى وفي أنظمتها وخططها وأهدافها**، فإن الناس لم تغلق على سوء، وإنما هو تخليط، فهناك صواب يمازج الأخطاء، وساعات إفاقة أثناء أيام السكرة، وبقايا فطرة وإنصاف، ومن الممكن للداعية أن يستثمر هذه الإيجابيات من بين ركام السلبيات، وتحصيل المردود من هذه العملية بطئ، لكنه يتعاظم تدريجياً ليكون عاملاً مساعداً للعمل الدعوي.

❑ **ومنها : عملية معاكسة في كبت الشر من خلال هذه المخالطة**، والتخذيل لأهل السوء عن تنفيذ ما يرومون فعله، وحصرهم في زوايا ضيقة بحسب الاستطاعة، وتأليب الأخيار ضدهم، وتبدأ سلسلة هذا الكبت بمواعظ للأشرار، وزجر، وتخويف من الله، وتنتهي بقرارات مانعة تستصدرها مجالس الإدارات، وبين هذين الحدين الأولي والنهائي أنواع من الأعمال الكابتة والجدل بالتي هي أحسن والتسويف والفضح، في فنون عديدة.

❑ **ومنها : توجيه مجموعة الحقوق الدستورية والقانونية والإدارية والمالية التي تتمتع بها هذه المؤسسات بما يلتقي مع الهدف الدعوي في الإصلاح الاجتماعي أو التأصيل الثقافي أو التقنين الشرعي أو اتخاذ موقف تجاه قضايا الأُمة الكبيرة أو نجدة الأماكن المنكوبة**، وما لا تستفيد منه الدعوة في نفس البلد قد تستفيد منه الدعوة في بلد آخر، أي نقوم بتصدير هذه الإيجابيات، وبالمقابل قد نستورد إيجابيات مؤسسات أُخرى في غير بلدنا.

هذا إضافة إلى أن هذه المنتديات تتيح للداعية أن يحاور وينشر فكره، وأن ينمي شخصيته العملية، ويكتسب الخبرات الدقيقة منها، عبر العمل لها أو اقتباساً من رجالها المجربين، مع ما قد يقترن بهذا الانتشار وما يتيحه من مخالطة من

اكتشـاف أسـرار، ورصـد فـرص، ونجاح في شفاعات، والتمتع بغطاء أمني، وتحرك رسـمي، وبروز إعلامي، وجمع أموال، وتحصيل امتيازات، وترويج تجارات، وأنواع لا حصر لها من المنافع.

وغايـة هذا الإسهاب : تنبيه الدعاة إلى أن العمل الدعوي أوسع من أن نحصره فـي تجمـيع عناصـر جديـدة وضمها إلى صفوف الدعوة، وإنما هو قائمة طويلة من أنـواع كثـيرة من أشكال النشاط والمصالح والاحتياطات الوقائية، **وأن الوصول إلى الأهـداف الإسـلامية لا يمكـن عـبر جهود الدعاة فقط، وإنما تحققه أيضا إضافات الأصـدقاء والحلفـاء والمتعاونيـن، بـل ويعيننا أيضا : نجاحنا في تحييد آخرين، ومـا هـذه إلا عـبارات موجـزة تصـلح كعناويـن فقـط لفـن عـريض مـن الأسـاليب والمداخـل والمخارج والمناورات والالتفافات والتحالفات والعزل والحصر، وينتظم كل ذلك تنسيق وتكامل في الأدوار.**

ويـتخوف دعاة آخرون من ذوبان عناصرنا العاملة في المؤسسات غير الإسلامية، ومـن ضـعف روحـي وعـبادي يعتريها بسبب تأثير المحيط، قد يؤثر في النهاية على مدى الولاء.

وهـذا اعـتراض جيد، والذوبان مرئي، لكننا لا نصف هذه الخطط لدعوات ناشئة جديدة لازالت تحبو ضمن مرحلة التأسيس الأولي، مما يليق لها عزل عناصرها عن المحـيط كلـياً أو جزئـياً لتلقيـنهم ثوابت الدعوة وفكرها، ولتزكية قلوبهم وتدريبهم علـى الـتخلق بمكـارم الأخـلاق، **وإنما نحن نخاطب دعوة تقدم عمرها وطال، نريد أن ننتشـلها من ترهل يغزوها، وبطالة قد تتفشى فيها، وورم تكاثري لا يوازيه تطوير نوعـي، وجمـود علـى أسـاليب عتيقة تجاوزها الزمن، وتخلف عن استفادة من تقدم علمي عالمي ما زال يقفز كل سنة إلى مستوى عال جديد عبر اختراع طريف.**

إن مـن يتساقط بسبب الترهل والتبطل أكثر عددا ممن يضعف بسبب المخالطة، ومن يهجر الصفوف اعتراضاً على رجعية الأساليب أكثر من كذلك.

لكنـنا مـع ذلـك لا نسـلم تمامـاً بمـنطق الذوبان هذا، لأن الذي نريده ليس هو إرسـال هـؤلاء الدعـاة إلـى قطاعات المجتمع الفسيح في انتشار واسع دونما تمهيد ووقايـة وإدامة ورقابة، وإنما هي خطة متكاملة، تبدأ بتربية نفسية، وشحنات معنوية، وتمـر بتوعية وتفقيه وتدريب، وبأوبات شهرية إلى المثابات الدعوية للتزود وتجديد الهمـم وغسل القلوب، وبإمداد المنتشرين بشريط اتصال عبر الانترنيت، ثم شد هذه

العناصر الدائبة في مساراتها ومداراتها البعيدة عن المركز إلى قيادات دعوية ظاهرة معلنة تتحدث لها ومعها، فيكون هناك تبادل روحي يرمم التلف ويرطب الجفاف، ووجود هذه الزعامات الدعوية العلنية شرط أساس لنجاح هذا التخطيط.

❏ ذهب زمن البدائية

لكن لابد أن يتطور الدعاة مدنياً ويواكبوا الأساليب التكنولوجية المتجددة السريعة التطور إذا أرادوا أن ينجحوا في خطة المخالطة الاجتماعية هذه.

لقد نقل العلم الحديث الدعوة الإسلامية إلى موقف ذي حدين. تنظر الواجب المتعين على الدعاة في تطوير أساليبهم وأدواتهم فتستكبره حتى لتظن ذلك معضلة، ثم تنظر في عين الوقت المنح والفوائد التي يمكن أن نجنيها من ذلك فترى جانباً إيجابياً يغريك بتطوير عناصرك وأدواتك بما يوافق آخر المخترعات.

إلا أن الداعية اليقظ لا يحل له أن يبقى حائراً متردداً بين شعور الإعضال وسمة التفاؤل إزاء هذا المفترق، وإنما عليه أن يحسم الأمر سريعاً، وأن يقبل التحدي ويشرع في التحديث ومواكبة الاكتشافات التي أصبحت تتوسع من موسم إلى موسم.

وأهم ما في هذا المجال : استخدام الكومبيوتر، ليس كآلة وبرامج حسابية وإدارية فحسب، فإن هذا المقدار قد تجاوزه الناس، كل الناس، حتى أن مكتباً تجارياً في غابات أفريقيا، ليصدر مراسلاته ويدير شؤونه بواسطة الكمبيوتر، ولكن **أن نستخدم ثورة المعلومات والانترنيت ومزايا التحاور المباشر عبر الشبكات والبث البريدي، إلى درجة إعلام أصحابك ومن تريد مواصلة تفاهمك معهم بخلجات صدرك وخواطرك اليومية عن طريق مكانك في الانترنيت، وبأحاسيسك وتذكيراتك وتقارير عن آخر الأحداث فيما حولك وتحليلك لأخبار تهمك وتهمهم.**

نقطة التعقيد هنا : أنك إن لم تتطور فإن الضرر لا يقتصر على أنك تخليت عن تسهيلات عديدة الأنواع فحسب، وإنما ستفقد الجيل الجديد الصاعد الذي أصبح يتربى في المدرسة وعبر مخالطته أفراده بعضهم لبعض على هذا النمط من الحياة الألكترونية، **فإن لم تكن أساليبك ومحادثتك له ومواعظك ألكترونية فإنه سوف يعرض عنك** ويكون بطيئاً في الامتثال لك، وسيؤثر فيه غيرك، وما يدريك ما هذا

الغير، واحتمال أن يكون يهودياً أو كافراً أو ماجناً أو مخرّباً أو مروجاً لعقده النفسية، مخالفاً للفطرة منتقماً من جميع الحياة الإنسانية.

إن لم تتحدث مع الجيل الإسلامي الصاعد بنفس اللغة العصرية التي يستخدمها فسيقاطعك وينشغل عنك.

قل ما تشاء من أن الحياة الإيمانية تتطلب البساطة والسكون وهدوء المسجد، وأنا معك، وأنت الصادق، لكن ما الحل وقد أصبح العالم قرية واحدة، ولساناً واحدا، وقنوات متشابكة ؟

وما الحل والوجوه رانية إلى الشاشات منذ أيام طفولتها المبكرة ؟

أقسم بالله أن التطور واجب، يا من لا تقنع إلا بقسم.

أما من أين تأتي بالمال، فهذه ليست مشكلتي، إنما هي مشكلتك إذ فرطت في تكوين طبقة رجال الأعمال الدعاة وعليك حلها، وطريق ذلك التوبة.

❑ امتيازنا النوعي يرشحنا لقيادة الناس

بل الأمر أبعد من هذا، فإننا إن تخصصنا بالمقدار الذي نوازي به الناس ما نكاد أن نثق بأننا فعلاً شيئاً كبيراً، إذ غاية ما هنالك أننا سنكون لهم أقراناً ونساويهم، ونكون قد اجتزنا نقطة التخلف، لكننا نريد قيادة الناس، **ولن تكون قيادة الناس إلا بالامتياز والتفوق التخصصي الكمي والنوعي.**

لذلك أخي الداعية : أُريد لك التميز، وأنتظر منك الإبداع، وأن تترك بصماتك الواضحة إذ أنت سائر.

قل لي : ماذا تعني كلمة تسمعها عن رسائل كتبها غاندي، حين يقول باحث : إنها رسائل كتبت بلغة راقية !!

أنا الآن لا أدعوك إلى نظر مكانته القيادية وزعامته لقومه وثقافته، وإنما أدعوك فقط إلى رؤية ما عضد ذلك من لغة إنجليزية فوق المستوى العادي، وانظر ماذا يعني ذلك، ولم لا يكون بعض الدعاة مثله مع ما أتيح لهم من سكنى في الغرب طويلة.

وأنـا أسـتطيع أن أضـرب لك ألف مثال آخر لرجال تميزوا بفصاحة، أو بعلم، أو باختـراع، أو بنظرية ابتدعوها ورموز أضافوها إلى المفاهيم الإنسانية، ثم لرجال صـبروا علـى لأواء، ولعصـاميين شقوا طريقـهم بأظافرهم، بل مثل هؤلاء أُلوف في كـل أمـة، وهـم عشـرات أُلـوف على امتداد الأرض، وملا يين إذا ضرب في التاريخ النظرُ وأبصر النبلاءَ على تعاقب الأجيال.

لكنـي أحب الآن تجاوز هذا النمط الإحصائي إلى الأصل الإنتاجي لهؤلاء، أي إلـى قـراءة شـمولية لظاهـرة (تنوع المؤثرات الحيوية)، وانفتاحها أمام كل البشـر، وبالتالـي : انفـتاحها أمام دعاة الإسلام أيضاً، كنتيجة حتمية، إلا قليلا مما يمنعه حاكم ظالم، أو ظرف استثنائي.

انظر صنعة الفكر المحض كمثل، والتي لا يستطيع أعتى الظلمة تعتيم لمعاتها : كـم أنتجـت من فلسفات، وتأملات رمزية، ومراقبات اجتماعية، وفهم لمسار التاريخ والتبدلات الحضارية.

وانظـر عشـق الحـرية كمثل آخر : كم ساق قلوباً إلى البذل، وأفواهاً إلى نطق بحكمـة سائرة وشعر محرّك، وكم قاد جموعاً إلى موقف ثوري رافض وعناد مستعل، وتقدم جريء.

ومعانـي القلـب الرقـيق : من زهد، وقناعة، وحلم، ورحمة، وسماحة، ومثاليات، ونهضـات مـن الجد، ونبرات من الصدق : كم فتحت من مغاليق، وربطت من أفئدة، ووحـدت بيـن نفـوس، وجمعـت اتـباعًا، ونظمت أشكالا، واستفرغت وسع أُولي قوة أو ذكاء ليخدموا قضية معينة !

وانطـباعات الأحـداث فـي داخلـيات الأنفس، وردود الفعل لهزة عنيفة أو لمسة خفـيفة : كـم رفعـت رؤوس المصـورين نحـو أعلى، فاستحال الانطباع إلى رمز فحرك الأصابع بضربات ذات ألوان فإذا الناس أمام لوحة ناطقة، والفنان صـامت! أو حركت الألسن بأبيات ذات أوزان، فرجَّعتها أصوات بألحان، فرجع الوجِلُ جريئاً !

وجفلات أصحاب الفطر النقية من ترديات بشر مثلهم سكرت أبصارهم فانتكست عقولهـم، فعـبدوا أصـناماً وذهــلوا عـن شـواهد تـدل علـى الخالق الواحد، فطفق المؤمـنون يؤذنـون، ويجـتازون المفــاوز، والغـابـات، والثلوج، والبحار، والجبال، مبشـرين ومنذريـن، فحولـوا شـعـوباً عـن وثنـية أركستها، أو تركوا في كل قوم من

أنفسهم شهوداً على سخافة الشرك، حتى أني رأيت في متحف فنوم بنه عاصمة كمبوديا شاهد قبر عتيق تعلوه البسملة لمسلم قديم يتوسط أصنام بوذا، يشهد ببطلانها.

ودلالات الوثائق المتراكمة، والإحصاءات المتعاقبة كم استلها من باحث، فنثرها بين يديه وطفق يقارن، ويركّب ويجمع الشظية إلى أصلها، ويربط اللاحق بسابق، ويعطف الجوانب على مركز، ويظل يكرر ذلك بلا ملل، فتتوضح له رؤية مستقبلية عبر الأوصاف الواقعية، فيشير على رؤسائه بخطة، فيسبقون إلى احتلال الغد، إذ المرتجل يدور في المتاهة !

ومناقلات المال بين الأيادي، التي تمكن أناساً، وتحجب آخرين، كم راقبها من لامح يفهم سر القوة، فصمّم على أن يكون ثرياً، يبيع المادة، ليشتري الأرواح، ويأسر، ويُطوق، ويُحاصر، ويغري، ويقرّب، ويُسكت، وينطق، ويجمع حصاد العقول، وخفايا الزوايا، فيستوي مسيطرا، وما في يده سلاح، بل تلعب أصابعه بمفتاح !

وكانت خالتي أم عبد الله رحمها الله تغسل ملابس العائلة في قديم الزمان بيدها، قبل أن توجد مكائن الغسيل، حتى تفطرت كفوفها من أثر المواد الكاوية التي في الصابون تلك الأيام، فشكت إلي ظريف من الأقارب فقير مخشوشن يقال له (هديب)، ففحص كفها فتأوه طويلاً، وأظهر الحسرات، وبعث الزفرات، ثم قال ملاطفاً : كفك يحتاج إلى دهن الفلوس ليبرأ.

فأخذت المسكينة كلامه مأخذ الجد، وذهبت إلى سوق (الشورجه) الشهير ببغداد تسأل العطارين عن دهن الفلوس، فنفى عدد منهم علمهم بمثل هذا الدهن.

قالت لنا : حتى أتيت العاشر، فقال لي : يا خالة، لأي مرض وصفوه لك ؟ فأرته كفها المتشققة، وشكت له الألم، فضحك، ونصحها بالرجوع إلى بيتها، ونبهها إلى فكاهة انطلت عليها، وأن هديب إنما أرشدها إلى معالجة فقرها بالمال.

وفي معترك الحياة اليوم، إذ تتقدم دعوة الإسلام في طريقها فقيرة مسكينة بلا درهم ولا دينار، فلا تكاد تصل، مع أنها تمتلك الرجال والعلوم : لن تنفعها غير وصفة هديب الحكيم.

إنه دهن الفلوس..... وكفى.

نعم.. إنها الكفوف في الكفوف، وتشهد الملائكة وفاء العهود، لكنها الكفوف المتشققة الخالية، والأساليب البالية، وثم تكبير يزاحمه تأوّه، وتفكير ينقصه تفوّه، وأولى للدعوة أن تلجأ إلى حكمة الظرفاء، تفسر بها زهد فضيل وجنيد.

ولست أزعم أن ليس في الدعاة رجال يتقنون هذه الأنواع من المؤثرات الحيوية العديدة، بل نحن نفخر أن فينا أهل فكر، ومن بذل دمه القاني طلباً للحرية، وفينا زاهد وشاعر وفنان، ووعاظ، وتجار، وباحثون، ولكني أُريد منهجا تربوياً شاملاً لتخريج أفواج من مثل هؤلاء، ليتواجدوا بكثافة كافية للتأثير في مجرى الحياة وإدارة التنافس السلمي العلمي الأدبي الفني الثقافي.

أنا أزعم أن هذا المنطلق التخصصي هو الركن الأساسي اليوم في محاولة الاستدراك، والتي يجب أن تكون ذات بعد حضاري شمولي يتجاوز الوسائل القصيرة، والاهتمامات السطحية، وتسهيلات المستعجلين في تصوراتهم الساذجة للأُمور، وظنونهم الطفولية بأن امتلاك زمام الحياة تتكفل به رصاصة بلهاء يطلقها الذين لا يفهمون حركة الحياة، وأبعاد التنافس وأوصاف الفطر، وآفاق الحضارة.

وهذا النمط من التبسيط هو المسؤول عن طاقات ما زالت تهدر، وأحزان أتلفت النفوس، وتهورات ألّبت الخصم، وأجفلت الصديق، وخذلت الحليف، وأسكتت الوسيط.

أُمورنا ابعد من ذلك أيها الأخوة، لأن حقائق الحياة أبعد.

▢ القيادة الحانية ترعى الهمم الرانية

ومن بلوغنا في التأمل والتحليل مبلغاً ابعد : ندرك أن هذه الوصفات للتعامل مع تعقيد الحياة، المرتبطة بقضية التخصص ثم بمنهج الإبداع ارتباطاً وثيقاً : لها ارتباط آخر قوي بالقضية القيادية، ومعضلة تحديد مفهومها وآفاق عملها ومعادنها ونمط أدائها، **لأن المتخصص محتاج إلى أن ترعاه قيادة واعية، وتتفهم دوره، وتدفعه إلى الأمام دوماً، وتؤمن بالذي يؤمن به من قناعات وأساليب**، ثم المتخصص من باب آخر يحتاج أن نسهم له سهماً في العملية القيادية الجماعية، بحيث نسند إليه شيئاً من المسؤولية، لتكون معاناته معاناة حقيقية عميقة، هي معاناة المؤمن المحمل بالحمل الثقيل الذي يجب أن يسلمه كأمانة إلى مكان آخر

أو مؤمن لاحق آخر، فيمشي يرزح تحت الثقل، ويشعر بالوطأة، ويخطو بجهد، ولا يكون مجرد الناظر إلى ساحة المعاناة يتعرف أخبارها من دون أن يذوقها.

لذلك فإن بداية مشروع التخصص الدعوي الكبير تبدأ بتصحيح مفهومنا عن القيادة، وأن نتجاوز به مجرد الإداريات، ثم في إتاحة عقلية قيادية عريضة واسعة تنهي الأطوار الفردية وما قاربها.

بعض القادة يقلص المعنى القيادي الواسع الرفيع تقليصاً يحيل به نفسه إلى مثل مدير يحاسب موظفيه ويضبطهم بقوة القانون ورهبة السلطة، في نمط جاف من التعامل بالظواهر وتحصيل الانقياد القسري أو المصلحي.

وليست القيادة كذلك، كل القيادة في جميع نواحي الحياة، وبخاصة القيادة الدعوية.

القيادة الدعوية نمط من الأداء العاطفي قبل أن تكون أي شيء آخر، والقائد المسلم يتعامل مع القلوب، لا الجوارح، يمدها بمعاني الإيمان، ويقوي فيها جوانبها الإيجابية، ويداري السلب إلى أن يقلعه، ثم هو يتعامل مع العقول، يطرح لها الفكرة الطارفة، ويسبق إلى تحليل مجموعة الأحداث المؤثرة في الموقف الدعوي، فيقترح مدخل صدق.

القيادي يبذر في قلوب أصحابه رغبة التقدم إلى الأمام، وفعل شيء من لا شيء، والتجاوز اليومي للنقطة التي وضعها فيها الأمس، **وهذا يتطلب روح التحدي والتحرك الهاجم والاندفاع المتواصل** واستثمار الفوز الأول نحو فوز ثان.

والبعض يحسب هذه التعابير من إنشاء الأقلام وتفنن اللسان، لأنه يستصعب هذا الشكل المقتضي لليقظة الدائمة والمبادأة المستمرة.

وعلى نقصه يقيس هذا المستصعب، لأن الإيمان والمواهب الربانية الرحمانية قريبة، موجودة، مرئية، حالّة في عالم الواقع، لكنها مغلفة بغلاف يقتضي فكه، لأنها هدية، وكذلك الهدايا تصان.

الأمر- كما علمتنا التجارب وسياق الحياة- متعلق بتوزيع قدري ترك الله الناس عليه، إذ وزع بينهم الأخلاق مثل توزيع الأرزاق، وجعلهم مراتب في الهمم والدأب

والصبر والشجاعة، وبعضهم فوق بعض في الثقة بالنفس والعزائم والحساسية وردود الفعل والمنافسة والتحدي، والنوايا متفاوتة، والذكاء مختلف.

والدعاة هم من جملة هؤلاء الناس، فيهم وفيهم، وأقدارهم شتى، رغم أن نسبهم في الإيمان واحد.

وهنا يكون اعتراضنا على من يستصعب ويقول : كيف اضمن أن يكون القيادي مؤجج العاطفة حاد العقل؟

هنا يسوغ لنا أن نسأل : لماذا لا يتاح المجال لأصحاب الصفات العالية أن يتصدروا ؟

ولماذا لا ادع الذكي المبتكر المتفائل المستبشر يقود، فتسري عدواه الخيرية إلى اتباعه، فإذا هم في اهتمام وتطلع وانجذاب نحو المعالي ؟

إن القيادة تبدأ من هاهنا، أي قيادة، إسلامية أم جاهلية، فإن انتزاع الألمعي الجسور ووضعه في المقدمة، أو وضعه هو لنفسه في المقدمة، وتصديه وترشيحه لنفسه، هو بداية القصة، وما بعدها فصول تابعة، وليست القيادة الإسلامية شيئاً مغايراً سوى أنها تختار هذا الألمعي مسلماً له شعبة واحدة من الإيمان اسمها : الإخلاص وصدق التوجه وصفاء النية.

كل ما بعد هذا الإيمان الأولي المحدود يمكن اصطناعه وإيجاده والتربية عليه، إما من خلال تربية منهجية هادفة، أو من خلال المعاناة والتجريب والتفاعل الذاتي، أو من انعكاسات المحيط.

فالإيمان له شعب كثيرة يمكن أن تنمو إذا توفرت النية الصادقة، والموعظة لها دورها المؤكد، ورؤية الأُسوة الحسنة تحمل الرائي على المتابعة، ونظافة المحيط تؤدي إلى عفاف وفطم، وعلى المدارج سابقونِ يضمنهم القدر، لهم يد ممدودة إلى خلف، يعينون اللاحق، ليتصل سند الصعود.

والعلم بالتعلّم، والمطالعة، ومشافهة العلماء، والسعي إلى حلقاتهم، وتعمد الحوار، واستقصاء الأنباء، والتدسس والتجسس، وما يحتاجه القيادي من ثقافة عامة زائدة على المقدار الشرعي أصبحت تتكفل به الصحف وبرامج التلفزيون العالمية إذا أحسن الاختيار.

ثم مرور الأيام وتقلب الأحوال ومراقبة الساحة السياسية تزيد القيادي خبرة، ويتزود منها بمعان لا تحويها الكتب ولا التلقينات، فإن كان مثلنا ساذجاً سليم الفطرة مكتفياً بمد يده إلى الأغنياء يسأل الزكاة لدعوته، وقد أكثر مدّها، وأكثروا إرجاعه خائبا يتلوى، وشووا قلبه على نار الوعود، حتى تفجرت دمعته، فتاب توبة نصوحا، وطفق يشجع الزهاد على ممارسة التجارة الحلال وحيازة نصيب من الدراهم المتداولة : فقد اكتمل له الوعي، وأصبح قيادياً حقاً.

والمقصود من هذا الاستعراض تقرير أهمية الاختيار منذ البداية، بتقديم الذكي الشجاع إذا آنسنا منه صفاء التوجه، حتى لو كان قليل العلم، قليل التعبد، ليس بعميق الخبرة، فإن الأيام والمناهج والبيئة والعدوى والمعاناة كل ذلك سيطوره ويمده بمؤهلات التخصص.

ومقتضى ذلك أن لا تعتمد اختياراتنا على وجاهات وأعمار وشهادات ومظاهر وبقايا أعراف اجتماعية خاطئة، إذ ليست هذه الصفات غير مرجحات ترجح البعض على بعض عند تقارب الذكاء وقوة الشخصية، أو هي عوامل ترجيح في الظروف الاستثنائية سدًا لذريعة من ذرائع الفتن أو المحن.

إن المشكلة الكبرى التي تصادف الدعوة في كل مكان في أمر الاختيار وتصدير الصدور لا تكمن في الاختيار الداخلي داخل البناء التنظيمي لطبقات القياديين، إذ أننا في الأغلب نستطيع التحكم بذلك والوصول إلى معادلة هي في مجملها محققة لمقاصد الفقه الصحيح في التأمير واستكفاء الأمناء، والخطأ موجود لكنه قليل، لكن المعضلة تظهر بصورة متكررة عند تقديمنا لعناصرنا الدعوية للمشاركة في انتخابات برلمانية أو في عضوية وزارة أو وظائف حكومية عليا، بل تظهر حتى في ترشيحنا لعناصرنا في مجالس النقابات والنوادي، بل حتى في إدارة جمعياتنا الإسلامية، إذا نضطر في هذه المجالات إلى مراعاة مفاهيم الناس وأذواقهم ومعاييرهم التي تختلف كثيراً عن موازين فقه الدعوة، وللناس تعلق بالمظاهر والأنساب، ولهم مراعاة لمصالحهم الدنيوية، ويستأسرون لصاحب اللسان والهيبة والنفوذ، ومن ثم تميل الاختيارات الدعوية إلى تقديم من سيرضي عنه الناس وإن كان غيره أرجح منه عندنا، وتكون موازيننا مغايرة لموازين التأمير الداخلي.

لأول وهلة ربما لا يجد الداعية حرجاً في ذلك، لأن الحكمة ترشحنا إلى أن نخاطب الناس على قدر عقولهم، لكن الحرج يبدأ بالبروز إذا طال أمد هذا الازدواج، بحيث تفهم الطبقة الظاهرية من الدعاة أنها أولى من طبقة القيادة

التنظيمية باتخاذ القرار ورسم الخطط وتحديد المستقبل الدعوي، بل قد يبرز غلو في ذلك ينادي باحتكار هذا الحق، فتتعاكس الموازين، ويصطدم مفاد التجارب العملية والفقه الدعوي ونمط التأصيل ومنهج التربية الريادية والنظر الاستراتيجي البعيد مع رغبات الاستعجال والحلول الوسط والأهداف الموسمية وخطط التعايش الائتلافي، فتقترب الدعوة من الانقسام، أو تؤمّن وحدتها بخطط توفيقية، وبرجال من التوفيقيين، ويتوارى التشخيص الصحيح والوعي الفصيح.

وقد يرد الضرر في صورة أخرى ملموسة في الدعوات التي تسرف في النزول إلى الطبقات الناشئة عند إجراء الانتخابات الداخلية، بحيث يكون تصويت الجدد أكثف من تصويت القدماء أهل التجربة والمعاناة والدراية بما في الزوايا وبتاريخ العمل والدروس المستفادة من تعاقب المراحل، وبذلك تأتي النتائج أحياناً غاية في الغرابة، وأبعد عن منطوق الفقه، فيتصدر ضعفاء، وتراعى موازين يهدرها عرف المؤمنين.

والحل لكل هذه المشاكل والانحراف عن سواء الفقه الموروث يكمن في تكثيف (فقه الدعوة)، تأليفا وترويجًا بحيث ننزله لإخواننا الدعاة بكثافة عن طريق التوسع في استنباط الدروس المستفادة من تاريخنا كأمة وكدعوة، وتدوين التجارب، وتمكين المجتهدين منا من (حق الاجتهاد) والتساؤل والاعتراض والنقد والتصويب والتخطئة، ووضع حد ينهي (التقليد) والجمود والحياء من كشف عيب ومناقشة معيب.

والمظنون أن (منهجية التربية الريادية) لو وضعت في التطبيق كنظرية معترف بها، تحدد الإطار العام لمفهوم الصنعة القيادية، ثم لو أردفت باقتراحات (معاً نتطور) كخطوات عملية تفصيلية لهذه المنهجية، مع اقتباس روح (صناعة الحياة) في تأكيد الدور الشخصي التخصصي في الأداء والدور الجماعي في التنسيق وجمع الجهود وتكثيفها، فإن شطراً من الاستدراك على معضلتنا القيادية يكون قد حصل وتوفر.

لكن هذا الاستدراك يحتاج إلى (مفاصل) رئيسة تقوم بدور الجمع والتوزيع، والالتقاط والبث، وتأويل التنظير في تفاصيله، وتطبيق المفردات عملياً بشكل نموذجي.

وهذه المفاصل هي (مراكز البحوث والتطوير) التي يجب أن تنتظمها خُطة تكاملية على المدى العالمي، بحيث تكون تحتها قاعدة من قنوات استطراقية سالكة

تحقق توزيع الأدوار وتبادل الكتلة العلمية والفنية والأرشيفية بينها، مما يحققه الكمبيوتر اليوم بسهولة، ويعين عليه عمل خاص شبيه بالانترنيت، وستقوم هذه الشبكة الخاصة بمضاعفة دورها عن طريق (التطفل) على الشبكة العالمية الواسعة من المعاهد المتخصصة ومراكز البحوث، السياسية والاستراتيجية، وامتصاص رحيقها ونقله إلى الاستعمال الإسلامي، من تحليل سياسي واقتصادي، وإحصاءات، وتقارير نادرة، ووثائق مهمة، وكل ذلك متاح بطريق قانوني رسمي لا تقف دونه حواجز مانعة، إنما المانع الوحيد هو نقص هممنا، و الكسل عن التفتيش والتتبع والرصد، أو هو نقصان وعينا التخطيطي، بحيث نستكثر أن نهب بعض إخواننا إلى هذا العمل البحثي، أو نبخل بصرف على ما يلزمهم من مال، ومن يتتبع الصحف العامة يجد أن كثيراً من أدق التفاصيل وأعتى الأسرار يكشف وينشر، ولو رجعنا إلى الصحف الصادرة في الأيام القليلة التي سبقت معركة الكويت لوجدنا أن الخطة العسكرية التي نفذها الجيش الأمريكي وحلفاؤه كانت أحد سيناريوهات ثلاثة متوقعة ونشرت بكل التفصيل، مع الإشارة إلى رجحان السيناريو الذي نفذ فعلاً وأنه أكثرها واقعية وانسجاماً مع حقائق الموقف، ومثل ذلك حدث يوم الجمعة قبل ثلاثة أيام من التوسع الإسرائيلي عام 1967 م والذي يطلق عليه في الإعلام العربي اسم النكسة، فقد نشر اللواء محمود شيت خطاب - رحمه الله - المؤلف المعروف وأحد مشاهير القادة العسكريين في العراق مقالاً طويلاً دلل فيه على أن قراءة الموقف ومعطيات الساحة تشير إلى (وجوب) قيام إسرائيل بعدوانها صباح اليوم الذي وقع فيه العدوان فعلاً، ودلل من خلال المنطق العسكري على صواب رأيه، وأن إسرائيل لا تستطيع تقديم هجومها قبل ذلك، لعدم اكتمال النفير والحشد والاستعداد، ولا يمكنها تأجيل ذلك، لاحتمال فوات الفرصة، وأن تلك الساعات من صباح يوم الاثنين هي أوان الضرب الصحيح الناجح الذي يعلمه كل متمرس في القيادة العسكرية. وبين هجمة إسرائيل ومعركة الكويت ربع قرن مليء بمئات الأحداث الكبيرة والصغيرة التي نشرت الصحف عنها قبل وقوعها أخباراً صحيحة وتوقعات دقيقة تدع الدعاة أقرب إلى صواب الموقف وأكثر تحكماً في ردود أفعالهم تجاهها إذا علموها، فكيف بتقارير وتحليلات تتداولها مراكز البحوث فقط وهي محجوبة عن الصحف لسبب من الأسباب؟ أو كيف بفلتات الألسن خلال الندوات والمحاورات والمحاضرات التي تعقدها هذه المراكز وعدم اطلاع الرأي العام عليها ؟

وخلاصة مذهبنا التطويري : أن الذي لا يجئ إليك : تعال إليه، كما يقول المثل العامي، فطبقة الدعاة الذين يعتريهم نوع نقص وضمور وعي ولكن قذفت بهم

التخطيطات الاضطرارية وسد الذرائع إلى مسؤوليات عامة ومواطن صدارة، هؤلاء الدعاة (نذهب إليهم)، فنغذيهم بالوعي والأخبار والتحليل والإحصاء، ونلاحقهم بمفردات تطويرية عديدة الأنواع إذ هم في أماكن أدائهم، عن طريق نشرات وأشرطة وكمبيوتر ومبتكرات أُخرى، **حتى يستوي ساذجهم واعياً، ومترددهم مقتحماً، ومرتجلهم مخططا، وعييهم فصيحا، وسائبهم مرتبطا، وظاهريهم قياسيا، وفوضويهم مرتبا، ومستبدهم مستشيرا، ومتهورهم حذرا، وتنشأ من مجموعة العلاقات التبادلية بينهم (معادلة) تتوازن بها كتلتنا الدعوية الممارسة في الميدان العملي لقضايا الدعوة،** ويحصل بها أمان من الانحراف أو الفتن أو المساومة على أُصول الدعوة وثوابتها، ولو بقي شاذ لا يلين للمجموع ولا ينسجم مع الأداء فإن شذوذه وشذوذ أمثاله قد يؤثر في صفاء الصورة، ولكنه لا يضر ولا ينخر، لغلبة العزائم وتجانس الأكثرين، وكلما حرصنا على هذه المنهجية في التطوير وكررناها كانت الصورة العامة أنقى وأشد بياضا.

إذن ففي التطوير ومنهجية التربية الريادية الحل، ولكننا أهل إيمان، وعلى ذلك يجب أن لا نجرد كلامنا التطويري الفكري السياسي تجريدا، فإن ذلك يزيد أهل السلب سلبا، ويزيد من قسوة القلوب، وإذا قست القلوب ظهر التطاول والتحاسد واقتربنا من الفتن، ومن هنا تجب المواعظ وأحاديث الإيمان والدرجات والموت والقبر والجنة والنار، في توازن بين الترغيب والترهيب والرجاء والخوف، هو ضروري لظهور توازن آخر بين الأداء السياسي والتعبد الإيماني، هو بدوره ضروري لظهور (المعادلة) العملية في الممارسة الدعوية الجماعية، **وكل ذلك يلزمه بالتالي وجود قائد (شمولي)، له من كل خير نصيب، فهو في الإيمان قدوة، وفي السياسة خبير، وفي الفكر أُستاذ، وفي الفقه مجتهد، وفي الأخلاق سمح حليم جواد كريم، ليقوم هذا القائد بدوره الريادي في حشد القلوب وتحريكها كمثل دوره في إنماء العقول وإذكائها، وهذا ما يجعلنا في النهاية نعود إلى بدء، وإلى تلقين، وإلى تلاوة، وإلى مكوث يومي في زاوية ذات بركة، تحت طاق واطئ، في مسجد عتيق، يكون منها الانطلاق إلى الصالونات السياسية، والحفلات الانتخابية الجماهيرية،** وإليها نؤوب. بل النظر الفاحص يدلنا على أن قلة الوعي هي المشكلة الصغرى في الذين ندفعهم إلى العمل العام والمحيط السياسي، وأن ضمور الروح وجفاف القلب هو مشكلتهم الكبرى التي تهيب بنا أن نؤسس أمرنا على تربية روحية مكثفة.

لكننا طالما قلنا أن من أخطر الأخطار أن نجعل قيادتنا فردية، تعتمد على أداء رجل منا موهوب عالي الصفات إن مات أو قتل فترت الهمم من بعده، وإنما نحرص على تكوين (الطبقة القيادية العريضة)، بعدد واسع، يؤدون الدور القيادي كلهم، كمجموعة متكاملة، يكمل بعضهم بعضا في الصفات، ويعين بعضهم بعضاً في الواجبات، والنجاح في تكوين هذه الطبقة هو النجاح، وهو القرينة على استمرار التقدم نحو الهدف، وعلى الوراثة الأمينة، وعلى تصدير الوعي لمن يحتاجه من المسلمين.

وهكذا تمتزج الأهداف والحقائق والوسائل، وتتداخل تداخلاً يمنعك أن تكون متعلقاً بسبب واحد، ناسجاً على منوال واحد، صابغاً بلون واحد، بل تطويرنا متشعب، وشعبه متشابكة، والتأثيرات متبادلة، وما أنت بالذي يستطيع الاقتصار، وما ينبغي لك، ومذاهب الأُحادية عليلة كلها، وفي الشمول غنى وكفالة.

لكن أيا كان هذا التشعب فإنه يجب أن يظل دائراً حول نقطة مركزية واحدة هي أساس المذهب القيادي الإسلامي، نسميها (العاطفة)، وهي كتلة من الأحاسيس الرقيقة، والمشاعر اللاهبة، ومعاني الإيمان، والرنو نحو الأُخرويات، وتسكين الأفئدة بالطمأنينة كلما وجد القلق ثغرة للتسرب، فإن القائد المسلم ليس مدير شركة، ولا عميد جيش، ولكنه حادي قلوب، ونحن نخاف اليوم من هجمة الكمبيوتر والتقنيات الحديثة أن تحرف الأداء وتجفف منابع العاطفيات حتى تكون العلاقات ميكانيكية وتطغى العقليات والأرقام طغياناً عارماً يخل بالموازنة ويقطع أوتار الروح، وليس هناك علامات تحذرك إذا نزلت فقاربت الخطر، لكنه الانتباه الدائم وولوج أبواب المساجد، وفتح المصاحف، والوقوف بين قبرين...ليس إلا. ۞

مهمة

الدعوة في الحقيقة أكبر من أن تحوّل أفراداً من المسلمين إلى دعاة، وتربيهم، وتنجز بهم إصلاحاً سياسياً واجتماعياً.

الواجب الدعوي أكبر من ذلك و أوسع.

الدعوة مكلفة أن تكون الشريك الأول في بث عقيدة التوحيد وترسيخه بين العالمين أجمع، وبين ذراري المسلمين الذين لم تتضح لهم معاني التوحيد ولم يدركوا وجوب تأديته إلى التزام شرعي كامل، لما هم عليه من اعتقاد سطحي لم يبلغ درجة اليقين بوجود الله تعالى ورقابته المخلوقات وتدبيره لحركات الحياة كلها.

العلماء ورثة الأنبياء، وكما كان النبي يبعث في بني إسرائيل لتصحيح اعوجاجهم وكبت معاصيهم وحملهم على الوفاء بالعهد والميثاق الذي التزموا به ثم كسلوا أو انحرفوا، فان الدعوة اليوم يجب أن تقف موقف أُولئك الأنبياء عليهم السلام، فتعظ بني الإسلام أن يتقوا الله حق تقاته، عبر غرس اليقين فيهم بوجود الله العليم القدير العظيم الرقيب سبحانه.

وفي عصر بلغت المدنية فيه مبلغاً من علو المستوى والرقي، وشاع فيه القول والخبر عبر وسائل الإعلام ليدخل كل بيت عبر التلفزيون حتى في عمق غابة أو أطراف صحراء أو جزيرة نائية فان أقصر الطرق اليوم المتلائمة مع هذه الحقائق المدنية إذا أردت إقناع الناس بالتوحيد وما يستلزمه من إتباع شرعي أن تتوسل بوسيلة العلم، **فتعطيهم وتضع بين أيديهم البرهان العلمي الكامل على وجود الله، وتبين لهم خطأ الملاحدة الذين لووا عن عمد حقائق العلم وأوهموا الناس من قبل، أو الذين استعجلوا الاستنتاج وبهرتهم الاكتشافات العلمية بعد عصر نيوتن بخاصة**، فلم يعرفوا تفسيرها، فمالوا إلى المادية، ثم زادت المغالطات الماركسية لبس الأُمور على العامة باسم العلم، فصار الابتعاد أكبر.

خلال القرن الأخير تجدد العلم وتوسع، ووصل في النهاية إلى الإقرار بالتوحيد، وبرزت براهين على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة المطهرة، ولذلك يجب على الدعوة الإسلامية أن تحتفي بهذا العلم الجديد، وان تروجه، وان

تتعلم بخاصة : المنهجية العلمية التي اتبعها العلماء حتى وصلوا إلى الإذعان التام في النهاية إلى الحقيقة الكبرى، حقيقة وجود إله مدبر سبحانه.

ما كانوا مؤمنين يبتغون البرهنة، لكن الغالب عليهم أنهم كانوا (حياديين) إن صح التعبير، طفقوا يتوغلون في التجارب والاكتشافات بروح حيادية مستعدة لتقبل أي نتيجة، فلما كانت النتيجة وضوح الدلائل على وجود الله تقبلوها وآمنوا.

وخلال سيرتهم تلك اتبعوا منهجية صارمة هي التي أوصلتهم إلى النجاح، ولذلك يليق للدعاة أن يقتبسوا تلك المنهجية منهم، ويستعيروها، ويجعلوها طريق توغلهم لا لفهم حقائق العلم فقط واكتشاف مزيد منه، بل لجميع شأنهم الدعوي وممارستهم القيادية والإدارية والتعليمية، وحتى السياسية والاقتصادية، لأن الحياة وحدة واحدة، وبين أجزائها ترابط، ويستطيع الداعية عن طريق القياس على المنهجية العلمية أن يتبين الصواب في جميع الميادين الحيوية.

وهذا الفصل معقود لمعرفة تلك المنهجية العلمية، والقياس عليها، والاستنباط منها، ومواكبة تطور علم الفيزياء بخاصة خطوة فخطوة، حتى مرحلته الأخيرة المعاصرة التي أفصحت عن دلائل التوحيد، **وبيان ضرورة تناول دعاة الإسلام لمجموعة الحقائق الفيزياوية من أيدي علماء الغرب ليبشروا أُمة الإسلام وينذروا بها الإنسانية كلها، ليبدأ عهد جديد في التاريخ الإنساني يصعد فيه على ضوء الإيمان سلم حضارة إسلامية تنتشل الكتلة البشرية العالمية كلها من طيش جيل من الساسة في أميركا امتلكوا القوة، فزعموا نهاية التطور**، واستكبروا استكبارا، وقادهم استكبارهم إلى اعتقاد وجوب تبعية كل الأُمم لهم، **وهو نمط من الوهم يضاد** المنهجية التي أوصلت العلماء إلى أن يضعوا في أيديهم الأسلحة التي وهبتهم القوة، وإنما كان ذلك لأن مرد الأُمور في الآخر إلى طبائع النفس البشرية، وفي النفس استعداد للغرور والظلم، ولكونهم ساسة يفتقدون الروح الحيادية التي عند العلماء فإنهم أخذوا من العلم ما يخدمهم، وتركوا منه ما يفضح عدوانهم، في مخالفة للمنهجية واضحة.

وبتبشيرنا وإنذارنا نرجو أن نصحح مسار الإنسانية، ونبدأ مرحلة حضارية إسلامية جديدة بعد عهد من الشرود والأوهام.

لكني وجدت أخي الدكتور محمد التكريتي قد اختصر لي الطريق عبر كتابيه (حبات المعرفة) و(القوة الخفية)، فأوجز فيهما الإشارات المنهجية، ومراحل تطور

علم الفيزياء حتى وصولها إلى الإنجازات العظيمة لفيزياء الكم، وقررت اعتماد روايته التي أجاد فيها العرض، بأن اختصرها واذكرها بشكل مقتضب، ثم أقوم بالتعقيب عليها، وقياس ما ينبغي أن تكون عليه منهجيتنا التربوية والدعوية العامة.

۞ قال أبو زاهد د.محمد التكريتي :

❑ العلم إنجاز إنساني وإرث بشري لا تحتكره أُمة أو حضارة، بل كل الأُمم ساهمت فيه، وعلم الفيزياء هو أساس العلوم وأكثرها نفعاً، لذلك بدأ علماء الإدارة والاقتصاد والعلوم الاجتماعية النظر في النظريات الفيزياوية ليستخلصوا منها أفكاراً جديدة تساعدهم. لذلك نقتبس علم الإدارة الدعوية أيضاً بل حتى التصور عن الكون والحياة وقضايا العقيدة.

علامة الاستفهام والشك المنهجي هي أساس تطور العلوم، فكل ما نتوصل إليه لا يمكن أن يكون آخر الحقائق.

❑ لاحظ أبو زاهد أن مناهج العلوم في. البلاد العربية (غنية بالمادة العلمية، ولكنها فقيرة بتوجيه الطالب إلى التفكير العلمي : ليست هناك مادة تتناول قضية المعرفة العلمية، ومناهجها، وطرقها، وكيفية الوصول إليها. نجد مثلاً اهتماماً بقوانين نيوتن في الحركة، أو معادلات ماكسويل في الموجات الكهرومغناطيسية، ولكن ليس هناك اهتمام في كيفية توصل نيوتن إلى قوانينه أو ماكسويل إلى معادلاته، وليس هناك اهتمام بتقييم المعرفة العلمية من حيث طبيعتها ومصادرها وحدودها ومناهجها : وهذا نقص لأن التفكير الحضاري والثقافي يعتمد على التفكير العلمي قبل اعتماده على المضمون العلمي. التفكير العلمي يعني القدرة على حل المشكلات أياً كان نوعها : اجتماعية، أو ثقافية، أو اقتصادية، أو غير ذلك، أما المضمون العلمي وحده فقدرته مقصورة على حل المشكلات في المختبر أو الورشة) .

❑ أقول وهذه الملاحظة جديرة بأن تلحظها مناهج التربية الدعوية، **فالمنهج ليس مجرد معلومات تلقن للداعية وإنما هو فكر أُصولي يعين على الاجتهاد** واستنباط أحكام جديدة، وإنما تستخدم المعلومات و أقوال الفقهاء كأمثلة تعين الداعية على التصور وتورد كتمرين لذهن الداعية.

❑ يواصل د. التكريتي كلامه ويبين أنه :

يجب أن نعرض مسيرة العلم الحديث ومنهجه والمضامين الفكرية والفسلفية لنظرية الكم. في محاولة التعرف على حقيقة الكون : أوجد اليونان **منهج الاستنتاج المنطقي**، وظنوا أنه سيجيب على كل التساؤلات، ولكن ظل الاختلاف، لأن العقول تختلف، ومن ثم تختلف الأدلة العقلية التي يقوم عليها المنطق. أما البابليون فاعتمدوا **الاستقراء**. ثم قامت الطريقة العلمية، ونجح الإنسان في التعرف على كثير من الغاز الكون وظن العلماء أن العلم سيجب على كل التساؤلات وشاع التفسير المادي والمنهج التجريبي، ولكن الاكتشافات العلمية الأخيرة تقترب من إدراك أن الإنسان جزء أساسي من حقيقة الكون وأن هناك نظاماً وغاية وقصداً للوجود كله.

وكذلك إدراك الواقع، ليس هو طريق كامل لإدراك الوجود، لأن إدراكنا للواقع محدود، وأظهر الأمثلة على ذلك صعوبة إدراك البعد الرابع المتمثل بالزمن بعد الأبعاد الثلاثة من طول وعرض وارتفاع ، مما جاءت به النظرية النسبية، كيف وأن بعض النظريات تقول بأبعاد أخرى عديدة.

وفي العلم الحديث أُمور يصعب إدراكها، مثل قانون تكافؤ المادة والطاقة، الذي جاءت به النظرية النسبية، والقائل بأن الطاقة تساوي حاصل ضرب الكتلة في مربع سرعة الضوء، فنحن ندرك الطاقة والكتلة كلا على حدة، ولكن لا نستطيع إدراك أنهما شيء واحد، مع أن التجربة تثبت ذلك.

وكذلك الضوء، مكون من فوتونات، وهي دقائق صغيرة، والضوء موجات في الوقت نفسه، وكذا الألكترون له هذه الطبيعة الثنائية، وأي جسم في الكون هو كذلك، ومن الصعب إدراك ذلك مع أن التجربة أثبتته.

وكذا وجود المادة المضادة، كتضاد الألكترون السالب مع البروتون الموجب. كذا تباطؤ الزمن عند السرعات العالية مما تقول به النظرية النسبية. والاكتشافات العلمية الحديثة تؤكد حدوث الكون، وأن بدايته كانت في الانفجار العظيم قبل 13 بليون سنة، أي هو مخلوق وليس أزلياً كما ظن قدماء العلماء، ثم طرأت نظرية الكم الفيزيائية، وأثبتت أن الدقائق الصغيرة مثل الألكترون لها سلوك لا يمكن تحديده تماماً، وبذلك انهارت القاعدة العلمية القديمة القائلة بأن لكل حدث سبب ولكل سبب نتيجة.

وكل هذا إثبات لمعنى الإيمان الإسلامي الذي يوقن بالقدر الرباني، وأن لله تعالى حكمة خاصة وهو خالق الأسباب والمسببات.

حتى الرياضيات ثبت إنها تحتوي على فرضيات لا يمكن البرهنة عليها. وآخر توجهات العلم هو محاولة توحيد جميع قوانين الفيزياء في قانون واحد يفسر كل شيء، وقد نجح العلماء في توحيد بعض القوانين، وما زالوا عاجزين عن توحيدها كلها، ومن نتائج توحيد بعض القوانين : نظرية المجال الكمي، وفيها أن الألكترون يمتص الفوتونات ثم يطلقها، بسرعة كبيرة، وهكذا فان الألكترون تحيط به غمامة من الفوتونات، كما أن الفوتون محاط بغمامة من الألكترونات التي امتصت الفوتونات، وهذا يعني أن الجسيمات مرتبطة بالمجال ولا تنفصل عنه، وأن فوتون الضوء لا يسير في الفضاء بل يسير من خلال تفاعله مع المجال، وفي هذا المجال الذي تكرر فيه عمليات الامتصاص والإطلاق تتكون طاقة عظيمة جداً تملأ الفضاء الخارجي الكوني الذي نظنه فراغاً .

ومن خلال قياس العلماء لقطر نواة الذرة، وكتلة الألكترون، وعمر الكون، تبين أن نسبة الكميات الصغيرة جداً إلى الكميات الكبيرة جداً في الكون تدور حول رقم 10^{40} أي واحد أمامه إلى جهة اليمين أربعين صفراً، ويسميه البعض الرقم الكوني. فالنسبة بين أكبر مسافة معروفة في الكون، وهي قطر الكون، وبين أصغر مسافة، وهي قطر البروتون تساوي الرقم الكوني هذا. وعمر الكون إلى أصغر زمن معروف يساوي هذا الرقم الكوني. وكتلة الكون إلى كتلة الألكترون تساوي مربع هذا الرقم الكوني.

كي تتصور صغر الإلكترون : أن 6 مليارات يعيشون اليوم لو جمع كل منهم بليون ألكترون يومياً فإن جمع كيلو غرام واحد من الألكترونات يحتاج إلى 500 بليون سنة، أي أكثر من 38 مرة من عمر الكون.

وكل هذا الكشف العلمي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمنهج المعرفة، والذي يتقاسمه منهجان : منهج الاستقراء، وفيه يتم تعميم الملاحظات الجزئية لإيجاد قاعدة عامة، أي أن الإستقراء هو عملية تعميم، فلدينا مجموعة حقائق أو ملاحظات تبدو منها ملامح أو معالم أو أنماط معينة تجعلنا نضع فرضية نتوصل منها أو بها إلى قاعدة معينة. وكثير من قوانين الفيزياء تم اكتشافها بالاستقراء. أما المنهج الثاني فهو الاستنباط والاستنتاج، حيث يكون الابتداء بفرضية، أي وضع قاعدة أو نظرية تستخدم كإفادة بشأن الملاحظات الأساسية. وتعتمد جودة الحجج المنطقية على

جودة المسلمات الأساسية. كان أرسطو يرى أن أي برهان يجب أن يتبع هذا المنهج المنطقي، أي الإدلاء بنظرية تقود إلى فرضية تقود إلى ملاحظة تقود إلى إثبات. ولكن وجد في بعض الأحيان أن رفض إحدى المسلمات يؤدي إلى فتح آفاق جديدة وتصورات جديدة لا دراك العالم، فإسقاط المسلمة الخامسة للهندسة الاقليدية قاد إلى وضع هندسة جديدة كانت لها فوائد عظيمة في نظرية النسبية العامة، كذلك المنطلق الذي تقوم عليه الرياضيات لا يمكن الوثوق به وثوقاً مطلقاً، إذ هناك مستحيلات في الرياضيات.

وهكذا فإن الإستقراء والإستنتاج طريقتان مختلفتان. مجال الاستقراء أوسع لأنه يسعك أن تستمر في الملاحظة والقياس قبل أن تضع الفرضية أو النظرية، ومجال الاستنتاج أضيق، لأنك وضعت فرضية من البداية وعليك أن تثبتها عن طريق الملاحظة والقياس. حاول دارون أن يتوصل إلى نظرية عن طريق الاستقراء فلم يستطع، وبعد خمس سنوات تحول إلى الاستنتاج فوضع فرضية التطور وحاول إثباتها، ولم يزل أنصار نظريته يحاولون إثباتها.

يعتمد أكثر الباحثين اليوم على طريقتي الإستقراء والإستنتاج معاً في دورة متكاملة، وكان روجر بيكون وكروسيتست قد قالا بطريقة الاستقراء على أن يعتمد الاستقراء على معرفة الحقائق بطريقة دقيقة وشاملة، وأن هذه الحقائق يجب أن تؤيد بالتجارب، ومال ديكارت إلى الاستنتاج، وأصر نيوتن على أن الاستنتاج والاستقراء يجب أن يتظافرا معاً مع ضرورة تأييد ذلك بالتجربة، وأصبح هذا المنهج التجريبي المادي المازج بين الإستقراء والإستنتاج هو المنهج العلمي الحديث، لكن الغلو فيه أدى إلى رفض مباحث ما وراء الطبيعة والعقائد الدينية.

وقد قسم جون ستورات ميل الاستقراء إلى أربع طرق. الاتفاق، وهو اشتراك ما نستقرؤه في أمر واحد. والتباين : وهو اتفاق ما نستقرؤه في أمور واختلافها في أمر أو أمور. وعنده أن هذا هو أهم طرق الاستقراء. والتلازم : وهو علاقة ظاهرتين بأمر واحد، مثل علاقة المد والجزر بالقمر. والحذف، وهي استبعاد أمور نجد بالملاحظة أنها لا تؤثر في الأمر المستقرأ.

❑ أقول :

وكل هذه الطرق في منهجية العلم هي طرق تليق لاكتشاف قضايا الدعوة وسياساتها وبنائها التنظيمي ولوضع قواعد تحكم مواقفها بعد حكم الشرع، **ولذلك فان التربية الدعوية يجب أن تقوم بمهمة تعليم الدعاة النمط المنهجي السليم في**

التفكير والإستقراء والإستنباط وتحليل القضايا والمشاكل ليكونوا أقرب إلى الصواب في قراراتهم وخططهم ومواقفهم، وهذا يعني وجوب وجود وجه ثان لمعنى المنهجية في التربية الدعوية، فكما أن القيادة الدعوية مكلفة بأن تصوغ العملية التربوية وفق معايير منهجية وتتخذ لها من الأساليب في تنفيذها ما تحكمه منهجية واضحة، وهو ما تتحدث عنه فصول كتابنا هذا، أي أن تختار القيادة منهجية معينة في التربية تكون قد توصلت لها عبر محاكمات عقلية وربط واستقراء للواقع والحاجات وتحليل للمرحلة، بحيث تعطي وصفة منهجية جاهزة تحمل المربين الدعويين على الإلتزام بها، فإن القيادة من وجه ثان مكلفة أن تضيف إلى هذا المنهج المختار لمسات عديدة وتوجهات من شأنها أن تدرب الدعاة على ممارسة التفكير المنهجي ومعرفة أُصوله وقواعده، كي يخرج هؤلاء الدعاة من حدود التقليد إلى الاجتهاد والإبداع والذاتية والابتكار والمبادرة إلى اكتشاف العيبِ والنقص وعلاجهما، وكذا اكتشاف الفرصة والصوابٍ الذي يحمله المنهج فعلاً لتنميتهما، فيتحول ما كان فراسة فقط أو استنباطاً إلى شيء مجرب يعامل كأنه قاعدة أكدتها الأيام، وبهذا سوف لا تبقى قضية المنهجية عندنا قضية جامدة ساكنة يتلقى فيها الآخر عن الأول نتائج تفكيره ويستقبلها استقبال الإرث المقدس الذي لا يمس، وإنما ستخرج المنهجية إلى أن تكون قضية حية متطورة متكيفة مع المستجدات والمتغيرات، وهذا التكيف والتطور هو أوضح دلالات المنهجية في الحقيقة، وإنما تراد لما تؤدي إليه من هذه النتيجة التي تتجاوز الموروث مهما امتزج بعاطفة عارمةً تقترب به من التقديس أو الإعجابِ، ولو بقى اللاحق مشدوداً إلى تأمل براعة السلف لما حصلت للحياة حركة أصلاً أو للعلم انطلاق، ولما فر يائس إلى أمل، ولا مهزوم إلى نصر، ولا فقير إلى غنى، ولا جاهل إلى تمييز، ولكنها المشاكل تعرك وتفرك وتضغط فيكون التملص، ويبدأ صعود بعد هبوط، وعزيمة بعد فتور، وتخطيط بعد ارتجال، وتدارك بعد إهمال، وهذه الأوصاف تعني ولا بد أن المنهجية الدعوية تؤديها أجيال متعاقبة مثلما تتساوى في حقوق الأخوة وحق الرفل بعواطف الإيمان وتبادلها فأنها تتساوى أيضاً في حق التفكير والإضافة وفحص الماضي ونقده، بل تتساوى أيضاً في واجب التفكير، أي أن تتعامل مع الفكر كواجب حتمي لا فكاك منه تلتزم به، وليس مجرد حق تستمتع به، وإذا وصل إحساس الدعاة إلى هذا الحد فقد نجحت التربية الدعوية في وصفها المنهجي، واجتازت القنطرة وطفرت العقبة. أما أن أنفاراً من الدعاة ليسوا أهلاً للاجتهاد سيتطفلون ويتطاولون ويتخذوا التغيير متعة فهو أمر قد يحدث في كل جيل، لكنه طارئ يحاصره الثقات، لأن المنهجية نفسها هي التي ستتولى التعامل مع هذا

النشاز المائل، وتفحصه، وتعري ما فيه من خطأ، والعقول تغلب الجهل، وحوار العباقرة أعلى من كل صخب ولو استعار قوانين الألحان لحين.

❑ ولأن ضرب الأمثلة من السنن الحسنة وينفع في تقريب المعنى إلى الذهن فمن النافع إذن أن نعيش لحظات مع مثل يبين أهمية السليقة المنهجية في توجيه أمور الحياة، فإن أهل قرية لو اشتكوا الفقر إلى جمعية خيرية فان الجمعية يسهل عليها أن تنجد كلاً منهم ببعض مال يشبعه وعياله إلى حين، ولكن الجمعية تتجاوز ذلك ولا تملأ الكفوف بدراهم تفنى خلال موسم، إنما تضع في كفوفهم معاول ومطارق ومناشير وشباكاً مع بذور وخشب وحديد ومسامير وألوان وعربة وزورق، وتتيح لهم مهناً تدر عليهم مورداً دائماً على مر السنين من فلاحة ونجارة وحدادة وصيد، مع عزة النفس وتعليم أخلاق الإباء والعفاف، وتشتري ربما لكل بيت بقرة أو نعجة، لتضمن لهم الحليب الذي هو عنوان حسن التغذية، وربما اشترت لأرامل لا معيل لهن مكائن خياطة لتكون لهن سبب رزق، ثم تقتطع الجمعية 5 % من دخل كل رجل لتجميع رواتب لرجل من أهل القرية يتولى التسويق وآخر يتولى الإدارة والرئاسة، وتعيش القرية كلها في حياة تعاونية لم يكن المال الذي بناها بأكثر من النقود التي توزع مرة واحدة وتستهلك بلا تكرار. وأمر المنهجية في التربية الدعوية قريب من هذا، فإن الدعاة ربما يتمنون أن تهد يهم قيادتهم منهجاً تربوياً كاملاً، وهو أمر يتاح للقيادة من خلال جلسات تعصر فيها فكر أعضائها، ومؤتمر لبعض أهل العلم من الدعاة، والأمر قريب مع ما فيه من صعوبة، ولكن الأولى والأجدى أن تفطم الدعاة عن التقليد، وتعلمهم الطريق إلى تكوين المنهجية، وتضع لهم منهجاً يكون نواة ومركزاً للعلم الذي يحتاجونه في حده الأدنى، ثم تشجع فيهم روح التطلع إلى التكميل والزيادة والإنماء والتغيير والتطبيق المرن وفق نظرات نسبية موضوعية ومكانية وزمانية، وتكون التربية مهنة كل داعية، يربي نفسه مثلما يربي من معه، ولا يعود مجرد فقير مسكين تحل له صدقات الفكر، فيبقى طول دهره سائلاً مكدياً يترنم بالدعاء لمن يسعفونه بجزيئة من العلم أو بخاطرة أو فتوى أو بيان صريح، وإنما يكون هو المبدع المتصدق بكل طارف من الرأي، ويضيف إلى دعائه أناشيد التحدي وصيحات الفرسان.

❑ ومرة أخرى يتوهم بعض الدعاة أن هذا التعليم لطرائق المنهجية، ينبغي أن يتمثل في كتب معينة تساق ضمن قائمة المراجع في المنهج التربوي المختار، وليس هكذا يتم تكوين السليقة المنهجية في الداعية، ولربما يحتوي المنهج على كتب في طرائق المنهجية، تعين المربي، ولكن الأهم هو التحريك الفكري الذي

يقوم بـه المربي لمن معه عن طريق التصدي لفهم قـضية معـينـة، جذورها وأسبابها ومظاهـرها ونتائجها، فيقوم معهم عبر حوار مشترك باستقراء كل ذلك، وبالاستنباط، وباسـتنطاق الـتاريخ والواقع كشواهد إثبات، ويحدد معهم الاتفاق والتباين والتلازم والحـذف والتعمـيم والاسـتثناء والتحلـيل والتركـيـب والاقـتراب والإنفراد والشذوذ والتفريع والاشتراط وأمثال ذلك من المعايير المفسرة للقضية المبحوثة، ويتكرر ذلك مـرات عديـدة، وإسـعاف هذه الطريقة ببحوث ومحاولات يقوم بها كل داعية بمفرده ويعـرض نـتائجها علـى المربـي لـينقحها : تـتكون السـليقة المنهجـية في المتربين ويكونـون أقـرب إلـى الاسـتقلال الفكري والندية، ويعين على ذلك أن تهب القيادة مفكـراً مـثقفاً عالـي المسـتوى إلى الحياة الدعوية المسترسلة، ليخالط الدعاة عبر الحـياة الاجتماعـية الحـرة من قيود التنظيم والعلاقات المحدودة المسـماة المقنـنة، فـيشـافـه الـجمـيـع، ويستشيره الجمـيع، ويقـبس مـن هديه الجميع، فتنمو بذلك المكـنة المنهجية نمواً بطيئاً عن طريق الإقتداء والاقتناع، لكنه مضمون، وإذا كانت الدعـوة تحـيا حـياة طبيعية فيها نشر صحفي وتأليف كتب وإلقاء محاضرات وعقد نـدوات وخطابـة فـي حفـلات فـان الطبـيعة المنهجية تتقوى أكثر وتكون حلبة لكل ذكـي، ليس كمثل ما في أجواء العمل السري المتكتمة التي تذوي فيها هذه الطبيعة وتضـمحل تدريجـياً لتنتج عناصر تتطرف في التقليد الجامد الحرفي الأعمى، لذلك لا تـرى موغـلاً فـي الولـع بالعمل السري إلا وفيه مسحة من هذا التقليد المتطرف، لأن هـذا مـن هـذا، والـبعض يعجـب مـن أمرهم والتفسير منه قريب. وهذا التقرير يوصـلنا فـي الـنهاية إلـى أن تعلـيم الصنعة المنهجية لا يستلزم حشر أسماء كتب وتكلـيف الدعـاة بمطالعتها بمقدار ما يستلزم الإستعانة بعدد من وسائل أخرى أكثر انفـتاحاً وأبعـد قـبولاً لـدى السـائرين، مـن بحـث ميداني، وحوار تحليلي مشترك، وإقـتداء بألمعـي منتصـب فـي السـاحة يسـتطيعون تـبادل الرأي معه، وحياة فكرية متكاملة من الهمس والتناجي، مروراً بالإلقاء والخطابة، صعوداً إلى الترنم والهتاف، وصـولاً إلـى النشـر والإذاعـة، اعـتلاء لـذرى الـتحدي ومواقـف المفاصلة وإعلان الـبراء، فبهذه الوسائل المتكاملة المتراكبة طبقاً بعد طبق تتركز أسرار المنهجية في بؤر عقول الصاعدين، ويكون لها اتصال بنقطة اللذعة في قلب كل مخلص يدعو ربه أن يهبه الإلهام والإبداع.

❑ وقـبل العـودة إلـى سـياق كـلام د. التكريتي أجد من اللازم الإشارة إلى ظاهرة مـتكررة فـي كتبـي، والكـلام عـن المنهجية مثال لها، وهي أن معاني كتبي تتقاطع كثـيراً، فمبحـث المنهـجـية العـام ومنهجــية التربية الدعـوية كما أنه مستقل، ولـه علاقـة بكتـب التخطـيط، فـإن لـه علاقـة أخـرى بمباحث كتاب حركة الحياة، التي

سأتناولها في كتاب آخر، فوجه الارتباط والاشتراك هنا أن الذي يريد السيطرة على مجاري الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لا بد له أن يتوسل إلى ذلك بوسيلة الفكر، فتلزمه منهجية فكرية شاملة يحافظ بها على فكره نقياً ويتوسع فيه إلى درجة الشمول ويهبه قابلية التطور والتجدد، وبوسيلة التربية من بعد، فتلزمه منهجية تربوية كذلك توفر أعداداً كبيرة من معتنقي ذلك الفكر، يزاحمون به الآخرين، ويدفعون، وعليهم يتوزع ثقل المهمة التغييرية الجبارة، ولأن هذا التغيير يطال كل نواحي الحياة وزواياها فإن القائمين به يجب أن يبدعوا في ظل مرونة تهبها قواعد النسبية، ولا مكان للتقليد والجزافية والتبعية، لأن ضخامة الحركة الحيوية تصعب معها الإدارة المركزية الصارمة، بل هي فوق الطاقة البشرية المحدودة، وما من قائد مهما كان ذكياً وعالماً وملهماً ودؤوباً يستطيع أن يوجه دقائق السكون والتحرك، ويذهب مع العاطفة إلى آخر آفاقها الممتدة، أو مع العقلانية إلى ذراها العالية وفي نفس الوقت يرقب رنين الذهب. ويجمعه، ويرد على مشوشين، ويثبت موسوسين، ويرفع معنوية يائسين، ويأخذ بزمام متهورين، ويفاوض، ويشاور، ويسترق، ويشتري، ويستقبل مذعنين وتائبين، ويحالف القرين، ويحيّد الذين في المنتصف، ويلتف على من هم في الطرف، إذا المعركة جبارة، وساحتها ممتدة، ولن تكون قيادتها إلا قيادة جماعية عريضة لعلها تربو على الألف في البلد الصغير أو المتوسط، إلى ثلاثة آلاف في البلد الواسع الكبير، ولذلك يلزمهم الإبداع، والإبداع لا تأتي به إلا منهجية، والمنهجية لا يأتي بها إلا فكر، والفكر لمعة وقدحة، أو ومضة وشرارة، وإلهام ومواهب، وإيمان وإخبات، وسياق في تكامل، مع انعطاف إلى جذور السلف الأوائل، ثم يعود مستديراً ليحلق في الأفق البكر، فملاحظة تقاطع المعاني تعين طالب فقه الدعوة على أن لا يأسر الموضوع إلى كتاب وإن أغراه العنوان أن ثمة استقصاء، وإنما يتجول في الكتب الأخرى ليجمع شتات القول في موضوع، ويضم بعضه إلى بعض، ولن يرجع بكمال، إذ الخواطر تترى، والشروح تتعاضد، وتدفع إلى تدوين آخر، الله أعلم كيف وبأي عنوان يكون.

❑ يواصل د. محمد التكريتي كلامه المعرفي، ويتحول إلى ذكر الفلسفة الوضعية المنطقية التي تميزت بعلمانية عارمة تنفي الدين بدعوى عدم قيامه على أساس تجريبي، أو منطقي، ولكن طروء نظرية الكم في الفيزياء ووضوحها وإنجازاتها ما بين 1925م إلى 1965م ومواصلة ذلك حتى الآن جعل أركان الوضعية تهتز، وكذا غيرها من الفلسفات العلمانية، ذلك أن فيزياء الكم والنظرية النسبية من قبلها جعلت العلماء يفكرون بطريقة جديدة تقتضي تفاعل المادة والروح معاً، وأثبتت

فيزياء الكم طبيعة موجية للدقائق وللمادة بصورة عامة بدلت مقاييس القياس التجريبي كلية، وبعض الحائزين على جائزة نوبل في الفيزياء يحاربون الوضعية، والمنهج العلمي الحديث في الغرب الآن متأثر بآراء الفيلسوف كارل بوبر الذي يؤكد على أن معيار علمية أي نظرية هو إمكان نفيها وليس إثباتها، ويكون ذلك عن طريق الاختبار، وأن المعرفة المتراكمة خلال التطور البشري هي أهم مصادر المعرفة، وأن البديهة والخيال تشاركان الملاحظة والتعليل في كونها مرجعية للمعرفة، وهذا منهج ينافي الوضعية تماما، وعند بوبر أن الملاحظات والمشاهدات التي تثبت النظرية لا تعني شيئا ، فكل حادثة أو ظاهرة يمكن أن تقول أنها تثبت النظرية الفلانية، لكن نظرية أينشتاين في النسبية مثلاً كانت صحتها تقوم على توقع ينطوي على المخاطرة في نفي النظرية، وكانت قابلة للنفي والإبطال لو لم يثبت انحناء الضوء، وقد ثبت انحناؤه لكن بوبر زهد في الاستقراء ورآه لا يؤدي إلى علم، واعتقد صواب منهج الحدس، وهو اقتراح نظرية جديدة أو تعديل لنظرية قائمة أو تفسيرها بأفضل ما هو ممكن، وحجة بوبر أن الاستقراء قد يقوم على ملاحظة خطأ أو ملاحظات ناقصة، لكن هذا النقص في الحقيقة لا ينفي ما أدى إليه الاستقراء من تطور علمي خلال تاريخ العلم، ولذلك اعترض بعض العلماء على هذا المنهج الزاهد في الاستقراء.

وقاد كل ذلك إلى توجه معاصر يسمى (منهج المشكلة والحل) يتوسط ويجمع محاسن المناهج الأُخرى، حيث تتركز البحوث العلمية، النظرية والتطبيقية، على حل المشكلات عن طريق حدس الحل ثم نقده نقداً موضوعياً وتمحيصه واختباره، فإذا كان هناك عدد من النظريات المتنافسة لحل المشكلة، فيؤخذ بأفضلها، وتهمل النظريات الأُخرى. وهذا الحل الجديد يقود إلى مشكلة جديدة، فتعاد الدورة من جديد.

يعني النقد الموضوعي : تمحيص النظريات والتفسيرات الجديدة على ضوء معايير تحددها المشكلة نفسها، ويعني النقد اختبار النظرية، أي التجربة، والتجربة على نوعين : نوع لإثبات النظرية، ونوع لنفي النظرية، وما لم يكن قابلاً للاختبار يرفض.

❑ أقول : فكأن هذا المنهج أصوب، لأنه يجمع المنهجين المزدوجين معاً، منهج الاستقراء والاستنتاج معاً، ومنهج الإثبات والنفي معاً، وهو الأليق في ظني لقضايا

الدعـوة، وأحرى بالدعاة أن يسلكوه، مع أخذ خصوصيات العقيدة والفكر الإسلامي بنظر الاعتبار.

❏ ثـم يسـتطرد د. التكريتـي فيبيـن أزمة العلم اليوم، وأن التجريبيين الذين عادوا الإيمـان لم يدركوا أن الحقيقة العلمية ما هي إلا أمر نسبي يتعلق بإطار المعرفة في زمان ومكان معينين، وهذا ما يذهب إليه عدد من المفكرين المعاصرين.

أقـول : إلا أن التأثـير الإيجابـي الأكـبر الـذي يمكـن أن ينصب على الداعية المسـلم ويدربـه علـى المنهجـية الصحيحة المعتدلة الجادة يكمن في نظري في رؤية جـردية مختصـرة لـتطور علـم الفـيزياء والوقوف عند مفاصله المهمة ونقاط التحول والاكتشـافات الكبـيرة، بحيـث يظهـر تمامـاً للمتتـبع الاكتمال التدريجي للحقائق، **فـيكون هـذا الرصـد الشـمولي وسـيلة تعليم للداعية عن طريق المحاكاة ورد الفعل واسـتقرار المعانـي فـي اللاشـعور، بها يتعلم الداعية انتظار اكتمال الإنجاز الدعوي عـبر تطـور مرحلـي بطـئ أو سـريع تساهم فيه كل الأجيال الدعوية، وكل الطاقات المـتوفرة، وجميع أهل التخصصات، بل ويستعار له من إنجاز غير المسلمين أيضاً، وبذلك تدخل هذه المحاكاة كمعلم بارز من معالم منهجية التربية الدعوية، والقيادية بخاصـة، وبذلك يدخل تاريخ التطور العلمي، والفيزياوي بخاصة، كأساس في تعليم المنهجـية**، بعـيداً عـن تكلفـات الفلاسـفة وتـنطعاتهم، ويغلب على الظن أن هؤلاء الفلاسـفة كـانوا أسـرى نظـرة علمانية مسبقة وأرادوا تسخير التجارب العلمية لتأييد علمانيـتهم بنوايا منحازة ابتداء ولم يكونوا على الحياد، وهذه الخارطة الاستعراضية لتطور العلم الفيزياوي قد قام بها د. التكريتي في فصول كتابه الأُخرى، ابتداء من فصـل مسـيرة العلـم، **ولكـن غـرس الانطباع المنهجي في النفوس الدعوية ينبغي أن يعتمد على استعراضات أُخرى**، طلباً لتوجهات نقدية أُخرى يتميز بها كل باحث، أو طلـباً لتفصـيل أكـثر لإنجاز معين أو مرحلة واحدة تكون المعاني المنهجية التي قـادت ذلـك الإنجـاز أو تلـك المـرحلة وافـرة كثـيرة وباسـتطاعتها أن ترسم معالم المنهجـية بوضـوح، وتسـتطيع جلسات تعليم المنهجية الدعوية **أن تأتي بشواهد من خـلال اسـتعراض منهجـيات أعمـال علمـية جـبارة، مـثل اخـتراع القنـبلة الذرية، والصـعود إلـى القمر، وبقية أعمال وكالة ناسا، وحرب النجـوم، وتطـور الاستخدام اللـيزري، والمـنظومة الجينـية، ومحاولة الاستنساخ، مع ما يوازي ذلك من التطورات الاقتصـادية الجـبارة، مـثل الجانـب المنهجـي في صراع النفط، وصراع البورصات، وسيطرة منظمة التجارة العالمية، ونفوذ الشركات العابرة للقارات، أو مشاريع شمولية انتهـت تجربـتها وتقويماتهـا، مـثل ابـتداء الشـيوعية وزوالها، وقيام إسرائيل منذ**

كانت مجرد حلم يراود هرتزل وتقلبها في المراحل وعلوها العلو الكبير الآذن بالتتبير، وتصاعد السياسة الأميركية حتى تسخير النظام العالمي الجديد، والوحدة الأوربية، ورد الفعل الأسيوي، مع ما يوازي ذلك من المشاريع التربوية الضخمة، مثل المشروع الأميركي في إذابة تربيات الوافدين المهاجرين في توجه تربوي أميركي واحد وضع بصماته فرانكلين وظل ينمو حتى الآن، ونماذج الاستشراق الاستعماري، وكل هذه المشاريع الكبرى والإنجازات حكمتها منهجيات معينة تشترك وتفترق، وفيها دراسات كثيرة يمكن للدعاة المحاضرين في الدورات الدعوية تلخيصها واستعراضها، ليقتبس الداعية حرفاً من هاهنا، وحروفاً من هاهناك، فيستوي على عرش المنهجية، ويكون مبدعاً مبتكراً بعد إذ كان مقلداً تابعاً، وأما أن أوردها في كتبي فهو أمر عسير، بل غير صحيح أيضاً لأن الإسراف في الضغط والاختصار يذهب بالمغزى، وإنما مكانها الاستعراض الحر في الوقت المستطرد عبر الدورات وخلال التلمذة الخاصة.

❑ وهذه المعاني تسلمنا إلى متابعة سياق مسيرة العلم كما رواها د. التكريتي، ليوقفنا أولاً عند تأسيس البابليين لعلوم الفلك والرياضيات وبخاصة الجبر وعلم المثلثات والرياضيات، ثم مساهمة المصريين، وحسابهم لقيمة النسبة الثابتة في مساحة الدائرة، ثم أخذ ذلك الإغريق عنهما وحوروا العلم أكثر، وعنهم أخذ المسلمون ووسعوا الإنجاز العلمي كما هو معروف، وعن المسلمين أخذت أوربا العلم وأوجدوا العلم الحديث، وهذا يعني أن العلم إنجاز إنساني شاركت فيه الأمم والشعوب. وكان فيثاغورس الإغريقي قد طور علم المثلثات، وأعتقد كروية الأرض وقال ديموقراطس بالنظرية الذرية وأن جميع المواد تتكون من عدد كبير من دقائق صغيرة، وقد طور أرسطو منهج القياس والاستقراء، لكنه اعتقد أن الأرض هي مركز الكون وأن الكواكب تدور حولها، لكن عالماً آخر اسمه فون دامس خالفه وقال بأن الأرض تدور حول الشمس. ثم جاء اقليدس ووضع الهندسة الاقليدية، وأرخميدس صاحب القاعدة المشهورة.

وكانت النهضة العلمية الإسلامية وليدة منهجية إسلامية إيجابية في الحياة ككل قبل أن تكون مجرد منهجية علمية، وأقيمت هذه المنهجية الحيوية على ثلاثة أركان : ركن التوحيد الذي ينفي الاستنسار لأساطير بابل الساذجة وأساطير الإغريق الشركية، ودعوة القرآن إلى النظر في الكون والآفاق، واستقبال المسلمين للمشاركات العلمية بروح منفتحة ليس فيها نوع من الإرهاق الذي لقيه العلماء من الكنيسة والمعابد الوثنية، وركن تلبية حاجة الأحكام الشرعية من مواريث ومواقيت

ومواسم عبر الرياضيات ومعرفة الفلك. وركن الأُخوّة الإنسانية التي تجمع المسلمين دون نظر إلى قومية وعنصرية، فكان في علماء المسلمين العربي والفارسي والزنجي والتركي، ومن خلال هذه المنهجية أضاف الخوارزمي الصفر إلى الحساب، ووضع ابن الهيثم نظرياته في الضوء، واستعمل البتاني الدوال الست للمثلثات في علم الفلك، في عشرات الإضافات.

❑ أقول : وينبغي أن يتوسع الدعاة في دراسة هذه المنهجية الحيوية الإسلامية ويميلوا إلى تفصيل فيها وتدقيق، لأن هذه الأركان الثلاثة وبعض التوابع لها قد أطلقت الطاقات العلمية من عقالها، وشهدت الحياة أعظم ثورة علمية في التاريخ الإنساني في ظل هذه الموازين الإيمانية التي سيطرت على النفوس والعقول وانصبغ بها الحاكم والمحكوم معاً، وهي مثال واضح ومؤكد لدور قضية المنهجية في التطور العلمي، فإن التوحيد الذي يحرر الإنسان من عبودية الإنسان والأوثان والأوهام يوجد نفوساً طموحة تواقة إيجابية الطباع عزيزة الغايات شريفة الوسائل، وكل هذه الخصال محاضن للإبداع العلمي وغيره، كما أن العلو على القومية والعنصرية بخاصة يشجع كل الطاقات على المشاركة والعطاء، لتساوي الفرص، وضمان المكافأة، وحفظ الحقوق، وكل ذلك يعني لمن يتدبر من الدعاة تاريخ المساهمة الإسلامية في العالم **أن الحياة الدعوية الإسلامية الحاضرة، في امتدادها العالمي، إذا حافظت على عقيدة التوحيد نقية غير مشوبة ببدع، وركزت على خدمة العلم لأغراض الدين، وأشاعت أحاسيس الأخوة الحقيقية النافية للتوترات القومية، فإن إنجازات هائلة تنتظر الدعوة أيضاً قياساً على الإنجاز العلمي الذي أبرزته الحياة الاجتماعية الإسلامية الماضية، وأن الدعوة يمكنها أن تحقق أنواعاً من النجاح العلمي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي عبر هذه المنهجية في وصفها المجمل هذا فقط، المركز الملخص الذي ليس فيه غير الإشارات والعناوين العريضة، فكيف لو حصل تفصيل في هذه الأركان المنهجية**، وتم التفريع منها، والإضافة إليها، وإلحاق المكملات بها ؟ إذن لتأكد النتاج الحسن، وتضخم العطاء، وتوفر عنصر تفوق حاسم على المنافسين في جولات صراع الدعوة معهم، ولعل في هذا المثل الإسلامي ما يشرح معنى المنهجية ودورها لمن لا يزال الأمر عليه مبهماً خفياً، فالتأمل المكثف فيها يوضح تماماً أن القضية ليست مجرد أُمنيات في قلب همام يريد إحداث تأثير ونتائج جديدة، ثم يتوسل إلى ذلك بوسيلة حشد معلومات وتأجيج عواطف واصطناع خطاب حماسة يأمر بالاقتحام والتقدم والإنتاج والإبداع، وإنما القضية قبل ذلك تتعلق بالمحضن الذي تنمو فيه القابلية، وبطريقة تبادل الخبرات، وانسيابية التعاون بين العناصر التي تحاول إنجاز

المهمة، ومنح الأمان لمن يحاول فيشذ ويغرب متأولاً، وحفظ الحق المادي والمعنوي لمن يصل إلى إنجاز قبل غيره، مع تكوين حالة نفسية ترنو إلى الأعالي والطموح وتزهد في السفليات، لكن مع العفاف والطباع الأصيلة التي تتمثل في الشجاعة والوفاء والمبالغة في الصدق ونوايا الإحسان ومنح الخير للغير، فهذه العوامل كلها، متوجة بالعزة الفريدة النوع التي يحسها الساجد لله تعالى، المتبرئ من الإذعان لبشر : هذه العوامل هي التي تضمن الحد الأدنى من إمكانية اكتشاف أمر جديد أو اختراع أو رأي وفكر من قبل من يتعامل معها ويحاول في ظلها، وهي التي تضاعف القليل، وتجمع الأجزاء الناقصة لتبنى منها شيئاً تاما، وإنما تتكون الخطوط العامة والأركان الواسعة لمعنى المنهجية من هذه العوامل إذا اجتمعت في توجه واحد، ثم تزداد تأثيراتها بطرق تفصيلية في الأداء والإدلاء والتجريب والمحاولة، مثل طرائق الاستقراء والاستنتاج والإثبات والنفي في المجال العلمي وغيره، وربما الطرائق الجزئية المتكاملة مائة، يكون اللجوء إليها واستعمالها عبر افتراض التماكن والتبادل بينها، بحيث يليق لكل قضية أن تحكم ببعضها من غير تصور سابق لوصفة خاصة تجمع أجزاء هذا البعض للكشف عن القضية، وإنما من خلال المحاولة والتجريب قريباً من طريقة التوافيق والتباديل في الرياضيات في معناها الأساسي المبسط، ويمكن أن تتم وصفات أو خلطات كثيرة حسب الطبيعة الموضوعية للقضية المبحوثة، اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو تنظيمية، فردية أو جماعية، فمثل هذا الدفع والإلجاء لمجموعة باحثي القضية أو الظاهرة لاستخدام هذه المعايير المنهجية تحت سقف الحسم النفسي الذي تولده عقيدة التوحيد، وفي ظلال التآخي الإنساني بين المؤمنين، وربط المحاولات بأهداف خدمية للأحكام الشرعية والحياة الإسلامية : هو الذي يؤمل منه أن يوصل مجموعة البحث إلى نتائج وأشياء جديدة فيها إبداع وإضافة لم تكن من قبل، ويعجز التلقين وحشد المعلومات عن مثل ذلك، وبخاصة إذا لم تقترن به نفخة الاستعلاء الإيماني بمقدار كاف، أو لم تحفظ الحقوق، أو نقصت مشاعر التآخي، إذ يكون المحضن عندئذ ناقصاً أو ملوثاً أو مكشوفاً لتأثيرات المحيط، ويغدو الإبداع مجرد فلتة من عبقري عصره الألم، أو مجرد صدفة ورمية قدرية من غير رام تأتي كرحمة ربانية لقوم لم يرحموا أنفسهم ولم يؤهلوها ولم يحرثوا أرضهم وأستبد بهم الكسل حتى أنامهم إلى الضحى، لكن بينهم رضيع وعجوز يلتفت الله لهما، ويعجز الإبداع في ظل هذا الانكشاف عن أن يكون زخماً متدفقاً، أو سيلاً متواصلاً له جريان، إنما هو التنقيط، نقطة بعد نقطة، ومثل هذا الوصف المجفل، الذي تشهد له ساحات ابتليت به وسادها فتور الهمم واستهلاك الرصيد القديم:

يوجب على التربية الدعوية أن تجعل قضية المنهجية في أول الأولويات، وان تبت ثلاثاً بطلاق الأنماط التلقينية، وأن تتوب من تقديس اجتهاد السابقين، ومن قلة الممارسة الشورية، وإذا نجحت الدعوة في كل قطر في تربية ألف فقط من بين أُلوف منتسبيها يتقنون الممارسة المنهجية في صناعة الرأي والقرار في المواقف، ويعرفون التخطيط المرحلي والاستراتيجي ولوازمهما، فإن الدعوة تكون قد اقتربت من النجاح والتمكين، والألف إنما يتوزعون في أرجاء الساحة يتقاسمون أنواع الواجبات، كل على ثغرة، أو كل عدد منهم على ثغرة، وهم النواة ويقودون عشرات أُلوف غيرهم يدورون في المدارات المتتالية والهالات المحيطة المتناقصة الإشعاع، ومن الجميع تتكون الكتلة التنفيذية، لكنه تنفيذ صبور، يسير على مهل لا يتعجل، ولا يتهور، ولا يشتط، ولا يجازف، لأنه منهجي الهوية والجذر، حضاري التوجه، شمولي الأداء، وكفى. وقارن بمقابل هذا مجاميع من الدعاة ما زالوا يبشرون بعبقرية قائد ملهم يمكنه أن يلي الأمر ويكون الساد لكل الثغرات، وأن يدلي بالرأي الصواب في كل المشكلات، ولا يرون ضرورة لشورى، ولا لمؤسسات تنظيمية، وإنما في مناقب القائد كفاية، والقيادة الجماعية عندهم مجرد أمر محمود مفيد، لا يرقي إلى درجة الحتم والفرض وبخاصة في ظل ظروف أمنية فيها صعوبة، وعلى الطاقات العديدة المتنوعة أن تنتظر أمر القائد، وأن تبادر مبادرة فردية، من غير نواظم أو حدود منهجية، ويمكنك أن تتفرس في وضع كهذا كيف ستخبو فيه القابليات، ويزدري التابع دوره ويتنازل عنه، ويتوارى الواثق الطموح لئلا يتهم بتطاول، ويتواكل من كان متوكلاً، وتكون النتيجة التراجع، أو المراوحة في المكان، إذ الفرص تستنهض، وإنما أدى إلى ذلك نمط أخطأ فهم صفات النفوس، ولم يستنطق التاريخ، ولم يخبر أسرار حركة الحياة كيف يكون.

❑ وينتقل د. التكريتي إلى سرد أخبار العلم الأُوربي، ويبين أن انطلاقته الأُولى اعتمدت على ترجمة كتب العلماء المسلمين أو الكتب الإغريقية التي ترجمها المسلمون إلى العربية، وكان سقوط الأندلس بخاصة ووقوع المكتبات العربية الأندلسية بيد الغرب هو العامل الأهم في ذلك، فترجموا كتب الخوارزمي وابن سينا وابن الهيثم، حتى أن مترجماً واحداً اسمه جيرارد ترجم سبعين كتاباً في العلوم والمعارف، فتلقف كل ذلك اثنان من أساتذة أكسفورد هما كروسيتست وتلميذه روجر بيكون الذي أعجب بنظريات ابن الهيثم في الضوء وبمنهجه العلمي الذي ربط الفيزياء بالرياضيات بالفلسفة، وأصبح هذا المنهج هو المنهج السائد في أوربا، ودخل علماء آخرون في خط الانتفاع من هذه الثروة الإسلامية، وأكمل كبلر المهمة، وبدأت الثورة العلمية الأوربية والنهضة الصناعية، وطور كوبرنيكوس تلك

البداية استناداً إلى دراسته لكتب البتاني والزرقاني والبوزجاني والفرغاني، وحصلت ردة فعل الكنيسة تجاه حقائق تفضح أوهامها، وحصلت مأساة غاليلو صاحب التلسكوب، إلى أن ظهر نيوتن وقام بتجارب لا تقبل الدحض واستخدم الرياضيات واستمرت الثورة العلمية تتصاعد بوتيرة متسارعة، وكان نيوتن يؤمن بالله وأنه هو تعالى خالق هذا النظام الكوني الجميل، وقد كان كتاب المبادئ لنيوتن هو أهم الكتب العلمية على الإطلاق وأكثرها أثراً في مسيرة العلم الحديث حتى يومنا هذا، وشرح فيه قوانين الحركة والجاذبية وميكانيك السوائل والغازات.

❑ أقول : وفي تحليل هذه المرحلة من تطور العلم دروس منهجية عديدة يمكن أن نقترحها على التربية الدعوية.

❑ منها بيان أهمية الترجمة وتوفر المادة العلمية الأساسية التي تنطلق منها النهضات، ويصح هذا في اتجاه ترجمة كل موضوع نافع لدى أمم الأرض وعند الغرب بخاصة لنستفيد منه، كما يصح في اتجاه ترجمة الإنتاج العربي الدعوي إلى لغات المسلمين الأخرى، مثل التركية والفارسية والأوربية والملايوية، لأن العمل الإسلامي العالمي يجب أن يكون متجانساً متناسقاً متوازناً في أجنحته الكثيرة ومثاباته، **وقد حصل تقدم في الفكر الدعوي العربي مازالت الأجنحة الأعجمية أقصر عنه**، وعلاج ذلك الترجمة، ليست مثل فوضى الترجمة الحالية التي غالباً ما تتم لأغراض تجارية وبمترجمين يتصرفون في المعنى والمبنى أحياناً بدوافع خلافية، كما جرى في إيران مثلاً، وإنما وفق خطة دعوية للترجمة وبمترجمين من الدعاة أنفسهم ينزلون الكلام منازله الصحيحة.

❑ ومنها : بيان أهمية الصبر والتحدي وروح التصميم على المصاولة، والاستعداد لدفع ضريبة الفكر المتقدم، إذ يمكن أن تعتري المسلمين دهشة مما يقوله الدعاة، بل الساذجون من الدعاة قد ينكرون على ذي تجديد منهم، وهذه الأخلاق النفسية السامية هي قرينة المعاني المنهجية ومن لوازمها.

❑ ومنها : أن الإضافات تأتي مجزأة متناثرة في عرصات مكانية عديدة، على أيدي مبدعين كثيرين، في مساحة زمانية متوسطة ربما، لذلك تبقى محدودة الأثر، إلى أن يبرز داعية يجمع المتفرق، ويضم الموضوع إلى مثله، وينظم الاجتهادات معاً، ويتمم، ويسد النقص، ويبتكر العنوان الشامل، ويخرج بنظرية كاملة، يصوغها في كتاب واحد بلغة بليغة تغرف من العاطفة وتندي بها الجفاف، فتكون ثمة صعقة، ينتفض لها من في الميدان، ويحصل تحول حاسم، ويكون الكتاب أو مجموعة

الكتب المتكاملة من صاحب النظرية معلماً من معالم التطور الفكري الدعوي يفي بحاجات مرحلة قادمة، قياساً على آثار كتاب القواعد لنيوتن.

❑ ويواصل د. التكريتي كلامه منتقلاً إلى تطور الاكتشافات الذرية في مرحلة بطيئة استغرقت قرنين كاملين ولما تكتمل، ويشير إلى نظرية البريطاني دالتون الذرية في سنة 1803 التي تقر بتألف المواد من ذرات، وأن ذرات العناصر المختلفة تختلف في الخواص، وأنه لا يمكن خلق الذرات ولا تقسيمها ولا تدميرها، وأن المركبات تتكون من اتحاد ذرات العناصر المختلفة بواسطة التفاعلات الكيماوية، وفي 1811 توصل الإيطالي أوفوكادرو إلى أن الأحجام المتساوية من الغازات تحت ضغط معين ودرجة حرارة معينة تحتوي على عدد متساو من الذرات، وأضاف الاسكتلندي ماكسويل والنمساوي بولتزمان فكرة تألف الغازات من ذرات صلبة تتصادم بينها وتنتج الحرارة، وبذلك فهي تخضع لقوانين نيوتن. وفي عام 1897 م اكتشف الإنجليزي ثومبسون الألكترون وعيّن شحنته السالبة، ثم أكتشف الفرنسي بكريل أن بعض العناصر مثل اليورانيوم يشع إشعاعاً طبيعياً، وطورت مدام كوري البولندية الأصل الفرنسية الإقامة المعلومات عن هذه المواد المشعة، وثبت بعدئذ أن هذا الإشعاع على ثلاثة أنواع : ألفا، والتي هي نواة الهليوم، أي موجبة، وبيتا التي هي الألكترونات السالبة، وغاما التي هي التي أشعة كهرومغناطيسية ذات طاقة عالية، أي هي موجات.

❑ ودخل القرن العشرين حيث جاء النيوزيلندي البريطاني الإقامة رذرفورد ووجه أشعة الفا الموجبة إلى صفيحة ذهبية، فوجد أن بعضها ينحرف وواحد من ثمانية آلاف منها يرتد في الإتجاه المعاكس، وبذلك استنتج وجود نواة موجبة للذرة قطرها صغير جداً بالنسبة إلى حجم الذرة، وعملية التنافر بين موجبين هي التي تجعل الدقيقة الألفية ترتد، وما أنحرف منها هو ما يمر قريباً من النواة، وأكتشف رذرفورد أن الألكترونات تدور في مدار حول هذه النواة، ثم أنتقل الدانمركي نيلزبور ليعمل في صحبة رذرفورد، وأكتشف أنها مدارات عديدة للألكترونات على مستويات وليس مداراً واحداً، وانه إذا امتص الألكترون كماً من الطاقة الضوئية فانه يقفز إلى مدار أعلى، وإذا بعث كماً من الطاقة الضوئية فانه يقفز إلى مدار أدنى، وقد أصبح بور من أعمدة فيزياء الكم، ويرى البعض أن تأثيره في الفيزياء أكبر من أي عالم آخر، وقد انضم بعدئذ إلى الفريق الذي صنع القنبلة الذرية الأميركية.

واستمرت الاكتشافات العلمية على هذه الوتيرة، ووجد العلماء أن خواص العناصر تعتمد على عدد البروتونات، وهو ما يسمى بالعدد الذري، وعينوا الأعداد الذرية لجميع العناصر. وفي عام 1928 أكتشف النمساوي باولي أن المدار الأول للألكترونات لا يستوعب غير ألكترونين فقط، والمدار الثاني ثمانية، والثالث ثمانية عشر، وقاد ذلك إلى أن العناصر التي يبقى من عدد ألكتروناتها ألكترون واحد يدور في المدار الخارجي مثل الصوديوم تكون عناصر مستعدة لأن تعطي ألكترونها اليتيم إلى غيرها من أجل أن تستقر، وأن العناصر التي ينقص عدد ألكترونات مدارها الخارجي ألكتروناً واحداً عما هو مفترض مثل الكلور تكون مستعدة لاستقبال ألكترون من غيرها لتستقر، وهكذا تتحد ذرتان لتكوين جزيء كلوريد الصوديوم، وهو ملح الطعام، وقد يكون الناقص أو الزائد من الألكترونات اثنان وليس واحداً فقط، وهذا ما يوحد ذرتي الأوكسجين والهيدروجين لتكوين جزيء الماء، وهكذا يتكون ملعب عجيب خلال عمليات التبادل هذه، وفي نفس الوقت تمتص الألكترونات مقداراً من الطاقة في شكل فوتونات، فتقفز من مدار إلى مدار بحسب كمية الفوتونات، وربما يتخلص ألكترون من أسر الذرة، وما إضاءة مصباح عنصر التنكستين إلا عبارة عن فقد الألكترونات لكمية الفوتونات التي امتصتها، فتنزل إلى مدار أدنى، ثم تأخذ فوتونات أخرى، ثم تفقدها، في عملية مستمرة، وكل العناصر والمواد تقوم بهذه اللعبة، لكن لا ترى آثارها إلا في درجات الحرارة العالية، ولا تتوقف اللعبة إلا عند درجة 273 تحت الصفر، وهي درجة لا يمكن الوصول إليها.

❑ أقول : هذه السياحة العلمية لم تنته بعد، وسيبدأ الكلام عن الضوء وأسراره، إنما استحسن أن نتوقف قليلاً لرصد ما يمكن من منهجية صحيحة خلف هذا النجاح العلمي الضخم، وبعض حديث عن ظواهر مصاحبة للنجاح، وتحليل لطبيعة المخلوقات.

❑ دروس في المنهجية وحركة الحياة يوحيها تاريخ العلم

❑ فمن ذلك : أن العلم لا يحده إقليم ولا يحتكره قوم، إنما هو عالمي عابر للقارات، فقد رأينا البريطاني والفرنسي والألماني والنمساوي والدنماركي والإيطالي والنيوزيلاندي، وقد اجتمعت عقولهم جميعاً لاكتشاف المجهول، وفي هذا ما يعظ الدعاة أن لا تستبد بهم عصبية، وأن ينتظروا الإبداع الدعوي من كل أجزاء الدعوة في امتدادها العالمي، وأن صفة العالمية التي ابتنت عليها الدعوة ابتداء، والامتداد

العالمي الفعلي الذي وصلت إليه الدعوة بحمد الله، هما عنصران إيجابيان يرجحان الميزان لصالحنا في الميدان التنافسي، ولا بد أن نستثمر أكثر وأكثر هذا الاستعداد لمشاركة الجميع في البناء والعطاء والإنجاز، والأمر أكبر من أن تحققه ارتباطات قيادية فقط، بل حياة اجتماعية منسابة وتعاون أعرض بين جميع الطبقات التنفيذية وعناصر الاختصاص والعناصر التي تجمعها صفة مشتركة، حيث أن تبادل الخبرات الذي يصاحب ذلك، وعدوى الحماسة، والتأثيرات النفسية الإيجابية الناتجة من التزاور والاختلاط والتشاور كلها ستساعد على الوصول إلى أجزاء متناغمة من الإبداع الذي يمكن أن يتكامل في سياق واحد ويوظف لخدمة اليوميات الدعوية مثلما يؤدي دوره في خدمة الأهداف الإستراتيجية.

❑ ومن ذلك : **أن التقدم إنما حصل في البيئات المتقدمة العلمية الراقية، ولم** يحصل في البلاد التي تفتقد ذلك، وفي هذا ما يجعلنا ننتظر الإبداع الدعوي أيضاً من البيئات المتقدمة ذاتها ومن أمثالها، سواء في البلاد الإسلامية التي تطورت مدنياً بسبب غناها وانفتاحها، ويقوم بذلك جسم الدعوة كله في ذلك البلد، فيقوم بدور قيادي في الفكر والتخطيط والتربية والتنفيذ، هو مؤهل له، والغير غير مؤهل، أو تقوم به الجاليات الإسلامية في الغرب عامة، ويكون الداعية الألمعي الذي تحفزه معطيات البيئة المتقدمة ثقافياً ومعرفياً صاحب دور قيادي عالمي في الفكر والتخطيط والرصد واكتشاف السياسات العليا وأنماط العمل لدى خصوم الإسلام. وهذا التوقع لا ينفي أن يكون الدعاة في البلاد الفقيرة المتأخرة أصحاب عطاء فكري ومشاركة في الإبداع أيضاً، لان اللمعة العقلية قد لا تحتاج آلة ولا مصادر احتياجاً حتمياً، **وربّ فقير في واحة يكتشف من أسرار الإيمان ما يبشر به غيره في الآفاق، ونحن نعرف من دعاة صحراء موريتانيا وقرى اليمن وجبال إريتريا من تتوقد عقولهم وقلوبهم معاً بنور الإيمان وشرارات الفكر، إذ بلادهم هي نموذج التخلف والبدائية**، لكن هذا لا ينفي أن حجم العطاء في البيئة الراقية يكون أوفر وأدوم، بحيث أن أقطاراً مثل بلاد الخليج يمكنها أن تؤدي دوراً رائداً عبر المنهجية واستثمار البيئة والانفتاح، وبلاداً صغيرة مثل ماليزيا يمكنها أن تؤدي دوراً قيادياً بين جيرانها، بل ولكل الأمة، بسبب تقدمها المدني.

❑ ومنها : أن هذا العطاء لم تحركه البيئة المتقدمة فقط، ولا المنهجية في وصفها الطرائقي فقط، **وإنما أنضجته الجوانب المادية والآلية في هذه المنهجية أيضاً**، فقد حدث أكثر التقدم في الجامعات العريقة ومعاهد البحث، حيث الأجهزة المعقدة، والمكتبات، والمال الكثير المرصود للبحث، والتزاور بين العلماء،

والتشاور من خلال مؤتمرات، والدوريات العلمية، ووسائل الإيضاح، ووجود أقنية مفتوحة مع المجتمع تضمن تجاوبه ودفعه المعنوي، والاستعانة بالشركات والمعامل الإنتاجية حيث التجريب على نطاق واسع أبعد من المختبر، مع الإسناد المالي، في آليات أُخرى بعضها يرفد بعضاً لتكوين بنية تحتية مؤهلة لخدمة البحوث، والدعوة إن أرادت الإبداع من أذكياء دعاتها في أُمور السياسة والتخطيط فان البنية التحتية تكون واجبة، من وجود مركز بحوث، ومكتبة متقدمة فيها أنواع المصادر، وأرشيف جامع، وصحف مصورة في ديسكات، ووسائل إيضاح، ومال مرصود يكفي للسفر وعقد الندوات والمؤتمرات واستقدام الخبراء، في أُمور أخرى مماثلة، ولا يصح أن ندع الدعاة في حرج ويركضون وراء المصادر والوثائق عند آخرين قد يكون فيهم المنافس والبخيل، وإذا اعترض قطرٍ فقير على مثل هذا الندب الذي يحرجه ولا يجد لتحقيق هذه الأمنيات سبيلا ، فجوابه ليس غير جواب واعظ لخلي كف، فيأمره أن يسبق أهل الدثور بذكر وتسبيح، **وحسرات جزء الدعوة الفقيرة لا تمنع المقتدر أن يبادر إلى تكميل منهجيته**، ثم يدعو للفقير أن يغنيه الله من فضله، أو يفيض عليه مما أغناه الله، وكل ميسر لما خلق له، والبركة تجعل القليل كثيرا، والمرتجل منهجياً.

❑ **ويلاحظ أن الحكومات في كل هذه البلاد التي ساهمت في تطور العلم هي حكومات تعدل بين رعيتها، وتحفظ حقوقهم السياسية والإنسانية، والقانون فيها هو الفاصل، مما يعني أن البيئة السياسية تفعل فعل التقدم المدني وتضاعف آثار البنية الأساسية، وما تشهده أكثر بلاد المسلمين اليوم من ضعف الإبداع إنما مرده في جزء منه إلى الاستبداد وهدر حقوق الإنسان وما يتبعها من تمجيد الحاكم وتمكين النفعيين وكبت الأحرار وأصحاب الرأي المستقل**، والتخذيل العام الذي ينتج عن الاستبداد وتقعد به الهمم يصيب الدعاة أيضاً، إذ هم جزء من المجتمع، والنفس البشرية تتأثر إذا طال مدى الظلم ويستحكم اليأس، كما أن لهذه الحقيقة بعض انعكاس أيضاً إذا ضعفت الروح الشوروية داخل الجماعة ولم تتميز الحقوق والواجبات ولم تنضبط بنظام أو ترسخ بعرف، إذ يزهد الدعاة في أن يضيفوا للمسيرة جديداً وتذوى روح الابتكار، وبين الحالتين تماثل لا يحتاج مزيد تدليل.

❑ ومنها : **أن الفلسفة العلمانية المعادية للدين سكتت وتوارت في هذه المرحلة من الاكتشافات العلمية، إلا القليل**، إذ كان مع كل كشف جديد يثور تساؤل عن سر خفي، ومال العلماء إلى الإيمان بوجود خالق مدبر، إذ كانت بعض قوانينهم تتعطل أمام بعض الظواهر، وهو ما سنراه في المرحلة الأخرى أجلى وأوضح، مرحلة

فيزياء الكم، مما يدل على أن الإلحاح في التفسير العلماني كان في الأول مغرضاً منحازاً استغل نشوة اعترت النفوس في عهد تصاعد الاكتشافات العلمية الأولى فجهر بالإلحاد، ولم يكن له ما يبرره في ذات الاكتشافات، ولم تشذ عن هذه الظاهرة إلا أميركا، إذ بدأ الإلحاد فيها من خلال الفلسفة التجريبية لديوي في الوقت الذي بدأ الإلحاد يتراجع في أوربا، وسبب هذا أن أميركا كانت متخلفة في العلم عن أوربا، فمرت بطور المراهقة حين كانت أوربا قد استوت وتجاوزته، ولذلك عادت أميركا الآن إلى الاعتدال والتدين. وانعكاس هذه الظاهرة على الحياة الدعوية يمكن أن يكون مماثلاً، ففي العصر الذي بدأت فيه مرحلة تأسيس الدعوة كان العالم الإسلامي يتسم بالمراهقة الفكرية والتأثر بالغرب وبدعاية شيوعية تبشر العالم بعهد جديد، ولذلك أنصرع الجمهور لزخم التأثير الإلحادي، ومالوا إلى تكذيب الدعاة ومقاومة الدعوة، فلما انتشرت معلومات العلم التطبيقي أكثر عبر الجامعات والبعثات، أو حين أنتشر بعض الوعي العلمي بين جمهور الناس عن طريق التلفزيون والصحافة : كان ذلك سبباً من جملة أسباب في انحسار الإلحاد، وزادته النكسة السياسية انحساراً، لغياب الحاكم الملحاح في العلمانية، ثم زاده سقوط الاتحاد السوفييتي تواريباً، **وتحولت المشكلة أمام الدعوة من مشكلة إلحاد يجد له رواجاً بين الشباب إلى مشكلة شهوات** نمت أكثر من ذي قبل هي نتيجة اختلاط الأمم والتعليم العلماني، ومشكلة الشهوات أخف دون شك، والشهواني قد يتوب من قريب، وبعد كل سكرة إفاقة، على النطاق الفردي أو الجماعي، وفي خبر الصحوة دليل، وفي كل هذا ما يمنح الدعوة معياراً منهجياً مهماً يرجح بإذن الله موقفها، وهو أن تساعد على نشر الوعي العلمي التطبيقي الصحيح، والمعرفة الثقافية النظيفة أيضاً، لأن ارتفاع مستوى هذا الوعي يجعل الجمهور أقرب لنا، ويمهد لتقبله الإيمان وموازين الشرع وقيادة الدعاة له، أي أن تبدأ لنا منهجية تربوية للجمهور سابقة للتربية الدعوية الداخلية التي اعتدنا الاقتصار على بحثها، إذ سيكون للعلم والكتلة المعرفية آنذاك دور يقرب أن يكون حاسماً، وبخاصة إذا اقترنت بذلك حملة ترويج الإعجاز العلمي الإسلامي وبذل نتائجها إلى العامة وليس الاقتصار على الخاصة فقط كما هي الآن، ويزداد الحسم إذا اقترن كل ذلك بموقف سياسي واضح يلبي طموحات الشعوب الإسلامية ويقودها إلى التمرد على ضرائب التطبيع. والوصول إلى هذا الترويج للكتلة العلمية والمعرفية فن قائم بذاته يعتمد موازين الإعلام ومناهجه بخاصة، وهو ممكن للدعوة رغم صعوبته وغلاء تكاليفه، وأساسه النشر والصحافة والتلفزيون والإنترنت وإظهار علماء الدعوة وقضايا مقاربة، ويزداد تأثيراً بتوظيف طاقات حلفاء الدعوة وعامة المسلمين

وبعض المؤسسات، والإكثار من الجمعيات التخصصية، وله خطة ومنهجية مكملة لمنهجية التربية الدعوية ليس هذا مكان بحثها، وتبدأ بعدد من دور النشر الجادة التي تسيطر عليها روح دعوية لا تجارية، وبمجلة علمية أُسبوعية عالية المستوى تربط العلم بالإيمان أو تعرض الإنجاز بحياد، وبمحطة فضائية ثقافية علمية توظف العلم والمعرفة لقضية الإيمان، ثم يكون التفريغ وتكون الإضافة، وكثير من الجهود الحكومية يمكن أن تسير في هذا التوجه رغم ما يشوبها من شوائب، وهناك نقاط التقاء مع الجامعات يمكن أن تستثمر لصالح هذه الحملة المعرفية، وتكاد بعض أهداف وزارات التربية أيضاً أن تلتقي مع هذه، لولا أنها وزارات تتعمد الزيغ والمخالفة، وما زالت محكومة بالنظرات المنحازة التي حكمت الفلسفة وولى عهدها في الغرب، لكن المنحى التقليدي أعطاها فرصة الاستمرار في بلاد العالم الإسلامي، أو لعل دوراً تخريبياً مفروضاً عليها تمارسه ويدعوها إلى تشويه التربية، وأما وزراء الأوقاف فإن أمثلهم وأقربهم إلى العفاف يمشي على استحياء ولا يستطيع المشاركة في الحملة حتى ولو تمنى، ولا يبعد أن يكمن الصواب في الزهد بجهود وزارات التربية والأوقاف، إذ أن محنتها في العالم الإسلامي فرع من محنة الحكم السلطوي الأسير لنفوذ دول الاستعمار الكبرى، إنما الخير والبركة في عامة المسلمين، من غني يمول، و أُستاذ جامعي يقدم البرامج، ومثقف يشارك، وباحث يقتبس البرامج الغربية وينتقي أحسنها للعرض، وهؤلاء طبقة عريضة جداً، وما زال الإيمان عامراً في قلوبهم، لكنهم متفرقون لا يحسنون الاجتماع لتجويد الأداء، وهي صنعة يحسنها الدعاة وبإمكانهم أن يقودوا هذه الطاقات المعطلة لتؤدي دوراً تربوياً ممهداً لدور التربية الدعوية، ولئن رأى البعض أن في تحميل الدعاة هذا العبء هو إرهاق لهم، بل إعنات ومطالبة بأمر هو أخو المستحيل ويكون في عداد المعجزات فإن اعتراضه يتجه لو كان كل قطر يطالب بمثل ذلك، إنما هو عطاء عالمي نعنيه، قد تتعدد مراكزه تبعاً لتقاسم الأدوار، لكن الجهد لا يتكرر فيه، وتكون خبراته وفوائده عامة تنتفع منها كل الأقطار والجاليات الإسلامية، وهو بهذا الوصف في نطاق الممكن إن شاء الله، والطاقات موجودة، ولكنها مبعثرة، وتحتاج لمسة حنان تخطيطية فحسب، ثم كد ذهن، وزيادة توكل، وتفريغ مجموعة من مبدعي الدعاة قد لا تكون كبيرة ترعى هذه الحملة، بل حتى الكتب الموضوعية يوجد الكثير الجاهز منها لدى المؤلفين ولا يجدون له ناشراً، لغلبة الموازين التجارية في النشر، أو نشر بعضها محلياً في بعض الأقطار على نطاق محدود، ومن الممكن إعادة نشره ضمن هذه الحملة ليبلغ الآفاق البعيدة، كمثل سلسلة الألف كتاب في الخمسينات التي نشرت كطبعات شعبية رخيصة، وكنت في

شبابي قد حزت أكثر من عشرين كتاب مترجم منها في فيزياء الذرة فقط على نمط كتاب د. التكريتي حبات المعرفة هذا، قرأتها عشرين مرة، وركزت في قلبي حماسة علمية ليست عواطفي الذرية اليوم إلا الوشل المتبقي منها، وذهبت الآلام وتقلبات الأيام بمعظمها. والذي أظنه أن الجهد الذي تحتاجه هذه الحملة ليس أكثر من جهد تقدمه بعض الأقطار لكليات دراسية ترعاها، ولكن الذي سوغ المدارس لهم ولم يسوغ مثل هذه الحملة العلمية ليس سوى سهولة رؤية آثار المدارس وتحسس أهميتها بمقابل بعض صعوبة في تصور أهمية هذه التربية العامة للناس وقيمتها المنهجية، وكأن لجان التربية في الأقطار لم تستشعر تماماً وجوب وجود تربية إسلامية تسبق التربية الدعوية الخاصة وتمهد لها وتقوم بدور تهيئة قطاع عريض من المسلمين السائبين لتلقي التربية الخاصة، بينما رسخت أعراف في الجماعة توجب وجود ما هو قريب من ذلك مما نسميه : عملية نشر الدعوة، وهي أنواع من النشاط موجهة للجمهور الإسلامي أوسع من أن تكون تربية خاصة، فهذا من هذا، ولا داعي للغرابة أبداً، وستكون هذه الحملة العلمية العامة شيئاً أوسع من عملية نشر الدعوة، وهي وإن تأتي متزامنة معها ومتداخلة معها أيضاً في بعض مفرداتها إلا أنه يفترض أن توجه الحملة العلمية إلى جمهور أوسع من الذين تخاطبهم عملية نشر الدعوة، وبمخاطبة أقل صراحة، وتكون تمهيداً لها، أي أن العملية التربوية تتنامى على ثلاثة مستويات، ولكل منها منهجية معينة : مستوى نشر العلوم والوعي المعرفي ممزوجاً بإشارات التوحيد وموازين الإيمان. ومستوى نشر الدعوة، وهو بث وعي بضرورة العمل الجماعي وبث الفكر الإسلامي الشامل والإشارة التخصيصية إلى وجود الجماعة وطريقتها المميزة وطلب النصرة من الناس والانضمام إلى هذه الجماعة. ومستوى التربية الدعوية لمن انتظم، وفيها تركيز لمعاني الإيمان والأخلاق، وتلقين لأحكام الشرع، وتوعية سياسية، وتمكين الدعاة من الإبداع، وتقود هذه إلى مستوى رابع أيضاً فيه الإعداد القيادي والتطوير التخصصي، و له منهجية أخرى تناولتها رسالة (معاً نتطور) ودراسات أخرى، وما أظن في كل هذه السلسلة من أمر صعب سوى المحطة الفضائية التي افترضناها، ومع ذلك فإن اشتراك جميع الأقطار فيها يجعل نفقتها الكبيرة في نطاق الممكن، ولا شك أن صعوبتها هي صعوبة أيامها الأولى فقط، إذ ستقوم الإعلانات فيما بعد بتغطية جل مصارفها، وبخاصة الإعلانات العلمية عن الكومبيوتر ولوازمه، ومعدات المختبرات وأمثال ذلك، وقد تساهم مؤسسات عالمية وجامعات غربية في إهداء البرامج والمواد الأولية الوثائقية التي يستلزمها إعداد البرامج مجاناً، وهي تحتاج نفراً أهل تصميم عال، و أفق واسع، وثقة بالنفس، ثم الأمر من بعد سهل بإذن الله،

وأظن أن وضع دراسة تفصيلية لآفاق هذه الحملة العلمية واقتراح حلول عملية لمشاكلها ومصاعبها ستكون من أرقى أنواع الإبداع الذي ننتظره من الدعاة، ليس أبدع منه سوى تجرد النفر الرواد الذين سيبدؤون العمل وتصديهم لهذا الأمر الجبار. وحماية لهذه الحملة ومحطتها الفضائية : يجب أن تبتعد عن كل حديث سياسي وإشارة أمنية وإشارة لجماعة معينة، إنما هي تراد لتوعية علمية بحتة، وربط للعلم بالتوحيد، وتذكير بالموازين الإسلامية والتراث الحضاري لأُمة الإسلام، وحفظ الشخصية الإسلامية حية، وإظهار وشهر العلماء المسلمين المبدعين والترويج لهم ولأسمائهم، وأمثال ذلك مما سيدخل كل بيت ويغرس في لا شعور كل شاب مسلم الاعتداد بنفسه ودينه و أُمته، ويدفع به نحو المعالي والنبل والإيجابية والحرص على إعادة العز الإسلامي واستئناف جولة حضارية إسلامية جديدة، **ومثل هذه الأحاسيس والمعاني هي الطريق المنهجي الصحيح لمقاومة الإثارة الغرائزية الشهوانية التي تعربد بها المحطات الفضائية المائة التي تصب غضبها على ذراري المسلمين اليوم، تريد تجفيف منابع الدعوة**، والله غالب على أمره، ويمكرون ويمكر الله، ويعلم الله دعاته منهجية المكر الدفاعي ومنهجية العلم الإبداعي.

❑ ومن دروس المنهجية المستفادة من استعراض تطور اكتشاف مكونات الذرة : **أن العلم ينعكس في صورة قوة، تحسم الصراع الحربي أو الاقتصادي لصالح الدولة التي تستعمله**، والمثال هنا واضح في القنبلة الذرية التي صنعها نفس العلماء الذين اكتشفوا مكونات الذرة في مختبرات الجامعات. بل العلم يقوم بدور الترجيح الاستراتيجي البعيد المدى، وهو ما ذهبت إليه فراسة فرانسيز بيكون في بريطانيا،المتوفى عام 1626 م، وهو غير روجر بيكون تلميذ كروسيتست، المتوفى عام 1292 م ، فرعى العلم لما صار رئيساً للوزراء، في حملة قوية مركزة، فأحدث نهضة علمية أدت إلى نهضة صناعية عظيمة اقترنت بأسواقٍ فتحتها السياسة الاستعمارية، فاعتلت بريطانيا على عرش العالم مائتي سنة، و أُتيح للفنان المعتز بالإنجازات أن ينحت تمثال فكتوريا وفي يدها الكرة الأرضية تقلبها بين أصابعها وتتمتع بذلك، وكل سائح يشاهد هذا التمثال أمام قصر بكنجهام الملكي، ثم كل بريطاني اليوم يعيش على فضل صدقات بيكون وإحسانه، وهذا المثل البيكوني هو أصرح دليل على أهمية التخطيط والمنهجية والعملية القيادية، وأن هذه الثلاث إذا اجتمعت أنتجت المعجزة، وفي كتابي (حركة الحياة) مزيد تعقيب على هذه القابلية، ثم نحن ما زلنا نعيش اليوم أثر خطة حرب النجوم التي وضعت أميركا في مركز الصدارة العالمية مثلما أرهقت الاتحاد السوفييتي لما حاول اللحاق بها فكان

ذلك أحد أسباب انهياره، وحرب النجوم هي عنوان عريض لمنهجية مزدوجة مضاعفة الازدواج، فيها منهجية علمية بحتة، ومنهجية سياسية، ومنهجية أمنية، ومنهجية إعلامية، ومنهجية في التضليل والحرب النفسية أيضاً، إذا أنها ما كانت في الحقيقة بالحجم الذي صورت فيه، بل أصغر جداً، ولكن ضخمت إعلامياً لاستدراج السوفييت لتخصيص مزيد مال لمشروع مماثل أرهق الميزانية واستنفذها، في وقت كان الجهاد الأفغاني يقوم بدور مماثل، فانحسر الإنتاج الزراعي، وغابت الحنطة، فبذلتها أميركا للشعوب السوفييتية، فركع الناس معنوياً وأذعنوا لليد العليا المتصدقة، فاضطر النظام أن يركع أيضاً، ثم اضطرت الفلسفة الماركسية كلها على امتدادها العالمي أن تتنصل من أصلها وتنكر فصلها، وهذا هو أجلى دروس المنهجية لقوم يفقهون، **والقيادة الدعوية مدعوة لإحداث مثل هذه النقلة الحاسمة في المعادلة الدائرة، باعتماد العلم والتنويع المعرفي كروافد أساسية في خطة التربية الدعوية خلال مراحلها الأربع التي شرحناها آنفاً، من أجل وضع الكتلة الدعوية العالمية في مركز تفوق يقود إلى سيطرة، ونحن قوم سلميون إلا ما يكون من جهاد ندفع به عن بعض بلادنا العدوان، سلسون لينون، لذلك لا يكون في منهجنا قنابل ذرية، بل ولا خلبية فارغة، إنما نستخدم حقائق العلم الأُخرى، بخاصة في مجال الكمبيوتر والبث الفضائي وآليات النشر والتأثير الإعلامي والتعليمي وما وازى ذلك من الاستخدامات السلمية للتطور العلمي، وبذلك نضع الدعوة في مركز القوة والنفوذ في زمن لا مكان فيه لضعيف وساذج ودرويش.**

❑ وملاحظة أُخرى في هذا السياق نستلها من طبيعة الألكترونات القافزة من مداراتها إذا لم تكن مستقرة، فقياساً على ذلك واستنباطاً نستطيع أن نقول: أن المخلوقات جميعاً تسلك سلوكاً متشابهاً، وأن بعض العلاقات التنظيمية والظواهر التربوية في الحياة الإنسانية إنما هي صدى لأخلاق الألكترون، وليس اللغز الإنساني بأقل من لغز الألكترون، فبعض المنتسبين إلى الدعوة قد يقفزون ويهربون من الارتباط، ويطيب لهم الشرود، وتكون أيامهم قلقة، وما ذاك إلا لأنهم لم يتماسكوا جيداً مع العناصر الأُخرى بأواصر الأخوة والفهم المشترك والوحدة النفسية المعنوية التي ترسخ التأثير العاطفي، والمتهم الأول في ذلك هي الخطة التربوية لا العناصر القافزة، وقد ترجع بهم توبة فتكون نقطة مضيئة في حياتهم كإضاءة التنكستون عبر عمليات إطلاق الفوتونات عند هبوط الألكترون بعد صعوده. وأما ظاهرة الألكترون المنفرد في ذرة الهايدروجين واتحاده مع مثيل له لتكوين جزء هايدروجين راسخ ففيها دليل على وجود بشر أقوياء يؤدون دوراً قيادياً بالنسبة للآخرين عن طريق الانتظام معاً، لأن هذين الألكترونين المتمتعين

بقوة الشخصية طارا فوقعا على ذرة الأوكسجين فتعاونا معها التعاون الوثيق الذي هو أوثق ما يكون فصار الماء الذي هو قائد الحياة وأصل كل شيء حي، وهذه الإيحاءات المستلة من الطبيعة الذرية وغيرها هي عامل تحريك للعقل يدعك أقرب إلى اكتشاف دقائق المنهجية الدعوية في التربية والتنظيم وتمنحك أمناً أنك على الطريق الصحيح ما دمت تجد شواهد لمذاهبك في أخلاق الخلق.

❑ ومرة أُخرى يعترض بعض الدعاة على تمثيل لا يرون الواقعية فيه، إذ هناك اختلاف بين حالة دعوة مستضعفة، وحالة دولة لها الإمكانيات، ويستغربون أن تكون منهجية التنمية العلمية قابلة التطبيق من دعاة تحاصرهم المعوقات، ويرون ذلك مجازاً بحتاً.

وما من أضغاث أحلام بحمد الله، إنما التشاؤم عند أصحاب التقليد فقط، الذين يظنون أننا ندعوهم إلى بناء مفاعلات ذرية أو أن يرسلوا قابل أخو هابل إلى الفضاء ليكتشفوا أسرار المجرات.

إذن أين الإبداع في ابتكار منفذ علمي يناسب الطاقة الدعوية المحدودة ؟ نحن نخاطب أهل الإبداع والاجتهاد، لا أهل الحرفية النمطية التقليدية.

هناك في صغار العلم ورخيصه تكمن الفرص.

الجواب على اقتراحنا لا يكون من منهزم ضيق النفس يلوي رجلاً على رجل ويقول : لا، إنما يكون من مؤتمر من علماء الدعاة يفركون عقولهم لاكتشاف البدائل والمخارج بما لا يولد العنت والإرهاق، بل مؤتمرات متلاحقة، حتى يتضح الدرب.

ولكي يكون الكلام مفهوماً فأني مضطر للدخول في شرح تجربة إنسانية فريدة كان فيها الالتفاف على المصاعب، والإصرار على التحدي، واكتشاف البدائل التي تتيح الموقف المكافئ، عبر استراتيجية بعيدة المدى.

هي تجربة الاتحاد السويسري.

قبل أربعة قرون، وبعد معارك أنتصر فيها السويسريون على جيوش النمسا : عاونوا البابا في إيطاليا ضد ملك فرنسا الغازي لها، وانتصروا عام 1513 م، في معركة ميلانو، ولكن ملك فرنسا عاود الهجوم عام 1515 م واحتل ميلانو وهزمهم،

فقرر السويسريون انتهاج سياسة الحياد، وارتضوها لأنفسهم منذ ذلك اليوم، وقلصوا حجم جيشهم، والتزموا الحياد كسياسة دائمة.

لكن الزمن كان زمن النهضة العلمية والثورة الصناعية، وقادت بريطانيا هذه الثورة، ولحقت بها فرنسا وأنمانيا ثم إيطاليا، وكثر الإنتاج بسبب استعمال الآلة، فكان لا بد من إيجاد أسواق كبيرة لتصريف هذا الإنتاج الضخم وجمع أموال الشعوب ولتوفير مصدر مجاني لا ينضب من المواد الأولية، فكان الاستعمار والصراع بين الدول الكبرى على احتلال بلدان أفريقيا وآسيا من أجل ذلك.

هنا وجد السويسريون أنفسهم في مأزق، أنهم بحكم الحياد لا يستطيعون انتهاج سياسة استعمارية تضمن موارد الخامات والتسويق الواسع، ولذلك فأنهم إن أنتجوا نفس منتجات الدول الكبرى فإن عامل المنافسة لا يكون في صالحهم وسيغلبون ويتحطم اقتصادهم بعد حين.

ثم تأملوا فوجدوا أنهم في مأزق آخر : أن دولتهم لا تطل على بحر، بل هي مغلقة وتحيط بها جبال عالية، وذاك يعني انتفاء إمكانية الشحن البحري الرخيص، وان إنتاج الأشياء الثقيلة سيضاعف عليهم أجور النقل، فتنتفي مرة ثانية إمكانية المنافسة في الأسعار، فوق ما في النقل البري من تعقيد سياسي، وأن بإمكان الدول المجاورة حصار سويسرا إذا كان ذلك ضرورياً لحماية اقتصاد الدول الاستعمارية.

إذن ما العمل، وكيف المخرج ؟

هنا كان الإبداع والقفز على المصاعب واستثمار ظاهرة (رب ضارة نافعة). عبر مؤتمرات، ربما، أو عمل مجالس تخطيط، توصل السويسريون إلى حل ذي شعبتين، وأضافت له الأيام ثالثا.

رأوا أولاً أن الدول الاستعمارية تنتج الإنتاج الثقيل، والإنتاج الاستهلاكي الواسع، فاختاروا الصناعات الخفيفة والإنتاج للخاصة، مما يخف حمله، ويغلو ثمنه، وتحتاجه حتى الدول الاستعمارية نفسها، وهكذا ازدهرت صناعة الساعات بشكل خاص، والعدسات والنظارات وإطاراتها، وجلي الأحجار الثمينة وصياغتها في حلي، وتصفية الذهب وضمانه من الغش، والأقلام، والمنسوجات الراقية المستوى، وأمثال ذلك، وتخصصوا في هذه المجالات.

ثم رأوا ثانياً أن حالة الحياد تعني الاستقرار والأمن الدائم، وهذا شرط مهم لحركة المال، فابتكروا التوسع في إنشاء البنوك ومنحوا العملاء ضمان السرية التامة لما يودعون، فاجتمعت عندهم أموال الأثرياء من أوربا وكل العالم، وأموال الحكام السارقين للأموال العامة، وأموال المافيا، فتوسعوا في الائتمان المصرفي وإقراض معامل الدول الاستعمارية وتحصيل فارق الربا، أي أنهم اشتغلوا بأموال غيرهم، حتى صارت سويسرا أغنى الأغنياء.

ثم مع الأيام وجد السويسريون أنفسهم أنهم لا يخصصون ثلث أو نصف ميزانياتهم لتكوين جيش وشراء أسلحة، أو معظم ميزانياتهم لخوض حروب، بل كان المال المخصص لذلك يذهب لبناء البلد وتحسين البنية الأساسية وتحقيق معيشة الرفاه للشعب، وكان المزيد من السواعد يعمل في ذلك بدل حمل البندقية، فازدهرت سويسرا، لصغر جيشها، وهي حالة شبيهة لما حصل لألمانيا واليابان حين ازدهر اقتصادهما بعد الحرب العالمية الثانية لما منعتا من تكوين جيوش، فتحول الرصيد العسكري إلى البناء السلمي، فكان التفوق الحالي للدولتين. وقد واكب الازدهار السويسري تقدم وسائل المواصلات، فصارت سويسرا مكان السياحة الأول في العالم، وأشترى الأثرياء فيها قصوراً، بسبب أمنها، وصارت مكاناً للمؤتمرات والمفاوضات ومراكز المنظمات، وانفتح مصدر ثالث للمال بعد المصدرين الأولين.

وكل ذلك إنما هو عطاء المنهجية والتخطيط والتفكير السليم.

ويح أمه من متفنن في إغضابنا هذا الداعية حيث يتململ مرة أُخرى ويقول: تريدنا هكذا أهل ربا ونأكل صدقات السائحين ؟

وما ذاك عنينا يا أخي، وكفاك إلحاحاً في التقليد والفهم الجامد، إنما نريدك أن تفكر كما فكروا، وتبتكر لدعوتك ما يليق بها على ضوء معطيات الواقع.

التمكين لا يهدى إليك هدية، ولا يأتي بتعب العضلات والكدح فقط، بل بكد العقل أيضاً، والتفتيش عن مسارب التملص من المعضلات، ولئن أغضبتنا أخرى.. لنسكتن.

❑ وتفتحت أكمام الزهرات

ويستمر د. التكريتي في استعراضه لتطور العلم، ويتحول إلى فيزياء الضوء والتحول الحاسم فيها على يد ابن الهيثم حين أعلن خطأ علماء اليونان في

اعتقادهم أن العين ترسل أشعة إلى الأشياء التي نريد رؤيتها، بل الأشياء المرئية هي التي تعكس الأشعة على العين فتبصرها العين، وكان لدراساته عموماً أكبر الأثر على علماء عصر النهضة الأوربية، مثل روجر بيكون وكبلر وغاليلو.

ثم اشتغل نيوتن بالضوء، وكان يعتقد أن الضوء هو دقائق صغيرة، وعارضه عالم هولندي قال بأن الضوء موجات تنتقل إلى جميع الاتجاهات، وأثبتت التجارب بعدئذ هذه الطبيعة الموجية للضوء، ثم جاء ماكسويل ووضع معادلاته الرياضية التي تصف الموجات الكهرومغناطيسية، ومنها الضوء، ولم يبق أحد يعتقد بالنظرية الجسيمية للضوء سوى مجنون أو عبقري كا يقول البعض، وكان هذا العبقري هو آينشتاين، ومهدت له الظاهرة الكهروضوئية، وهي أنه إذا سقط ضوء أُحادى اللون، كالأحمر مثلاً، على قطب معدني، فإنه يتسبب في اقتلاع الألكترونات وتحريرها من ذرات المعدن ويحدث تيار كهربائي ناتج عن سيل الألكترونات المقتلعة، وقد لوحظ أن سرعة الألكترونات المنطلقة لا تتغير تبعاً لشدة قوة الضوء وإنما تبعاً لطول الموجة الضوئية، أي تبعاً للون الضوء، فكان الضوء الأزرق يسبب سرعة للألكترونات أكبر من الأحمر.

وكان بلانك قد وجد عام 1900م أن الطاقة ليست موجودة بشكل مستمر انسيابي، وإنما توجد فقط بشكل قطع صغيرة هي الأكمام، وأن كم الطاقة يتناسب مع تردد الموجة الكهرمغناطيسية، فجمع آينشتاين بين الظاهرتين هاتين وأكد أن الضوء الذي هو إشعاع كهرومغناطيسي صادر من الذرات يخضع لقانون بلانك القائل بان الطاقة الإشعاعية موجودة على شكل قطع أو أجزاء أو أكمام صغيرة. أي أن آينشتاين أوجد تفسيراً جديداً للضوء يقوم على نظرية الدقائق التي قال بها نيوتن واندثرت، فالضوء حسب ما وجده آينشتاين هو كمات (دقائق) صغيرة، **وأن طاقة الدقيقة هذه يمتصها الألكترون المنبعث من اللوح المعدني فينطلق بسرعة تتناسب مع طاقة الكم الضوئي، وقد أطلق جلبرت لويس على هذا الكم من الطاقة الضوئية اسم الفوتون، فالضوء إذن هو عبارة عن سيل من الفوتونات،** وهناك فوتونات الضوء الأحمر، وفوتونات الضوء الأزرق، وهكذا، وكل فوتون يحمل طاقة معينة محدودة وكأنه علبة طاقة، وهذه الفوتونات ذات طاقة صغيرة جداً، فالمصباح الكهربائي الذي قدرته مائة واط يبعث نحو 27 بليون فوتون في الثانية الواحدة، ولم تكن نظرية آينشتاين تنفي موجية الضوء، وإنما تقول بأن الضوء هو دقائق وموجات في الوقت نفسه. وللضوء بصمات طيفية أيضاً، فلكل عنصر من العناصر بصمات طبيعية خاصة، وبها نستطيع التعرف على العناصر المكونة لمادة ما وللنجوم

والمجرات البعيدة في السماء. وكان نيلزبور قد أكتشف أن الألكترون إن أراد أن يغير مداره فإما أن يعطي (يبعث) طاقة، أو يأخذ طاقة، وهذه المدارات ليست متساوية البعد بعضها عن بعض، فكلما ابتعدنا عن النواة كلما كانت المستويات أقرب إلى بعضها، ويعتمد المدار الذي يستقر فيه الألكترون على الكم الضوئي الذي يمتصه أو يبعثه، ولأن الألكترون هو جسم يدور حول النواة فإنه يخضع لقوانين نيوتن في الحركة، وبالتالي فإن للألكترون زخماً دائرياً يساوي حاصل ضرب زخمه الخطي في نصف قطر المدار، والزخم الخطي هو حاصل ضرب كتلة الجسم في سرعته إذا كان يتحرك بخط مستقيم. ومعنى ذلك أنه كلما كان نصف قطر المدار أكبر : كلما كان الزخم الدوراني أكبر، على اعتبار أن كتلة الألكترون وسرعته ثابتتان، ولذلك فإن الزخم الدوراني للألكترون لا يمكن إلا أن يأخذ قيماً معينة أو محدودة، أي أنه يخضع لقاعدة التكميم، أي المقادير المحدودة، لكن مع ذلك وجد آينشتاين وغيره **أن حركة الألكترونات وانتقالها عبر المدارات صعوداً وهبوطاً لا تخضع لحركة حتمية تفرضها قوانين الحركة التقليدية التي أتى بها نيوتن، وإنما لاحتمالات الإحصاء وقواعده التي لا تقول بحتمية حدوث شيء وإنما بنسبة مئوية لاحتمال حدوثه، استنباطاً من المراقبة والإحصاء، وبذلك لا يمكننا معرفة متى ينتقل ألكترون من مداره إلى مدار آخر، فليست هناك قوة خارجية تدفع الألكترون ليقفز في لحظة معينة،** وهكذا بدأ التفكير في قوانين أخرى غير قوانين الميكانيك التقليدي المعتمدة على قوانين نيوتن في الحركة، وكان هذا الميكانيك الجديد هو ميكانيك الكم، ودخل عصر فيزياء الكم التي أسسها الألماني ماكس بلانك، وهي أهم بكثير من النظرية النسبية لآينشتاين، وأكثر وقعاً منها، ولها أكبر الأثر في التقدم العلمي والتكنولوجي، من استخدام الطاقة الذرية إلى الكمبيوتر.

ولفهم ذلك يلزمك أن تعلم أنه لو كانت عندنا شحنة كهربائية (موجبة أو سالبة) وساكنة فانه يمكننا تحريكها لجذب الشحنات المخالفة أو تنافر الشحنات المتشابهة، فإذا كان التحريك بسرعة ثابتة فإن مجالاً مغناطيسياً ينشأ عن ذلك، والتيار الكهربائي الذي يسري في الأسلاك ما هو إلا سيل من الألكترونات ذات الشحنة السالبة تتحرك بسرعة ثابتة، فيتولد مجال مغناطيسي حول السلك، أما إذا تحركت الشحنة بسرعة متغيرة، متسارعة أو متباطئة، فإننا نحصل على موجات كهرومغناطيسية، وهي تتكون من موجتين متعامدتين متلازمتين، إحداهما كهربائية في الاتجاه الرأسي، وأخرى مغناطيسية في الاتجاه الأفقي، ولا تحتاجان إلى وسط ناقل، بل يكون الانتقال في الفراغ، ولها خاصية مهمة جداً وهي أن سرعتها تساوي

سرعة الضوء، وأطوالها تختلف، فالموجات الطويلة هي الراديو، والأقصر للرادار، والأقصر المايكروويف، والأقصر هي الأشعة تحت الحمراء، والأشعة الحرارية، والأقصر هي الضوء الذي نراه المكون من ستة ألوان، لكن تجاور الضوء الأزرق موجات هي الموجات فوق البنفسجية، التي تستعمل لقتل الحشرات وتعقيم الأدوات الطبية، وتليها موجات أشعة X التي تستعمل لتصوير الأحشاء والعظام ولفحص محتويات الأمتعة في المطارات، ثم أشعة غاما وهي قاتلة، والغلاف الجوي يحجب الضار من هذه الموجات الكهرومغناطيسية بحكمة الله، ولا يسمح إلا بالضوء وموجات الراديو عالية التردد، والأوزون بشكل خاص يمنع الموجات فوق البنفسجية، والألكترون حول نواة الذرة هو الذي يولد الموجات الكهرومغناطيسية على اختلاف أنواعها، إذ هو يتحرك باستمرار، ويقفز من مدار إلى مدار، وبما أن للألكترون كهربائية سالبة وأن حركته تعني أن باستطاعته أن يولد أمواجاً كهرومغناطيسية، فهو يمتص ويطلق، وهذه الموجات طاقة، لذلك فإن رصيد الألكترون من الطاقة يتغير باستمرار، وتكون ذرة كل عنصر في نشاط ألكتروني دائب لا يتوقف إلا عند درجة 273 تحت الصفر، فتتوقف الألكترونات عن الحركة، وعملياً لا يمكن الوصول إلى هذه الدرجة المتدنية، ولكن إلى قريب منها، وعلى ذلك فإن الجليد يبعث أيضاً موجات كهرومغناطيسية.

❑ النقلة الحاسمة التي حققتها فيزياء الكم

وحين يصل سرد تاريخ التطور العلمي إلى هذه المرحلة لا يعود بالإمكان ذكر تطور الاكتشافات والنظريات من دون إطالة تخرج بنا عن موضوع منهجية التربية، وتكون عسيرة الفهم أيضاً على من لم ينل أوليات الفيزياء، لذلك لا بد أن نخرج مضطرين إلى إيجاز مخل، وأن نكتفي بالمقدار الضئيل الذي يمكننا من استنباط نقاط منهجية فيما بعد.

تبدأ نقطة الاتصال بما مضى من اكتشاف منحنى توزيع الإشعاع لأي جسم مهما كان نوعه أو حجمه أو وزنه، فقد وجد أن شدة الإشعاع تتزايد بتزايد التردد الموجي حتى تصل إلى نقطة عظمى تتمثل في قمة التحدب للخط البياني، ثم تبدأ بعدها بالانحدار السريع. كلما ارتفعت درجة الحرارة زحفت قمة الخط البياني باتجاه مقاييس الضوء المرئي فمثلاً، يحمر الحديد أولاً عند درجة حرارة عالية، ويكون كالجمر، فإذا زادت الحرارة يصبح لون الجسم الساخن برتقالياً ثم أصفر ثم أبيض، مما يعني أن هناك إشعاعات لجميع ألوان الطيف المرئي، وقد وجد وين

أن تـردد الموجـات العالـية المقـابل لقمـة الإشـعاع يتناسب طردياً مع درجة حرارة الجسـم. ثـم وجـد سـتيفان أن الطاقـة الكلية التي يعيشها الجسم تتناسب مع الأس الـرابع لدرجـة الحـرارة، ثم وجد غيرهما أن كثافة الإشعاع ذي الترددات المنخفضة تتناسـب طردياً مع درجة الحرارة وعكسياً مع القوة الرابعة للتردد، ونتج عن كل هذا ربـط ظاهـرة الإشـعاع، ومنها الضوء، بالحرارة، ويعني ذلك الاقتراب من وضع قانون فـيزياوي شـمولي يفسـر جميع الظواهر، وسعياً في هذا الاتجاه تم ربط قوانين نيوتن فـي الحـركة، والتفسـيرات التـي تبعتها من ارتباط ظاهرتي الإشعاع والحرارة، بثلاثة قوانيـن جديـدة تسـمى قوانيـن الديناميـك الحـراري، أو الثرموديناميـك، وأهمهـا وأخطـرها هـو القـانون الثانـي المعـروف بقـانون الأنتروبي الذي يقول بأن الفوضى والعشـوائية تـزداد باسـتمرار، وأسـاس ذلك أن الحرارة تنتقل من الجسم الحار إلى الـبارد، وهذا يعني أن التفاوت في درجات الحرارة بين الأجسام يميل إلى التناقص حـتى يكـون الـتفاوت صفراً، أي حالة التعادل والتساوي في درجات الحرارة، وهذا يعنـي حصـول حالـة الفوضـى، **لذلـك فـإن السـير نحـو الفوضى يتزايد. بمعنى أن الـتفاوت يولـد الحـركة، ويـتم تـبادل مـنافع الحـياة، وأما التساوي فيمنع الحركة، فتكون الفوضى بسبب السكون.**

لكـن هناك علاقات أخرى رويناها بين الضوء والكهرباء والمغناطيسية، ورأينا تطـور الاكتشـافات فـي هـذا المجـال حـتى تـم اكتشـاف تكـون الموجـات الكهرومغناطيسية من موجتين متعامدتين، وقد قام الاسكتلندي ماكسويل بدراسة هذه الـثلاث، وتوصـل إلـى معـادلات رياضـية تصف العلاقة عرفت بمعادلات ماكسويل للإشـعاع الكهرومغناطيسي، وهي معادلات أحدثت نقلة كبيرة في الفيزياء في أواخر القـرن التاسع عشر، وما أن حلت سنة 1900 م حتى استطاع الألماني ماكس بلانك أن يفسـر الإشـعاع الكهرومغناطيسـي بطـريقة بسيطة وصحيحة ودقيقة، **فقد لفت نظر بلانـك أن مـا قالـه بولـتزمان حـول الفوضى كان يقوم على تقسيم الطاقة الإشعاعية رياضـياً إلـى قطـع أو أجزاء يجري تطبيق القوانين الإحصائية الاحتمالية عليها، ثم يجـري تجمـيع هذه الأجزاء وفقاً لعملية التكامل الرياضية. ووجد بلانك أن أجزاء الطاقـة الصـغيرة هـذه موجـودة في المعادلات الرياضـية قـبل أجراء عملية التكامل علـيها، فلمـاذا لا نتعامل معها أذن بدون تجميعها ؟ بمعنى آخر : وجد بلانك أن الطاقـة غـير موجـودة بشكل انسيابي مستمر، وإنما توجـد بشـكـل كـمات صغـيرة، وأن كـم الطاقـة يتناسـب مـع تـردد الموجـة الكهرومغناطيسية**، وبالتالي فإن الطاقة الإشـعاعية تسـاوي حاصـل ضـرب تـردد الإشعاع بعدد ثابت قيمته : $6.63 \; 10^{-34}$ جـول ثانـية ويسـمى هـذا العـدد : ثابـت بلانك. والجول هو وحدة الطاقة. أي أن

وحدة ثابت بلانك تساوي وحدة طاقة مضروبة في وحدة زمن، ويدعى ذلك بـ (الفعل). وكانت هذه العلاقة البسيطة تمثل بداية لأكبر ثورة علمية في العصر الحديث وبداية لعهد جديد للفيزياء، عهد فيزياء الكم، على أيدي بعض العلماء الشباب أواسط العشرينات من القرن العشرين، وسارت الاكتشافات بخطوات قافزة.

كان من أولها سؤال ذكي سأله الفرنسي دي بروي، ملخصه : **أن ما دام للفوتون خاصية مزدوجة أيضاً ؟ جسمية موجية، فلماذا لا يكون للألكترون هذه الخاصية المزدوجة ؟ وقد صدقت توقعات دي بروي وأثبتها باستعمال معادلة بلانك. ولأسباب هندسية فإن موجة الألكترون تكون واقفة، كموجة الوتر حين يهتز.** وبالتالي فإن مدار الألكترون يجب أن يساوي مضاعفات صحيحة لهذه الموجة. أي أنه ربط الخاصية الكمية، أي المضاعفات الصحيحة لطول الموجة، بالخاصية المزدوجة، الجسمية والموجية، للألكترون. ثم اقتراح بور أن شدة الإشعاع لخطوط الطيف تقابل الحركة التوافقية الهارمونية لحركة الألكترونات في المدارات الخارجية، ويسمى ذلك بمبدأ التقابل.

ثم تساءل بور : كيف يعرف الألكترون متى يبعث طاقته ؟

وكان آينشتاين واعياً لهذا السؤال اللغز.

وتوصل هاينزبرك إلى أنه يجب كتابة قوانين الحركة ليس لوصف موقع الألكترون وسرعته، وإنما لوصف تردد الموجات وسرعتها. ووضع صيغة لذلك تعتمد على رياضيات المصفوفات، وأهم ما فيها أنها غير قابلة للتبادل. أي أن 3×4 لا تساوي 4×3، مثلاً، وكانت هذه الصيغة هي الأساس الأول لنظرية الكم. وأما الأساس الثاني فانبنى على ما قام به شرويدنكر النمساوي عندما وضع معادلة للموجات الواقفة حول النواة، أي موجات دي بروي الفرنسي، وقد أثبت عدد من العلماء بعد ذلك صحة إدعاء دي بروي من أن **للألكترون ولكل جسم بصورة عامة موجة مرافقة له، وصار من المؤكد أن للألكترون خصائص موجية، وأنه يسلك وكأنه موجة كهرومغناطيسية.**

وكان هاينزبرك هذا، في تنظيره لفيزياء الكم، قد نشر أول بحث له عن ميكانيك الكم عام 1925م، وبعد سنتين أدلى بنظرية (عدم التأكد) التي كان لها أبعاد فلسفية وفكرية عميقة، وكان تلميذاً لكبار علماء الفيزياء، لكن آينشتاين أعترض

على نظرية عدم التأكد، ولكن تأكدت صحة نظرية هاينزبرك فيما بعد ونال جائزة نوبل عليها.

وفي عام 1926م نشر شرويدنكر بحثاً أستخدم فيه معادلات الحركة الموجية لتفسير ذرة الهيدروجين، فكان ذلك إيذاناً بولادة الميكانيك الموجي. ثم شهدت السنة نفسها اشتقاقا رياضياً جبرياً لقانون بلانك قام به البريطاني بول ديراك. وهكذا أصبح لدينا ثلاث طرق رياضية لتأصيل نظرية بلانك في فيزياء الكم : المصفوفات، ومعادلات الحركة الموجية، ومعادلة ديراك الجبرية. وقد لاحظ شرويدنكر أن ملاحظة دي بروي عن موجية الألكترون لم تسند بمعادلة رياضية، فاستطاع أن يجد معادلة الموجة عام 1926 م أيضاً، مستعيناً بالنظرية النسبية، وأصبحت معادلته هي الصياغة الثانية لنظرية الكم، وتلقى العلماء ذلك بحماس كبير، منهم آينشتاين وبلانك نفسه، مما أهله أن يكون زميلاً لآينشتاين في جامعة برلين. **وقد كان ظهور نظرية الكم ملغياً لفلسفة التحديد والحتمية، المعتمدة على السببية، والتي تقول بان لكل شيء سبباً، وأننا يمكننا قياس الكثير من العوامل المؤثرة في الأشياء قياساً دقيقاً في الغالب من حجم وسرعة وطاقة.** لكن فيزياء الكم أظهرت أن عملية القياس تؤثر على خصائص الشيء بشكل يستحيل معه التعرف بدقة كاملة عليها، فللتعرف على الألكترون ينبغي أن نستعمل أشعة غاما ذات الموجات القصيرة، التي ربما تقتلع الألكترون.

وهكذا نقضت فيزياء الكم الحتمية السببية، حتى أنها تقول بأن تحلل نواة الذرة في المواد النشطة إشعاعياً يحدث من دون سبب، خلافاً للقوانين المعروفة، مما مهد الطريق لظهور نظرية الفوضى التي لا تقصر فيزياء الكم على الدقائق الصغيرة فقط وإنما تشمل عالمنا الكبير والكون، وأدت إلى انحسار النظرة المادية والفلسفة الوضعية المنطقية والمادية الجدلية.

وقد أدت نظرية الكم إلى تواضع العلماء أكثر من ذي قبل، فعندما اكتشف نيوتن قوانين الحركة أصاب بعض العلماء الغرور، لكن عندما أكتشف ماكس بلانك الكم واكتشف آينشتاين النسبية أصبحت قوانين نيوتن في المتحف. **وفي هذا دليل على نقص المعرفة البشرية المحدودة، وأن الإنسان يحتاج إلى مصدر آخر للمعرفة من خارج دائرة إدراكه وإمكانياته، وهذا ما مال إليه أركان نظرية الكم الكبار : هايزنبرك، وشرويدنكر، وبور، وكل هؤلاء كتبوا كتباً في ذلك وصرحوا بالتوحيد.**

وقد أشارت التجارب الضوئية إلى أن الفوتونات تغير من طبيعتها عندما نحاول التعرف على خواصها، فالضوء يسلك كأنه موجة عندما يدخل من شقين اختباريين في صندوق مغلق، ولكنه يسلك كجسيمات صغيرة عندما يدخل من شق واحد. وأنه يستحيل معرفة موقع الفوتون وزخمة بدقة تامة في الوقت نفسه. إذ أننا إذا أردنا أن نعرف موقع الفوتون فإن اتجاهه يبقى مجهولاً. والعكس أيضاً. وهناك حدود للدقة التي نستطيع بها قياس خاصيتين، وهناك هامش خطأ، قد لا يعني شيئاً بالنسبة للأجسام الكبيرة، لكنه بالنسبة للأجسام الدقيقة، كقياس موقع الألكترون، فإن الخطأ قد يصل إلى ضعف سرعة الضوء، وفي مثل هذا ما يشير إلى أننا لا نستطيع العلم الوافي بحقيقة الوجود. وقد أثارت ظاهرة أخرى في الضوء لغزاً آخر يزيد الحيرة، وهي الاستقطاب، فمن بعض التجارب استدل العلماء على أن زاوية استقطاب الضوء، أي اتجاه فوتوناته، هي من خصائص الضوء، وحينما نقيس كتلة كبيرة، مثل كرة حديد، فإننا نأتي بميزان ونضعها فيه لمعرفة كتلتها، أي أن كتلتها خاصية لا علاقة لها بالميزان، فهي موجودة قبل أن نقوم بالوزن، أي لها واقع. لكن نظرية الكم تقول بأن الفوتونات ليس لها اتجاه حقيقي قبل قياسه، وإنما يصبح لها اتجاه حقيقي فقط عندما نقيسها، وأن الأمر ينطبق على خصائص الجسيمات الصغيرة أيضاً، كالألكترون والبروتون، إذ ليس لهذه الدقائق خواص حقيقية إلا بعد قياسها، ولا يستطيع أحد الجزم بأن الفوتونات كان لها اتجاه معين قبل وصولها إلى آله قياس الاتجاه. وكان بور المقيم في كوبنهاكن يرى ذلك، والشيء الوحيد الذي يراه بور أنه باستطاعتنا أن نتوقع شيئاً من ذلك وفقاً للاحتمال الإحصائي فقط، والعيب ليس في الدقائق الصغيرة المقاسة، وإنما العيب في معرفتنا عنها، **وهذا هو المبدأ الأساسي في ميكانيك الكم، وهو أنه لا يمكن أن نلاحظ عدداً من هذه الخصائص الطبيعية لشيء ما ونعرفها بشكل دقيق في الوقت نفسه، ولكن يمكننا أن نلاحظ عدداً من هذه الخصائص المختلفة التي تعطينا في مجموعها وصفاً لذلك الشيء.** وإذا عرفنا زخم الألكترون بدقة مقدارها 70 % فيمكننا معرفة موقعه بدقة مقدارها 30 % ونحن إما أن نعرف الطاقة، أو أن نعرف الزمن، أما معرفتنا بهما معاً وعلى وجه الدقة معاً فأمر مستحيل. وفي هذا ما يقود إلى تفسير فلسفي بعيد عن المادية وإلى إيمان بوجود الله المدبر، إذ كان أصحاب نظرية الكم يؤمنون بوجود تأثير عن بعد، ولا سببية في خواص الدقائق. لكن كان آينشتاين من المعارضين لبور في نظريته هذه، واستمر معارضاً حتى موته، وحصل سجال علمي طويل، وافترض آينشتاين لو أن جسيمين دقيقين كانا سواء، ثم افترقا إلى مسافة كبيرة في اتجاهين متضادين، وعندئذ فإن المسافة البعيدة

تجعل القياس ممكنا، وبذلك يكون وصف الواقع ممكناً. لكن بور رد على آينشتاين بأن آينشتاين يفترض أننا نقيس من دون أي تأثير, وفي ذلك غموض، لأن الجسيمين رغم تباعدهما إلا أنهما ينتميان إلى إطار مرجعي واحد وفي هذا الإطار يكون تأثير أحد الجسيمين بالآخر عند عملية القياس رغم البعد. وأجاب آينشتاين بأنه لا يرى تلازم الجسيمين، ولكن يمكن أن يكون هناك تأثير سماه شبحياً وهو تأثير لحظي حتى وإن كان على مسافة بعيدة جداً. كألف مليون كيلومتر. وهذا يخالف النظرية النسبية التي تقول بأنه لا سرعة أكبر من سرعة الضوء، إذن هناك تأثير ينتقل بأسرع من سرعة الضوء، وهذا ما جعل بور يؤكد أنه لا يوجد واقع في عالم الكم، وإنما يوجد وصف كمي للعالم والواقع. وهذا السجال العلمي يضعنا أمام خيار صعب، **فإما أن نؤمن بوجود تأثير لحظي عن بعد، وإما أن نضحي بالواقع الموضوعي.**

الخيار الأول يعني أن هناك تأثيراً بسرعة لا نهائية تجعل الأحداث لا محلية، أي أن التأثير يجري فيها بأسرع من الضوء، وهذا يعني وجود شيء غير الضوء والمجال الكهرومغناطيسي لا نعرفه ولا ندركه يتعارض مع قوانين الفيزياء العادية والنظرية النسبية، وهو شيء خارق بكل معنى الكلمة، وكان بعض علماء الكم أكثر جرأة وصراحة وأكدوا أن هذه القوة القاهرة هي الله تعالى، يفعل ما يشاء وقت ما يشاء، وكان الخيار الثاني يعني التضحية بالواقع الموضوعي واعتباران كل ما ندركه ليس حقيقياً، وأن وعي الإنسان وهم لا يمكن الاعتماد عليه.

وانقسم العلماء إلى فريقين، واهتزت المادية العلمانية بذلك.

مما ينصر نظرية الكم في هذا المفهوم عملية قياس دوران الألكترون حول نفسه في اتجاهات ثلاثة، منها اتجاهان متعاكسان، وأخر إلى أعلى، وتؤكد نظرية الكم أنه لا يمكن أن نقيس غير اتجاه واحد فقط منها، وإذا أردنا قياس اتجاه آخر تأثر الاتجاه الأول المقاس وتغير، ولا نستطيع إلا وضع احتمال لذلك غير أكيد. وقد اعترض آينشتاين على ذلك بأن الألكترونات المتنافرة تدور بشكل متعاكس، فإذا عرفنا اتجاهاً في الأول فإن الاتجاه في الثاني معاكس، وإذا عرفنا اتجاهاً في نفس الوقت في الثاني فيكون ما يقابله في الأول معاكساً، وبذلك يمكن الجزم بقياسين معاً عن طريق التبادل هذا. لكن أنصار نظرية الكم اعترضوا على آينشتاين في تصوره هذا، وأنه يفترض عدم تأثير الألكترونات المتعاكسة كل في الآخر، بينما التأثير موجود وتخضع الألكترونات المتعاكسة له في نفس اللحظة ولو كان البعد

بينها أبعد من سرعة الضوء، **لأنها تظل ضمن منظومة واحدة تتبادل التأثير**، وقد أثبتت التجارب فيما بعد صحة مذهب الكم في هذا، وأن هناك تأثيراً غير محلي، أي ينتقل في نفس اللحظة بأسرع من سرعة الضوء، لا كما تفترض النظرية النسبية بأنه لا سرعة أسرع من سرعة الضوء، وكان آينشتاين يعتقد بوجود عامل خفي محلي لم تكتشفه نظرية الكم يسبب هذا التأثير أقصى سرعة له هي سرعة الضوء.

وقد أثبتت تجربة (ميرمين) صحة ما تدعيه نظرية الكم في ذلك، وخلاصتها : إنطلاق جسيمين دقيقين مثل ألكترونين باتجاهين متعاكسين نحو كاشفين يضئ فيهما إما ضوء أحمر أو أخضر عند وصول الجسيم ويتم رصد أرقام معينة بشكل عشوائي، زوجية أو فردية عند انطلاق كل جسيم من بين ثمانية أرقام مزدوجة النتيجة ويمكن تكوينها من الأرقام 1،2،3 في كل من الكاشفين، فكانت النتيجة ـ بعد تحليل ملايين المرات لانطلاق الجسيمات ـ أن نصف الإضاءات حمراء- ونصفها خضراء، رغم عدم ارتباط الأرقام باللون، والقواعد الرياضية تفيد بأن احتمال التشابه في هذه الحالة هو 55.5 % على الأقل، أي خمسة حالات من كل تسع، بينما نتيجة التجربة هي 50 %، في حين أن اختبار الأرقام عشوائي ولا يرتبط به اللون وأن عدد مرات انطلاق الجسيمات و تغير الأرقام كان يحدث ملايين المرات في الثانية الواحدة، ويجعل من المستحيل انسياب التأثير لو افترض بأقل من سرعة الضوء، بل يلزمه إن وجد أن ينساب بأكبر من سرعة الضوء ليلاحق التغير اللوني ويواكبه، مما يولد لغزاً علمياً كبيراً يدل علي وجود تأثير أسرع من سرعة الضوء، ومثل هذا التأثير هو المدخل لإثبات كثير من قضايا الدين والوحي والقدر.

وقد أجريت تجارب أخرى عديدة أكثر تعقيداً من هذه في مراكز علمية في مختلف البلدان فكانت النتائج مدهشة جداً وتؤكد صحة نظرية الكم في أن بعض الحقائق العلمية تأتي خلافاً للاستنتاج المنطقي، وأنه لا يوجد واقع حقيقي بل يمكننا أن نتعرف فقط على بعض أوصاف هذا الواقع والتي هي في تغير دائم، وأن هناك تأثير غير محلي يتجاوز سرعة الضوء التي افترضتها النظرية النسبية، وكانت تجربة الفرنسي أسبكت عام 1982 م تجربة دقيقة وحاسمة أثبتت صحة توقعات نظرية الكم بشكل قاطع وقد استعمل فيها الفوتونات كأجسام دقيقة، واتبع نفس أسلوب تجربة ميرمين العشوائي، ولكن عبر أجهزة أكثر دقة، وهذا يعني أن حقيقة الكون والطبيعة هي غير ما ندركه بحواسنا وما يستقر في أذهاننا، وان نتائج القياس تنشؤها (معرفة) الشخص الذي يقوم بالقياس، أي ليس لها وجود حقيقي، ويعني

ذلك انتفاء قانون السببية الذي استندت عليه الفلسفة الإلحادية، ويعني أن الدقائق الموجودة في الكون يتفاعل بعضها مع بعض بطريقة معينة ويؤثر بعضها في بعض بشكل آني لحظي، وأن الألكترون والبروتونات المكونة لأجسامنا ترتبط بمثيلاتها في الكون كله بطريقة من الطرق، فنحن جزء من عالم كبير مترابط، ولا أحد يعرف حقيقة هذا الأمر، في الوقت الحاضر على الأقل، وأقرب الأمثلة إلى ذلك وجود الجاذبية وتأثر أجسامنا بها، سواء جاذبية أجرامٍ بعيدة، أو جاذبية الأرض، بمعنى أنه لا توجد ذرة في الكون مستقلة عن الذرات الأُخرى، وقد حار العلماء حيناً في متاهات لتفسير ذلك، وانحصر تفسيرهم بعد تجربة أسبكت في مضمون نظرية الكم، وتفسير آخر يقولٍ بوجود عوالم متعددة كثيرة العدد وإننا حين نقيس طبيعة جسم ما فإننا نرى عالماً من هذه العوالم فقط، ويختار قائس آخر عوالم أخرى، غير أن إنجازات نظرية الكم تشهد لها وترجحها، منذ عام 1927 م وإلى الآن إذ لم تخطئ في أي من توقعاتها، وكان من ثمارها : الليزر، والمجهر الألكتروني، والترانزستر، والطاقة الذرية، والتوصيل الفائق، وغير ذلك، ويقدر البعض أن نظرية الكم وراء 25 % من الدخل القومي للبلدان الصناعية المتقدمة.

كان من أهم الاكتشافات العلمية عبر نظرية الكم : اكتشاف الخاصية المزدوجة للجسيمات الصغيرة وتصرفها كجسم وكموجة في آن واحد، وازدادت أهمية ذلك مع اكتشاف جسيمات دقيقة كثيرة الأنواع لها هذه الخاصية الموجية، مثل النيوترينو الذي يتولد كناتج ثالث عند تحلل النيوترون إلى بروتون وألكترون في عملية الانشطار النووي، وعن طريق المعادلات الرياضية تبين وجوب وجود ألكترون موجب مقابل الإلكترون السالب، واكتشف ذلك فعلاً وسمى البوزيترون، ثم استنتج الياباني يوكاو وجوب وجود الميزون، وتم إثبات ذلك مخبرياً، ثم بدأ العلماء يعجلون سرعة البروتون حتى تصبح طاقتها الحركية عاليةٍ ويقصفون بها أنوية الذرات، فتتطاير من عملية القصف دقائق صغيرة كثيرة الأنواع جداً، يعرف حتى اليوم منها أكثر من مائتي نوع، وكان لا بد من وضع نظرية تشرح كيفية سلوك هذه الجسيمات العديدة، فكانت نظرية النموذج القياسي، وهي ترى أن جميع الدقائق تتكون من مجموعة دقائق أصغر منها، وتنقسم إلى مجموعة اللبتونات ومجموعة الكواركات ومجموعة البوسونات، وأن الكواركات لا توجد منفردة بل على شكل مجموعات تسمى الهادرونات، بدورها تنقسم إلى نوعين، فما كان من ثلاث كواركات سمى عائلة الباريونات، وما كان من كواركين سمى الميزونات، وتبين أن مجموعة الكواركات ومجموعة اللبتونات تنتميان إلى أصل أكبر هي مجموعة الفرميونات، وجميع المادة في الكون تتكون من الفرميونات، لكن تبين بعدئذ أن

قوى شحنات التجاذب والتنافر في الكون سببها جسيمات صغيرة أيضاً تسمى حاملات القوى ولها مجموعة سميت البوسونات نسبة إلى الهندي بوس الذي اكتشفها واكتشف العلماء أن التفاعل بين الدقائق، أو التأثير المتبادل للقوة، كان نتيجة لتبادل هذه الدقائق لجسيم يحمل هذه القوة. اكتشف البعض أن جميع التفاعلات الضعيفة سببها بوسونات ثقيلة، مما تمكن معه الأميركي واينبرغ والباكساني عبد السلام، كل على حدة، من القول بنظرية توحد ظاهرة التعاملات الضعيفة هذه التي تقوم البوسونات بالوساطة فيها مع ظاهرة التعاملات الكهرومغناطيسية التي تقوم الفوتونات فيها بالوساطة في نظرية واحدة استلزمت وجود بوسون ثقيل عديم الشحنة.

وقد نجحت هذه النظرية في تفسير كثير من فيزياء الدقائق، لكن ليس كلها، مما دفع العلماء إلى التساؤل مجدداً عما إذا كان هناك في الكون أجيال أخرى من المخلوقات المتناهية في الصغر لم تكتشف بعد، ومن أجلها انتهى العلم اليوم إلى نظرية الأوتار الفائقة التي تقول أنه كان للكون في بدايته عشرة أبعاد، وعندما حصل الإنفجار العظيم في الكون تقلصت إلى ثلاثة أبعاد مكانية وبعد زمني رابع، وهو هذا الكون الذي نعيش فيه، وأما الأبعاد الستة الأخرى، أو أكثر من ذلك، فقد اندمجت ونتج عنها كائن صغير جداً يسمى (الوتر الفائق) له بعد واحد، وهو يهتز بترددات مختلفة، وينتج عن كل تردد أحد الجسيمات الدقيقة التي ذكرناها، لكن الآلات المختبرية العاملة الآن لم تستطع اكتشاف هذا الوتر الفائق بعد، لشدة صغره، إذ انه أصغر من البروتون بمقدار مائة مليون مليون مليون مرة، وربما يأتي يوم تكون أدواتنا المختبرية قادرة على ذلك، وما زال العلماء يحاولون ويتساءلون، والعلم يتطور ويتطور.

وإلى هنا تنتهي السياحة العلمية الشيقة التي طوفنا د. التكريتي خلالها بمراحل تطور العلم، وقد ذهبت في الاختصار مذهباً شديداً حتى لربما أخللت ببعض المعاني، ومع ذلك جوزت ذلك لنفسي، إذا أني لم أقصد تعليم الفيزياء عبر هذا الاختصار، إنما أردت وضع صورة الهيكل العام لتطور الفيزياء وفق منهجية صحيحة اعتمدها أئمتها، ليتاح لنا الاقتباس منها والقياس عليها واستنباط مثيل لها تصلح ان نطور بها التربية الدعوية وعموم الفكر الدعوي، بل تطوير الواقع الدعوي ككل على اختلاف جوانبه بهذه المنهجية المبتغاة التي نسعى شيئاً فشيئاً إلى اكتشاف معالمها العديدة ثم جمع ما يتفرق من ذلك عبر هذه الوسيلة القياسية ووسائل أخرى، في نظرية عامة جامعة تربط ملامح المنهجية الدعوية الصحيحة في

هيكل واحد وإطار شامل، علّ الدعاة يقتدون وينهلون ويجتهدون، بل لي جرأة أن أقول : علّ الدعاة يقلدون، فإن التربية الدعوية المعاصرة لازالت ذات صلة قربي مع الارتجال، ولم تفك إسارها من النمطية التكرارية حتى انتهت بتسبيب الترهل، ثم هي زاهدة قانعة تلتزم السير بسيرة اضعف رجال الرهط، ولا يدفعها طموح عارم يخرجها من التعميم والعناوين الكبيرة إلى تخصيص وتدقيق يفجر الطاقات القيادية الكامنة في نفوس عدد ضخم من الدعاة ويضعهم كصناع حياة مهرة يستعملون مذهب التحدي في السيطرة على مجاري الحياة عبر إضافاتهم الطارفة المتناسبة مع الشكل المعقد الجديد للحياة.

فمن أجل التعرف على بعض ملامح المنهجية المبتغاة : كانت تلك السياحة الفيزياوية.

❑ سباعية الإيحاءات الكمية

❑ وأول صدى ورد فعل دعوي لقصة تطور الفيزياء التي علمناها **ينبغي أن يأتي في صورة توجه علمي عميق تدأب فيه العناصر ذات التخصص العلمي من الدعاة، طمعاً في إحداث تحول إيماني عام في الشعوب يهزم الفلسفة الإلحادية** المستندة على العلم في طوره السابق على نظرية الكم، وبه تقترب الشعوب من التوحيد والتدين، سواء كان ذلك في البلاد الإسلامية، حيث يتوب من ألحد ويرجع، ويتقوى إيمان الضعيف، ويتأصل على بينات من الأمر العلمي فكر من أذعن للشرع ابتداء، أو سواء كان ذلك في المجتمعات الغربية النصرانية والشرقية الوثنية، حيث يمكن أن يقتربوا بذلك من العدل والإنصاف واطراح التوتر الذي ميز تعاملهم القديم والحالي مع أُمة الإسلام.

إن التوحيد الذي تغرسه نظرية الكم مازال لا يرى، لأنه حديث الولادة طري الاكتشاف، ولم يصلب عوده بعد، لكن رؤية السياق ونسق التطور الكمي ينبئ عن احتمال حصول توجه توحيدي عالمي يفرض نفسه على الأجيال القادمة فرضاً، ويعنفوان يوازي فرحة التوبة المعروفة في علم النفس الإسلامي، وبه سيعيد العالم اكتشاف نفسه وهويته الضائعة وحقوقه المسروقة منه في أن يعيش بسلام وهدوء بعيداً عن القلق المدمر والحيرات، وينتقل به إلى رفل بأنواع من الخيرات التي يعاد فيها تشكل أفكاره التفصيلية ومذاهبه في طرائق الحياة وفهم معاني السعادة وتنقية النفوس من الشوائب، وسينعكس كل ذلك على المجتمعات الإسلامية في صور ثلاث : صورة التأثر الاقتناعي لدى جيل من المثقفين يذعن للدليل، وصورة

المقلدين الذين يرون في الفكر الغربي مثالا أعلى، فيحذون حذو أهله، وصورة انحسار الضرر المتولد من التفوق الإعلامي والتعليمي للغرب على العالم الإسلامي، مما تصبه الجامعات وبرامج القنوات الفضائية وما أشبه، إذ ستكون أقل شراً إذا شاعت موجة التوحيد العلمية وتبدلت النزعات الفلسفية المسيطرة حالياً، وسيحاول اليهود جاهدين أن يمنعوا حصول هذه الأوبة الإيجابية إلى الصواب التي يقودها العلم، كي يبقى العالم تحت ضغط القلق المدمر للنفوس، مما افصحوا عنه في بروتوكولات مؤتمر حكمائهم الشهيرة، ولكن مهمتهم على أي حال لن تكون سهلة، لقوة البرهان العلمي ورسوخ المنهجية العلمية في حياة جيل عريض من أهل الغرب.

ولعل بوسعنا بعد احتلال نظرية الكم الفيزياوية لموضع قدم حصين في معركة الحياة، وتزايد أعداد الموحدين من علمائها، أن نتلمس أن فلسفة التوحيد والإيمان بالغيب أصبحت معلماً من معالم ظاهرة (العالمية الجديدة) وحقيقة من حقائقها تفرض نفسها عبر حضور عالمي رفيع المستوى، وكانت أميركا قد أرادت التفوق العلمي عبر حرب النجوم وغيرها ليخدم مفهومها للنظام العالمي الجديد من زواياه السياسية والاقتصادية وليضعها في مقام القيادة لهذا النظام، لكن هذا العلم خرج عن سيطرتها بقدر من الأقدار الربانية المحضة وفتق عليها فتقاً فلسفياً ما كانت تحسبه، يجعل موازين الصراع الاستراتيجي تميل إلى صالح الموحدين خلال نصف قرن من الآن ربما، ثم إلى صالح المسلمين بخاصة من بعد ذلك إذا أحسنوا تحويل مسار التوحيد التعميمي المتشابه إلى توحيد تخصيصي إسلامي محكم واضح، وآنذاك سيبرز الدور الحاسم للتربية الدعوية في إتمام هذه النقلة التاريخية، مستعينة بالمتراكم القديم والحديث من الفلسفة الإسلامية وشروح العقيدة والكم المتزايد من حقائق الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، لكن واجباً ثقيلاً كهذا ينبغي أن لا ننتظر يومه انتظارا سلبيا كسولا، وإنما ننتظره انتظاراً إيجابيا شجاعاً **عبر اجتهاد وإبداع وتخريج مبدعين نعينهم على احتلال مواقع التأثير من الآن،** وهذا يستلزم وجود منهجية تربوية دعوية تتعمق في بحث ما أوجزناه، وتكافئ كل ثغرة بمكافئ، وتستثير الطاقات الهاجدة، وتنقلها إلى ميدان التهجد والمجاهدة.

إن قصة موسى الذي تربى في قصر فرعون قد تكررت، وأراد البيت الأبيض للعلم أن يكون تابعا في فرض نظامه العالمي فأبى إلا الإباء وكان سيدا.

ينبغي أن تفهم اللجان التربوية في أجزاء الدعوة في كل قطر، أن علماء فيزياء الكم في جامعات كمبردج وعموم حواضر أوربا، وفي هارفرد وعموم حواضر

أميركا، وفي طوكيو وموسكو، وأستراليا وجنوب أفريقيا، والهند وباكستان : **هم أصدقاء الدعوة وأنصارها، شاءوا أم أبوا، أدركوا أم لم يدركوا، وينبغي أن يقوم حلف، لا حاجة لكتابته، بين رجال الدعوة وعلماء هذا المراكز، يخرج بالهمس التوحيدي العلمي من إطاره المحدود حالياً، ومن مشيه على استحياء، إلى أن يكون صرخة عالمية عالية النبرة، لطيفة الأنغام، وينبغي أن تكون كذلك، لأن ذلك فقط هو الذي يليق بالأوتار الفائقة.**

ومما لا شك فيه أن بداية مثل هذه المنهجية الدعوية التي تحالف عشاق الألكترون والفوتون والوتر الفائق ينبغي أن تمر عبر مدخلين أساسين : رصد الدعوة لثلة من أبنائها تهبهم للعلم، إذ لابد أن يخرج لرجال قريش الأكفاء إذا أرادوا التقاتل، فكيف إذا أرادوا التحالف، ولتكون لغة الحوار مشتركة مفهومة. ثم أن توسع الدعوة فرصة دخولها بمدخل ثان يتمثل في إشاعة الثقافة العلمية في الوسط الدعوي، عبر الدورات الخاصة، والبرامج الإعلامية، وتوزيع الفيديو العلمي، وأول ذلك : ترشيح كتاب (حبات المعرفة) للدكتور محمد التكريتي للمطالعة العامة، مع مكمله المسمى (القوة الخفية)، وأمثالها.

إن مرور أكثر من سبعين سنة على بداية الدعوة، ومرورها بمراحل التطور المتدرجة، والعقبات والمحن التي جوبهت بها، ينبغي أن يقنعنا بأن **حصول الانتصار الدعوي أكبر من أن تكفيه تعميمات، وتربية تقليدية غير متجددة ولا متكيفة مع المستجدات، وطلقات جهادية على مذهب الجهاديين، وخوض انتخابات برلمانية على مذهب السياسيين، بل حتى أكبر من أن يكفيه وصول إلى السلطة،** كالذي يحدث في السودان، حيث لا يزال أكثر الشعب بعيدا عن روح الإسلام والفكر الإسلامي الملتزم والتأدب الصارم بآداب الشرع بعد أكثر من عشر سنوات من الحكم، وإنما يؤدي إلى الانتصار الدعوي مشروع حضاري شامل، العلم التطبيقي ركن أساس فيه، ونحن نتطلع إلى تأثير يرسخ، وتحول في المفاهيم والعقائد والأخلاق والأذواق ونمط الحياة، ولذلك يجب أن تكون التوعية العلمية المؤداة بأيادي علماء دعاة لا يجف ماء وضوء أحدهم حتى يلحق بوضوء آخر أحد الأهداف التطويرية الدعوية في المرحلة المقبلة، جنباً إلى جنب مع التوعية السياسية والتمكين الاقتصادي والممارسة المؤسسية، وما وازى ذلك مما انتهت إليه محاضرات حول معالم تطور الدعوة كنت ألقيتها على مجاميع الدعاة في أماكن شتى، **ولعل أجدى وسيلة لذلك تناسب أساليب العصر : سعي الدعوة لأن تكون في مركز القيادة والقلب في حلف علمي عريض إسلامي يتولى إنشاء قناة فضائية**

علمية بحتة تنتصر لفلسفة التوحيد وفيزياء الكم وتذيع إنجازات حملة الإعجاز العلمي القرآني النبوي، وتضيف لمسات أخرى من جميع العلوم الرياضية والكيماوية والطبية والجيولوجية والفلكية، ويمكن أن تسند هذه القناة التي تذيع بالعربية والإنجليزية وبعض لغات الأمة الإسلامية بمجلة علمية متخصصة مثيلة بمختلف اللغات أيضاً، وبذلك ينشأ جيل عريض واع موحد ينصر قضية الإسلام لا يضره أن تبقى بقية في المسلمين هي غثاء سيل ليس غير.

وينبغي أن ترفد هذه المقارنة الأولى بمقارنة من وجه ثان، نتبين بها أن التطور في فيزياء الكم وإن استند إلى جمهور عريض من الباحثين في المختبرات في جامعات الغرب والشرق ومراكز العلم والصناعة قد يبلغ عددهم المليون ربما، من بين مهندس وأستاذ جامعي وطالب دكتوراه ومعيد وباحث ومساعد باحث وفني وكاتب علمي تتوزعهم مائة جامعة عريقة وألف مصنع وعشرات المشاريع الجبارة ذات المجال المتخصص، إلا أن هذا الجمهور العريض احتاج احتياجا حقيقياً إلى كبار علماء الفيزياء لكي تتم الاكتشافات فعلاً، أصحاب العقول الكبيرة والذكاء وقوة الإرادة والتحمل والتضحية، أمثال ماكس بلانك، ورذرفورد، وفيرمي وآينشتاين وإن خالف، في ثلاثين أو أربعين اسم آخر فقط، إذ هم الذين افترضوا واستقرأوا واستنتجوا، ودخلوا في حوار جاد، يرد بعضهم على بعض، ومن خلال معمعة الردود تكشفت الحقائق. وبمعنى آخر **كانت هذه الثلة القليلة (قيادة)** لذلك العدد الضخم من الباحثين والفنيين، وبدون هذه القيادة ما كان يمكن أن يكون الإنجاز عظيما فعلا.

والقياس يرينا بسهولة انعكاس هذا المعنى على العمل الدعوى، إذ أن هناك ملايين الدعاة، نعم، لكن الحاجة لقيادة هذه الملايين من قبل عناصر متميزة حاجة قائمة وضرورية، والقيادات هي التي ستحلل وتستنتج وستدلي بفرضيات عقلانية وتستقرئ، وتضع الهدف وخطة السير لتحقيقه، وكما كان وجود عمالقة الفيزياء يحقق العدوى المعنوية ويشجع أجيال الشباب على أن يحذوا حذوهم واتخذوهم أمثلة عالية ورموزاً فإن قادة الدعوة ومفكريها ينتصبون قدوات للدعاة، ويتحقق عبر وجودهم تأثير عاطفي محرك. نعم، القيادة جماعية في مفهومنا، ويجب أن نحوز منهجية متكاملة للتربية القيادية الدعوية التي تخرج أعدادا كافية من أصحاب المقدرة القيادية والفكر الإبداعي، لكن هذا القيادات على الأغلب ستكون هي الصف القيادي الثاني والثالث، **أما الصف الأول فهم منحة ربانية يقدر الله لهم أن يكونوا أعلى كثيراً من المستوى المعتاد، وهم فوق الوسائل التربوية، يربون أنفسهم**

ويجهدونها في تحصيل الخير والعلم والفصاحة، ولهم إيمان عميق وتعبّد يكسبهم هيبة وقوة شخصية آسرة، وهم أنفار المعيون قلائل، مع ذكاء حاد ونمط جاد، وقد شغلتهم القضية حتى يكثر ويتعاظم تفكيرهم في حيثياتها، وفي طباعهم مرونة تجعلهم يلتذون بحوار مع الغير، فتنضج قرائحهم يوماً بعد يوم، وتمتزج خواطرهم وتأملاتهم بخبرة ميدانية وتجربة عملية نتيجة انغماسهم في ألوان النشاط وحمل بعض الأعباء الثقيلة ومصاولة الأعداء، حتى إذا فارق الشباب أحدهم ودخل الكهولة : تم رشده، واستوى فقيها يجتهد، ومتفرسا يتكشف له هلال رفيع من الغيب فسيتدل به على صور بدرٍ آتٍ فيبتدر، ويخطط، فيكون إماما في فن المنهجية ويتفجر من قلبه الصواب ثراً نقياً، فتهفو له النفوس، ويكون القدوة، وليس إتيان القدر بهم ابتداء، ورعايته لهم انتهاء، يعفينا من مسؤولية المشاركة في إعانتهم على احتلال مواقعهم، وصورة هذه المسؤولية تكون في أن نجعل طريق صعودهم سالكاً سلساً، بأن نمنع قلوبنا عن حسد لهم ينغص، وأن يمنحهم لساننا قولاً جميلاً يدفعهم لمزيد بذل، وأن نوسد لهم الوسائد، ونتحالم إزاء هفوة، ونتجاهل رؤية زاوية من النقص، ونجلهم عن صخب في سوق، أو جدل يجبههم به طارئ غير أصيل، وبذلك يتوافق العطاء الرباني مع حسن الاستقبال الإنساني في بيئة نقية، وندى من طري الدعاء، تحت شمس الوضوح والحقوق والأنظمة وبين جدران المؤسسية، فتكون الزهرات، فتكون الثمرات.

❑ شمس بلا كواكب

لكن هذا الحديث يقودنا إلى باب قياس ثالث، به **ننفي صواب زعامة الزعيم الأوحد**، الذي يمسك بالعصا السحرية، فيأتي باللمسات الإعجازية.

إن من مأساة العمل الدعوى أحيانا أن يرفع بعض الدعاة عقيرتهم بالترويج لمثل هذا الكلام الرجعي الذي تجاوزه الزمن، ويروجون لصاحب فضل بهرهم علمه أو عمله، فيصدقهم الفاضل، ويعتقد صواب الواهمين، فيحتكر الحق والرأي والقرار، فتسود مرحلة فيها هدر للشورى وهضم لمكانة المحسنين، فينزوي أهل الاجتهاد الذين لا حياة لهم بدون حوار وأخذ وعطاء .

ولنأخذ عبرة من قصة آينشتاين مع علماء فيزياء الكم، فإنه العبقري الأشهر الذي بهر العالم اجمع بنظرياته وكان هو الذي دفع فيزياء الكم بعد بلانك وأحدث فيها نقلة مهمة كما رأينا من نواحي تاريخها، لكنه وقف عاجزا عن إدراك صواب

في نظرية الكم في طورها الثاني بعد الابتدائي أتضح لغيره ممن هم دونه في الذكاء ببساطة، وظل يعاند ويأبى حتى موته، فكان رجل مرحلة، لم يتكيف لمتطلبات مرحلة لاحقة.

ترى ماذا كان الحال لو منع الحياء علماء الكم أن يجهروا بمخالفته، وأذهلهم إنجازه العظيم في المرحلة السابقة عن طلب مرحلة جديدة ؟

لكن منهجية العلم التي درجوا عليها منعتهم من تفويض الأمر إليه، وجادلوه وقارعوه، وحمى وطيس الافتراضات والبراهين والممارسة المنطقية، ونطق الفم، فزال الهم، وانفتح باب التوحيد، مؤذنا بحقبة حضارية جديدة تتأله، من بعد دهر من العقوق والشرود والمادية. ومثل هذه التجربة، ومفادها القياسي : يلزم أن تكون درساً متميزاً في التربية الدعوية، تعلمهم السلوك المنهجي السليم، **والعواقب الحميدة التي ينتهي إليها صاحب الخطو المنهجي، الذي لا تبهره عاطفة شوقية ودية عن التزام الحقائق الموضوعية والأسلوب الشرعي المعتدل في وصف القيادة والجندية وعلاقات الارتباط بينهما، ولا ينبغي أن نعطي فلتة خيرية شاذة امتياز الفوقية الهادرة للحقوق الإيمانية والشرعية لأهل الحل والعقد وعموم الدعاة، وإذا أحللنا المعاني الأصيلة العرفية في نفوس الدعاة عبر منهجية تربوية واضحة : تشكلت خلفية تأبى إلغاء الشورى وترفض تعطيل وصف القيادة الجماعية، حتى لو كان القائد الأعلى في العلم أوحدا وفي المناقب سيدا.**

❑ ويمكن اشتقاق قياس رابع هو توأم الثالث ومكمله، نستله من المؤتمر الفيزياوي الذي عقد في سولفي في بروكسل عام 1927 والذي هو مؤتمر مغلق حضره العمالقة الثلاثون فقط : بور، وآينشتاين، وبلانك، ودي بروي، وهايزنبرك، وشرويدنكر، وديراك، ومدام كوري وأمثالهم من أئمة العلم الكبار، وتدارسوا الكم الوليد، وتفرسوا في المستقبل، وكان حوار، وخلاف، واتفاق، وافترقوا ليبدأ العمل المتناسق واكتال كل منهم من معنويات الآخرين، وبدأ الصعود.

في هذه الحادثة التاريخية ما يلقننا جملا مفيدة في التربية الدعوية، وأن من منهجيتها : الائتمار، واللقاء وجها لوجه، واستفزاز الواحد للآخر، وإشعاع عقل على عقل، وإنارة قلب لقلب، والمجابهة المحفزة، والمصاولة، والتحدي، وفرك الذهن، ومأزق المثول أمام العباقرة، ورهبة القرار المصيري، وإغراء انتصار البرهان، كل ذلك في أيام قليلة يتركز فيها التفكير، لينفجر، ويكون الإبداع الجماعي.

كان ذاك المؤتمر يوما مشهوداً في تاريخ فيزياء الكم، حدث فيه مثل هذا، ثم يأتي داعية بالغرائب، ويدعي أن لا حاجة لاجتماع أهل الشورى، وإنما يكفي أن يسأل القائد بعض أصحابه على انفراد ما رأيك، ما رأيك!!

وهذا من أعجب العجب، ومن الذهول عن طبيعة النفس الإنسانية وطريقة عمل العقول أو أُسلوب انقداح المعاني في القلوب.

إذاً أين معركة البرهنة، وأين انشغال الحواس بأقصى طاقاتها خلالها ؟ وأين فرصة تكامل الحقيقة عبر إضافة كل فرد لحرف منها ؟ وأين اكتشاف جذر المسألة في جعبة أحد، فيؤخذ منه، ويضاف إليه، فيكون التمام ؟

لقد كان الكَم في الـكُم، فاستعلن، فومض.

وفقه الدعوة مركوز في الأعماق، وينبغي أن يستفز ليخرج، فيكون قراراً، وتعبية، وخطة مرحلية، واستراتيجية، ومشروعاً حضارياً.

إن القائد القطري مدعو إلى أن يجمع أذكياء الدعاة، وأهل العلم الشرعي، وأصحاب السابقة، والمجربين، ويضع أمامهم مواضيع مسماة، ليتناقشوا فيها، ويخرجوا بصواب يعمم. وليس يكفي أن يجمع لذلك من هو مكلف بعمل أو رئاسة جهة أو لجنة، لأن الداعية اللبق الفقيه قد تمنعه ظروف معينة من تولي الولاية لكن ذهنه يبقى متقداً.

وكذا المرشد العام للجماعة، مدعو إلى أن يطبق ذلك، **فيجمع أبرز مائة داعية على النطاق العالمي** كله من أهل الاجتهاد الشرعي، وصاغة **الفكر الإسلامي**، وبقية الرعيل الأول، وأصحاب التجارب التربوية الدعوية، ورؤساء **المؤسسات** الإسلامية والنقابات، ومن مارس السياسة، ومن نجح في التجارة **وأنواع** النشاط الاقتصادي، ومن انغمس في الإعلام، وبرز في التدريس **الجامعي، أو مهر** في التدريب الإبداعي، أو تولى وظيفة تخطيطية حكومية أو لدى **الشركات الجبارة**، مع عميد ولواء كانا في أركان الحرب، وخاضا المعارك، **وضابط** استخبارات عريق، مع شاعر وفنان يضيفان لمسات العاطفة والحنان، ثم **بطل مشهور**، وعقيلتان تنطقان بلسان ربات الخدور، ويضيف لكل هؤلاء مراقبي الأقطار، **ويعقد بهم مؤتمراً تاريخياً يجيب على أسئلة الدعوة الكبيرة ويتفرس في مستقبلها، ويحدد الكيف والأين**، ثم يتكرر المؤتمر بعد سنتين، ثم ثالثة بعد خمس، وبذلك يكون هذا المؤتمر معلماً بارزاً من معالم منهجية التربية الدعوية ومنهجية الممارسة السياسية،

وليس يكفي ما حدث قبل وما يحدث من الاكتفاء ببعث كل قطر لمندوب يركز على حل المشاكل الطارئة، ويبشر بإنجازات في قطره، أو يعتذر عن تقصير، ثم لا تهمه المسيرة العالمية وما يمكن أن يضيف قطره إليها، وربما كان هذا المندوب أحيانا ليس من أصحاب لمعة الفكر أو المبادرة القيادية، وإنما هو مجرد عنصر تنفيذي سمحت أوقاته بالسفر ولم تسمح أوقات الآخرين ممن هم أعلى كعباً منه، لعدم التفرغ.

هذا وإلا فإن في الساحة بين الدعاة همساً عن ترهل وهدر وتعطيل للطاقات، وارتجالية، ونفس تبريرية، وإفتاء بالمرجوح في زمان اقتراب الفتوح.

نعم بعض الأقطار بذلت فأحسنت، لكن الكتلة الإسلامية العالمية مازالت لا تتقاسم الأدوار، ولم يتم بناء الاقنية التحتية الاستطراقية التي تنساب عبرها التربيات والخبرات والتخطيطات انسياباً سلساً.

وقد استطعت بحمد الله ، عبر تحليلي لمعالم تطور الدعوة الذي لمّا ينشر بعد، أن أُثبت أن الدعوة كانت ولا زالت بخير، وأنه ما مر عليها يوم وإلا وهي فيه أحسن من أمسها وأنها تقلبت في مراحل، أنجزت في كل مرحلة إنجازات مهمة، وتراكم الناتج الإيجابي حتى أوصلنا إلى مرحلة نعيشها اليوم يؤذن لنا فيها أن نمني أنفسنا بعمل عالمي مشترك يسير واثقاً نحو التمكين السياسي والاقتصادي والمعرفي، والعلوم التطبيقية فيه والآداب والفنون رديفة للعلم الشرعي، وليس أن نقنع أنفسنا بمجرد لقاء يحل المشاكل ويكبح الفتن.

❑ وظاهرة عالمية الإبداع العلمي تلج من باب خامس تبشر بعالمية العطاء الدعوي، فقد رأينا أن انتصار نظرية الكم صنعه دانمركي، قاد رهطاً فيهم الألماني والفرنسي والنمساوي والأميركي والياباني والهندي والباكستاني، وغيرهم، وكذا الأفكار الإسلامية والإضافات الإبداعية والاجتهادات التي تحل العقد، والبصائر التخطيطية، والأمثال العملية، يمكن أن تثريها مجاميع الدعاة الممتدة عبر القارات، لا يحتكرها عربي، مع أنه مظنة أن يكون الأكثر مساهمة في ذلك لأن الله تعالى اختار العربية لغة لشرعه، ولأن بذرة الدعوة الأولى كانت عربية، كما لا يحتكرها تركي، مع وفرة المحفزات المعنوية له، واستناده إلى المناقب الجهادية في التاريخ العثماني القريب، ولا هندي، رغم استناده إلى عاطفة عارمة تحلت بها أجيال الهنود.

بل يذهب الظن الحسن إلى أبعد من هذا، فيترقب الإبداع لا من زنجي فقط تعصره آلام أفريقيا فيتصبب صواباً، أو إندونيسي وماليزي ينتصبان لتحدي الغزو الوثني والتسلل الغربي، إنما يترقبه حتى من أبناء الاقليات الإسلامية المظلومة التي تئن تحت وطأة الجاهلية الجهلاء، بل حتى من داعية مسلم كمبودي كان الطاغية الشيوعي بول بوت قد قتل من قومه المسلمين معظم الرجال.

الإبداع عندنا عالمي، ولا اتكال على العرب بدعوى أن أصل الدعوة عربي، وكل الدعاة، في جميع القارات، مدعوون للإضافة والابتكار وإثراء الفكر وتجويد التخطيط واكتشاف أسرار السياسة ومدارج الحضارة، ولنا ثقة بالجميع، وقصيدة الانتصار أممية الأبيات، يضع كل شعب مسلم حرفاً في قافيتها الموحدة.

❑ **الوجه السادس للتشابه : أن العلم يرتقي بالأداء الدعوى ويقويه ويمنحه تأثيراً مضاعفاً، ويخفف الأعباء، ويقلل الجهد اللازم، ويجعل النتائج أسرع،** كل ذلك قياساً على الظاهرة التي رصدها من راقب تطور الحياة، فرأى أن الفيزياء، وفيزياء الكم بشكل أخص، هي التي منحت الحياة الحاضرة عنصر التمدن، ووهبتها الراديو والتلفزيون والكومبيوتر والليزر والمجاهر وأنواع الأشعة الطبية وغير ذلك من المخترعات التي اختصرت الزمان وربطت المكان، وركزت سيطرة الإنسان.

ولو أحسن القادة إسالة العلم ليصب في المحيط الدعوي فإن سيطرة الدعاة على أزمة الصراع السياسي والاقتصادي والإعلامي والتربوي والاجتماعي ستكون أشد وأكد. وينبغي ألا يكون هذا التمني مجفلاً للقادة، فإن الله لا يكلف الأنفس غير وسعها، ولسنا نطلب من القائد أن يكون فيزياويا ومتتبعاً لآخر المخترعات، لكنه الوعي منه نطلبه، فقط ليس غير، بحيث يأذن بهذا المنحى العلمي في تطوير الأداء الدعوى، ويستوعب معنى ذلك، ويتخذ القرار، فيتولى الصف القيادي الثاني وربما الثالث تنفيذ ذلك، وتوضع من قبل اللجان المختصة خطة خمسية لنقل التكنولوجيا العالمية إلى المجموعة الدعوية المركزية وأجنحتها الجهادية والإعلامية، وربما كان عالم الكومبيوتر المتقدم ومنظومة الاتصالات واستخدامات الليزر أهم ما هنالك.

وكما قدمت الفيزياء المتقدمة حصة كبيرة من الأرباح الاقتصادية للدول الصناعية الكبرى وثرواته القومية، كما قال الراصدون، فإن الفيزياء وجميع العلوم بإمكانها أن تمنح الدعوة ربحاً غير مباشر، في صورة تقليل النفقات، ومضاعفة الضغط، وتعميم المحلي ليكون عالمياً، واستيراد الكفايات العالمية لتكون محلية،

مـع تعاضـد المؤثرات، وتوضيح المؤشرات، وبإمكانها أيضاً : تصغير حجم التنظيم المركزي، **بحيث تتعاظم السيطرة تبعا لرقي المستوى النوعي والتدريب التكنولوجي،** وتكبـير حجـم الأجنـحة والواجهات والمؤسسات، بحيث تبقى مشدودة إلى المركز عـبر التنسـيق والطرائق المحورية في العمل، التي تتخذ من قضية معينة محوراً يربط نشـاط عناصـر متـنوعة، أو يـتخذ مـن مؤسسـة مـا مفصـلاً لخدمة قضية أو قضايا عديـدة، فيـتماثل الأداء أو يـتقارب، وتنطلق جهودنا التربوية والإعلامية والسياسية عـندئذ مـن نظـرية واحـدة ومفاهـيم متجانسـة، ويسـتطيع أي داعية خبير أن يخدم بخـبرته أطـرافا عديـدة فـي نفـس الوقـت، أو يسـتمزج آراء خـبراء مثله في أقطار أخـرى، مـثلاً. كمـا تستطيع نسخ مصورة على قرص من أرشيف مركز إسلامي معين أن تقدم أولا بأول معلومات جاهزة إلى أي مركز آخر أو صحيفة مثلا، فضلاً عما فـي مجموعـة مصادر خدمات الانترنيت الإسلامي العام والدعوي الخاص من تكامل يبنـي بـبطء، لكـن برسـوخ، خلفـية واحـدة، وعقـلاً واحـداً، وشعوراً واحداً، مهما تباعدت الآفاق ونأت الديار.

أمـا مـن أيـن يأتـي مـال هـذا التطوير التكنولوجي بعد إذ انتسب الدعاة لخط الفقـر بفعـل أوهـام بقايـا التصوف الابتداعي العالقة فهو حديث من أقلق قلبه فهام وجال وليس هو حديث من استراح أو أرهبته القصص فجلس، وأنغام الرنين الذهبي لها سطور أخرى.

❑ **وتقود هذه الاقيسة الستة جميعاً إلى مفاد سابع مهم يصدع بأن منهجيات العلوم كلهـا تصـلح أصـلا للقـياس، وكـذا كـل منهجيات الأداء الحيوي العام في عوالم السياسة والاقتصاد والحرب وغيرها.**

وعلـيه فـإن منهجـية التربية الدعوية، ومنهجية كل أداء دعوي آخر، كما علمنا بعض خبرها من انعكاسات منهجية الفيزياويين، فإن بإمكاننا أن نعلم أخباراً أخرى مـنها وقواعـد ومسـارات عبر منهجية أركان الحرب، و أعمدة السياسة، ثم عبر منهجـية الحركة الساكنة للأصنام الذهبية، الناطقة الخرساء، الذكية البلهاء، ومن لا يعرف الجاهلية : لا تتم له معرفة الأيمان.

وبإمكانـنا أن نـأخذك فـي جولـة طويلة نتتبع فيها معا وجوه التماثل، ولكننا لا نحـبذ تعليمك كل شي بالتلقين، فتبرد حواسك، وتجنح نحو اتكالية لا نرضاها لك، وقـد أنشـأنا كتابـنا هـذا لتخليصـك منها وتهجيرك إلى أرض الإبداع، وقد أتيناك

بشواهد الفيزياء، فانح منحاها وحلل بقية ما هنالك تجد القياس وافرا، واسأل نفسك، واعقد مع إخوانك في لجنتك أو أسرتك مؤتمراً لاكتشاف أطراف التشابه.

إنما نمنحك حرفين واسمين وفعلين، مفترضين أنك نصف دؤلي، والعلي علي :

فقانون العرض والطلب في الاقتصاد : هل له صدى في العمل الدعوي ؟
ووصية أهل الاستثمار أن لا تضع جميع بيضك في سلة واحدة هل هو موعظة ؟

والشركات الاحتكارية العابرة للقارات ألا تحرضك ؟

وعادة السياسي أن يتغدى بخصمه قبل أن يتعشى به هل تنذرك ؟

والتعاون المرحلي، أو التحالف الإستراتيجي : هل يسوغ اقتباسهما ؟

وفي الحرب: ألم تر أن توسيع الجبهات يسبب ضعف تركيز الهجوم، وان إطالة خطوط الإمداد تهددك باحتمال قطعها فتكون في مأزق الانفراد ؟

وكذا الهجوم : أليس هو خير وسيلة للدفاع ؟

وإبقاء قوة احتياطية : أليس هو علاج كل مفاجأة ؟

وحركات الالتفاف أليست أخف من ثقل تبعات المجابهة ؟

واستثمار الفوز بالملاحقة والإجهاز أليس هو ثمن عاجل يسير يعفيك من دفعٍ آجل كبير ؟

ووزن المعنويات والعاطفيات الروحيات أثقل أم الحديد ؟

والهدم أسهل أم البناء ؟

والمشروع الحضاري أجدى أم المغامرات ؟

والتحديد والتوصيف والتفصيل أصدق أم الإطلاقات ؟

أجب عن كل هذا، فإن أردت المزيد أرسلت لك خمسين سؤالاً أخرى عبر البريد الألكتروني الآتي :

E.mail @ ya hatha : yekfeena sethajaten, kun thekyya

اضطرنا عامل الربط إلى قياس بعض المظاهر الدعوية على بعض جوانب منهجية رهط الفيزياويين كما رواها د. محمد التكريتي آنفا، فعجلنا الإدلاء بالرأي لئلا تفوت المناسبة بين المعنيين.

لكن الانتهاء من سرد تلك القصة العلمية الممتعة يضعنا في مقام الرائي لمنظر شمولي من مناظر حركة الحياة وعمل العقل الإنساني في حقبة معينة بين أهل تخصص واحد، مما يمكننا من صناعة مشهد دعوي أيضا مستنبط من ذاك المنظر البديع، ومن خلال تجسيم عناصر هذا المشهد الدعوي ووضعها في أماكنها المناسبة في عرصة المشهد وفقاً لذوق فني أكسبتنا إياه التجربة وشدائد المعاناة : تتبدى لنا منهجية نقترحها تشكل جانباً من قوانين التطور الدعوي، يعلم الداعية بعض خبرها، لكن بشكل متفرق، ونمنحه إياها هنا مجتمعة، وربما مرت معنا بعض معانيها فيما سبق، لكنها تأتي هنا مقرونة بشرح آخر، ومن الواضح أن هذه المنهجية للتطور الدعوي العام تستلزم تلقائيا ما يقابلها ويلزمها من منهجية التربية الدعوية، وهذا هو موضع تجانسها مع السياق العام للكتاب.

❑ **أول ذلك : تتابع الخطوات، وظاهرة المرحلية، والبناء على ما سبق في تدرج طويل النفس، وليس أخذ الأمور من خواتمها وتجاوز التتابع الضروري والتسلسل المنطقي، وكل ذلك هو مفاد التخطيط**، وقد جاوز فقه الدعوة هذا المعنى، وأصبح مغروساً في أعرافنا، مع أن التزام بعض الدعاة به مازال أضعف مما ينبغي، لروح تقليدية سابقة، أو لضعف اقتباس فنونه، ويقابل ذلك " قلق تخطيطي " عند آخرين من الدعاة، سببه غرام بالتخطيط عارم، وحماسة له زائدة، فوقعوا في استعجال، وطلبوا المثال، وهو عسير، فأخرجهم ذلك إلى تبديل الخطط وعدم استقرارها طويلا ، والقفز من مذهب تخطيطي إلى آخر، في تحول سريع، وليس سبب ذلك سوى قلة الخبرة التخطيطية، مما يفصح عن أن روح التخطيط تحتاج إلى تخطيط، وإلى تؤدة، وعقلانية، أكثر من احتياجها إلى تحول سريع وعواطف جياشة. لكن اللافت للنظر عندما استعرضنا تاريخ الفيزياء أن العلماء لم يجتمعوا على خطة مدونة وجداول عمل ملزمة، وإذا كانت تجمعهم خطة قطرية تضعها الجامعات مثلاً فإن خطة أوسع تجمعهم على نطاق عالمي لم تكن موجودة، ولكنهم مع ذلك نجحوا، وكانت آثار المنهجية واضحة في أعمالهم، مما يدل دلالة جازمة على أن قضية التخطيط وما يتفرع منها من منهج وقواعد وسلوك وحقوق وتكاليف

قـد تحولـت عندهم إلى سليقة ونمط تلقائي عند الأداء، لأنهم نشأوا على ذلك بين ظهراني أساتذتهم، وسمى لهم النظام العام مالهم وما عليهم، وفي هذه الظاهرة ما يعـظ الدعـاة أيضـا **بأن التخطيط والمنهجية أبعد جداً من كونها وثائق مدونة ربما تسـتطيع قلـة نابهـة مـن الدعـاة وضـعها وحمـل الدعاة على الإذعان لها، إنما هما مفاهـيم وقـناعات وأنماط أداء وسلوكيات تنغرس في نفوس الدعاة** عن طريق التربية أولاً، ثـم عـن طريق طول الممارسة ثانياً، مما يعني أن النضج التخطيطي يلزمه زمن **كـي يـتحول إلـى سـليقة أو عـادة أو طـريقة تلقائـية**، ويكون في أوله أضعف من آخـره، وبيـنهما نمـو تدريجـي له، كما يعني من ناحية أخرى أن القيادة الواعية لو تمـيزت بجـودة تخطـيط فـإن جمهـور الدعـاة مـن حولهـا قـد يخـذل تخطـيطاتها وطموحاتهـا إن لـم يكـن الوعي التنفيذي لتلك الخطط وافراً، إذ لا بد من إيجاب وقبول، ولا بد أن يكون المحل قابلاً لأن يمتلئ بالمضمون، **بل يلزم أن يكون لدى جمهـور الدعـاة نوع من الوعي التخطيطي العام أيضا** وليس مجرد الوعي التنفيذي، مـن أجـل أن يفهموا مغزى الخطة وتتكون عندهم قناعة بمذهب القـيادة ومـنحاها، فيـنفذوا عـن رضـا وطيـب خاطـر ولـيس عـن التزام بالطاعة فقط، **بل التنفيذ يلزمه اجـتهاد أيضـا كمـا أن أصـل التخطـيط يلـزمه اجـتهاد، وهما اجتهادان متكاملان مـتلازمان بهمـا معـا يـبدو الأثـر، وكـل هـذا يوجـب أن تكون التربية على معاني المنهجـية والتخطـيط معلمـاً بـارزاً من معالم التربـية الـدعـوية**، بينما يسجل واقعنا الـتربوي الحالـي نـوع قصـور فـي ذلك، فإن أقصى ما يوصف به النجاح التخطيطي الحاصـل أنـه صادر عن نخبة من الدعاة ولم يصل بعد إلى أن يكون وعياً عاماً في أوساط الدعوة.

القضـية بإيجـاز أذن : إن روح التخطـيط تحـتاج إلـى تخطـيط، وأن تعمـيم المنهجية يحتاج إلى منهجية.

❑ **أمـر ثـان : وجـوب تأسيس روح الفريق في أداء الدعاة**، لا روح التفرد وشائبة الاسـتئثار بالإنجـاز والاستشراف لاحتكار الفضل، لكن روح الفريق توجب أن يكون انطـلاق الدعـاة مـن مؤسسـات ومراكـز بحـوث تتيح الجماعية في العمل، كل ذلك قياسـاً علـى مـا كـان عليه أمر أهل الفيزياء، إذ اندثرت الأزمان التي كان العلماء يـؤدون أدوارهـم فـيها على انفراد، وأصبحت البحوث الحديثة تعتمد على فريق من الأقران ربما يتحلقون حول أعلم منهم له تميز وأستاذية، وربما لا.

إن الحوار بين أهل الاختصاص الواحد أو المتقارب هو الذي ينضج العقول، ويستفز طاقات التفكير، ولابد أن ندرب الدعاة على هذا الحوار، والأخذ والعطاء والقبول والرد، وان نعلمهم روح استقبال النقد بصدر واسع لا مكان فيه لنقطة ضجر قد تتجمع حولها أوساخ أُخرى تغرز فيهم طبيعة الزهد بعطاء الآخرين.

والذي نفهمه أن هذا المنحى في الأداء ضمن فريق لا يعارض منحى صناعة الحياة، الذي يبدو لأول وهلة انه يعتمد على تجويد أداء الداعية ضمن حقل من حقول المعرفة أو المهن أو الفنون، لان المماثلين لكل داعية في الفن الذي اختاره لنفسه هم أقرب الناس إليه في الفهم والتوجه وطبيعة العواطف، ولذلك يلزمه التنسيق معهم، والتشاور، وتبادل الخبرة، وتقاسم الواجب، وهذا هو المقصود من عمل الفريق، فمجموعة الوعاظ تفعل ذلك مع أن لكل منهم وجه إبداعه الخاص وبلاغته، وكذا مجموعة المحاضرين الشارحين للفكر الإسلامي أو أي مجموعة أُخرى.

بل ذهب فقه الشيخ القرضاوي إلى أبعد من ذلك، فدعا في أكثر من موضع في كتبه إلى تقاسم التنظيمات العديدة للدعوة الإسلامية للواجبات بعد ما رأى صعوبة أو استحالة أو عدم جدوى ذوبانها في تنظيم جامع واحد، ورأى صواب تخصص بعضها في أداء أدوار علمية أو اجتماعية معينة، في إطار من الحب الأُخوي والتنسيق ينفيان أو يقللان الآلام التي عصرت قلب أستاذنا الشيخ عبد الله قادري الأهدل فجعلته يبثها في آخر كتابه (الإيمان هو الأساس) ويشتكي ويتوجع من تفرق الجماعات الإسلامية وتضايق بعضها الذي يركز على أهداف جزئية من العمل الشمولي، ويتعجب لشدة إنكارها على من يجتهد ويتأول في أبواب السياسة بخاصة، مع أن القضايا خلافية ومجال الاجتهاد فيها وارد ومستند إلى إفتاء الأئمة القدماء.

التشنج بدعة، وإن من منهجية تربيتنا الدعوية أن نعلم الدعاة العمل المشترك، والتحالف مع الجماعات الإسلامية، والسماحة، والدعاء بظهر الغيب في وردهم لكل محسن من المسلمين يضيف طريفاً أو يذكّر بتليد، لأنه ينشر عبير مسك تزداد به طيباً نفحات وردنا، وهو خير من فاسق حدّاد يلوث البيئة بكيره ويزعج مجلسنا إذا تلاقت الأرواح على تلاوة الآي أو استماع الحكمة.

❑ وثمة قياس ثالث يفيد بوجوب اعتماد العمل الإسلامي على تخصصات متكاملة، بعضها يعضد بعضاً ويتمه ويكون من لوازمه، كالذي حدث في النهضة

العلمية العامة التي قادت الثورة الصناعية الأولى ثم ثورة التكنولوجيا المعاصرة، فقد تكاملت الفيزياء مع الكيمياء مع الرياضيات مع علوم الحياة والجيولوجيا، مع الطب، تحت مظلة فلسفية وإدارية واقتصادية، فنتج التطور. بل حتى في تاريخ فيزياء الكم التي جعلناها مثالاً تفصيلياً تحليلياً : لم يكن لها غنى عن الرياضيات، وحركتها في الأول افتراضات فلسفية، **وأنتجت في الآخر آثاراً فلسفية عميقة ربما تنعطف بالتاريخ البشري انعطافاً حاداً تتغير به العلاقات والمفاهيم والعقائد تغيراً جذرياً يعاود الاتصال ببدايات النبوات الأولى وخاتمتها.**

وكذلك الأمر الدعوي الناجح النافذ : يؤدي إليه فقه شرعي، مع علم إدارة، مع فنون سياسة، مع قواعد حرب، مع تأمل في الكون والآفاق وعجائب الخلق، مع فيزياء وتكنولوجيا، في إطار من التوحيد والطريقة الفلسفية في الجمع والتأصيل والتدليل.

وإحلال هذا التكامل العلمي في الأداء الدعوي هو واجب التربية، لكن ذلك أوسع من أن يكون مجموعاً في مجموعة الكتب والفعاليات التي اصطلحنا أن نسميها بالمنهج، إنما هو انتباه عام يبدأ من إشارات واضحة يلزم أن تضمها الخطة الاستراتيجية، مروراً بالخطة المرحلية، نزولاً إلى الأداء الموسمي ثم اليومي الذي تديره أوامر قيادية متجددة متعاقبة تبعاً لحاجات الساحة، وخلال كل ذلك يكون الديدن : تشغيل الطاقات العلمية المتنوعة التي يملكها الدعاة عبر دورات، ومحاضرات، ومقالات صحفية، وكتب تنشر، وأفلام فيديو، واقتباسات بتصرف من النتاج العالمي، فيولد كل ذلك وعياً وقناعات ورؤى وفراسات وآثاراً تربوية تضرب عمقاً في وجدان الدعاة وتفكيرهم وأذواقهم وطرائق سلوكهم من خلال قابلية النفس الإنسانية للتأثر بالمسموع والمنظور، وبخاصة إذا تم التفنن فيهما، وسوف يأتي كل ذلك ببطء ويزحف بدون ضجة، من حيث لا يشعر الداعية المتأثر ولا الخارج المراقب، فيكون التطور، لأن عملية التأثير تكون قد تمت في محضن سلمي حضاري متدرج في التقدم، على الطريقة الترسيبية، وبدبيب خافت، وليس عبر طريقة تركيزية سريعة الورود سريعة الانتهاء والجلاء هي أشبه بالحملات الإعلانية الترويجية المؤقتة التي تلغيها حملة منافسة أكبر منها وأنصع بهرجاً وألواناً، وهذا المعنى في الإحلال البطيء المسترسل المتحلي بالصبر والتؤدة هو المعنى المنهجي الذي نقصده وتكلف به القيادات ولجان التربية.

❑ أستاذية الأقطار المخضرمة

❑ **ومن باب رابع نرى أن عالمية العلم وعدم انتسابه لقطر أو شعب تؤدي إلى قناعة تامة لدينا بعالمية العطاء الدعوي** واعتقاد أن كل مسلم في أي بقعة من أرجاء الأرض يمكنه أن يبدع ويضيف جديداً يفيد كل الدعاة في العالم، ليس من باب أن الصواب يفرض نفسه فقط، بل أن نفرح بذلك، ونرى كل إنجاز كأنه ملك لنا، ونفهم أن الفتح الذي يأتي على يد مستضعف في سريلانكا، أو أفريقي: إنما هو إشارة قدرية، وأن الله تعالى يعز من يشاء بالإيمان وعمق التعبد، فتنفتح له نافذة يطل منها على الحكمة فيستنشقها فتسكن قلبه فتنطق لسانه بها.

لكن عالمية العلم لم تكن منفصلة عن الأسباب المنطقية الواضحة في حركة العلم، فوجود المختبرات المتقدمة مثلاً، والمال، والبيئة المساعدة من الحرية والنظام والاستقرار، وعدد من المختصين والخبراء: هي أسباب تجعل انبثاق الاختراع والاكتشاف العلمي متوقعاً وسهلاً، ومثل هذه الأسباب تتوفر عادة في الغرب، ولذلك كان الغرب قائداً لبقية أقطار العالم، مع أن عقول البشر متقاربة، والذكاء عام لا يحتكره شعب.

وهذا الحال منعكس على الوضع الدعوي أيضاً، فمع أننا نقول بعالمية العطاء الدعوي، إلا أن توفر الجامعات ومراكز الدراسات في أقطار معينة، ووجود علماء فيها كبار، وتقادم الدعوة فيها وتركز الخبرات وعمران الجانب التخطيطي، والإمكانات المادية، والنبضات العاطفية، كل ذلك يجعل من تلك الأقطار أقطاراً قيادية تقود المستضعفين والأقطار الأضعف منها، من دون تكبر ومنة وفوقية وحقوق استثنائية، ولكن كظاهرة حيوية وقانون فيزياوي بموجبه تنتقل الحرارة من الجسم الحار إلى البارد، ولولا ذلك لحصل الاضطراب وفسدت الأرض، وفي مثل هذا المعنى ما يوجب على الأقطار المبتدئة والمحرومة أن تتقن التلمذة للأقطار الأقوى، وتحرص على التبعية لها وفق قاعدة الولاء، لأن هذه التبعية إنما هي مرحلة ضرورية في سلم التطور لكل قطر صاعد، كما أن في هذا المعنى ما يوجب على الأقطار القائدة أن تتقن الأستاذية من جانبها، عبر الرفق والحنان والتواضع والعواطف الرقيقة والتعبد بفعلها وابتغاء وجه الله، وبذلك سيدور العطاء الدعوي في دوائره التامة، ويسير في قنواته الطبيعية، فتتوحد الأفكار والمفاهيم والتجارب وأنماط التخطيط وأساليب النشاط. ولأن عمليات العطاء والأخذ تجري في ساحة واحدة تحت سقف تنظيمي واحد فإن أي اكتشاف جديد أو تجريب طارف سيجد

الطريق سالكاً كي يكون عاماً، حتى لو كان في مكان ضامر هو مجرد نقطة في الخارطة، كجزائر المالديف أو واحة في النيجر، وسيتحول التلميذ إلى أستاذ، والمستورد إلى مصدر، إذا التزما عرف الإيمان، وبذلك يدللان على أن العطاء الدعوي عالمي، لكن من شرطه وجود أقطار قائدة، تستفز الطاقات وتفجرها، ويشاء الله أن يجعل من ماليزيا وإندونيسيا قيادتين لجنوب شرق آسيا، ومن تركيا قيادة لآسيا الوسطى، ومن السودان بوابة لأفريقيا، ومن العراق مفصلاً لإيران وكردستان، ومن باكستان مفتاحاً للقارة الهندية، والكل في رحاب الإيمان يرفل.

❏ سبقني سنتين فصار صاحب عقلين

❏ **القياس الخامس : توالي الأجيال، وأن كل جيل يأخذ من الجيل الذي سبقه، وأن كل جيل دفع العجلة قليلاً وسيّرها إلى الإمام،** وكذا اجتماع علوم الأمم ورفد بعضها بعضاً، والاقتباس من الغير، كما فعلت أوروبا حين درست علوم المسلمين في الأندلس.

هذا... أو تهمة التنكر للسلف، وبخس حق السابق.

وتتجلى هذه الصلة السلفية عندنا تماماً حين نستعرض معالم تطور الدعوة، فنكتشف أن موعظة فاه بها الحسن البصري، أو عمر بن عبد العزيز، مازالت تشكل في تربيتنا ركناً مهماً نطيل شرحه، وأن طريقة للثوري أو الفضيل قد استحالت إلى مادة في منهجية التربية الدعوية، مروراً بأحمد وأصحابه، وأرهاط المجاهدين مع عماد وصلاح الدين، ولبثاً مع ابن تيمية وابن القيم، وانتساباً لمحمد الفاتح ثم شامل، وإذعاناً لمحمد بن عبد الوهاب في إيجازه العقيدي المتكامل، حتى استلمها حسن البنا باليمين، وحصل الانفجار المعاصر العظيم.

هذا الاحترام للسلف القديم والحديث أصل أصيل في منهجية التربية الدعوية، ليس نأتيه كخلق ووفاء وتبرك فقط وكل ذلك حق وواجب، ولكن نأتيه مأتى التفقه والتلمذة والإعتراف بالسبق واعتقاد أن الله تعالى وهبهم صدق النوايا ونقاء السلوك، فبورك في فركهم لعقولهم، وانبثقت الحكمة ثرة من بين أصابعهم، ليس الأول منهم والأوسط فحسب، بل حتى الآخر الذي عاش وأدركناه يوم كان للحياة بقية من جمال أندرس في أيامنا الحاضرة مع استيلاء صخب التمدن واختلاط الصيحات وفساد الأذواق وتلوث البيئة واسترواح الثقات بالترهات.

وقد كان توريث الفكر والمفاهيم والوعي يجري في سلاسة بحمد الله ومازال، رغم هذه القبائح الغازية، وأغلب جيل الصحوة الإسلامية الحاضرة قد اكتشف بسرعة تمهيدات الأجيال السابقة لطريقه، وولد هذا الجيل ثرياً، ولم تضطره الأيام إلى عصامية، **حتى جاءت أيام الأفغان ويشاور، فبرزت بدع التعالي والاستغناء والتنكر والتمرد والذاتية والإدلال والادعاء عند نفر أطلق الواحد منهم طلقتين وبات في العراء ليلتين، فصار يعتقد أنه قد اجتاز القنطرة، وأنه أرفع من الجلوس بين يدي مجرب، وأنه قائد تام الأهلية والصفات، وما كان كل ذلك إلا لأن هؤلاء الشباب ـ رغم صدق توجههم وعمران جانب الإخلاص فيهم - لم يمروا بالتسلسل التربوي الذي تتيحه الحياة الدعوية، ولم يتدرجوا في حيازة المعاني وفق منهجية تجريبية على يد أساتذة قد علمتهم المعاناة من قبل الكثير من دروس الحياة ووضعتهم في سير موزون يزيده فقه الدعوة وإفتاء القدماء اتزاناً.**

البدعة عند نفر، والسواد الأعظم تجمله البراءة والآداب، لكن من شأن النشاز أن يلفت النظر إليه، مثل نقطة سوداء في محيط أبيض، لذلك يجب أن تحتوي منهجية التربية الدعوية مبدأ الانتساب للسلف والوفاء للأجيال المتعاقبة والتلمذة لمن سبق سنتين وعانى فأطلع، **إذ ليست مكابدة التفاصيل اليومية لعمل الدعوة اليومي السلمي في صراعها مع الأفكار المنحرفة والجاهلية والجاهليين بأقل شأناً وأجراً ومكانة من مكابدة العدو في ساحات الجهاد،** ولسنا ننكر فضل شباب جاهد، أو نتقدم بين يدي الله فنزعم مزاعم تقلل شأنهم، بل الله يتقبل عمل الصالحين، إنما ننكر تعاليهم على التدرج، وعلى قوم يرون للجهاد شروطاً تسبقه.

❑ همس... مر... !

❑ وهذه الظاهرة تسلمنا بالتالي إلى قياس سادس به نفهم أن قضيتنا الإسلامية قضية حضارية، تستلزم مشروعاً حضارياً، وهي أبعد من كونها مجرد وصول إلى الحكم، وأبعد من كونها مهمة علمية، أو عملية إغاثية، أو إصلاحاً اجتماعياً، وإن كنا نسعى إلى كل ذلك.

لقد رأينا عند استعراض تاريخ العلم والفيزياء أن تلك الجهود وردت ضمن سياق حضاري واضح، فقد كان هناك حفظ حقوق الإنسان، وكانت ثم حريات وشورى، وقوانين يقف الناس أمامها سواء، كما كان هناك حفظ براءة الاختراع، والجميع يعمل في ظل إدارة تتفهم قضية البحث العلمي ومستلزماته وتمويله،

والحياة العلمية تعادلها حياة عاطفية يتكفل بها الأدب والفن، والتحرك يستند إلى قاعدة معرفية عامة متراكمة، وللإعلام دور قوي في ترويج المشاريع العلمية وإقناع الناس بها وحشدهم لتأييدها، ثم القضاء مستقل عن نفوذ الحاكم، وفرص الدراسة متساوية، في مؤثرات أخرى تجعل نمط الأداء الحضاري حاضراً.

وعملنا الإسلامي عليه أن يقتدي بهذا النمط، فيقدم للناس أدباً إسلامياً، وفناً إسلامياً، ووعياً حقوقياً، ودراية سياسية، ومعرفة إسلامية تركز على تحليل التاريخ ودلائل التوحيد ونقد الفلسفات، ثم يقترن كل ذلك بتدريبهم على سلوك أخلاقي رفيع متلازم مع تعبد وشمائل إيمانية، ودفعهم إلى حياة اجتماعية تعاونية عبر محاور معينة وجمعيات ومراكز ومعاهد، مع نشاط اقتصادي يحفظ الدرهم في الأيادي المتوضئة، وإذا انتظرنا سنوات طويلة فإن جيلاً عريضاً من المتأثرين بكل ذلك يكون قد وجد، فيتشكل به توجه قوي له زخم ضاغط، وعندئذ فقط يتدخل الجهاد في إقرار الأمور إن لم يتح الظالم تنافساً سلمياً متكافئاً، لكن من بعد صبر وإعذار عدة مرات على فترات، **والمفروض أن تتخذ تربيتنا منهجية مترابطة الحلقات تقوم بتفهيم هذا المنطق التخطيطي للدعاة ولعموم جيل الصحوة.**

وبهذا نغاير نظرية بن لادن التي تلغي هذه المقدمات وتأخذ الأمور من خواتمها، وتقلب التسلسل وتكتفي بالقلة، وما هي بنظرية ولا لها مع قواعد التخطيط نسب وقربى، إنما هي آهة مكبوت مظلوم انطلقت بعنفوان يتيحه المال الذي في يديه، فاضطربت الساحة، وتضرر بها المسلم قبل الكافر، وتولد من جرائها تعكير على العمل الدعوي الملتزم بخطة بعيدة المدى، بعيدة النظر، حضارية الهدف والوسيلة، حتى أن دوائر الاستخبارات العالمية والمحلية تحاول بجد أن تستمر هذه الظاهرة البنلادنية لما لمسته من فوائد هذا التعكير على العمل الشمولي، كما أن استمرار هذه الظاهرة يتيح لها الاستمرار في سياسة الكبت والقبضة القوية. بعد ما تعرت سياساتها الأمنية أمام عقلانية النشاط الإسلامي الهادئ ومنهجه السلمي، وهذا واضح جداً في الجزائر وغيرها، حيث اختلطت أوراق العنف بأوراق مزورة على العنف، وصار تزوير العنف أحدث صيحة أمنية.

❑ على صهوة الفيزياء نغزو

❑ لكن هذا الهمس المر يسلمنا مرة أخرى **إلى قياس سابع**، لكنه إيجاب حلو، امتزجت زبدته بالعسل بالزعفران، آيته : **رؤية أثر العلم في حركة الحياة وحيازة**

مراكز التأثير والقوة وتأكيد السلطة والسيطرة والتحكم، وفرض الإرادة، وإملاء الشروط.

فنتائج فيزياء الكم قد خدمت الدول التي رعت مختبراتها وعلماءها، وانظر أثر الرادار عسكرياً كمثل، وولادة القنبلة الذرية في مختبرات فيزياء الكم وبين أنامل آينشتاين، ودورها في استسلام اليابان وركوع العالم، ولا حاجة لذكر مئات الاختراعات الصغيرة، لأنه إذ ثبت الكبير : ثبت ما هو أصغر منه، ثم انظر القفزة الكومبيوترية والليزرية بخاصة ودورهما في إحلال أميركا المكانة الأُولى في العالم عبر خطة حرب النجوم، ليس عسكرياً فقط وما ينتج من انعكاس على السياسة عبر تفوق السلاح، بل اقتصادياً أيضاً وما نتج من ذلك من تسويق واسع، بل نفسياً والانتصار ببث الرعب أيضاً، بل ثقافياً والترويج للنموذج الأميركي والعقل الأميركي والذوق الأميركي أيضاً، ثم انظر التفوق العلمي الإسرائيلي كفرع لذاك، وما أدى إليه من تطبيع، وما سيؤدي إليه التطبيع من رعب واستلاب ثقافي.

وهنا درس بليغ لدعوة تريد أن تعتبر، ثم لدولة إسلامية تريد تثبيت قدمها، إذ الأيام دول، والعلم سبب واحد من أسباب أُخرى وراء حركة الحياة وتداول الأيام بين الناس، وقد تجتمع الأسباب أو تفترق وتتعاكس، ثم القدر الرباني أمضى، وليس التفوق الأميركي الحاضر بدليل على توقف حركة الحياة، وأن أدعى جاهلها نهاية التاريخ، وعوامل الجريمة والمخدرات وتردي الأخلاق سلبيات تنحت التفوق ولابد، إذ تظل النفس الإنسانية هي المحور الأول لكل حركات الحياة، كما أن دولة يهود ستظل نشازاً وفي ذلك ما يفتح لمستضعف أبواب الأمل الواثق بإمكانية الاستدراك والتملص، ولا نقول بإمكانية المنافسة، خروجاً من الخلاف والجدل.

وحديث تمتين الأداء الدعوى بالعلم، ومضاعفة قابليات الدعوة عبر التكيف مع المخترعات، ومواكبة المستجدات : حديث مكانه الخطة، وليس التربية، ولكن التربية متعلقة به من ناحية أن هذه الخطة العلمية لا يمكن أن تنجح إذا وعتها القيادة ما لم يتفهمها الدعاة، وتأسرهم حماسة لتنفيذها، والصبر على لأواء العلم، كل العلم، واستيعابه، والخروج إلى نمط جدي في قضاء الأوقات بالتعلم بدل تبذير الأوقات والاكتفاء بالعاطفيات والشوقيات، وتبدل كهذا لا تقدر عليه إلا تربية عالية المستوى، ذات منطق يقنع الدعاة بجدوى العلم، ويبين آثاره الضارية في عمق المستقبل، ونتائج التفوق المنتظرة منه، ومن هنا تكون الدعاية للعلم عنصراً

أصيلاً في منهجية التربية الدعوية، وهي حديث من صمم على الوصول فسلك، وليس حديث من جنح إلى الراحات فبرك، وقد وضع د. التكريتي نموذجاً لدعاية العلم عبر حبات المعرفة بأنفاس دعوية، وننتظر منه ومن دعاة آخرين إكثارا.

ولكن كما قلنا آنفاً وسنقول : ليس يكفي في ذلك تلقين، وإنما هو إيحاء ثم صناعة تيار عام يجرف الدعاة إلى جنة العلم بالحسنى أو بالسلاسل، عبر صحف علمية وأندية علمية، ورحلات علمية، وقدوات علمية، وجامعة مفتوحة علمية، وانترنيت علمي إسلامي، **واستعمار إسلامي لمختبرات الجامعات ومراكز البحوث،** ومضاربة تجارية ترفد كل ذلك بالمال، والمظنون أن في حواشي الدعوة وجمهور الهالة المحيطة بقمر الدعوة ألوف شباب ناضج، مستقيم على سمت الجد، يمكنه أن يكون عن الدعاة وكيلاً ويخدم هذا التوجه العلمي وهو ملتذ، ليدع عناصر مفاصل العمل الدعوي منشغلة بما هي فيه من مهام أُخرى.

❑ **ثم الاستنتاج الثامن : اعتماد العلم بعامة، والإعجاز الواعي للقرآن الكريم بخاصة، في غرس الإيمان بالله لدى أجيال المسلمين الصاعدة، لتكوين بيئة رديفة للعمل الدعوي، ومحضن لنمو الفكر الإسلامي،** وقد شرحنا ذلك آنفاً بما فيه الكفاية، وإنما كانت الإعادة لبيان تكامل هذا التوجه مع التوجهات السابقة وتلازمه معها واعتماده على نفس الوسائل.

لكن نخص بالذكر هنا ما تطرحه فيزياء الكم من وجود تأثيرات تتحرك بأكبر من سرعة الضوء، مما ناقضت به آينشتاين، ودلت آخر التجارب قرب نهاية القرن العشرين على صوابها وخطئه، كما روينا، فإن هذا الاكتشاف إن عضدته تجارب أُخرى واستقر كحقيقة علمية فإنه سيكون حجة دامغة على الملاحدة الذين يكذبون بنزول جبريل عليه السلام بالوحي في لحظة، وحركة الملائكة عموماً، واستجابة الدعاء فوراً، وأمثال ذلك من المعجزات التي يؤمن بها الموحد ويتردد أدعياء العلم في قبولها، كما أن ما تطرحه نظرية الكم من وجود عوالم متعددة يعضد أصل الاعتقاد بوجود ملائكة وغيب، فضلاً عما في العلم عموماً من شواهد التوحيد والألوهية، وبخاصة ما ظهر في تجارب فيزياء الكم من نقض حركة الجسيمات لقواعد الإحصاء الاحتمالي.

❑ وقياس تاسع : **أن الحرية هي أقصر طرقنا إلى تحقيق أهدافنا**، لأن الحجة معنا، والإسلام حق، والفطرة مجبولة على التدين، فإذا تساوينا في الظروف المحيطة بنا مع الأحزاب الأخرى والتوجهات العلمانية فإن الغلبة بإذن الله لنا، ولم تقلل آثارنا غير السجون وسياسة الكبت وقوانين الطوارئ والأحكام العرفية، وغير منعنا من المنابر أو امتلاك صحافة، **ولذلك يجب أن نجعل المطالبة بالحريات العامة وحفظ حقوق الإنسان أحد أهم قضايانا المرحلية والاستراتيجية، فنؤلف في ذلك الكتب، ويتخذها الدعاة محوراً لكلامهم الآخر إذا خطبوا أو صرحوا للصحف، ونقيم لتحقيق هذه الحرية أحلاف فضول مع بقية الأحزاب والمنظمات، وندفع بعض الدعاة للعمل مع مراكز حقوق الإنسان العالمية والمحلية، وأن ننشئ مثيلاً إسلامياً لها، وأن يتولى الدعاة المحامون إشاعة وعي دستوري وقانوني يوضح أبعاد الحرية وجريمة نقضها والبعد الحضاري لحقوق الإنسان**، وما سيتحقق من فوائد لنا عبر هذه الحرية هو أضعاف ما سيتحقق للفاجر الذي يدلف من ثغراتها لنشر فجوره، مما يجعل عامل التسويغ الشرعي لذلك وارداً وفقاً لقاعدة تعارض المصالح.

وما يقوله الأستاذ فهمي هويدي عبر كتاباته من إعطاء قضية الحرية المكان الأول في العمل الإسلامي، والأخذ على يد المخابرات : هو قول صحيح يشهد له الواقع، وعلى الدعاة أن يذهبوا مذهبه، وأنا معه جملة وتفصيلاً ، **ولذلك أرى أن يكون من معالم منهجيتنا التربوية : تلقين الدعاة المنطق الشرعي الدستوري والقانوني والحضاري لقضايا الحرية، وأن يعلمهم المنهج أصول الحوار والجدل في ذلك.**

ووجه القياس على مسيرة العلم : أن العلم لم يتفجر ويتوسع خلال القرنين الأخيرين إلا بسبب الحريات وحفظ الحقوق، في قصة واضحة.

كذلك في محيطنا الدعوي الداخلي : تلتزم طبقات القياديين والمربين سعة صدر إزاء إبداع المبدعين، أصحاب التجويد والابتكار إذ قد يكون ثمة خطأ وإغراب وشوائب غرور، لكن النية هي الفيصل ولها الاحتكام، فما علمنا من صدق المبدع ينتصب شافعاً له إذا هفا لسانه، وعلى منهجيتنا أن تعلم الجميع، قادة واتباعاً، قتل جراثيم الحسد في قلوبهم، إذ له دبيب خفي أحياناً، بحيث يرى القرين فرح المبدع بإبداعه، وفرح إخوانه به، فيغار، بل تبقى في القيادي أحياناً بقية من هذا الحسد الخفي، فيرى في صعود المبدع إزاحة له، فيكبته، ويمنعه

الحرية المفترضة. ولا تستغرب هذا الكلام، إذ دارنا عامرة بالإيمان بحمد الله، ولا يقودنا غير ثقة، ولكن الشيطان له إغراء وتدليس، ولا يستطيع صرع الثقة عند يقظته، لكنه يترصد أوقات الغفلات.

❑ الإبداع يقود حَمَلة البوارق

❑ والقياس العاشر الأهم : أن تطور العلم وإن أحدثته عوامل شتى، إلا أن إبداع المبدعين كان هو الأهم والعامل الأقوى.

أولئك الأذكياء الفلتات، أصحاب التجرد للعلم، الذين سكنوا المختبرات : **هم الذين دفعوا العلم صعدا.**

وكذلك دعوة الإسلام، يطورها أذكياء الدعاة، أصحاب الإبداع والاستنباط والاستنتاج والنقد والتحليل، ليس أهل التقليد والنمطية والاستسلام للموروث والقناعة باليسير.

والتربية الدعوية مكلفة أن يكون في أولويات منهجيتها : رعاية المبدعين، وتمكينهم من زيادة، ورفدهم، وتشجيعهم، إذ هم الأمل، وعليهم سنضع الحمل الثقيل.

لكن هذا الواجب يرخيه تطرفان متعاكسان :

إفراط يذهب به إلى أبعد من حدود التجارب، فيدعو إلي النخبوية، ويزهد بغير المبدعين، وهو خطأ كبير عقدنا لبيان وجوه السلب فيه فصلاً آخر.

وتفريط يتمذهب بمذهب : سيروا بسيرة أضعفكم، فيدعي أن في رعاية المبدع تكبراً على المحدود وإرهاقاً له، فيميل نحو التقلل، والهدوء، وهو تفسير خاطئ لقول قيل لغير هذا الموضع، فيه وأد للطموح وترغيب في العيش بين الحفر.

والصواب وسط، إذ الحياة مبنية على التباين في الفضل والمقدار والمؤهلات، ففي الأنبياء : نبي ورسول، عليهم السلام جميعاً، وأفضلهم محمد ﷺ، والصحابة طبقات، ومنهم أول ومتأخر، وفي العلماء الفقهاء رهط تميزوا عليهم مدار الفتوى، حتى آل الأمر إلى أربعة يلتحق بهم مقاربون، وفي المؤمنين سابق بالخيرات ومقتصد، وليس بدعة أن نميز وجود المبدع وندعو لرعايته، وقد قيل في الفيزياء :

أن اعتدال الحياة وانتظام حركتها راجع إلى ظاهرة انتقال الحرارة من الجسم الحار إلى البارد، ولولا ذلك لحصلت الفوضى، ورب متحمس يعدو بحماسته الباردين، فتكون مسيرة شاملة لكل جحفل الخير، وهي التي تستمر، وعليها مدار الحياة، بقيادة نفر قليل من الأقوياء يتنافسون في حلبة سباق، ولإثارة حمية الاقتداء، بمعنى: أن تسيير جموع الدعاة كلهم لأداء الهدف الدعوي هو الحال الأمثل المطلوب، قويهم وضعيفهم، ذكيهم والبطئ، لكننا للوصول إلى هذه الحالة من التحريك العام لا بد من اكتشاف المبدع، ورعايته، وتدريبه، وتمكينه من ممارسة إبداعه، من أجل أن يكون قدوة للآخرين، ووكيلاً في التفكير التخطيطي عنهم، ورائداً يتقدم ويسبق ويضرب المثال فيتبعه الرتل، وبذلك تنتظم حركة الحياة.

الإبداع عطية ربانية، إذا وجدت بذرته في القلب : فإن التربية تظهره، ويزيد الإيمان توفيق المبدع ويضاعف صوابه.

ثم الإبداع ومضة عمرها عشر لحظة، قد تضيع إذا لم تكن ثم منهجية تترصدها وتنتظرها لتلتقطها وتخزنها وتستنبتها وتطورها إلى مشروع كامل، أو إلى اجتهاد منقذ من حيرة، أو حجة لمبارز في جدل، أو أداة نافعة تختصر الزمان وتطوي المكان وترخص سعر الكلفة.

ومن هنا كانت منهجية استقبال ومضات الإبداع هي الوجه الآخر لعملة الإبداع الواحدة، وهذه هي نقطة صلة ثانية لقضية الإبداع بقضية منهجية التربية، لكن لأن منهجية الإبداع هي جزء من الإبداع أيضاً، فإن ذلك يعني أنها لا يمكن أن توصف كوصفة جاهزة نسمي أبعادها ونحدد أركانها، إذ الإبداع في أصله : خروج عن مطابقة الغير وتقليده، ولكن يمكننا أن نقترب بالمتربي من اكتشاف طبيعة هذه المنهجية المستقبلة للإبداع، عبر استعراض قصص المبدعين، ورؤية تجارب مخططي المشاريع الكبيرة ومنفذيها، ومن خلال ذلك، تنمو قابلية معينة لدى صاحب بذرة الإبداع تعينه عبر القياس على اختيار سلوكيات محددة تجتمع لتكون هي منهجيته الخاصة في استقبال ومضات عقله هو وقلبه، أو في اصطياد فلتات لسان وسلوك الآخرين العراة من منهجية مثيلة، الذين لا يفطنون إلى قيمة صواب مر من اقنيتهم، فيتلقفه صاحب المنهجية الإبداعية بسرعة، كالسارق له، ويضمه إلى مثيل له، ويضيف له لوناً، وتلميعاً، وإطاراً، وغلافاً ويعرضه في السوق لمن يشتري بمائة ضعف، تماماً مثل صائغ يأخذ حجراً خاماً بأبخس الأثمان، ثم يصقله ويتفنن فيه ويبيعه غالياً.

وهـذه الحقـيقة تنتقل بقضية الإبداع من مجرد كونها دائرة ضيقة يحتلها العباقرة فقـط، أصـحاب اللمعـات الوامضـة والليـزر المـتمركز الكثـيف، إلـى دائـرة أوسع أضـعافاً، يحـتلها (صـاغة الإبـداع) أو (سـراق الإبـداع) إن شئت أن تسميهم، عن طـريق منهجـيات مـتقاربة يـتخذونها لأنفسـهم تمـنحهم التربـية الدعويـة مفـرداتها ومكوناتهـا الصـغيرة المـئوية العـدد أو الألفـية، عـبر قصـص المبدعين وأخبارهم، مسـلمهم وكافرهم، ما يكتشفه الدعاة من ذلك أو ما يقتبسونه من كتب الغربيين، ثم يقـوم كـل داعية من هؤلاء الصاغة السراق بتركيب منهجية من هذه التفاصيل خاصة بـه وفـق تصـميم خـاص تـؤدي دور صـحن هوائي ضخم يستقبل الشوارد وومضات إبـداع الفطـرة عند الغافلين عن أنهم من المبدعين، وبهذه الطريقة تثري الدعوة على حسـاب الآخريـن، حـلالاً زلالاً، وبذلك تتضح صلة موضوع الإبداع بمنهجية التربية الدعويـة : أن هـذه التربـية مكلفة بتدريب مجموعة الدعاة كلهم على كيفية تصميم وبـناء منهجـية الاصـطياد الإبداعـي، فيكون أحدهم مبدعاً بالأصالة، ويكون الآخر مـبدعاً بالسـرقة والاصـطياد والصـياغة لإبداعـات غـيره وتوظـيفها لخدمـة الخطـة الدعويـة، ثم يكون غيرهما من بقية الدعاة غير مكترثين ولا أهل جد، بل تقعد بهم قابلـياتهم وهممهـم عـن المجـاراة والإتيان بجديد، وهم أصحاب التقليد والتنفيذ، وليس يضير التربية الدعوية ذلك، لأنها لا تستطيع اكتشاف الصنفين الأولين ابتداء، فهـي تـبذل علمهـا للجمـيع، ثـم القـدر الربانـي يخـتار هـذا وذاك، ثم إن الخطة الدعويـة تحتاج هذا المقلد أيضاً الذي سيقع عليه الثقل التنفيذي، ثم يكون وسيلة لانتساب مبدع إلى الدعوة، من ولد أو قريب أو مأسور إلى فضل يريد الوفاء.

وبهـذا الإحسـاس سـاهم عدد من دعاة الإسلام في رواية قـصة الإبداع للدعاة، يقتبسـون مـن كتـب غربـية ونحوهـا، ويضيفون لها لمسة إيمانية وزيادة ذاتية، كان أولهـم د. هشـام الطالـب عـبر مشاركته في معهد الفكر العالمي بواشطن، وتلاه د. طـارق سويدان عبر مركزه في الكويت وشركة الإبداع الخليجي، ود. علي الحـمادي عـبر مـركـزه فـي دبي (مركز التفكير الإبداعي) و د. محمد التكريتي عبر مركزه في بريطانـيا (مركـز الفـا)، فـي آخرين، وآخر العنقود د. سليمان العلي عبر مركزه في جـدة (مركـز الخـبراء)، وكتبهم نافعة جداً للداعية العصامي الذي يستبد به الشوق لإبـداع دعوي وحيوي، وينبغي أن تنص المناهج الدعوية على الاستفادة من بعضها، والـترويـج لبقيـتها، وأنـا أنصـح الدعـاة باقتـنائها ومطالعتها، وإن كان في بعضها تكرار وإطالة لا ضرورة لها.

وأنـا أزعـم، بناء على خبرتي بالواقع الدعوي العالمي ومعاصرتي لثلاثة أجيال دعويـة متعاقـبة خـلال مـا يقـرب من خمسين سنة بحمد الله : أن الإبداع الذاتي التلقائـي فـي محيط الدعاة لا يزيد على 3 % في أعلى تقدير وهو عندي 1% فقط لكـن الإبداع الذاتي المرفود الذي تفجر كوامنه التربية قد يرتفع بالنسبة إلى 10 % وأمـا الإبـداع غـير الذاتـي الـذي تـتولى التربية فيه تعليم الدعاة منهجية الاصطياد والصـياغة لومضـات الآخرين فقد يرتفع بالنسبة إلى 30 % إذا ساعدت الحريات العامة في البلد على تكوين ظروف مساعدة وأتاحت العمل المؤسسي، و30 % إذا صـدقت فراسـتي هـي نسبة عالية جداً **تنتقل بالمعادلة الحيوية إلى حسم مفروغ منه لصـالح الدعـوة لا يحـتاج غير مرور الزمن لتبدو آثاره، وحركة تدخل سوق الحياة وثلـث دعاتهـا يـتمركزون فـي دائـرة الإبـداع أو يتحلقون حول محيطها هي حركة تحـتكر المستقبل احتكاراً لا جدال فيه، وستتفلت وتتملص جزماً بإذن الله من كيد الكتلة البشرية الأميركية وأن أخلت تفاوتات السلاح والعربدة الأمنية ببعض جوانب المعادلـة إلـى حين يقصر أو يطول**، ومثل هذه الدعوة المثلثة الحلال على مذهبي مـالك وأبـي حنـيفة معـاً هـي كمـثل مليونـير ثـري يدخـل السوق يضارب فيتحول الآخرون أصحاب الألوف إلى مجرد سماسرة له يدلونه على الفرص، ويُنصر بالرعب من مسيرة أُسبوع، فيخلو السوق من الأقزام قبل وصوله، ويكون سيد الموقف.

لذلـك، ولإغـراء هـذه الظاهـرة لكـل مشتاق طال صبره وضربت معاناته عمقاً : **فإنـي أدعـو جمهور الدعاة المربين في كل قطر أن يتم تركيزهم على تعليم مجموع منتسـبي الدعـوة أخـبار الاجتهاد والإبداع والابتكار والتجديد والتحدي والمصاولة والعـناد والالـتفاف والانفـلات والترصـد والهجوم والتحديد والمبادأة في العالمين أجمعيـن، فـيقرأوا معهـم الـتاريخ بهـذا الـنفس، ويقـرأوا معهـم الواقـع، لـيقرأوا المستقبل.**

ومـثل هـذه القـراءات الواقعـية والتاريخـية تجد كتب العلوم كلها لها مصدراً، والقـانون والأدب، والفـن، وتواريـخ الحضـارات والحـروب، ومـناورات السياسة، والأداء الاقتصـادي، وكـذا مـن مصـادرها : الصـحف اليومية، والمجلات الدورية، والأفـلام الوثائقـية والممـثلة، وبيـن جـدران المـتاحف والجامعـات، وعلى معلمي اصـطياد الإبـداع وغارسـي منهجيته أن يجوبوا كل هذه المصادر ويقتبسوا من أخبار الإبـداع والمبدعيـن مائـة خبر تليد وطارف كل شهر ليهدوها إلى إخوانهم الدعاة، وعـبر الـتراكم الكمي وفنون الإثارة واستجاشة الحماسة : ستتحرك السليقة الإبداعية

عند البعض، ثم يتحرك نهم الاصطياد عند بعض آخر، فتكون الحصيلة الإبداعية الشاملة عالية الكثافة، فيسهل على الدعوة أن تصنع الحياة.

❑ اجلس بنا نؤمن بالإبداع ساعة

❑ ولنمكث معاً نؤمن بجدوى الإبداع ساعة كما وصفه رائد من هؤلاء المعلمين الذين بادروا إلى اكتشاف ما وراء الرابية ثم رجعوا إلى قومهم منذرين، وهو د. علي الحمادي، إذ ساقه إبداعه في إهداء كتبه لي إلى أن تكون روايته هي المعتمدة، وفي كل دور أنصار الإبداع خير، ولست أُلخص كل ما كتب، ولكن آتي ببعضه، وأضرب المثال، لتعرف ما هنالك.

في كتابه الأول (شرارة الإبداع) يبدأ د. علي سرد قصة الإبداع، ويعرفه بأنه مزيج من الخيال والتفكير العلمي المرن، لتطوير فكرة قديمة، أو لإيجاد فكرة جديدة، مهما كانت الفكرة صغيرة، ينتج عنها إنتاج مميز غير مألوف يمكن تطبيقه واستعماله.

وهو يرى أن لا فرق بين الإبداع والابتكار، والمقصود واحد في اللغتين العربية والإنجليزية، وهو يورث عن الإبداع ربما، لكن الاكتساب بالمعرفة والتدريب هو العامل الأهم فيه، وليست الشهادة المدرسية من شروطه، ولا كل من تفوق في الدراسة يبرز كمبدع، وأما كلمة الاختراع فقد جعلها العرف تنحصر في إبداع تقني ينتج آلة معينة. وأما الاكتشاف فهو إظهار ما كان خفياً، ويمكن أن يكون مرحلة من مراحل الإبداع. وكذا التخيل هو مرحلة البداية، ومثلهما الحدس، هو مرحلة أيضاً في الإبداع. وأما الذكاء فهو من لوازم الإبداع ولكن الإبداع ليس من حتميات الذكاء، والخاطرة مرحلة جزئية في الإبداع، ويقترن بها التفكير الذي هو من لوازم الإبداع. وأما الإلهام فهو ومضة تقود إلى فكرة جديدة، وقد ينتجه حدث مثير أو عابر، وبذلك يختلف عن سلسلة العمليات الإرادية التي نتبعها للوصول إلى الإبداع.

ولحل المشاكل لابد من الإبداع، لكن وظيفة الإبداع الإتيان بأفكار جديدة تطور العمل، وليس بالضرورة أن تكون هناك مشكلة لتفكر تفكيراً إبداعياً (ويشيع بعض الناس أن من مستلزمات الإبداع أن يكون المبدع فوضوياً غير منظم، أو

خيالياً بعيداً عن المنطق والتحليل العلمي، أو مشاغباً متمرداً على القيم والمبادئ والأخلاق، أو مبتذلاً تنتن الرائحة كريه المنظر، أو... الخ.

والحقيقة أن هذا فهم خاطئ للعملية الإبداعية، بل هو إساءة لهذه المهارة الكريمة والمنهج السديد.

إن وجود بعض المبدعين اتصفوا بهذا الإهمال والتمرد لا يعني أن الصواب في صنيعهم هذا بل نقول : أن هؤلاء شواذ عندهم شيء من النقص ينبغي أن يستدركوه حتى يكتمل إبداعهم ويستقيم منهجهم).

(إن المبدع الناجح هو الذي يجمع ما بين أعمال المخ الأيمن والمخ الأيسر، بمعنى أن يجمع بين الخيال وبين التحليل العلمي المنهجي، وكلما جمع الإنسان بين هذين الأمرين كلما كان أكثر إبداعاً وأقرب إلى التفكير الابتكاري النافع.

إن أكبر خطأ نرتكبه أن نعرف الإبداع ونحصره بالخيال فحسب، إذ لا قيمة ولا فائدة من خيال لا يتحول إلى فكرة عملية وإنتاج نافع، ولا يتحول الخيال إلى فكرة عملية وإنتاج نافع إلا إذا تنقل عبر مراحل علمية منهجية.

إن العلماء يخبروننا بأن هناك علاقة بين جانبي المخ الأيمن والأيسر، فعندما يتحرك الإنسان " الجانب الأيسر من المخ " فإن هذا يؤدي إلى إراحة الجانب الأيمن من المخ، وهناك يبدأ الخيال العلمي.

لذا : إذا واجهتك مشكلة لم تستطع حلها فاتركها، وأنشغل بأمر عضلي، كالمشي والسباحة، وهناك ستأتيك الأفكار الإبداعية لحل مشكلتك إن شاء الله تعالى.

خلاصة ما نريد أن نصل إليه هو : أن الإبداع عملية مهذبة سامية، فيها خيال خصب، وتفكير منطقي، وعمل منظم، وتحليل علمي، ونظرة واقعية، ومنهج قويم، وأدب جم)(1).

❑ والتقليد عدو الإبداع اللدود، ولذلك عابه القرآن على المشركين لما جعلوه أساس منطقهم في الشرك واعتذارهم بأنهم وجدوا آبائهم على أمة وأنهم على آثارهم مقتندون، (ولا يعني هذا الكلام عدم الاستفادة من تجارب وآراء وإبداعات الآخرين، ولكن المقصود هو الابتعاد عن التقليد الأعمى الذي لا تراعى فيه

---

(1) شرارة الإبداع /57.

الظـروف والأحوال والأشخاص والوقت والمكان، والذي يحد من استقلالية الإنسان ومرونته في التفكير والتأمل) [2].

❑ وكـذا الروتيـن (إنـنا مطالـبون ـ إذا مـا أردنـا أن نبدع - أن نفكر بطريقة مرنة وجديـدة غـير مألوفـة، ولكنـنا غـير مطالبين بأن نعلن حرباً ضروساً ضد كل ما هو نمطـي روتينـي). فـإنك (إذا اسـتفدت من الروتين لتسهيل الإجراءات وتنظيم العمل ومـن ثـم خطـوت خطـوات إلـى الأمـام بأن طورت وغيرت فإن الروتين سيكون لك فاتحـة خـير ونعمـة كبـيرة). (ولكـن إن كان معيقاً للعمل، معطلاً للإنتاج، مضيعاً للوقت والجهد، غير مساعد على التطور والتقدم، فينبغي أن نتخلص منه، وذلك بأن نعمل عقولنا ونفكر بطريقة جديدة غير مألوفة، وهنا يكون الإبداع)[3].

❑ ويـتحول د. علـي إلـى الحديـث حول العقل، الذي هو الموطن الرئيس للعملية الإبداعـية ويعـرفه بأنه (المجموع الكلي المنتظم للبنيات والعمليات النفسية، الواعية واللاواعـية، وهمـا ليسـا بعقليـن منفصـلين، ولا يعمـلان باسـتقلالية عـن بعضهما الـبعض، وإنمـا لهمـا وظائف منفصلة، ولهما كذلك وظائف مترابطة، وكلا العقلين يقومان بعمليهما بدقة وكفاءة فريدتين.

❑ وينقسم العقل الباطن إلى الباطن، والباطن الخلاق.

❑ فـالعقل الواعـي : يـدرك العـالم مـن حولـه، أو الحقـيقة، مـن خلال الحواس، ويحـتفظ باتصـال معـتدل مـع الواقـع، و لـه أربع وظائف : الإدراك، ويظل إدراكنا ناقصـا. والـربط، يـربط ما ندركه بالمخـزون في العـقل الباطن. والتقويم، بمقارنتها بالخبرات السابقة. والتقدير : باختيار الفعل المناسب.

❑ وأمـا العقـل الباطـن : فهـو يشـير إلى مجموعة العناصر الدينامية التي تتألف مـنها الشخصـية، وبعضها قد لا نعيه. ويتم التخزين من خلال تعبيرات كيميائية في الهـيكل البروتينـي لـنوايا الخلايـا العصبية للدمـاغ، والعقـل الباطن لا يقوم فقط بتسجيل الأحداث والخبرات بالتفصيل وإنما يسجل المشاعر أيضاً المصاحبة لتلك الأحـداث. لذلـك فـإن الحقـيقة كمـا نـراها قـد تكون مشوهة وغير حقيقية ومضرة بالمقارنة بتفسيرات موضوعية للحقيقة.

---

(2) شرارة الإبداع/62.

(3) شرارة الإبداع /65.

وبجانب التخزين يقوم العقل الباطن بالإشراف على الوظائف الأُوتوماتيكية، مثل دقات القلب، وعمليات الهضم. كذلك الوظائف التي تم تعلمها ذات الصفة الأُوتوماتيكية، مثل المشي وقيادة السيارات وجدول الضرب.

❑ وأما العقل الباطن الخلاق : فهو برمجة خضع لها تفكيرنا وأفعالنا استناداً إلى عادات قديمة، بحيث يتسبب لنا توتر وضغط نفسي إذا طرأت خبرة جديدة، كالانتقال لوظيفة جديدة. وتتأثر الصورة الذهنية التي نكونها عن أنفسنا بهذه الاتجاهات، السلبي منها والإيجابي، وعقلنا الباطن يحافظ على الحقيقة كما تصورنا، بحيث يجعلنا نفعل دائماً مثل الشخص الذي تخيلناه أنه نحن، أي صورتنا الذهنية عن أنفسنا، فمن يعتقد أنه ضعيف في الحديث سيتلعثم إذا تحدث، ولتفادي هذه السلبية : لابد من تعديل صورتنا الذهنية الذاتية عبر الحديث الذاتي الإيجابي وتعابير الثقة والتحدي، وبذلك تعاد برمجة عقلنا الباطن الخلاق بالإيحاء.

فإذا عزمتٍ على خوض غمار الإبداعٍ فإن د. علي يشير عليك أولاً أن تبحث عن البدائل دائماً، بلا مبالغة، ثم افتح بنكاً تودع فيه البدائل والأفكار الإبداعية عن طريق تعيين هدفك بوضوح، لتتعين الوسيلة لتحقيقه بوضوح، ثم استفز مقدرتك الإبداعية بذكر نقيض أفكارك الأخرى، فالطبيب مثلاً يذهب في الطريقة المناقضة إلىٍ المريض وليس العكس، ثم أدمج بين فكرتين ينتج استعمال ثالث لهما، وحاور عدداً من العقلاء المتفائلين : تنقدح لك رؤى، ثم انفرد وحلق في خيال : يأتك مزيد، وإذا أعدت وصف المألوف أوصلتك الإعادة إلى جديد بمقدار المترادفات التي ستوسع بها المعاني الوصفية، وتزداد هذه القابلية إذا خرجت من محيطك الذي يتكرر يومياً إلى مكان آخر وتركز التفكير هنالك بنقاط القوة والضعف والمخاطر لكل قضية ومحاولة معرفة فرص الاستدراك والتنمية، ثم ترجع مرة أخرى لتجلس مع دعاة آخرين في لقاء ودي غير مبرمج وتطرح قضية غريبة، فيولد الحديث العفوي عندك الأفكار، وإذا شفع طالب الإبداع ذلك بأسئلة جزافية خارجة عن العرف والمألوف يسأل نفسه منفرداً ورد احتمال تضمن الأجوبة لأفكار واقعية، ثم يعود إلى جلسة مع أقران في حدود العشرة يمارسون فيها العصف الذهني، بأن يكون ديدن الجميع طرح أفكار جديدة حول قضية معينة من دون الحكم عليها ونقدها أولاً، ومن خلال الكم الكثير لها تنبثق صفة إمكان تطبيق بعضها، أي يكون هدف الجلسة في مرحلتها الأولى تجميع أكبر مقدار من الأفكار، حتى تكون كثرتها مثل سيل هادر، وهذا لا يكون إلا بإطلاق حرية التفكير للجميع في جو

مـرح مـن دون اعـتراض وتخطـئة، فتكون الطلاقة هي مورد الرصيد الفكري في بنك الابـتكار، ثم بعد ذلك في المرحلة الثانية من الجلسة يكون النقد والتمحيص وقبول بعـض المقـترحات بإضـافة شـروط لهـا أو تهذيـبها وإعـادة صياغتها وإبعادها عن الغـرابة، وإذا كـان رئـيس الجلسـة نـبهاً سريع الاصطياد لأفكار المشاركين العفوية ويسـتطيع كتابـتها على لوح ليراها الجميع فإن نجاح الجلسة يكون وارداً، وبخاصة إذا ارتفـع الـتكلف بـأن يكـون الجمـيع أقـراناً أو متقاربين ليس بينهم أحد يهابونه أو يسـتحون مـنه أو ترهـبهم سـلطته. ثـم تسـند النتـيجة بعصـف كتابـي وفق نفس القواعـد، تطلـق فـيه الحـرية للمشـاركين لكتابة أفكارهم بلا رقابة، ثم يتم تصنيف الأفكـار، ويجـتمع الجمـيع لـتقويمها واختيار أوفقها، ويستحسن أن تتم كتابة كل فكرة في بطاقة مستقلة ويتم خلط البطاقات وإعادة توزيعها من أجل أن يضيف آخر علـى فكـرة الـبطاقة شـيئاً، وبذلك تنمو الأفكار، ويمكن عكس الأسلوب، بأن يتبنى الجمـيع محاولـة تجويـد فكـرة واحـدة معيـنة عن طريق مختلف طرق التجويد، من اسـتبدال بعـض أجـزائها بمـا يكـون أسهل أو أرخص أو أكثر قبولاً، ومن اشتراط شروط تعصم من الغلو أو التفريط.

وعلـى العموم فهذه الطرق تعني التوسع في التفكير الأفقي الذي يحاول اكتشاف أكـبر كمـية مـن الـبدائل، وليس مجرد التفكير الذي يحاول التعمق في بحث قضية واحدة عبر بديل واحد أو بدائل قليلة.

❑ ومـن الطـرق الإبداعـية : وضـع جـدول ذي حقل أفقي لعامل معين يحكم قضية معيـنة، وحقـل عمـودي لعامل آخر يتحكم بالقضية، فيتقاطع الحقلان، وتكون نقاط الـتقاطع الكثـيرة بدائـل فـي القضـية، أو يـتم رسـم graph بهـا، فتتضـح تقـلبات القضـــية ومسـيرتها وتاريخها، مما يجعل ابتكار تطويرها أسهل، وهذا هو الأسلوب العلمـي المشـهور فـي تلخـيص القضايا، وقد يكون الجدول أكثر تعقيداً عبر تعدد العوامل، فتكون البدائل أكثر عندئذ.

❑ ومـن الطـرق : الالـتفاف علـى المـألوف، أو علـى ما يظن به أنه من البديهيات والمسـلمات، فـيكون اللجـوء إلى معايير جديدة مثلاً أو شروط جديدة طالما أنها تحـقق الهـدف المـراد، بـدلاً مـن الاستئسـار لمعايـير معيـنة فترة طويلة، فيكون الهروب من القديم إلى الجديد حلاً.

❑ ومن الأساليب أيضاً : اختيار قضية معينة، وتمرير خمسين اصطلاح محدد المعنى عليها باختيار عشوائي، لنرى ما إذا كانت هناك علاقة لبعضها بالقضية، ومن خلال ذلك تتكشف لنا أفكار وبدائل ووجوه تطويرية للقضية، ربما.

❑ ومن الأساليب : النظر إلى القضية بعيون الآخرين، فينظر الداعية إلى قضايا الدعوة بعيون رجال الأحزاب المنافسة، ورجال المخابرات، والحاكم، والمراسل الصحفي الأجنبي، والجيل الصاعد، والجيل الهرم، ورجال الاستثمار الاقتصادي، مثلاً، في عشرة عيون أخرى، ومن خلال افتراضه لمواقفهم وأحاسيسهم تجاه الدعوة سيكتشف الكثير من الأفكار الإبداعية التطويرية.

❑ ومن الأساليب : محاولة التفصيل في تنفيذ قضية جديدة من بعد وضع وصفها الإجمالي بخطوط عريضة، وتحديد التفصيل عبر سيناريو دقيق يستعرض بدائل كثيرة للانتقاء منها.

❑ ومن مولدات الإبداع : الاستفزاز والإثارة، بأن يستفز رئيس مجموعة أصحابه بأسئلة محرجة وجريئة، من أجل أن يفوهوا بأجوبة فيها من التحدي ما يوازي نقل السؤال.

❑ ومن ذلك : الافتراض، بأن تسأل : ماذا لو حصل كذا، لأمر المعتاد، بحيث تتخيل حصول خلاف المقصود منه أو خلاف الغرض المخصص له، وبذلك تتوارد أفكار إبداعية عبر كثرة السؤال، تتضاعف بإثارة سؤال : كيف يمكن ذلك ؟ أو كيف سيكون رد الفعل، أو كيف يحقق الهدف ؟

❑ وحاول أن لا تكون مجرد ناقد للإبداع تستدرك على الآخرين وجوه إبداعهم وتتعود الرفض، بل أن تكون مستدركاً بإضافة بديل للفكرة المنقودة ورأي يوازيها ويخدمها أو يحسنها.

❑ وأعلم أن لغات إبداعك عديدة بعضها يرفد بعضا، فمن لغة الوصف، إلى البصريات ووسائل الإيضاح، إلى الإحصاء، إلى المنطق التحليلي التعليلي، وإلى الدغدغة العاطفية، إلى التنظير وكشف البعد الفلسفي، وكل ذلك مطلوب لاكتشافك جزيئة من الإبداع، ولدفاعك عنها، وترويجك لها.

❑ كذلك من الأساليب أُسلوب المراحل المتعاقبة، فتمر بالقضية على عشرة مفاصل : البدائل، الإضافات، التعديلات، التغييرات، التكبير، التضخيم، التصغير،

التخفيف، اكتشاف استخدامات أخرى، الحذف، القلب والمعاكسة، ثم إعادة الترتيب.

❑ **ومن طرق اصطياد الإبداع : أن تجعل للموضوع نقطة مركزية تكتبها على ورقة، ثم تستخرج خطوطاً مقوسة من هذا المركز كفروع يخصص كل قوس لمسألة تفصيلية، وربما فرعت على الفرع، ثم أربط بواسطة الأسهم بين المعاني المتقاربة أو ذات التأثير المتبادل، ويكون لقلمك جولات يميناً ويساراً وإلى أعلى وأسفل، مع استعمال الألوان والأشكال الهندسية والإشارات التصنيفية، فتتكون من كل ذلك خارطة مبسوطة بين يديك تعينك عبر تكرار النظر على تثبيت صورتها في ذهنك، وبذلك ستهجم الزيادات الإبداعية هجوماً أثناء راحتك ومشيك ونومك واستحمامك وتناول طعامك، فتضيف فرعاً، وتكشف علاقة، وتخترع اصطلاحاً، حتى يستوي الموضوع تاماً. وهذه هي طريقتي المفضلة، وعبرها دونت جميع كتب سلسلة إحياء فقه الدعوة والمحاضرات والخطط.**

فهذه خلاصة ثلاثين طريقة لتوليد الأفكار الإبداعية اقترحها د. علي في كتاب واحد من كتبه، وأوصاك أن تتقن تقويم الأفكار الإبداعية برؤية مدى فوائدها وإيجابياتها وتخمين تقبل الآخرين لها، وتجنب سلبياتها، وفحص مدى الواقعية فيها، ومقدار الإثارة، وقد سردتها لك ببعض التصرف وأضفت كلمات. وختم علي كتابه بالإشارة إلى ما عند بعض العلماء من أن التفكير ستة أنماط : محايد، وعاطفي، وسلبي، وإيجابي، وإبداعي، وموجه، ولكل نمط أو نوع صفات معينة وحقول اهتمام، فالمحايد يميل إلى تجميع المعلومات والإحصائيات دون تفسير لها أو استنتاج، كأنه كمبيوتر. والعاطفي يهتم بالمشاعر والجوانب الإنسانية والتخمين الجزافي، والسلبي متشائم رافض يركز على المشاكل والتجارب الفاشلة، مع تردد وإحجام. والإيجابي متفائل مقدام مستعد للتجريب متحين للفرص منطقي طموح. والمبدع مجدد مفتش عن البدائل ديدنه التطوير ويحلق في الخيال ويستهين بالمخاطر. والموجه منهجي أموره مرتبة يدخل إلى مركز الموضوع مباشرة ويلخص الآراء بمهارة ويوظف الحقائق بأسلوب منطقي، وليس إحلال نفسك المحل الأخير بسهل، إذ كل ميسر لما خلق له، وهي أقدار وزعت على الناس أنماط التفكير كما وزعت الأخلاق والطبائع، ولكن مع ذلك يمكنك التسديد والمقاربة وإجبار نفسك على حيازة ما يتوافق مع الهدف الدعوي والطبيعة الإيمانية من كل هذه الأنماط، لعلك تصل وتغنم النمط الشمولي أو نصفه أو ثلثه، والثلث كثير، وبه ستصول وتجول، وترفع وتخفض.

❑ وقد خرج د. الحمادي عبر كتابه (صناعة الإبداع) إلى تعيين صفات المبدع من بين الصفات الكثيرة لأصحاب الأنماط الستة الآنفة، فوجده واثقاً، مثابراً، متأملاً، لا يحب الروتين والخضوع لقواعد صارمة، وله قدرة على تحمل المسؤولية، وعلى المبادرة، وفهم دوافع الآخرين، كما أنه واسع الأفق، دائم التساؤل، ويتزن إذا انفعل، مع فطرة تحليلية استدلالية، وحب للتجريب، كما أنه ينافس ويتحدى، ويقاوم تدخل الآخرين في شأنه، ويميل إلى التجديد، مع حزم وإقدام وحب مخاطرة.

وخلاصة طريقك إلى صنعة الإبداع : أن تجمع أفكاراً كثيرة أولاً، ثم تقوم بغربلتها وإلغاء السيء منها، وأن لا تذهب في الإغراب بعيداً، وأن تصمم على المواصلة إذا أنكر عليك المقلدون : مع تركيز على الأشياء المثيرة، واخرج من أسر العادة، وفكر قبل النوم، وأمرح، وشاور، وإذا عزمت فتوكل على الله.

❑ وفي التشبيه والاستعارة استفزاز لكوامن الإبداع، ولا تحقرن من الأفكار صغيراً، وعلى أحلام اليقظة تعويل، والافتراض مصدر ثري، وأعن نفسك باللعب والراحة والسباحة، وأتخذ المبدعين أصدقاء، وأقرأ قصص الإبداع، وأهنأ بحياة إيمانية.

ومن الواجب أن نخرج بالإبداع من كونه مهمة فردية يخاطب بها الداعية، إلى مهمة مؤسسية تخاطب بها القيادة، بأن تعتبره القيادة مورداً رئيساً للتطوير، وبأن تثق بجميع إخوانها الدعاة أنهم أهل لانتظار الإبداع منهم، فسابق ومقتصد، وبأن توجه العملية الإبداعية وتعقد لها الجلسات الجماعية، مع توفير بيئة ثقافية تربوية ترفع من قيمة الإبداع وتروج له.

❑ ويتم تكميل هذا التوجه القيادي في ترويج الإبداع : بكبت معوقاته، باتخاذ تربية تغرس الثقة في نفوس الدعاة وتحارب إيحاءات الشعور بالنقص والضعف، والخوف من النقد، وهبوط الطموح، بل تعلمهم التحدي، واستثمار الأوقات بما ينفع، وشجاعة اعتناق الخواطر الواردة إذا شهد لها المنطق. وابتداء فإن المؤمن العفيف أقرب إلى أرض الإبداع بمائة مرة من فاسق منغمس في الشهوات يبذر أوقاته ويبقى ذهنه شارداً، وينبغي أن تقنع تربيتنا الدعاة بأن الإبداع ليس صنعة العباقرة فقط ولا الشباب فقط، ولا يحتكره الأغنياء دون فقراء، ولا الرجال دون النساء، ثم هو لا يحتاج مالاً، ولا جهداً استثنائياً، ولا ألماً ومعاناة.

وعلى المربي أن لا يزهد في إبداع تلامذته لمجرد تجربة فاشلة سجلت على أحدهم، أو ينسبهم إلى الفضول ويظن أن الإبداع صنعة القادة فقط، أو أن يستكبر فكرة يظنها أكبر من الجماعة، أو يستصغر أخرى يظنها أصغر من الجماعة، أو أن يستسهل تأجيل بحث الأفكار دون ضرورة، فإن كل ذلك قاتل للإبداع.

❑ ومن اجتهادات د. الحمادي في منهجية الإبداع : التركيز والابتعاد عن مسببات الإزعاج. والوضوح، بتحديد الموضوع والهدف لتتضح الوسيلة. والتقصي، بجمع المعلومات عن تاريخ الموضوع وواقعه الحالي والتجارب المشابهة. وتوليد الأفكار الإبداعية، باستعمال الطرق المذكورة سابقاً، مثل العصف الذهني، والتفكير بالمقلوب. والتنقية، بدمج بعض الأفكار، أو إلغاء بعضها عبر التدقيق وتضييق عامل الاغراب. ثم التقويم العلمي والعاطفي، ببحث إيجابيات الفكرة وسلبياتها ومدى إثارتها وواقعيتها، أو انتسابها إلى نمط معين من أنماط التفكير السبعة. ثم الاختيار لأقل البدائل كلفة وخطورة وأكثرها قبولاً لدى الناس. والتهذيب، بتزيين الفكرة وتبسيطها وخدمتها إعلامياً، والتسويق، باختيار الوقت المناسب وشرح مميزاتها. ثم الإنتاج أخيراً، بأن تعهد بالفكرة إلى رجال لتنفيذها.

❑ ثم تحول د. علي إلى استعراض آلية الإبداع التي اقترحها د. طارق سويدان، ومنهجية أخرى اقترحها د. نجيب الرفاعي، ولكني لا أرغب في اختصار رواية د. الحمادي لآرائهما، لوجودها في مظانها الأصلية.

وانعطف د. علي ثانية نحو الحديث عن المخ، الذي تبلغ خلاياه العصبية عشرة آلاف مليون خلية، لها مجسات عديدة ترتبط بواسطتها فيما بينها، فتتكون طرق كثيرة للارتباط والتفاعل، وعلى مقدار عدد هذه الطرق تكون درجة الذكاء، والمخ الأيمن يقوم بترتيب وإعداد الأعمال التالية : الخيال، الألوان، أحلام اليقظة، الأبعاد، الألحان، الأصوات. بينما يقوم المخ الأيسر بترتيب أعمال : المنطق، القوائم، الكلمات، الأرقام، الترتيب، التحليل.

ومن خصائص الذين يستعملون النصف الأيمن : تفضيل الشرح العملي، واستخدام الصور العقلية، ومعالجة المعلومات بطريقة كلية، وينتجون الأفكار بالحدس، وينشغلون في أكثر من عمل في وقت واحد، ويستطيعون الارتجال بسهولة، ويفضلون الأفكار العامة. بينما خصائص الذين يستعملون النصف الأيسر معاكسة، فهم يفضلون الشرح اللفظي، ويستخدمون اللغة، ويعالجون المعلومات

بالتتالي، وينتجون الأفكار بالمنطق، ويركزون على عمل واحد، ويفضلون التفاصيل.

❑ ومن الأهمية بمكان أن يقتنع المرء أن بإمكانه أن يكتسب مهارة الإبداع، وأنها ليست حكراً على نفر قليل من الناس، ولذلك يكون من المفيد استعراض بعض طرق تنمية الإبداع.

(1) الإبداع بالنقش المبكر، بتعليمه في سن الطفولة، ويشهد لهذا حديث كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه وينصرانه أو يمجسانه.

والأُسلوب التلقيني الشائع في تعليم الأطفال خطأ، والصواب أن ندع الطفل يتوسع في الخيال، حتى إذا كبروا : اصبحوا قادة الإبداع. ينبغي أن نساعد الطفل على التفكير الحر، والمناقشة، وعلى المعلم أن يطرح أسئلة تثير الاهتمام، وينتهج أُسلوب الجلسات المفتوحة، وقد ذهبت بعض المدارس مذهباً جريئاً في إقرار اختيار ما يريد الطفل أن يتعلم، ومتى يريده، مع توفير بدائل، في نظام تعليمي مرن، فكانت النتيجة : تفوق التلاميذ وتحليهم بثقة عالية، وكان من جملة الطريقة : تعليم الطفل الخيال الواسع، فيتخيل غرفته تتوسطها حديقة ذات نافورات، وباب المنزل على شكل عجلة قاطرة، وكتابه على هيئة كرة، وشمعة في قرص الشمس. وتساعد ذلك تمارين لفظية، مثل إيراد الطفل لأكبر مقدار من الأسئلة عن الغابات، وأسئلة عن الاستعمالات غير العادية لزجاجات المشروبات الغازية، وقائمة بكلمات تبدأ بحرف معين. **ويمكن لمجموع الدعاة أن يكسبوا المستقبل ويحققوا تفوقاً استراتيجياً عبر تنفيذ خطة سهلة لتنمية إبداع أطفالهم.**

❑ **أقول وطالما كانت التقارير تشير إلى نمو ضخم للجانب الإبداعي لهؤلاء الصغار، فإن الدعوة مطالبة بأن ترعى (مستقبل التربية الدعوية)، بأن تعتني منذ الآن بأبناء الدعاة وأبناء المؤمنين في مدارس إسلامية خاصة تنتهج منهج توسيع الخيال والتفكير الحر هذا، لينشأ جيل مبدع بعد عشرين سنة بخدم الدعوة خدمات مميزة ويرجح ميزانها في التنافس. ويجب أن نوقن بأن التربية الدعوية تبقى دون المستوى المطلوب مهما فعلت إذا لم تتضمن منهجيتها العناية بالداعية منذ أيام طفولته،** ولسنا نتألى على الله تعالى فنزعم أننا نضمن هذا الطفل أن يكون داعية منذ أيام طفولته، وإنما هي توفيقات ربانية، لكننا ننفذ ما يتفق مع الحدس الصحيح والنظر المنطقي السليم، فإن هؤلاء الأطفال ـ وبخاصة أبناء الدعاة والمؤمنين- إذا خضعوا لتربية إسلامية ذات توسيع للخيال وتفكير حر فإنهم مظنة

أن يكونوا دعاة إذا كبروا، ثم مبدعين، ونبذل الجهد تحت مظلة : عسى ولعل، مع تفاؤل يليق لهذا المقام، **ويجعل تعليم الأطفال صنعة الإبداع نقطة مميزة ظاهرة في منهجية تربيتنا الدعوية.**

(2) الإبداع بالأشكال : كطريقة ثانية، وهو أُسلوب يقوم على استخدام الأشكال والصور والرسوم المختلفة من أجل تنمية القدرة الخيالية، وهو أُسلوب معروف في التربية المدرسية بخاصة، ويمكن تطويره إلى تعليم التصاميم وتنمية المقدرة على وضعها.

(3) الإبداع بالمشاهدة : فإن الصور الغريبة ومشاهدة ما خلق الله تعالى من عجائب توسع المدارك الإبداعية بلا شك، وبخاصة إذا حاول المشاهد حل ما فيها من غموض وتعقيد، إذ أن ذلك يوسع الخيال، فيتحرك الجانب الأيمن من المخ.

(4) الإبداع بالألغاز : لأنها تنمي الخيال أيضاً ويضطر الشخص لتركيز تفكيره والخروج من النمطية.

(5) الإبداع بالقصة : إذ فيها تسلية وعظة، وسبب مساعدتها على الإبداع أن فيها من الأحداث والمواقف ما يحتاج القارئ إلى الربط بين عناصرها، ومع تحرك العاطفة والخيال وتحليل طبائع أشخاصها، ومن الممكن أن تتقاسم مجموعة طلاب الإبداع بطولة قصة وهمية ويترك لكل منه الحديث عن دوره في القصة، مثل مغامرة في غابة، أو يطلب من أحدهم اختراع قصة ويحاول البقية إضافة تفصيلات لها.

(6) الإبداع بالمعايشة : عبر الصحبة لأهل الإبداع والنظر إلى سلوكهم، ومحاورتهم.

(7) الإبداع بالخطابة : إذ أن الفكرة الإبداعية الكامنة تحتاج طلاقة لفظية من قبل صاحبها لإطلاقها والتعريف بها. وهنا تنفع المترادفات والثروة اللغوية ومعرفة الفروق الدقيقة بين معاني الألفاظ.

(8) الإبداع بالذاكرة : لأنه يربط بين الأحداث المختلفة الزمن، لذلك يليق لطالب الإبداع أن ينمي ذاكرته، بأن يذكر أحد أمامه مجموعة مشاهد ثم يطلب منه تذكرها بعدئذ.

والمخ الأيمن يقوم بتمييز الألوان والأفعال والأصوات والخيال، ولذلك فإن تخيل طالب الإبداع للأشياء دائماً يعينه على تنمية هذا الجانب من المخ وسرعة استرجاع ما خزن فيه.

كذلك ينفع إيجاد رابط بين الاسم وشيء ملموس لتتذكره بسرعة. وكذا ترتيب الأشياء وتنظيمها، وتنظيم الأوقات يعين جداً على تذكرها، وأيضاً تنفع دراسة المعادلات أو النصوص قبل النوم، إذ أن للمخ قدرة غريبة على ترسيخ معلومات ما قبل النوم أثناء النوم. ومن الواضح أن التطبيق العملي لكل شيء يطبعه في المخ، والهدوء والمنظر الجميل عوامل مساعدة على ذلك، وحصر الذهن في الموضوع يجعله منطبعاً فيه، ولذلك فإن الصلاة تساعد المبدع لأنها تدريب عملي في الخشوع وحصر الذهن في العبادة، والتكرار يضاعف الأثر. والبلاغة والجرس الموسيقي للكلام من عوامل حفظ واستيعاب النص أو الحدث، وإذا نسب الكلام إلى رجل مشهور أو عالم كان أرسخ في الذهن، كما أن سلامة الجسم وإشباع الرغبات تعينان المبدع، وكذا أن يتقصد الأوقات الجدية مثل بعد الفجر، وهدوء الليل، وأيام الربيع.

فهذه إشارات إلى الإبداع المنشود، برواية د. علي الحمادي عن جيل من مدربي الإبداع، أردناها أن تكون مثالاً فحسب، والداعية اللبيب ينحى هذا المنحى، إذ تبقى أرض الإبداع واسعة العرصات، وإنما قصدنا تثبيت التوجه الإبداعي كفقرة مهمة في منهجية التربية الدعوية، والداعية مؤهل أكثر من غيره لهذه الممارسة الإبداعية، إذ هو العفيف النظيف البريء الجاد، وغيره مستهلك في الدخان والخمر والمخدرات والزنا وإتباع الشهوات، وكفى بهذا الفارق عامل تفوق حاسم على المدى البعيد، كما أن قضية (الاجتهاد الفقهي) هي قضية إبداع أولاً وأخراً، بل هو ذروة الإبداع، لأن شعور المجتهد بالمسؤولية الأخروية وخضوعه لضغوط التقوى يجعلانه يحتاط حين اجتهاده أشد الاحتياط، فيعصر عقله عصراً لإيجاد مخرج من مشكلة معروضة، وكل داعية مسلم ينفعل بجزء من انفعالات المجتهد المفتي وإن لم يكن مجتهداً، إذ هو مهتم بأمر المسلمين، ولذلك تحرك المشكلة أحاسيسه، ثم يقف موقف الناقد لاجتهاد المجتهدين ويستمع لتقويمها من إخوانه الدعاة الآخرين، فيتولد من كل ذلك نوع من التأثر بالإبداع الاجتهادي، ومع تكرر الأيام وتكرر المشاكل والإفتاء : تتجمع هذه التأثرات فتكون كتلة من الأنماط الإبداعية ترتقي بالمستوى العام الفكري للداعية لا يملك مثلها المثقف العادي، فتكون عامل ترجيح آخر للدعاة بعد ذاك العامل الأخلاقي الأول.

وكل قصة الإبداع هذه إنما كانت الدرس العاشر الذي نستله من القياس على منهجية الفيزياء ومنهجية العلوم بعامة، وبها تكتمل العشارية الكاشفة لدربنا المستقبلي المستوحاة من عملية تطور الفيزياء.

❑ نسرق العلم ونوزعه

هنا ينشأ إشكال وسؤال :

هل أن هذه المغانم العلمية تحتم أن نجعل منهجنا الدراسي الدعوي موطناً لتدريس الفيزياء والعلوم ؟

ليس ذاك، ولكن ترويج العلم والفيزياء بخاصة له مدارج أُخرى في الحياة الدعوية، وليس من الصواب أن تشغل أوقات الاجتماعات الدعوية بدراسة علمية بحتة، بل ولا يمكننا ذلك حتى لو أردنا، وإنما هي وسائل أُخرى عديدة لنشر الثقافة العلمية في الأوساط الدعوية بقصد تحصيل إلقاءاتها في النفوس، وإثارتها للإبداع، وللنمط المنهجي والتخطيطي.

❑ في مقدمة ذلك : أن نوجد تياراً صناعياً إسلامياً يعتمد على العلم، وبذلك تحدث انعكاسات في النفوس من خلال الأداء، ولذلك قصة طويلة سنفرد لها فصلاً خاصاً.

❑ ومنها : ترويج المطالعة العلمية في الأوساط الدعوية، إذ يمتلك كل داعية شيئاً من الوقت الحر، يصرف بعضه للمطالعة الشرعية والفكرية، ويخصص شيئاً للعلوم التطبيقية، وقد تيسر ذلك بوجود كتب تبسيط العلوم والموسوعات المتنوعة.

❑ ومنها زيارة المتاحف العلمية والمختبرات ومراكز البحوث والمراصد الفلكية ما أمكن.

❑ والاختلاط بأهل العلم، مسلمهم وكافرهم، فإن الحماسة تدب في نفس المتعلم بلا شك.

❑ ومنها إقامة ندوات ومحاورات ودورات علمية في المحيط الدعوي بين آونة وأُخرى لعرض مستجدات العلم ونقد العلم بأنفاس إيمانية.

❑ وكذا إصدار مجلة علمية متخصصة بأنفاس إسلامية، وربما تتعاون الأقطار على إصدارها وتتحدث عن بقية خبر فيزياء الكم والإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وأشياء مقاربة.

❑ ومثلها : مشاهدة الأشرطة العلمية كجزء من دورات التطوير الدعوي، إذ هناك ألوف أشرطة الفيديو العلمي التي أنتجتها المؤسسات الغربية، وكثير منها مفيد ومبسط، ويتم تعاون في انتقاء هذه الأشرطة مع دعاة من أهل العلم يقيمون في الغرب. هذا إذا لم تبلغ الهمم المبلغ العالي الذي يستجيب لاقتراحنا لإقامة قناة ثقافية علمية فضائية عالمية إسلامية.

فكل ذلك من شأنه إيجاد توجه علمي فعال في الأوساط الدعوية، يعين بإذن الله على تربية جديدة، الدعوة بحاجة إلى أن تلمسها في دعاتها.

لكن يتطلب الأمر نوعاً من التوجيه القيادي المعنوي المستمر، ثم بعض التمويل المركزي للرحلات المنهجية العلمية، وربما يحتاج الأمر أن يبرز في كل قطر مركز إسلامي علمي متخصص يرعى هذه الخطة العلمية الدعوية ويروج لها ويستثمر العطاء العالمي الموجود الذي يؤذن لكل أحد أن يغترف منه، وسينتصب الداعية العالم رئيس هذا المركز منارة شامخة في قطره يعلم الناس أخباراً جديدة طريفة في منهجية التربية الدعوية.

وفي كل شأننا هذا ـ حين طلبنا من فيزياء الكم أن تجبرنا وتكفلنا ـ ما كنا واهمين، وإنما سلكنا مقتفين أثر حجاج علمي رصين أبدعه الأستاذ القدوة الهمام عبد الحليم خفاجي لما كان له ولإخوانه الأبرار " حوار مع الشيوعيين في أقبية السجون " نطقت حقائق الفيزياء خلاله فكشفت وهم الإلحاد. ۞

11

قد وضعتنا التحليلات الآنفة، وقادتنا مواكبة خطوات تطور الفيزياء، إلى التزام صارم بوجوب دفع الدعوة الإسلامية والدعاة إلى تبني فيزياء الكم وجعلها أحد الأركان الركينة في منهجية ترويج الإيمان وتربية الناس عليه، ولكن لأن فروع العلم المتنوعة مترابطة، فإن الأداء الفيزياوي لا يمكن أن ينفرد، إنما عليه الانسجام مع كل العلم، مما يرفع الدعوة ثانية إلى التزام خطوط العلم الشامل كلها بمقادير متفاوتة لكنها متناسبة مع حاجة حركة فيزياء الكم الصاعدة المتوغلة نحو الأمام، ويتأكد هذا المنحى الشمولي بعد الإعلان السياسي لمنظومة الجينات البشرية، فإن جانب الجهل في النفس الإنسانية يميل بها إلى الغرور والطيش فيكون وهم التخليق والتحدي للخالق، ولابد من كبح جماح النشوة عند السياسي الجاهل، والإعلامي المسترزق، والأمني التابع المقلد، بحيث نقسرهم على العودة إلى العقلانية التي يفرضها منطق العلم، وإيقافهم عند نقطة النهاية العلمية الفيزياوية التي صححت الوضع النشاز ورجعت بالإنسان الهارب الهائم إلى طريق الإيمان ووضعت قدمه ثانية ليبدأ أول خطوة في طريق الاستدراك بعد الشرود من نقطة التوحيد الذي هو منطلق البداية في عملية أوبة الآبق.

لكن العلم لا يمكن أن يبقى عائماً، فإن ذلك ظن المتطفل على العلم، العاري من فهم معاني المنهجية، أما الأصيل، فإنه يدرك تمام الإدراك أن ثبات العلم وتطوره ورواجه وتأثيره مرتبط كل الارتباط بتطبيقه وتمكينه من احتلال مكان في ساحة الحياة العملية، إذ عندئذ فقط تتعلق النفس البشرية به، وتجعله عقيدة لها من خلال التفاعل المتكرر عبر تعاقب الأيام لفترة من الزمن تطول أو تقصر بحسب المحفزات والظروف المساعدة الأخرى.

هذا التطبيق ليس قضية مختبرية، فإن الحقائق العلمية قد تجاوزت مرحلة الاختبار، لكن باستثمار الحقيقة العلمية صناعياً في إنتاج واسع تحتاجه عملية الاستهلاك البشري العام، ثم في إسالة هذه الحقائق العلمية أو المخترعات اجتماعياً، ليفهمها الناس كلهم، وليتجانسوا مع معطياتها، وليتدربوا عليها، وتكون ضمن أجزاء حياتهم العملية اليومية، في عمليتين متزامنتين، بينهما معادلة، يكون

التأثير فيها متبادلاً سائراً في الاتجاهين المتعاكسين معاً، وهذا ما تكفلت به منهجية العلم الغربية وأتقنته بإجادة تامة، ولأننا كدعاة نشكل ونمثل ونمارس عملية قيادة الأمة الإسلامية بدرجة ثانية بعد الحكومات ومؤسساتها، فإنه يمكننا أن نحشر أنفسنا على هامش منهجية التطبيق الصناعي العالمية للعلوم وعلى هامش منهجية إسالة العلم اجتماعياً، لتحملنا هاتان المنهجيتان معاً، وبالمجان تقريباً، إلى حالة المساهمة فيهما، عبر المؤسسات العالمية العلمية والصناعية والمالية، من جامعات ومراكز بحث ومصانع وشركات وبنوك وبورصات وإعلام علمي وإعلام سياسي، ويذلك نكون كجزء من الحياة العالمية العامة، لكن بالشخصية الإسلامية المتميزة، وبعقيدة التوحيد، وبالعفاف والنمط الشريف، وبهوية فيها استقلال واندماج معاً، وبمنطق يشدد على العقلانية، وبنظرات معنوية تستند إلى حقيقة تكون النفس الإنسانية من خير وشر في الآن الواحد وبشكل دائم، بحيث نقدم أنفسنا طلاب خير، نعمل لتنميته، عبر تزكية روحية، تكبت الشر وتقلل دوائر تأثيره. والمظنون أن المؤسسات الغربية مازالت مفتوحة الأبواب لمثل هذه المشاركة التي تعتبرها تسويقاً لرؤاها ومنهجيتها وليست سرقة أو تطفلاً أو تجسساً، وإذا ضاقت أبواب الغرب فربما تكون هناك سعة في الامتداد العالمي، فنرث شيئاً مما في روسيا وبقايا الاتحاد السوفييتي، وشيئاً في الصين واليابان وأستراليا، وشيئاً في الهند ربما، بل أن تجانسنا مع خطوات أولية مورست بنجاح في تركيا والباكستان وماليزيا يجعل دخولنا إلى هذا العالم العلمي الصناعي دخولاً طبيعياً تتوفر فيه عوامل التدرج والبعد عن مخاطر القفز، كما تعتبر مشاركات المسلمين المتجنسين بالجنسيات الغربية ومشاركات أبناء الجاليات الإسلامية فيها عاملاً مهماً من عوامل تقليل الفارق واختصار الطريق والاندفاع مباشرة نحو احتلال مكان متقدم في الصف الثاني كمرحلة أولى، ثم في الصف الأول بإذن الله إذا لم يصدم متشائمو الدعاة ورجعيوهم طموح الرهط المتوغل المنتفض المصمم على صدارة الحياة، ولا شك أن عملية استبشارية ضخمة كهذه تريد البرهنة على وجود جيل مسلم يتحلى بروح الاستعمار الإيماني للأرض كما نطق القرآن، وترغب في الإدلاء بشهادتها الفصيحة في قضية منهجية التربية الدعوية الإسلامية، هي عملية أعقد من أن يجتهد فيها أفراد، أو أن تديرها القيادة السياسية للدعوة، **وإنما يكون أبعد صور الإحسان القيادي أن يتم تفهم ذلك، ويؤذن للجيل العلمي بالتحرك وفق هذا التصور المنهجي، ثم توكل اليوميات إلى غرفة سيطرة عالمية على رأسها داعية عالم متعمق عرف صناعة الحياة وقوانين حركتها**، وعن يمينه زاهد من أصحاب الملايين، كلما نطق العالم الرأس المقدم قال له : صدقت. وحرك يده.

❑ الخطوات

والطريق العملي إلى هذه المشاركة يمر عبر توحيد مجموعتين من الدعاة، **فالدعوة تملك بحمد الله، على الامتداد العالمي، جيلاً من علماء الفيزياء والكيمياء والرياضيات التطبيقية**، وبعضهم يحتل أرفع المناصب في الجامعات ومراكز البحث والمؤسسات العلمية، ولهم خبرة عملية، ويردفهم جيل واسع من المهندسين في مختلف فروع الهندسة، قد يصل عددهم إلى مائة ضعف عدد العلماء أُولئك.

هذا يعني أن المادة الأساسية للمشروع العلمي الإسلامي العالمي موجودة، وأن النقص هو نقص تخطيطي في استثمار الطاقات المعطلة.

ومن ناحية أخرى : شهدت السنوات الأخيرة نمو جيل دعوي تجاري صناعي زراعي، وجد له موضع قدم في الأسواق، وحاز بعض المال، واكتشف بعض أسرار صراع النفوذ وخلفيات مراكز القوة وتنافس العوائل الكبيرة والأحزاب على حكم المجتمعات والتأثير في القرار، لكن هذا الجيل الدعوي لم يتوسع إلى الحد الذي فيه الكفاية، ولابد من تعريض طبقة رجال الأعمال الدعاة وتضخيم حجمها ليوازي التكتلات المنافسة الأُخرى.

وبهذا التقرير تصبح الخطوة الأُولى في المشروع العلمي الجبار واضحة : أن يصدر قرار بحصر وإحصاء المجموعتين، ثم قرار توحيدهما معاً ومزجهما وتلاحمهما وتعاونهما تحت مظلة المشروع العلمي لتكوين قاعدة صناعية بأيدي متوضئة قوامها مئات المشاريع الصناعية الصغيرة المملوكة للدعاة أنفسهم وليس للدعوة، مع ما يوازيها من مشاريع خدمية، وبها يتحول العلم المجرد عبر المال إلى آلة ومنتوج يفرضان نفسيهما في السوق الاستهلاكي والخدمي، ويكون تكوين هذا التيار الصناعي الموحد عن طريق الاستفادة من معطيات طرائق الإبداع الإداري ومشاركة مراكز التدريب الإسلامية، مع الأخذ بنظر الاعتبار وجوب التفلت من التفوق الذي تملكه الشركات العابرة للقارات المستفيدة من العولمة في جانب مقدرتها على إرخاص التكاليف وتقديم المنتوج المنافس، ويكون هذا التملص بالوقاية واختيار ما لم تسيطر عليه هذه الشركات العملاقة بعد أو مما لا يكون لها سهلاً ، وفي ذلك تفصيل ليس هذا محله.

إذا حصل هذا الالتحام النووي فإنه سيكون هو الخطوة الأُولى، وهو الخطوة الأخيرة أيضاً، إذ ليس بعد لحظة الانفجار العظيم غير التعمق والتوسع وتكوين الكواكب والأقمار.

ووفقاً لهذا المفهوم، وبمطالعة الطبيعة التخطيطية والمقدرة الكامنة فيها على جعل القليل كثيراً، والضعيف قوياً، فإن أقطاراً صغيرة في التصنيف الدعوي، مثل الكويت والإمارات وحتى سريلانكا : يمكنها أن تؤدي دوراً مؤثراً فاعلاً في المشروع العلمي الصناعي الإسلامي العالمي عبر عالمية الأثر التربوي تبعاً لعالمية المنهجية التربوية، من خلال التوكل ببعض واجباته والتكفل بالقيام بها، وتقديم علماء أو ممولين، وخبرة تخصصية، ومعطيات مؤسسية، وإحلال تجانس بين إبداع محلي محدود لديها وإمكانيات عالمية في توظيفه واستثماره، أو انتصابها كمفاصل تنسيقية، وكأسواق استهلاكية أو تصريفية عبر إعادة التصدير، وأقل ما تستطيعه هذه الأقطار الردف الإعلامي المعنوي، والمساهمة في إتقان العملية التخطيطية، وإقرار فلسفة هذا التحرك، تقريباً للقرار من حيازة صفة الإجماع عليه.

❑ تحالف سواد المسلمين

لكن المشروع إذا انحصر في خطوة واحدة، فإن تضخيمه وتوسيع عدد المشاركين فيه سيكون هو موضع التطوير والخطوات اللاحقة، والمظنون أنه إذا استقر في عالم الواقع كحقيقة فإن أمامه فرصة ليتوسع إلى مائة ضعف حجمه الأول.

كلام أشبه بالجزاف واللغو، لكنك إن صبرت معي أحلل لك موازين الإسلام وحركة الحياة لآمنت !!

أريدك أن تلحظ معي اللمسة الحضارية التي جاء بها الإسلام في فهم معنى الاستعمار الإيماني للأرض والدور البشري في ذلك.

ففي الحديث الصحيح عند البخاري أن النبي ﷺ قال : **(ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة).**
قال ابن حجر: (قال الطيبي : نكّر مسلماً، وأوقعه في سياق النفي، وزاد "من" الاستغراقية، وعم الحيوان، ليدل على سبيل الكناية على **أن أي مسلم كان،** حراً

أو عبداً، **مطيعاً، أو عاصياً** : يعمل أي عمل من المباح، ينتفع بما عمله أي حيوان كان : يرجع نفعه إليه ويثاب عليه)[1].

فاللمسة الحضارية هنا لمستان : النظر الرفيق إلى الحيوان والطير، والنظر التشجيعي لكل مسلم حتى لو كان فاسقا ، تبعاً للتعميم والإطلاق، كما شرح الطيبي.

فالإسلام يحث المسلم الفاسق أيضاً على الغرس، وهنا تكمن اللمسة الحضارية الأهم، وينتصب ذلك كميزان شرعي في صناعة الحياة، وليس هو المسلم المؤمن الكامل الأوصاف فقط.

ثم تعال معي : إن كان ذلك هو الحق، فهل هو الغرس لشجرة فقط ليؤجر؟ **أليست الآلة المنتجة حكمها مماثل أو دورها آكد ونجدتها للبشر والحيوان أبعد ؟** أو المادة الكيماوية أو الدوائية، أليس إنتاجها يسير في النفع على نفس المسار؟ لذلك أوردت الأحاديث الشريفة نماذج أخرى للإحسان الجالب للأجر، من حفر بئر، نزولاً إلى إماطة أذى عن طريق، ثم توسع الفقهاء في تصوير الإحسان، وأثبتوا لبناء القناطر وبناء المدارس والمستشفيات مثل ذاك الأجر حتى لو لم تكن موقوفة، فإذا أراد الفقه المعاصر أن يتوسع في التمثيل فيلحق إنشاء المعامل الصناعية بخط الثواب أفيكون في الأمر غرابة ؟؟ والشيخ القرضاوي هو أبو الفتوى.

من هنا يتبين أن المشروع العلمي الصناعي الإسلامي إذا ثبت نفسه في المرحلة الأولى بأيادي الدعاة الكمل، فإنه مطالب بالاقتراب من كل مسلم عالم ببعض العلم التطبيقي أو رجل مال، وحثهما على عمل مثيل متجانس مع المشروع الدعوي ومتكامل معه، حتى ولو كان فيهما بعض الفسوق الذي تفصح عنه الإفتاءات الشرعية، من ترك صلاة، أو سفور زوجة وبنات، أو شرب خمر، أو لوثة ربا، ما دام يؤمن بالله ورسوله ويوالي مصالح الإسلام والمسلمين، وهذه النماذج كثير عددها جداً، ولذلك لم استبعد أن يكون التوسع إلى مائة ضعف، **وقضية فسوقهم بينهم وبين الله، ونعظهم بالرفق، ولنا وللدعوة وللأمة فوائد معاملهم وصناعاتهم**، وهم مالكوها، ويرفلون بأرباحها، ليس من داع لاجفالهم بعرض مشروع معمل ضخم يساهمون فيه، أو بوقفها أو وقف بعضها، لكن فوائد وجودها لنا.

---

(1) فتح الباري 401/5.

لكن هذا التحول لا يمكن أن يتم ما لم تضع تربيتنا الدعوية في منهجيتها تسويغ التعاون مع هذه العناصر العاصية، ذلك أن النمط الوعظي في مناهجنا، الواصف لدرجات الفضل العالية قد ولد فينا حساسية شديدة تجاه أصحاب النقص والعيوب والعصيان، وتلبسنا بنوع ترفع يضادد نمط الإصلاح المفترض في الداعية، وكان الفقهاء يقولون بأن الداعية مثل طبيب يصبر على المعالجة، ومثل منتشل لساقط في هوة يمد يده إليه لينقذه، لكننا أصبحنا نجفل من الفساق، وتطيب نفوسنا عند لقاء أمثالنا من أهل العفاف، حتى انغلقنا على مجتمع خاص بنا صغير وتركنا المجتمع العام يموج بعضه في بعض ويوجهه علماني وفاجر ورجل هزل ولهو، في وقت تشير فيه مراقبة حركة الحياة إلى أن معظم الناس هم من أصحاب النقص، وأن أصحاب الدين المتين والالتزام الصارم قلة، كإبل مائة لا تجد فيها إلا راحلة واحدة، **ومن هنا فإن التربية الدعوية الحاضرة مكلفة أن تضع في منهجيتها ترويض الدعاة وإنزالهم من علياء المثاليات إلى مخالطة الناس، وعندئذ سنكتشف في كل بلد ألوف رجال خلص من أصحاب العلم التطبيقي أو المال، يتحسرون مثل حسرتنا على أوضاع الأمة، لكنهم لا يعرفون التخطيط ولا قيادة أنفسهم، فنقدم لهم أنفسنا قادة، ونقدم لهم خطتنا**، لنمشي معاً وإن صرعتهم الشهوات، لأن الفحص ينبي عن عدم وجود شبهات، لكنها الغفلة وضغوط الحياة الاجتماعية والتقليد وآثار التربية التلفزيونية والمدرسية.

الأمر مثيل لواجب التربية الدعوية المعاصرة في كسر الاستقلالية الحادة التي سيطرت على نفوس الدعاة في العمل السياسي فلم يعودوا يتقبلون التعامل مع الحليف، ذلك أن الوضوح الإسلامي وصرامة حدود الحلال والحرام وبراءتنا في زمن التلوث : جعل الدعوة تختار الاستقلال في عملها، وصية من الإمام حسن البنا رحمه الله، وساعدت أوصاف سيد قطب رحمه الله للمفاصلة والاستعلاء على مبالغة الدعاة في الانتحاء والعزلة، فلما بدرت الحاجة في بعض البلاد لدخول أحلاف : فشل الدعاة في التعامل مع الحليف، وافتقدوا المرونة اللازمة لأنماط التعامل السياسي معه، التي تحكمها قوانين المصالح، وسد الذرائع، وغض النظر، والتجاوز، والتسهيل، والعطاء بموازاة الأخذ.

وهذا المثل السياسي وإن حشر نفسه في السياق بعفوية، إلا أنه جاء على قدر، **إذ لابد للمشروع العلمي الصناعي من وجه سياسي يحميه ويحفظ حقوقه ومصالحه في صورة ممارسة سياسية دعوية دائمة** لا ترضى بالانزواء والتواري، لأن مثل هذه الممارسة هي التي تقيم العلاقات، وبها تتضح الحقوق الدستورية وحقوق

الإنسـان، وتجلـب نصـرة المثـيل والأطـراف الأُخـرى، وتفرز عملاً دعائياً إعلامياً بخشـاه الخصم والمنافس، ويوجد قاعدة وعي لدى الجمهور المؤيد يحركه للضغط لصـالحنا، فـتكون كـتلة هـذه المعطـيات ضـرورية للحفـاظ علـى المشروع ولنموه وتطويره نوعياً.

بمعـنى آخـر : أنـنا لإنجاح صناعتنا نحتاج إلى غطاء سياسي يحميها، ويكون ذلـك عـبر عقد تحالفات مرحلية مع بعض الساسة الذين هم أطهر من غيرهم وأقرب لـنا، وكذلك برفع شعار سياسي مرحلي نرشح فيه أنفسنا بأن نكون شركاء في القرار السياسـي فـي كـل دولة يكون عملنا الدعوي فيها قد توسع بكفاية، من دون التخلي عن الهدف الأمثل الذي نسعى إليه في إقامة حكومات إسلامية .

وأمـا علـى صـعيد السياسة العالمية ودورنا في كسر حدة الغرور الأمريكي فإني أرى أن الـتاريخ قـد أعـاد نفسـه، ودار الـزمان كما كان قبل قرن كامل، **وأن علينا إحـياء نظرية السلطان عبد الحميد في تحالف الدولة العثمانية مع ألمانيا، وقد أتم ذلـك، ومـع الـيابان**، وقد سعى لذلك وعاكسته الأحداث، والآن تنضم الصين كقوة كـبرى لهـا مسـتقبل مؤثـر، ومـن اللائق أن نطرح على ساسة الأُمة الإسلامية أفكار الـتحالف مع ألمانيا وفرنسا بخاصة، وعموم الاتحاد الأوربي، ثم مع اليابان والصين وجـنوب شـرق آسـيا، وأن نـدع لجانـنا السياسية ومراكزنا البحثية تصوغ المشروع مفصـلاً مشـروحاً مؤيـداً بالمنطق والبرهان، للتفلّت من التفرد الأمريكي، وسيساهم ذلـك إلـى حد كبير في حماية توجهنا الصناعي ضمن التوجه الصناعي العام الذي تريد الأُمة الإسلامية أن تستدرك على ضعفها بواسطته .

❑ لماذا هذا التحول؟

ومـن درج مـن الدعـاة موعوظـاً، وفهـم مـن نفسه أنه هو والدعاة إخوانه حمائم مسجد : سيستغرب هذه الحماسة في تحوير الأداء الدعوي إلى أداء علمي صناعي سياسي، ويظن ذلك تعطيلاً للدور الفكري التربوي للدعوة الإسلامية.

وفـي ظـن هـؤلاء صـواب وخطأ معاً، فالمشروع فيه تحول وتحوير للأداء، لكن الخـط الفكـري يـبقى وسـيلة لا لتحقـيق هويتـنا الإسـلامية فقـط، بل لقيادة التوجه العلمـي الصـناعي السياسـي واسـتنباط تفاصـيله، سـواء كفكـر فـي جانـبه الشرعي الإيمانـي، أو فكـر يسـتنطق الـتاريخ والأدب وعلـوم الاقتصاد والسياسة والاجتماع، ليسـتخلص من كل ذلك رؤية شمولية للوصف الحضاري الإسلامي على نمط مقارب

للرؤى الفلسفية التحليلية، بحيث لا تحكم مشروعنا الجبار نظرات جزئية أو ارتجالية أو وقتية أو محلية، وإنما توصف له أبعاد استراتيجية عريضة، مع تبيين عللها والمنطق الموجب لها، وفي هذا ما يوضح جلياً **أن مشروعنا وإن كان يتخذ الفيزياء أساساً ويجسد معطياتها عبر فن هندسي صناعي، إلا أنه محتاج إلى الارتكاز المتكافئ على جميع العلوم التطبيقية والإنسانية في عملية تكاملية**، وليس بصحيح ما يظن المستعجل وغير الخبير من أن الولع الذي أبديناه بفيزياء الكم يعني التنكر لبقية العلوم وتجاوزها، وقد فرغت الفلسفة واستقراءات عمليات التمدن من تقرير وحدة العلوم منذ زمن بعيد، ولا يصح النظر الجزئي أبداً.

لكن الفكر لا حدود له، والمفكر في نهم دائماً، وتلك صفة في الطبيعة البشرية ملحوظة، وما يزال الإغراء يجذب صاحب الفكر إلى مزيد توغل حتى يجد نفسه غارقاً في الفكر والتأملات والافتراضات إلى حد يخل بالأداء العملي للمفكر، فيبدأ البعد عن الواقعية، ويكون الفصام مع الطائفة الأخرى العارية من الفكر بدل أن يتصافحا ويقدم الفكر نفسه ويرشح رؤاه لقيادة العمليين الذين تضغط عليهم الضرورات ومحدودية الأدوات والوسائل.

هذه الحالة الفردية للمفكر يمكن أن تكون جماعية، بأن تتوغل الجماعة في الفكر توغلاً عميقاً، وتستزيد منه على حساب الأداء العملي، فيكون الترهل الفكري، وفرعه الترهل التربوي، كناتجين للإفراط الزائد والسير غير المتكافئ، وهذا أمر مكروه في الجماعات والمجتمعات مع ما فيه من لذة للمفكر الفرد.

سبب الكراهة أن لهذا النمط من التفكير الزائد إيحاءات نفسية خفية تتسرب تباعاً في عملية بطيئة جداً، لكنها تتعاظم على المدى الزمني الممتد، لتؤثر في التكوين النفسي للجماعة، بحيث تميل في اللاشعور إلى المبالغة في السلم، واللين، والرفق، حتى تكون هي الطبيعة الغالبة، فإذا غزاها ظلم من بعد ذلك تكون بطيئة الرفض، متثاقلة في الانتفاض والتمرد والثورة، أقرب إلى الاستخذاء والتأول.

لذلك لابد من قطع منابت هذه الأحاسيس السلبية في الجماعة، وبخاصة أننا في عصر العولمة التي تسحق الضعيف، وعصر تبني هذه العولمة للقضية اليهودية وفرضها لتربية التطبيع، **وقطع هذه الأحاسيس السلبية لا يكون إلا بالممارسة الصناعية المعتمدة على العلم، لأن في الحركة الهندسية المصاحبة للعملية الصناعية إيحاءات إيجابية متنوعة تحفظ طبيعة العنفوان في النفس البشرية، وفي عامل السرعة المصاحب للتصنيع ودوران دواليب الحديد الثقيل أنواع من الإيحاء**

بالصرامة المضادة لإيحاء اللين، وإيحاء باستيفاء الحق المضاد للرفق، وتكون شخصية العلمي الصناعي الهندسي أقرب إلى المغالبة والتحدي والقتال، مع نمط تنظيمي دقيق، لدقة المنظومات الهندسية التي تعتمدها الصناعة والإيحاء المترسب عبر مراقبتها والامتزاج العاطفي بها لمن يطول دهره معها، ثم مع نمط إبداعي تجديدي، لاحتياج الصناعة إلى التطوير الدائم وحصول ذلك عبر التمرد على النمطية المستمرة.

لمثل هذه الظواهر التي يستقرؤها الفاحص لقصص الحضارات والتمدن يصبح من اللازم في هذا الزمن المعقد الذي لا يرحم أحد فيه الضعيف أن تطور التربية الدعوية وسيلتها في حفظ الروح الجهادية للجماعة وللأمة معاً، إذا ما عادت التربية التلقينية تكفي، ولا التأجيج العاطفي وسرد القصص والأشعار، بل لابد من مجاراة الأحداث، والتحول بالجماعة إلى تنفيذ المشروع العلمي الصناعي التجاري، لتتاح فرصة الترسب النامي للمعاني الإيجابية وتصاعدها إلى درجة التأثير السياسي بالسلم إذا أُتيح ذلك، أو التأثير الجهادي بالقوة والدفاع إذا منع الظالمون باب السلم، وهذا يعني اتخاذنا العملية العلمية الصناعية كمنهج لتربية الجماعة والأمة على المعاني الإيجابية، وبذلك يغدو المشروع العلمي الصناعي فقرة بارزة في منهجية التربية الدعوية، مدعومة بعطاء معان إيجابية أخرى تولدها الممارسة السياسية الحامية للمشروع العلمي الصناعي.

ومما نادى به الإمام البنا رحمه الله : (التحوّل إلى الصناعة فوراً، فحرام على أُمة تقرأ كتاب الله من الثناء على داود عليه السلام : " وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ "، ثم لا يكون فيها مسبك عظيم، ولا مصنع كامل للأدوات المعدنية) [1].

نعم، هو يخاطب الحكومات بذلك، ولكن ألا نعظ أنفسنا بهذه الموعظة أيضاً ونحن أتباعه ؟

وهذا القول يكشف عن أصالة هذا التوجه الصناعي في فقه الدعوة، وإنما أنا أُحييه فقط ولا ابتدعه.

والموضوع يزداد وضوحاً إذا رجعنا ثانية إلى تحليل الحديث الصحيح الذي اعتبرناه لمسة حضارية إسلامية مهمة، وهو قوله ﷺ : (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة).

---

(1) رسالة النظام الاقتصادي للإمام ضمن مجموعة الرسائل / 258 لكن نقلته عن الفكر السياسي لإبراهيم غانم.

قال ابن حجر: (قال ابن المنير: أشار البخاري إلى إباحة الزرع وأن من نهى عنه ـ كما ورد عن عمر ـ فمحله ما إذا شغل الحرث عن الحرب ونحوه من الأمور المطلوبة، وعلى ذلك يحمل حديث أبي أمامة المذكور في الباب الذي بعده)، أي لما رأى شيئاً من آلة الحرث فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل.

قال ابن حجر مستطرداً في شرح الحديث الأول: (وفي الحديث فضل الغرس والزرع والحض على عمارة الأرض. ويستنبط منه اتخاذ الضيعة والقيام عليها. وفيه فساد قول من أنكر ذلك من المتزهدة، وحمل ما ورد من التنفير عن ذلك على ما إذا شغل عن أمر الدين).

قال: (وعن الداودي: هذا لمن يقرب من العدو، فإنه إذا اشتغل بالحرث لا يشتغل بالفروسية، فيتأسد عليه العدو. فحقهم أن يشتغلوا بالفروسية، وعلى غيرهم إمدادهم بما يحتاجون إليه)[2].

وهو توجيه حسن، واستثماراً لهذا الكلام يمكننا وضع قاعدة عامة: أن الزراعة والتجارة حلال بيّن، لكن لأن من شأن الإنسان الاستزادة، ومن طبع النفس الغفلة، فإن من يمارسهما مدعو للتبرع ببعض موارده وأرباحه بالمقدار الذي تتقن به جماعة من المسلمين فن الفروسية وتقوم بالجهاد وإبقاء معناه حياً، وإذا كان المسلم العامي لا يفقه مثل هذا التقعيد، فإن الدعاة أحرى أن يفهموه ويجتثوا عرق الطمع من أعماق نفوسهم ويفرضوا على أموالهم نسبة مكافئة لعملية الجهاد، ليخرجوا من الخلاف والشبهة إلى الحل والفضل.

وبخاصة أن وضع العولمة جعل الأُمة الإسلامية كلها منكشفة وينطبق عليها قول الداودي في أنها قريبة من العدو ويجب أن تشتغل بالفروسية، ونظرة إلى حرب الخليج وآثارها تشهد بذلك.

لكن هذه الملاحظة النبوية الكريمة هي من جملة الرصد الإسلامي لحركة الحياة.

(2) فتح الباري 402/401/5.

قال ابن حجر عن ابن التين شارح البخاري :

(هـذا مـن إخـباره ﷺ بالمغيـبات، لأن المشاهد الآن أن أكثر الظلم إنما هو على أهل الحرث)(3).

فهـذه ظاهـرة حـيوية رصـدها النبـي ﷺ والفقهـاء مـن بعده : أن الأُمة الزراعية مستضـعفة تستأسد عليها أُمم الصناعة، وأن في تعاهد الزرع استرخاء نفسي معنوي يضـاد متطلـبات الجهاد، فيترسب ذلك عبر الزمن وتعاقب الأجيال، حتى ينغلق أمر أُمـة الـزراعة علـى الإسـتكانة وروح المسالمة والتنازل عن الحقوق، فتتحرك أطماع أُمـم الصـناعة والـتجارة، بما عندها من محركات نفسية، تدفع إلى الطموح والغلبة علـى الأسـواق وضـمان الغـذاء مـن نـتاج الـأمم الزراعـية، فتكون الحرب القصيرة الآجـل، لانعـدام الـتكافؤ، ويكون استخذاء الضعيف المزارع، كالذي كان من خبر الاسـتعمار، وهـذه اللمحـة هي جزء من مسلسل الحركة الذاتية الطبيعية الاستطرادية للحـياة حيـن تسـيرها العفوية تبعاً لمحصلات القوى ومعادلات الفيزياء، ليس إلا، **والـنظر التخطيطـي الاسـتراتيجي بالعيـن الثاقـبة الدارسـة لتقلبات التاريخ هو وحده الـذي يسـتدرك اسـتدراكاً مـبكراً فيعصم من إيحاءات السلم الزراعية بممارسة الفن الصـناعي والـتجاري، وعندي أن الأمم إذا مالت إلى الفكر المحض وتضخم جانبه فـيها فـإن الترهل الفكري آنذاك يوحي بإيحاء السلم أيضاً، وتكون النتيجة مماثلة، ولذلـك فـإن الدعوة الإسلامية يمكن أن تزداد شهيتها الفكرية والتربوية على حساب خططهـا التطبيقية وممارستها التجارية والصناعية، فتجنح للسلم إذ السـاحة يملكها القـوي، فتستضـعف وتصـيبها المحـن المـتلاحقة. لذلـك فإن العمل التجاري الذي أدعو إليه وأحلّيه للدعاة، وما يردف ذلك من صناعة ومواكبة للعلوم التطبيقية وربط اكتشـافاتها بخطـة التمدن والتطور ونقل نتائجها إلى المحيط الدعوي : هو الكفيل بـبقاء الدعـوة الإسـلامية قوية في ساحة الأقوياء، وهو الذي يمنحها موضع قدم في عرصـة الحـياة، وإلا فإنهـا تؤكـل، وتستضـعف، وتغـزى، و تستأصَـل، ولهـذا فـإن مفهومـي لمنهجـية التربية الدعوية : أن تتبنى خطتنا التربوية الدعوية إحداث وتربية جـيل عريض من الدعاة التجار والصناعيين، وجيل آخر من علماء الفيزياء والعلوم التطبيقية يتولون إسالة الحقائق العلمية ووضعها في الاستخدام الدعوي عبر الطرائق المدنـية الحضـارية المتسـارعة فـي تطورهـا ونضوجها واختراعها، واعتبار ذلك هو الجـزء الأهـم فـي خطـة الأمن الدعوي الاستراتيجي وأحدّ أسلحة البقاء في معركة الحـياة فـي أيـام العولمـة، وهذا ما يجعل الترويج الصناعي التجاري العلمي معلماً**

---

(3) فتح الباري 402/5.

بارزاً من معالم منهجية التربية الدعوية المعاصرة الرانية إلى ضمان التأثير في المستقبل، وأي استمرار في خط الدروشة المجردة سيكون انتحاراً بطيئاً تشطب الدعوة بها على نفسها عبر ترويض بطيء يتثاقل بالدعاة إلى الأرض في زمن خطر تريد أميركا أن تنفرد فيه بالقرار وتحتكر حق التوكل عن الإنسانية كلها، ثم في زمن ماكر يريد اليهود فيه تدجين الجيل الإسلامي عبر التطبيع، وجسامة الخطر لا توازيها إلا انتفاضة دعوية مدنية حضارية : العلم، والمال، والآلة : أسلحتها الثلاثة العاصمة، ويكون أدب الحث معيناً، والتربية المعنوية مديمة، وأما مجرد التربية بمعناها القديم الأول فما عادت تكافئ الوضع التفوقي الحاضر لتيار الكفر والفسوق والعصيان.

ولا يتجه هنا قول من يقول أن الفكر هو قائد الحرية ونفضات التحدي، فإن ذلك صحيح جداً في حالته الوسطى، وقد دأبنا خلال عرض فقه الدعوة على حث الدعاة على التزام الفكر، والإبداع فيه بالاجتهاد، ولكن الشيء إذا زاد عن حده فرضت الزيادة ضريبة، والكلام هنا عن إفراط في الفكر واكتيال كثير من دون موازنة مع الجانب العملي، فيتولد الاسترخاء والتثاقل والكسل ودغدغة الحاجات بلذة الفكر ونشوة تجديد صياغاته وتكرارها، فتتولد حالة الترهل الفكري، وهي التي نعيبها لا أصل الفكر، وتتضاعف مراحل الترهل في أعقاب الهزائم وأيام اليأس بخاصة، لأن المفكر يجد سلوته عن الحزن في الفكر، ويستروح به، فيثاقل إلى الأرض مع مرور الأيام، وهذا ما نخاف أن يحدث في ديار دعوة الإسلام بعد هيمنة العولمة و خطة السلام اليهودي، والظروف اليوم مؤهلة لحصول ترهل مرهق، وليس الاحتياط غير هذا التوجه العلمي الصناعي الذي يبقي جذوات النفوس متقدة ويوقظ الكوامن الإيجابية ويذكيها ويطورها عبر الانفعال الروحي المعنوي اليومي بالمنهجية الفيزياوية وتعميق المعرفة بمنظومة أنواع المادة وخصائصها وتصاعدها الألكتروني، ومنظومة الطاقات والطبائع الفوتونية، ثم منظومة الهندسة التنفيذية بأنماطها الكثيرة المتجددة التي لا حصر لعددها، والتي تحول الحقيقة العلمية إلى استخدام ومنتوج، ثم بمنظومة الإدارة والتسويق وتجديد التمويل، بحيث يترسب الإيجاب في اللاشعور عبر منهجية تناول جميع هذه المنظومات والتعامل معها، وتتربى النفس الفاعلة المبادرة عن طريق انعكاسات المحيط وإلقاءات الممارسة، وهي النفس المؤهلة للإبداع ولتلمس طريقها إلى الحرية والعزة عند المحن والفتن والهزائم ومداهمات العدو، فإذا استمر فكرنا الإسلامي في عطائه، وفق النمط الأوسط الذي لا إفراط فيه، فإن هذه النفس المبدعة العاشقة للحرية تتحول من مجرد نفس ثورية كما هي عند الأمم الصناعية، إلى نفس جهادية على هدي

الإيمان، بحيث يكون ديدنها تصحيح المعادلة والمسار، لا الانتقام والثار، وتعود سريعة إلى منهجية الاستعمار الإيماني للأرض، وهو ما أُرشح دعوة الإسلام العالمية المعاصرة له، تحت شعار " هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا"، "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ".

وبهذا يتضح وفاؤنا للفكر، ولمنهجية تربية الدعاة على أحكام الشرع والمواعظ الإيمانية، وما نحن بأهل تنكر لها أو زهد فيها، ولكنه تنبيه إلى أن الطريقة التلقينية السماعية يمكن أن يتضاعف تأثيرها إلى أضعاف كثيرة بقذف الدعاة في المعمعة الصناعية، لأن الصناعة تحتاج القاعدة العلمية، فتكون معمعة علمية أُخرى، ثم تحتاج التجارة، للتمويل والتسويق وإعادة التمويل، فتكون معمعة تجارية، ثم تحتاج شغلاً سياسياً، من أجل الحماية وحفظ الحقوق وإدامة الحريات، فتكون معمعة سياسية، ثم تحتاج فكراً شرعياً، لتأصيل المسيرة وحفظها من الغلواء وتثبيتها على طريق الاستعمار الإيماني للأرض، فتكون معمعة فكرية تربوية خامسة، وعن طريق اجتماع هذه الملاحم الخمس وإيحاءاتها النفسية تتم التربية الدعوية وتنتج النماذج القيادية المؤهلة لقيادة المستضعفين عبر الجهاد الراشد الواعي الحكيم إلى حياة العزة، ومن ثم كان تصورنا في وجوب أن تكون هذه الميادين الخمسة أركاناً خمسة أساسية في منهجية التربية الدعوية المبتغاة في صورتها المطورة المستقبلية، وأن تكون خمسة أرهاط دعوية في عرصة واحدة، بعضها يردف بعضاً ويرفده، وما هما جيلان فقط كما قلت سابقاً، بل خمسة تندمج في مشروع جبار، فتكون فنون وعواطف وتجارب وأسرار كل رهط في خدمة وتربية الأرهاط الأخرى.

والأداء المنتظر من رجال الأعمال في إسناد التوجه الصناعي لا يكمن في التسويق والعمليات التجارية فقط، بل في خدمتين أُخريتين توازيانه.

- **الأولى : في استثمار علاقات لهم مفترضة مع طبقة عريضة من الممولين ورجال** البنوك، والشركات المالية و أُمناء المحافظ الاستثمارية ومدراء الجمعيات التعاونية وأمثالهم، بحيث تتوسع عن طريقهم رؤوس الأموال المرصودة للمشاريع الصناعية، وتتسهل مرابحات وضمانات مصرفية وكفالات ومشاركات، ثم تنفتح أبواب تصريف دائمة للمنتجات للإستهلاك المحلي أو التصدير.

- **والثانية : في إجادة استلهام المعارض التجارية والصناعية العالمية، كمعارض** أُوربا واليابان والصين، فإن حضورها، والتأمل الطويل في المعروضات : يوسع

آفاق النظر، ويمد رجل الأعمال المسلم بخبرة عملية تتماشى مع آخر التطورات الفنية، ولها إيحاء من نوع خاص لا يتاح التمتع به إلا بواسطتها، بل المعارض مدرسة متكاملة، وتلخيص لخواطر المهندسين والمخترعين كافة، وتركيز لشتات الإبداع المتناثر، وإهداء مجاني لخارطة التوغل على طبق من ذهب، ومن أكبر التقصيرات التي ابتلي بها الدعاة أنهم لا يوفدون رسلاً منهم إلى هذه المعارض يروون لهم إذا رجعوا ما فيها من علم وخطط وفنون وتدبيرات حكيمة ولمسات مدنية وحضارية، وأنا أرى أنه لو حصل منا حضورٌ متوال منهجي لهذه المعارض فإنّ آثاراً إيجابية كثيرة سوف تظهر لا في المحيط الاقتصادي الإسلامي فقط بل في عموم الحياة الدعوية، بحيث يكون ذاك الحضور مورداً ثرياً من موارد التعرّف على منهجية التربية الدعوية وتطبيقات الإبداع وممارسة التطوير الريادي، ولكننا قوم عزلنا أنفسنا عن الحياة العامة، فتثاقلنا، والتصحيح واجب، وطريقه قريب.

وأكاد أرى من وراء الستار مقلداً يتململ فيقول : هذه الطرق ستسبب ضعفاً في الدعاة، وانشغالاً بالتجارة والصناعة والسياسة.. والمعارض.

وهذا من الأخذ بالصور والمباني لا الحقائق والمعاني، إذ أما يكفيه أن يحقق هؤلاء الدعاة مصالح الأمة وتتقوى شخصياتهم ومعنوياتهم وأشواقهم الجهادية، وينتظم أداؤهم ؟ إلا أن يحضر أحدهم مخيماً عاشراً ليوصف بالجودة والنشاط والالتزام ؟ ألا تكفيه تسعة مخيمات في مرحلته الأولى أيام شبابه ؟ وإلا أن يحضر الدرس في المسجد مع الحاضرين ليكون ثقة. ألا يكفيه ما اكتال من قبل وتطلق سراحه ليصول ويجول في درب العزة والتمكين ؟ وإلا أن يلتزم خمسين اجتماعاً أسرياً في السنة بعد أن حضر مائتين مثلها؟ ألا يسوغ أن تثق بالقاعدة التربوية التي تم تأسيسها فيه خلال السنوات الأولى من التحاقه ثم تكتفي معه بلقاء شهري وتدعه يبدع في مزاحمة يهود والتمرد على العلمانية والعولمة ؟

الكثير من الدعاة بحاجة في الحقيقة إلى تغيير مقاييس الأداء القديمة من أجل أن يتاح لهم فهم التخطيط التربوي الجديد الذي نشير به.

وأنا ما أردتُ أن أعتدي عليك بمثل هذه المفاهيم الجريئة، ولا النيل من شرف زراعة تعتقد بركتها، فإني معك في اعتقادك، ولا داعي للتوتّر، وليكن خاطرك طيباً إن شاء الله، وإنما الترويج لفكرتي الصناعية اقتضى نوع حماسة ودعاية صدرت مصدرِ التهوين من شأن الزراعة، وهي النعمة المحترمة التي يلزمنا أن نشكرها، إنما أردتُ للدعاة شعور الصرامة التي تكون مع استعمال الحديد والآلة الدائرة، وشعور

النظام الذي يكون مع التقدير الهندسي الذي تقتضيه الصناعة، وشعور السرعة والحسم الذي يكون مع سرعة الإنتاج، وشعور إيجاد شيء كبير من مكونات صغيرة، **وأما المزارع فبطيء مسرف في الانتظار، ويتعامل مع نبت ليّن تميل به الريح، وداجن سلس، فتغدو صفة الرحمة والسلام ضعفاً أمام ذئاب عالمية ولئام،** إذ الغلظة صفة خوطب بها نبيه الكريم في أكثر من موضع في القرآن في التعامل مع الكفار والمنافقين.

فإن لم تكن ثَمّ صناعة فليس أقل من تعدين فيه استخراج ما خلق الله من معادن، وسيكون مع هدير البلدوزرات وأنواع المكائن ونار الأفران نوع شعور إيجابي حار يقترب من إيحاء الصناعة.

ودعني أُلاحقك ولا أُتيح لك مهربا، فأزعمُ أنه إن لم يُتَح ذلك فدونك مقالع الحَجَر وضرب الأزاميل لقِطَع الحَجَر والرخام تنحتها وتجعل لها زوايا وأضلاعاً من أجل أن تستخدم في البناء، فتكون ضربات المطارق وأزيز المناشير موحية عَزماً مثل حَزم الصناعة. وانظر الفارق لو أنك فعلت ذلك، فإنك لو أتممت نحت ألف حجر يبني بها مسجد أو جسر أو بيت فإن ذلك يدوم مئات السنين يعظ أجيال الناظرين بجمال ومتانة وحُسن نظام، بينما الفلّاح يقدّم طعاماً يُهضم بعد سويعات وحليباً يشرب ثم ينساه الناسون ولربما لا يشكرون.

فإن لم يكن الرُخام فليس أقل من ورشة حدادة أو نجارة تملأ الأرض رنيناً وفرقعة بعدما امتلأت رخاوة وتطريباً وتنويماً، ونحن دعوة كثر فيها المهندسون وعلماء الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا، وتؤهلنا ظروفنا لهذه الطفرة الصناعية التي لا نريدها لموسم بل كخطة استراتيجية بعيدة المدى.

فلا يستفزنك تركيز على ذكر الصناعة، فإنا لسنا نزهد بزراعة، ونعلم أن فيها رغم الصبر معنى نمو شيء صغير إلى كبير كثير، فإنّا أردنا بالصناعة الرمزَ إلى الاختراع والتكيّف، ولا بأس أن يكون دعاة في الزراعة، وأن يُتاجروا في المنتج الزراعي، وأن يقوموا بتصنيع المنتج الزراعي، وإنما أردت الإشارة إلى أن التفوق الصناعي الغربي والشرقي جعلنا كأمة إسلامية مستهلكة أو زراعية، وهذا له مردود سلبي على المدى الطويل في التنافس الحضاري يجعلنا في الموقف الأضعف، وبلا أحاسيس تحد ورفض ومقاومة، بينما العالم الكافر قد حقق التفوق من باب، وأدامَ أحاسيسه الإيجابية من باب آخر، فيلزم أن نستدرك رغم فوات الأوان، إذ بعض الشرّ أهون من بعض، فإذا أقررنا بأنه يلزمنا ذلك كأمة فيجب أن نكون نحن

الدعـاة أهـل المبادرة، لأننا نقود هذه الأُمة، والحكومات مسيّبة، بل خطط التطبيع التـي تسـلكها تـريد أن تجعـل السـيطرة للـيهود الذيـن هـم أهـل صـناعة ويرفلون بإيجابـياتها المعنوية، **ومن هنا صارت هذه المهمة دعوية من أجل مردودها التربوي على المستوى الحضاري وآثارها الإستراتيجية في الصراع مـع العـدو**، فافهم القصد رحمـك اللـه، وأنشد نشيد التنادي للصناعة، ولن تجدنا زاهدين بداعيةٍ مزارع أسره القَدَر إليها، ولا نافين أنواعاً من الخير في المجتمعات الزراعية.

وبهـذا يـزول الاسـتغراب فـي إقحـام الصناعة في فقه الدعوة، وإنّ الحياة اليوم يلفـّهـا تعقيد مدني معتمد على الأداء الفني التقني، ويؤججها صراع فكري سياسي وتـنافس مالـي اقتصادي عنيف، وكأن ممارسة الصناعة تزيد الشخص جدية وتمنحه الذكـاء وتجعله في معمعة الصراع تلقائياً بدون موعظة وتحريك، ومثل ذلك أجواء التجارة والأسفار المبرمجة الهادفة والعلاقات المتشابكة اللازمة لها، مما يؤدي إلى زيادة النبض في الحياة الدعوية، بينما تقترب أجواء الزراعة والأرياف بأصحابها من الوداعـة والقـناعة والـرتابة والسـكون والعـزلة، وتقـل المشاركة الفكرية والسياسية، ومثل ذلك الوظائف الحكومية الكتابية في المستويات الدنيا، ولذلك فإنّي أميل إلى تصـويـب فهـم المحدّثيـن لهـذا الأمـر، وإشـارة الـداودي إلـى الفروسية صحيحة، ونسـتطيع اقتباسـها وقـياس عمـومِ الواجـب الدعـوي في التنافس السياسي والمدني والعلمـي عليها، وسوف يدّخر القـدَر من يرعى الغُنيمات ويزرع، ولن يجوعِ الناس، ولا يـريد إحـياء فقه الدعوة ومنهج التربية الدعوي أن يمنع عن الأمة حنطةً ولَبَنا وبقـولا، كمـا أنـنا لا نـنكر أن البيئات الزراعية أنتجت أيضاً من العلماء والدعاة الشجعان أعداداً كبيرة، وإنما نتكلم عن ظاهرة عامة.

ثـم أرى معترضـاً آخـر يـتخوف أن تفسد هذه الخطط الدعاة، ويتوقع أن تنغلق قلوب هؤلاء الدعاة، وتجرفهم الدنيا..

وهـو تخـوف لـه وجـه لو كنا نبعث هؤلاء فرادى، لكن صفة الجماعية والتنفيذ المشـترك يتـيح بحمـد اللـه التناصـح والتسـاند المعـنوي، وتسـري عـدوى ثـبات المخلصـين إلـى مـن يخـالطهم، فـيكون الصناعي والتاجر والسياسي بأمان إن شاء اللـه، وقصـص الضـعف والتفلت التي يرويها المتخوفون إنما كانت في بدايات مثل هـذه الممارسات، حيث لم تكن الكثافة العددية وسيلة حماية، وكان أحدهم يقتحم هـذه الميادين باجتهاده الشخصي من دون تخطيط جماعي، فكانت الوساوس تغزوه لانفراده، فيتملص، وتغريه المغريات فتصرعه، وما ندعو إليه إنما هو نمط آخر، فيه

جماعية، وفيه تخطيط، وتحميه تربية، وتشد الجميع غاية كبرى يسعون لها تبقي قلوبهم حية وعواطفهم عامرة، ثم هناك تدوين للفقه الدعوي فيما هم فيه من الممارسة الدنيوية وتعليمهم كيفية ليّها وتغيير وجهتها نحو الأُخروية، في احتياطات أُخرى لم تكن حين ابتدر زيد وارتجل عمرو، فضاعا.

وليتذكر المقلدون أنهم اليوم يعيشون عصر الانترنيت ومائة قناة فضائية غازية ومليون طائرة تنقل المسافرين إلى أقصىْ الأرض في سويعات، فإما أن يوجدوا شغل خير لإخوانهم الدعاة يعصمهم من عدوى السوء، أو هي الأُخرى، والعزلة التربوية ما عادت ممكنة، فأن أبعد ثمراتها أن تجعل فتيانك حمائم مساجد، وهذا زمن كثرت فيه الصقور، ونعقت كثيراً فيه البوم، وأخشى أن يتطاير الريش بضرباتها إن لم تتفجر الدماء.

والله ما أخطأ رسول الله ﷺ حين رأى الذل يلوح بين لمعان سكة آلة الحرث، لأن الفلاح يصبر طويلاً يراقب نمو زرعه خلية بعد خلية، في عملية بطيئة جداً حتى يظن الظان أنه ما ثم نمو، وهذه المراقبة المسترسلة منه للنمو البطيء تجعله مسترسلاً في أُموره الأُخرى أيضاً، بطيء الرفض، بطيء التحدي، بطيء النفرة، فيستخذي لغاز وظالم وصناعي وصاحب مال، ويكون داجناً.

والخشية اليوم أن يحل بدارنا التدجين، يؤدي إليه إفراط الفكر، وإفراط التلقين، والإنزواء، والإنكفاء، وترك قيصر يرفل بالمال، ويفيزياء الكم، وبالحديد، ونكتفي أن نتوهم أننا نلوذ بالله في المساجد، كأن الله لا يعيذ مروض ألكترون، أو طالب مليون أو صانع كومبيوتون.

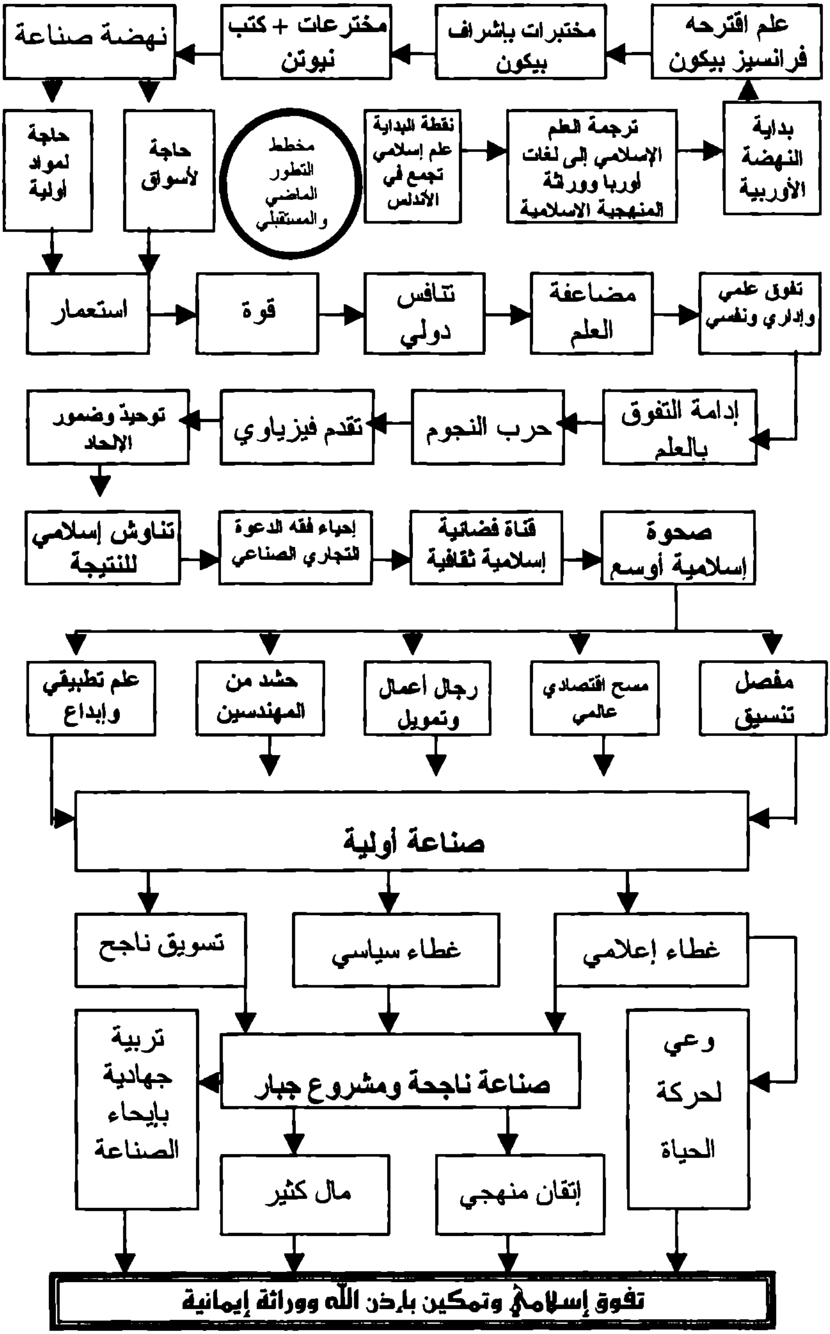
علم اقترحه فرانسيز بيكون
مختبرات بإشراف بيكون
مخترعات + كتب نيوتن
نهضة صناعة
بداية النهضة الأوربية
ترجمة العلم الإسلامي إلى لغات اوربا ووراثة المنهجية الاسلامية
نقطة البداية علم إسلامي تجمع في الأندلس
مخطط التطور الماضي والمستقبلي
حاجة لأسواق
حاجة لمواد أولية
تفوق علمي وإداري ونفسي
مضاعفة العلم
تنافس دولي
قوة
استعمار
إدامة التفوق بالعلم
حرب النجوم
تقدم فيزياوي
توحيد وضمور الإلحاد
صحوة إسلامية أوسع
قناة فضائية إسلامية ثقافية
إحياء فقه الدعوة للتجاري الصناعي
تناوش إسلامي للنتيجة
مفصل تنسيق
مسح اقتصادي عالمي
رجال أعمال وتمويل
حشد من المهندسين
علم تطبيقي وإبداع
صناعة أولية
غطاء إعلامي
غطاء سياسي
تسويق ناجح
وعي لحركة الحياة
صناعة ناجحة ومشروع جبار
تربية جهادية بإيحاء الصناعة
إتقان منهجي
مال كثير
تفوق إسلامي وتمكين بإذن الله ووراثة إيمانية

إن تهمة التنكر للفكر منفية عنا أصلاً، وعن هذا المشروع الصناعي، لأننا حين تكلمنا آنفاً عن تطور الفيزياء، وانتهينا إلى ضرورة أن تتبنى الدعوة الإسلامية تطوير فيزياء الكم أو السير بموازاتها على الأقل، لفتحها باب التوحيد: استدركنا، فقلنا في بداية استدراكنا أن العلم لا يبقى عائماً، بل لابد لنا إن أردنا تطويره واستثماره أن ندعه يتفاعل مع الواقع، لينمو، وكان طريق التفاعل الذي اقترحناه: الصناعة، التي استلزمت بدورها سياسة وتجارة. فإذا ربطنا هذه النهاية، بالبداية التي جعلنا العلم فيها مدخلاً لإثبات التوحيد والإيمان، وعلمنا أن ثبوت التوحيد هو ثبوت لجميع المبحث الشرعي وحقائقه، التي تثبت بالتالي صحة مقولات الفكر الإسلامي ورؤاه الحضارية: **عادت الصناعة بدورها مدخلاً للفكر،** لأنها هي التي تخرجه من حالته العائمة إلى الاندماج والارتباط مع حاجات الحياة ومتطلبات المدنية، والعلم لا يتجزأ و لا يتبعض، بل هو وحدة واحدة وكتلة مندمجة، ولا تستطيع تقعيد الظواهر الفيزياوية مثلاً بدون المنطق العقلاني، والمكنة اللغوية، والحقائق الرياضية، واللمسة الفنية، وحفظ الحقوق، ومراعاة الأخلاق، وتمييز أحاسيس النفس البشرية بالتزام الزكي منها وهدر الفجوري، ومباحث استخدام الطاقة النووية مثل واضح لهذا الارتباط بين الفيزياء والأخلاق والحقوق وطبائع النفس، ومثلها مباحث استثمار الخوارط الجينية، وبذلك تعود الصناعة مصدر تجويد للفكر، وتبرأ أن تكون مزاحمة له.

ولا يتجه اعتراض من يعترض هنا بأن الصناعة قد تكون مدرجاً للفكر بين أهلها فقط من ممارسيها، من بين فيزياوي ومهندس وفني وممول ومدير ومسوق، ترتقي بهم، ولكن عموم الدعاة لا ينالهم ذلك ممن لم يدفعهم القدر إلى أن يكونوا ضمن هؤلاء. وسبب نفينا وحسن ظننا بالصناعة والصناعيين والتجار والساسة وعلماء العلوم التطبيقية: أن العدوى الفكرية والأخلاقية والنفسية سنة خَلقية، وظاهرة اجتماعية، تجعل العلم يشع من العالم، ومن الحار إلى البارد كما قالت الفيزياء، ومن المليء إلى الفارغ، فيحصل عن طريق الحياة الدعوية المختلطة ترويج أنواع من المردود الإيجابي الفكري والمعنوي في الجماعة، فإن لم يتم ذلك بصورة قوية مميزة: تولت الظاهرة القيادية الكونية ذلك وتكفلت به، إذ مدار الحياة و الكون وسير المخلوقات على وجود قائد ومقود، والقائد الثابت القدم الراسخ القلب الإيجابي المبدع المبادر المجاهد يثبت بثباته رهط معه، بموجب قانون الولاء، فتظل النفوس متقدة، نفوس الجميع، وتبقى جذوة الجهاد والعناد، والتحدي، فيحصل المقصود، ويوم يتجاوز مشروعنا الجبار مرحلة البداية، سينتصب كل

مشارك فيه بمثابة قائد لمن هم خارجه، فتكون قيادة جماعية قوامها عشرة آلاف قائد أو عشرين، على المدى العالمي، يقودون بقية الدعاة والجمهور الإسلامي المليوني العدد إلى معاني الخير الإيجابية كلها، وتتحقق حياة العزة والحرية، ونكون عند حسن ظن نبينا ﷺ الذي رأى آلة الحرث، فلاحَ له شبح الذل يختبئ خلفها، فتخوف، وقد ألجأتمونا إلى إطالة إذ الحر تكفيه الإشارة، ولا يعني هذا الكلام أبداً تصويب النخبوية، وأن الاختيار الدعوي ينبغي أن يتوجه نحو الاكتفاء بالنخبة العالية المستوى المؤهلة لهذا الأداء الصناعي ومقدماته وتوابعه، بل دعوتنا رحبة المكان تسع كل مسلم، ويجب أن تكون هكذا، وقد عقدنا فصلاً آخر في نقض النخبوية، لكننا نشير إلى الظاهرة القيادية، وأنها من سنن الحياة، وأنها تتكفل بموقف الجمهور عبر الولاء والعدوى والإشعاع.

❑ إن البعيد عن فهم هذه المعاني يُلزمنا بما لا يلزم، ويعترض متخيلاً أن الإيحاء التربوي الإيجابي للصناعة إنما يقتصر على رجل الصناعة أو العمال الذين معه، لذلك يقلّل من أثر هذا الإيحاء في العملية التربوية، مستدلاً باستحالة ممارسة جميع الدعاة للعملية الصناعية.

وهذا توهّم سببه ضعف التأمل المتأني لما نقول ولطبيعة الحياة الاجتماعية، لأن إيحاء الصناعة يتعدى، وما هو بمقصور، وعدواه واسعة، وهو في ذلك يشبه تماماً إيحاء العلم الشرعي وسريان آثاره في المجتمع الكبير، فإن الدعوة الإسلامية لا تستطيع أبداً جعل كل الدعاة والقريبين منهم من أهل النصرة والتأييد علماء يتقنون فهم مدارك الشرع وموارد الفقه، لاختلاف الفرص والعقول والاستعدادات، ولكن هذا المجتمع الدعوي يكفيه أن يوجد فيه عدد من علماء الشرع، يظاهرهم عدد من أهل الزهد وكثرة العبادة والمواعظ، مع عدد ممن يتقن صنعة الفكر المقارن والتأليف والكتابة، يسندهم شاعر واحد ربما، ليكون المجتمع الدعوي أقرب إلى العلم، ويعيش الدعاة في رحاب التقوى ومكارم الخلاق والحماسة وروح الجهاد والبذل، ودعوة يبلغ عدد منتسبيها وأنصارها مئات ألوف ربما يكفي حالها التربوي عشرة فقط من العلماء الكبار، يدور في فلكهم مائة إمام مسجد و واعظ وخطيب جمعة لأحدهم ربع عِلم الواحد من أولئك العشرة أو عُشر علمه، لأن الفتوى تعصم، والتقوى لها عدوى، ويمكن أن يعيش الدعاة ومن يدور حولهم حياة أقرب إلى الجدية والوقوف عند معالم القرآن والسنة والبعد عن البدعة والإفراط والغلو والتفريط، لأن انتصاب القدوات يردع الضعيف في الساعة الشيطانية عن اقتراف ما لا يليق، بل يدعه يهابهم وإن لم ينطقوا، وعلى مثل هذه الظاهرة

قامت الحياة الإسلامية السليمة منذ صدر الإسلام حتى زماننا هذا وما كان كل أهل الإسلام علماء، ورجال الصناعة ومَن معهم من مهندس وعامل فني أمرهم مماثل، فإن النبض الجهادي الذي تمنحه لهم الصناعة بالإيحاء سيجعل منهم قدوات سامقة في المجتمع وإن لم ينطقوا كثيراً، وستكون معاني التحدي عامرة وافرة، **وإنَّ مائة من رجال الصناعة الدعاة، يتحلق حولهم ألف مهندس ممارس لصناعة إسلامية، وألف عامل فني واع : بإمكانهم أن يتكفلوا بإحياء الروح الجهادية في مجتمع دعوي تعداده مئات ألوف، إذ النفس الإنسانية مجبولة على الإقتباس، والولاء للأقوى، والتعلق بأهل الريادة، والمتابعة لصاحب المبادرة.**

وبهذا التقرير لتماثل أداء العالم الشرعي والعابد والشاعر مع أداء الصناعي والمهندس والعامل الفني : يزول وهم مَن يتوهم وجوب تحويل جميع الدعاة إلى المحيط الصناعي، وينفتح بعد إزالة هذا الإشكال باب عريض من أبواب الاستفادة المنهجية من المعاني الإيجابية المصاحبة للصناعة في العملية التربوية الإسلامية، تأتي مساندة معاضدة لمعاني الجهاد التي تستقر في نفوس المؤمنين نتيجة لعقيدة التوحيد ولتأثيرات يغرسها تدارسهم القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ.

وأستطيع أن أزعم أن سريان هذا التأثير من القدوات الصناعية إلى عامة الدعاة ثم إلى عامة الناس لا يكون محلياً فحسب، بل يتجاوز القطر الذي فيه الصناعي إلى أقطار مجاورة بل إلى الأقطار كلها، كما يتجاوز العلم الشرعي الحدود تماماً، وذلك لأن العالم أصبح قرية واحدة، والمخترعات الحديثة والوسائل الإعلامية تجعل ذلك سهلاً ، ثم الإمتزاج في المؤتمرات، وعن طريق السياحة والسفر التجاري، ثم مواقع الإنترنت أو احتلال دقائق يومياً في القنوات الفضائية الصريحة.

إن لي جرأة أن أزعم مرة أخرى أن عبقرية الإمام البنا رحمه الله قد أدركت كل هذا العطاء الصناعي منذ وقت مبكر، ومذهبه في ذلك واضح لمن يتلمس الروح الكامنة خلف سطور رسالة (هل نحن قومٌ عمليون)، وكان يسير على منهج من الوعي التام، لكن الجيل اللاحق أرهقته المحن الثقيلة ووجد الطريق مسدوداً، فألغى التفكير في ذلك مجبراً تحت ضغط الضرورة، فطال الأمد، فنشأ جيل ثالث مالكي لم ير عملاً صناعياً لأهل المدينة الدعوية، فظن ذلك من العمد التخطيطي، فتوهم ولم يمهر في التأويل، فهجر الصناعة، ولم يلتفت إلى أصالة مهمتها وأن منهجية الإستفادة من عطائها تضرب عمقاً في جذور الوعي الدعوي.

❑ مذهب السلف في الثقة بالصناعة

وأظلم الظن من المقلد في هذه المقامات أن يتوهم أن هذا التوجه الصناعي إنما هو توجه جديد محض، فيأخذ يتغنى بجمال العتيد، ويفجر موضوع الأصالة، ويدعي التنكر لطرائق السلف.

وما درى المسكين أن هذه الرؤية التي نراها اليوم إنما هي المذهب السلفي الأول، وأنه أسير بدع قرون التخلف.

هو يذكر لنا الفقر الذي هو فيه لا ندري أهو فرح بذلك أم يشكو فيقول :

والله ما بلغت لي قط ماشيـــــة   حـد الزكاة ولا إبل ولا مال

وقيل أنه يفخر بتصدقه الكثير، إلا أن ظاهر كلامه أنه يفخر بالفقر، وأنه الجد الأعلى السابع والعشرين لجيل من الدعاة أهل السذاجة قنعوا بالرواتب، وبدراهم تعدها عليهم القطارة الشهرية، فقعدوا عن اتخاذ الأسباب إلى الغنى، وزهدوا ولم يصارعوا القدر بالقدر، تغريهم الأوهام وتلقينات العجزة، وربما تولع بعضهم بشكل الحياة النمطية واخترع له فلسفة في ترويجها، وما فطنوا إلى تلوث تسويغاتهم بالجراثيم النفسية ونزولهم المحل الأدنى في ساحات التنافس مع القوى المسيطرة، من مجاميع وأحزاب ومافيات مالية دولية ومحلية، صفعوا خدنا الأيمن، ثم الأيسر، وهم اليوم يركلون بالعولمة أدبارنا، وما عاد للدعاة اليوم من دفاع غير ثورة اقتصادية يعلنونها، هي في نطاق الشرع والقانون والنظام والعرف، ولن يستطيع أحد إيقافها، فتكون اندفاعة استدراكية ذات أُفق ممتد، تستهدف صناعة أُلوف من رجال الأعمال المؤمنين، أصحاب الأيادي المتوضئة، الذين يجمعون المال لأنفسهم، ثم القليل المنعكس منه يكفي للثبات ولصعود المدارج، وليترفهوا بالبقية ما شاؤوا، هنيئاً مريئاً، ما دامت إيحاءات الممارسة الصناعية قد صنعتهم لي قادة وأبقت فيهم جذوة الجهاد.

الصفق التجاري هو مذهب السلف، لا في بعده الشخصي من كسب المال للتوسيع على النفس والعيال، لكن في بعده التخطيطي والسياسي والأخلاقي، وكانوا رحمهم الله أبرع منا وأوعى وأدرى بقوانين حركة الحياة.

وخذ الأدلة الناصعة تباعاً، هاكها يداً بيد موثقة مسنودة :

❑ قال البخاري : باب ما ذكر في الأسواق.

قال ابن حجر: (قال ابن بطال : أراد بذكر الأسواق : إباحة المتاجر ودخول الأسواق للأشراف والفضلاء. وكأنه أشار إلى ما لم يثبت على شرطه من أنها شر البقاع، وهو حديث أخرجه أحمد والبزار، وصححه الحاكم، من حديث جبير بن مطعم : أن النبي ﷺ قال : أحب البقاع إلى الله المساجد، وأبغض البقاع إلى الله الأسواق. وإسناده حسن، وأخرجه ابن حبان والحاكم أيضاً من حديث ابن عمر نحوه.

قال ابن بطال : وهو أُخرج على الغالب، **والأقرب : سوق يذكر فيها الله أكثر من كثير من المساجد)**.(4)

وفي عبارة ابن بطال الأخيرة اضطراب، لكن مقصدها واضح جداً وكأنه يقول : إن سوقاً واحداً يؤسس على الإيمان ويذكر فيه اسم الله كثيراً وتؤدي أمواله وأرباحه إلى إسناد عمليات ذكر الله كثيراً في سائر البلاد هي عند الله أعظم من كثير من المساجد.

وعبارة ابن بطال رغم اضطراب إنشائها اللغوي أو وجود خطأ مطبعي أبهمها هي **معادلة عظيمة الأهمية من معادلات فقه الدعوة، صعب فهمها على الدراويش، لكن نبلاء الدعاة العصريين يعرفون معناها الكبير ومغزاها التخطيطي ودورها الانعطافي بالمسيرة إلى التمكين.**

إنها أسواق يذكر فيها اسم الله نخطط لها، لا أسواق الغفلة والجشع.

لو كنت قلت ذلك، وأن سوقاً يذكر فيها اسم الله هي أعظم عند الله من عديد من المساجد، لثار علي المقلدون واتهموني بمروق ودعوني إلى توبة. لكنه ابن بطال شارح البخاري وأحد أعلام الفقه.

❑ ولسنا الآن نكتشف أن الاقتصاد والسياسة وجهان لعملة واحدة وأن المال والسلطة توأمان، لكنه عمر بن الخطاب ﷺ ، فقد رأى سيرين والد التابعي المشهور محمد بن سيرين يتجر في السوق، وهو من الموالي، فقال :

---

(4) فتح الباري 242/5.

(يا معشر قريش : لا يغلبنكم هذا وأصحابه على التجارة، فإنها ثلث الملك)[5].

فجعل المال جزءاً لا يتجزأ من الملك، الثلث، بل هو النصف، وهذه قمة الوعي، وكنا قوماً غافلين عن هذه المعاني، لأنا فهمنا الزهد فهماً مغلوطاً، وآن لنا أن نتوب، إذ أن هدفنا سياسي، ونسعى له فقراء، مما جعلنا نراوح في محلنا لا نبرحه.

نحن دعوة نريد للإسلام أن يحكم الحياة، ولا يحكمها إلا عبر سلطة، والسلطة لا تهدى إليك هدية، إنما هي المغالبة، والمال أساس، وهو الرقم الصعب في عملية الإزاحة الفيزياوية، ولذلك عبر عنه بالتجارة، ومعناها واضح في شمولها الصناعة والزراعة والخدمات، لأن هذه الأنواع ما كانت تؤدى تلك الأيام بالشكل الضخم الذي آلت إليه الآن بعد التطور المدني، **فكأن عمر رضي الله عنه يقول : المشروع الصناعي ومقدمته العلمية وتوابعه السياسية والتجارية والتمويلية إنما هو ثلث الخطة الإسلامية التمكينية للدعوة الإسلامية، بما تصرف منه على إعلامك وأعلامك، وبما تشتري به من معابر تغنيك عن خوض أنهار الدماء**، وبما يكون من التفاعل مع المنظومات الإنتاجية من غرس لكبرياء الإيمان في النفوس، ولمناحي الإبداع، ولكل إيجابي من الأخلاق والطباع .

❑ ولطالما وضعنا قاعدة لنا في الاشتقاق الفقهي أن ما توصف به دولة الإسلام وسياسة الإسلام يمكن أن توصف به دعوة الإسلام والجماعة القائمة بهذه الدعوة، في الأغلب، ما لم يقم دليل يمنع هذا القياس.

وجرياً مع هذا المنحى، فإن ما أوجبه الفقهاء من وجوب سعي الدولة نحو الغنى والرفاهية يجب على مجموعة الدعاة أيضاً، وبداهة العقل تكفي في هذا وأصلية الإباحة، ولكن المؤمن يحب أن يسند رأيه إلى جيل الثقات القديم.

ذكر الأستاذ الدريني أن ابن أبي الربيع اعتبر (المال الجم إحدى الدعائم التي تقوم عليها الدولة).

ونقل عن الماوردي أنه قال في القواعد التي تقوم عليها الدولة : **(خصب دائم، أي الوفرة في نتاج الأرض، والممتلكات والأموال، فيها يقل في الناس الحسد، وينتفي عنهم تباغض العدم، وتتسع النفوس، وتكثر المؤاساة والتواصل، وذلك من**

---

(5) إصلاح المال لابن أبي الدنيا / 248 تحقيق مصطفى القضاه.

أقوى الدواعي لصلاح الدولة وانتظام أحوالها، لأن الخصب يؤول إلى الغنى، والغنى يورث الأمانة والشجاعة)[6].

وهذه **الحروف هي في الحقيقة نظرية كاملة في التربية** أيضاً، تعتمد على استقراء الواقع الاجتماعي وطبيعة الفطرة الإنسانية، وهي أصل نظريتنا، وعلى قيادة الدعوة الإسلامية أن تسعى إلى تكثير مال الدعاة بتشجيع تكوين طبقة رجال الأعمال الدعويين، لأن من شأن فيض المال بين الدعاة إنتاج هذه الأخلاق الرفيعة، من قلة الحسد، وسعة النفوس، والأمانة، والشجاعة، فتتكون آثار إيجابية من كل ذلك تختصر الطريق لنا، فضلاً عما في المال من تمكيننا من استعمال الوسائل المدنية والعلمية التي لا تتاح إلا بصرف، فضلاً عن ضرورته لاستمرار مؤسساتنا ووسائل إعلامنا ولممارستنا السياسية، ومن يظن العكس وأن التحاسد ينشأ عند غنى البعض وفقر البعض من الدعاة فقد وهم، لأن هذا الحسد لا يضرنا، لأنه محض عدوان من المحروم ولا نخاف منه، بخلاف حرمان الجميع وإملاقهم ونشوء الوساوس بينهم وانحرافات النفوس، إذ كاد الفقر أن يكون كفراً، والتكافل داخل صفنا يمنع هذا الحسد إن شاء الله، والتوكل يجتثه وينبغي أن تنتفض الدعوة على واقعها الآسر وتمضي قدماً في همتها الاقتصادية.

إن هذا التحليل النفسي من الماوردي ينبغي أن يصنف ضمن الوثائق الفقهية العالية المستوى البالغة الأهمية، لأنه غوص عميق في طبيعة النفس الإنسانية ومحركاتها وأسباب انحطاطها أو مدارج سلامتها، وهو أصل رؤيتنا الجديدة لمنهجية التربية الدعوية ودور المشروع الصناعي فيها، ولا مجال لمقلد بعد هذا البلاغ إلا أن يتوب، وإلا فإنها المغالطة.

❑ ويشهد لهذه المعاني ويكملها مذهب الصحابي حويطب بن عبد العزى القرشي ﷺ، إذ قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : (يا أمير المؤمنين : **فرضت للعرب في العطاء، فأهلكتهم : يتكلون على العطاء، ويدعون التجارة، ويلهيهم.)**[7].

---

(6) خصائص التشريع الإسلامي لفتحي الدريني /165، وأحال على أدب الدنيا والدين للماوردي/127 وسلوك المالك لابن أبي الربيع /118.

(7) كتاب اصلاح المال لابن أبي الدنيا / 175.

وهو (حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس بن عبد شمس القرشي : كان من أعيان قريش، وأسلم في الفتح، وكان حميد الإسلام، وكانت وفاته بالمدينة سنة أربع وخمسين من الهجرة وهو ابن مائة وعشرين سنة) [8].

إنه يذهب لأبعد من أن يرى التجارة مشروعاً وتخطيطاً.
إنه يرى تركها الهلاك بعينه، لأن فيها تحويل جيل آخذي الرواتب إلى سلبيين اتكاليين.

بل الأغرب في قوله : ذهابه إلى المعنى المعاكس حين قال : يلهيهم، أي العطاء أو الراتب، فلم يقل مثل الرجعيين أن التجارة هي التي تلهي، كما هو قول بعض أقراننا، بل أن وجود الراتب هو الذي يلهي.

يلهي عن الاستزادة والمنافسة في الخير، ويلهي عن الفاعلية والإيجابية المصاحبة للصفق التجاري، وبذلك يكون الخدر والاسترخاء وصفات السلب.

إن حويطب ﷺ بهذا التصريح الواعي صار هو التقدمي المتطور المؤهل لعصر العولمة المعقد، ونحن المعشر البدائي، ولو كان حياً هذا اليوم لكان أول الموقعين على قرار إطلاق المشروع الصناعي الجبار، وأول المساهمين فيه، وأول المبشرين بمنهجية استدراكية جديدة في التربية الدعوية تعتمد إيحاء الآلة، وصدى السوق، وأحاسيس التفاعل مع يوميات التنافس المالي، والقاعات المنظومات الهندسية والبرمجية والإنتاجية والتسويقية.
اللهم اغفر لقومي... فإنهم لا يعلمون.

❑ **ولهذا بالغ أحد الأئمة الفقهاء فزعم أن التجارة والجهاد في درجة واحدة سواء،** سوى الله بينهما في قوله تعالى في سورة المزمل : (عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ).

قال القرطبي: (سوى الله تعالى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال للنفقة على أنفسهم وعيالهم، والإحسان والإفضال، فكان هذا دليلا على أن كسب المال بمنزلة الجهاد، لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله).

---

(8) فتح الباري 16 /272.

وقال ابن عمر: (ما خلق الله موتة أموتها بعد الموت في سبيل الله أحب إلي من الموت بين شعبتي رحلي، أبتغي من فضل الله ضارباً في الأرض)[9].

بل رفع ابن أبي الدنيا هذا القول إلى عمر بن الخطاب ﷺ.[10]

ولعل للداعية إشارة في قصة داود عليه السلام، فإنّ النبي ﷺ أخبر أنه كان لا يأكل إلا من عمل يده، فجعل ابن حجر ذلك (دليلا على أنه أفضل المكاسب) (فكان ينسج الدروع ويبيعها، ولا يأكل إلا من ثمن ذلك، مع كونه كان من كبار الملوك. قال الله تعالى : وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ) (ومع ذلك كان يتورع ولا يأكل إلاّ مما يعمل بيده)[11].

وأنظر الموافقة القدرية في هذا الاستشهاد، فإنه عليه السلام كان يتعامل مع الحديد ويصنع الدروع، فتعلم من الحديد الجهاد بعد الزبور، ومعنى هذا أن إحياء فقه الدعوة يقوم بإحياء نظرية قديمة نبوية في الصناعة ولا يبتدع جديدا.

وأظن أن في هذه الأُصول السلفية الستة لمنهجية استيحاء الصناعة والتجارة وبيان دورها السياسي والتربوي كفاية، والذي ألهته الرواتب لن ينفعه أصل سابع.

❑ **وأي صاحب راتب يستطيع أن يجدد قصص أبي بكر وعثمان وسعد بن عبادة ﷺ ؟**

يتقدم أبو بكر ﷺ أصحاب قصص الكرم ونجدة الإسلام بالمال، حتى قال النبي ﷺ كما في صحيح البخاري: (إن أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر).

وفي حديث ابن عساكر (أن خير المسلمين مالاً أبو بكر، أعتق منه بلالاً، وحملني إلى دار الهجرة).

قال ابن حجر: (وجاء عن عائشة مقدار المال الذي أنفقه أبو بكر، فروى ابن حبان من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت: **أنفق أبو بكر على النبي ﷺ أربعين ألف درهم**)[12].

وهو مبلغ كبير بموازين تلك الأيام، وأهميته أنه جاء منجماً مرة بعد مرة، مما يشير إلى أن هذا الإنفاق لم يكن نتيجة ساعة من الأريحية تصاعدت فيها همة

---

(9) تفسير القرطبي 55/19.
(10) كما في كتاب إصلاح المال / 241.
(11) فتح الباري 256/7.
(12) فتح الباري 13/8.

الإنفـاق ثـم انقطعـت، وإنما كان نتيجة إيمان عميق ونظر واعٍ وتصميم على رصد المال لخدمة دعوة الإسلام، بحيث أنه لما مات لم يترك ديناراً ولا درهماً كما روى الزبير بن بكار عن عروة عن عائشة في تمام الشروح التي ساقها ابن حجر.

❑ ثـم تـلاه عثمان ﷺ، حين جهز جيش العسرة الذي غزا تبوك، **فأعان بثلاثمائة بعير، وبألف دينار صبها في حجر النبي ﷺ.** [13].

❑ وأي داعـية لا يتمـنى أن يكـون غنـياً ليسـد حاجات الدعوة اليوم يقتفي آثار قيس بن سعد بن عبادة وآثار أبيه رضي الله عنهما في نجدة المسلمين !!

❑ ففـي الـبخاري، فـي قصـة غـزوة سِـيف الـبحر، أن قـيس بن سعد قال لأبيه : (كنـت فـي الجـيش فجـاعوا. قـال : انحـر، قال : نحرت. ثم جاعوا. قال : انحر، قـال: نحرت. قال ثم جاعوا. قال : انحر. قال : نحرت. قال ثم جاعوا. قال انحر. فقال : نهيت)[14].

نهاه أمير تلك الغزوة أبو عبيدة ﷺ.

قـال ابـن حجـر: (وذكر الواقدي بإسناد له أن قيس بن سعد لما رأى ما بالناس قـال : مـن يشـتري منـي تمـراً بالمدينة بجزور هنا ؟ فقال له رجل من جهينة : من أنـت ؟ فانتسـب لـه. فقـال : عرفت نسبك، فابتاع منه خمس جزائر بخمسة أوسق، وأشهد له نفراً من الصحابة، فأمتنع عمر، لكون قيس لا مال له. فقال الأعرابي : ما كـان سـعد ليجنـي بابنه في أوسقٍ تمر، فبلغ ذلك سعداً، فغضب، ووهب لقيس أربع حوائط أقلها يجذ خمسين وسقاً.

وزاد ابـن خـزيمة مـن طـريق عمـرو بـن الحـارث عـن عمرو بن دينار، وقال في حديـثه: لمـا قدموا ذكروا شأن قيس، فقال النبي ﷺ: إن الجود من شيمة أهل ذلك البيت) [15].

قال ابن حجر (وقد اختلفوا في سبب نهي أبي عبيدة قيساً أن يستمر على إطعام الجـيش، فقيل : لخشية أن تفنى حمولتهم، وفيه نظر، لأن القصة أنه اشترى من غير العسـكر. وقـيل : لأنه كان يستدين على ذمته وليس له مال، فـأُريد الرفق به، وهذا أظهر، والله أعلم)[16].

---

(13) فتح الباري 54/8.
(14) صحيح البخاري 143/9.
(15) فتح الباري 143/9.
(16) فتح الباري 143/9.

وأرى أن صاحب النفس الحرة من الدعاة، الكريم، العزيز، يظل أبداً مشدوداً إلى هذه القصة، يتصدى لقدر الله أن يكون هو المنجد الباذل إذا توقع مالاً حتى ولو لم يكن ملياً، وإنما يدخر الله لدعوته وفتح مضايقها مثل هذه الهمم العبادية، فكيف بمن أغنته التجارة ؟

❑ استنتاجات مهمة

هذه التقريرات المهمة تعيد ترتيب بعض قناعاتنا، فمن ذلك :

❑ إعادة الاعتبار لأهل التجارة ورجال الأعمال من الدعاة من بعد موجة طعن بهم واهمة، وتضعيف لهم، وإتهام باطل ما أنزل الله به من سلطان بأنهم لا يهتمون بأمر الدعوة، بل انتهت هذه المعاني إلى أنهم شريك رئيس في حمل الأمانة الدعوية، وفي التربية، وفي التطوير، وهم أقرب إلى الابتكار والإبداع من مقلد يكرر الكلام.

❑ **وإعادة الثقة لرجال الأعمال الدعاة بأنفسهم، وإعلامهم بأنهم على الطريق السوي إن شاء الله،** وأحرى أن يضاعفوا عملهم، ثم أحرى بهم أن يتفكروا بطريقة في توسيع عددهم والتقاط دعاة آخرين من الوظائف المكتبية التي استهلكت هِمَمهم إلى الصناعة والتجارة وسماع ضرب المطارق ودوران المناشير والاقتباس من حرارة الأفران.

❑ **ويهذا أصبح الصناعي هو المعلم المربي المعلم للجهاد،** وهو أُستاذ التحدّي وإن لم يشارك في الاجتماعات بكثرة، لأنه ينتصب قدوة في النفس العالية المتحدية، ويؤدي دوره كرمز صلب بعد ما أكسبه الحديد الصلابة، ومَثَله في ذلك كمثل العالم الشرعي الفقيه الذي ينتصب قدوة بما عنده من موازين وتأصيل.

❑ وأما المتجردون من الدعاة للعمل اليومي الدعوي وعقد الاجتماعات الأُسرية والتربوية فهم كمثل الزهاد والعبّاد من السلف الذين انقطعوا للتهجّد وترويض أنفسهم وتعمير القلوب، وفي كلٍ خير، **فكما لا يمنع وجودُ الفقيه وجودَ الزاهد السالك، بل يتكاملان، فكذلك لا يمنع وجودُ النقيب وجودَ الصناعي والتاجر، بل يتوازيان.**

❑ أمـا أن يـنحرف داعـية و يتبطر بعدما يُثري من تجارة وصناعة فذلك حادثٌ لا يستفزنا ولا يُبطل أصل مشروعية التجارة والصناعة ولا فقه تضمينهما منهجية التربية الدعويـة، لأن أجـيال المسـلمين رصدت وجود علماء شرِع من أهل السوء ووعاظ سـلاطين، يفـتون بالـزور ورخيص القول، فما ضرَّ الثقاتَ ذلك، ولا تسبّب في ردود فعـل تقفـل أبـواب المدارس الشرعة التي خرّجتهم، ليقين الفقهاء الأتقياء الأوفياء أنـه لا يصـح فـي الآخـر إلا الصحيح، وأن الزمن سيطوي النفعيين ودجاجلة العلم، فكذلك من يسيء من الدعاة وينحرف بالفقه الصناعي والمنهجية التجارية إلى نفعية وعَـرَض زائـل، سـيطويه الزمـن، وتـرفع عـنه الـبركة، ولا يقفل نكوصه باب الصناعة والتجارة.

❑ كلنتون ثم بوش يقودانا إلى المال بالسلاسل

❑ إن مـنع العمـل الخـيري، وتشـديد أمـريكا علـى مـنعه وتجفـيف منـابع إمداد النشـاط الإسـلامي بالمـال، قـد رآه بعض الدعاة مصيبة، وحسبوه مشكـلة عـويصة، واغـتموا لذلـك، وأنـا رأيـته خيراً محضاً، وهبة ربانية جليلة، **وعندي أن الله تعالى هـو الـذي أنطق أمريكا بالخطأ، وهداها إلى الطيش، ليكون نفاذ القدر العلي بقيادة القوم الدعاة إلى الجنة بالسلاسل**، رغـماً عـنـهم، ليرفلوا بالمال بعد دهر من كسل عـن طلـبه إذ هـو مـنهم قريـب، وتعفـف مصطنع عن مغريات يتوهمونها مختفية في طـياته، وما دروا أن الله تعالى قد رضي عن مسيرتهم المتعبة الشاقة الطويلة المليئة بالمحـن، وأنـه قد تاب عليهم لما رآهم يقتربون من مشارف النهاية، فأذن لملائكته أن تقطف الدنانير والدراهم من أغصانها الوارفة وتضعها في جيوبهم.

وهكـذا أرى، أنـنا الـيوم في بدايات مرحلة من دفع عناصرنا إلى محيط التجارة والصـناعة والـزراعة لتكويـن طـبقة واسـعة مـن رجال الأعمال المسلمين في أنحاء الأرض يـتمولون، ثـم يفيضـون مـن خـيرهم علـى الدعوة والجهاد بما هو أكثر من عطايـا الجمعـيات الخيرية وجمع أوساخ الناس، وبما هو أنقى وأعطر رائحة وألمع بريقاً، فتكون ممارستنا السياسية مسنودة بالليزر النفاذ المخترق.

❑ **وتعـترض دعـوة فـي بـلاد فقـيرة علـى حمساتنا لهذا التوجه الصناعي**، وأنه لا يناسـبها، ولا تسـتطيعه، وتعتـبره مـن الجـزاف والخـيال والتمنـي، والواقعية أولى، والتناسب مع البيئة أجدى.

وهـذا اعـتراض صحيح، لكنه بالنسبة لفقراء، كتب الله على بلدهم الفقر، ويبقى فقـه التوجّه الصناعي لائقاً لمجموعة دعوية أُخرى في بلاد غنية أنعم الله على بعض دعاتهـا بالمـال والمكانـة والعلاقات السالكة مع أهل النفوذ، وكلامنا لمثل هؤلاء يوجّـه، ولهـم نخاطـب، أن لا يـتكلفوا النزول إلى مستوى طباع الفقراء في القناعة واسـتقبال الضـيق كأمـر محـتوم كتـبه القـدر، ظـناً منهم أن ذلك أقرب إلى سمت الإيمـان وهـدي السـلف الصـالح، بـل نطلب منهم أن يَسْعَوا في استعمال المعطيات التـي توفـرت لهـم، مـن جـاه أو مال، لتأسيس تجارة وإنشاء مصانع، فتعمر الطباع الإيجابـية ويتألق الطموح وتكون ثَمّ حَماسة لاهبة، وصمود يوحيه الحديد إذ تدور عـتلاته ودواليـبه، ونظامـية تـدرب عليها الأبعاد الهندسية، وأمل دائم يتجدد كلما قـذف خـط التجمـيع منـتوجاً، فـيكون جلاء اليأس عبر استمرارية الإنتاج، وتندمج الـروح المشـرقة المنفـتحة المـتولدة مـن ذلك مع الصمود والطموح والتحدي ونمط الأداء المـوزون، ليتولد من ذلك كله استعلاء على التطبيع مع عدو، ونبض وجداني متصاعد تفور معه دماء القلوب، فيكون الجهاد الواعي.

بـل حـتى البلاد الفقيرة مرشحة لمثل هذا، إذ يرينا التحليل الاجتماعي ومراقبة الحـياة فـي عمـوم أقطار الأرض أنه ما من بلد يغلق على فقر، وإنما توجد في كل بلد فقير طبقة من الناس غنية، جاء غناها عبر أسباب شتى من حلال وحرام، وكما سـببّت غنى البعض أشكال الفساد الإداري والاحتكارات : سببّه أيضاً للبعض الآخر خطـوات نظيفة لا تشوبها شائبة، وإنما هو محض الكفاح اليومي والذكاء والمبادأة والصـبر، بعـد التوفيق من الله تعالى، ونظن أنه يليق لدعوة إسلامية في بلد فقير أن تخطـط لإيصال معاني الدعوة إلى هذه الطبقة الغنية، وبخاصة إلى الشباب من أبناء هـذه الطـبقة، فـإذا مـا نجحـت فـي مسـعاها هـذا كانـت الـثلّة المؤمـنة من أبناء الميسـورين هـي الـرائدة المقـتحمة لـدرب الصناعة والمنظومة التجارية المكملة له، ويكـون انتصـابهم بعـد ذلـك كقـدوات في الجهاد يربون الدعاة جنباً إلى جنب مع علمـاء الشـرع والوعاظ من الدعاة الفقراء، في تكامل وتنامٍ، وهذا يوضح أن حسن التأتـي والتخطـيط، والعـزم علـى تحوير الواقع إلى ما يتناسب مع الهدف الدعوي يجعـلان منهجـية التربـية بالصـناعة متاحة للبلاد الفقيرة أيضاً، وليس صحيحاً أن سـلوة الـبلاد الفقيرة إنما تكون بترداد سؤال هرقل : إنْ كان فقراء الناس قد اتبعوا محمـداً ﷺ أم أغنـياؤهم، وجـواب أبـي سفيان ﷺ : بل فقراؤهم، وتعليق هرقل : كذلـك هـم أتـباع الرسـل. ذاك أن هـذا الحـوار كان بداية الدعوة، وقد حكر الله تعالى شرف السبق في الغالب للفقراء، لكن أبا بكر رضي الله عنه كان أسبق منهم، وكـان غنياً، ثم تكاثر المؤمنون من أهل الغنى والتجارة من بعد، فكان عبد الرحمن

بن عوف، وعثمان، ونبلاء الأنصار من أهل بيعة العقبة، رضي الله عنهم، وهذا إن كان محض قَدَر رباني أيام البعثة الشريفة فهو قدر ويمكن أن يتكرر، وإذا كان تخطيطاً من النبي ﷺ قصد به أن يعز الأغنياءُ الإسلامَ بأموالهم بقدر الله فهو تخطيط ويمكن أن يتكرر، وفي الحالتين لا تجد دعوات الإسلام في البلاد الفقيرة حجة لها تنصرها في مذهب اليأس والعزوف والقعود والتثاقل إلى الحصير، كأن الفتن لازمة لأهل المكاتب والمقعد الوثير.

❑ **ثم اعتراض مثيل يرد من بلاد فيها ظلم وطغيان ومبالغة من الحاكم في التضييق على الدعوة،** فيرى دعاة هذه البلاد أن التوجه الصناعي مجرد رمز لا ينال، ولذلك يكون الحديث عنه ضرب من الترف الفكري الملهي عن الممكن العملي.

وهذا نظر من زاوية ضيقة، وحجر على واسع، وتجميد لحركة يمكنها أن تدأب وتسعى، فإنّ بسط الخواطر واستقراء الواقع يرينا أن هذا الشكل من كيد الحكام في منع الدعوة من الفرص ينحسر، وأن أكثر البلاد تتيح الممارسة الفردية للدعاة لأنواع من الصناعات عديدة إنْ لم يكن المجال مفتوحاً فتحاً تاماً، والتضييق قد يكون في التمويل فقط، إذ استطاعت جبهات النفوذ ومراكز القوى في السلطات الحكومية أن تحتكر عمليات الائتمان المصرفي، حتى الإسلامي منه أحياناً، وأما أن تمنع السلطةُ الأموالَ الحُرة من أنْ تصول صولتها فهو ما لم يحصل إلاّ قليلاً وفي ظروف استثنائية، وهذا الاحتكار أو الاستئثار الجاري يجعل التوجه الصناعي الإسلامي صعباً صعوبة نسبية ولا يجعله مستحيلاً، وتظل بلاد كثيرة معافاة من ظاهرة الظلم المالي وإن انحرفت سياساتها نحو العلمانية والتطبيع والاقتراب من المطالب التي يشترطها النظام العالمي، ولمجموعات دعوية في مثل هذه البلاد نتوجه بنظريتنا في التربية بإيحاء الصناعة، **وتخلّف المعذور والمقهور لا يلغي تمكن المعافى من الاقتحام الجريء، ولا تحرمه من الوثوق بالصناعة كمصدر من مصادر التربية ودفع الدعاة إلى التحليق في عوالي المعاني ونفيس الأحاسيس، وللمظلوم رب يربّيه، وليس عطاء المعاناة إذ هو يرزح تحت أثقال المحن بأقل من عطاء الصناعة،** بل هو أكبر وأبرك، وفي معاناته دروس رفيعة في التحدي مثيلة لما تهبه الصناعة، لكن المؤمن مأمور أن يسأل الله العافية وأن لا يتمنى لقاء العدو، ولمن عافاهم الله ووهبهم الحرية نتكلم: أنهم إذا فاتتهم تربية المعاناة بما وهبهم الله من المعافاة فإنّ في إيحاء الصناعة البديل، ثم هو القرآن يعظ الطرفين، المعافى والرازح تحت الاستبداد الثقيل.

كنت أعتدي على نفسي، وعلى الفراسة الإيمانية، فأسأل قلبي : لماذا رضينا بالأمس أن تكون يدنا السفلى، ولماذا ذهلنا عن تكوين طبقة رجال الأعمال ذوي الأيدي المتوضئة، لكني سرعان ما أعود إلى رشدي فأُوقن أن الله تعالى منع بحكمته، ثم هو يأذن اليوم بحكمته، وعقيدتي في ذلك جبرية محضة، وأن المال الآن ينتظر رجالنا إذا مدوا أيديهم.

أُلوف قليلة تكفي لك رأس مال أولي لتقرر، وأبخل على نفسك وزوجك سنة، كي تدع المال ينمو، وستجد نفسك بعد سنوات في جملة الراقين على درج اليسار، ثم بعد سنوات في مصعد أصحاب عشرات الألوف، ثم تخترق حاجز المائة بلا فرقعة ولا رعد، وما يدريك بما هو أكثر، فعلى نياتكم ترزقون، ولعل البعض سيرحمه الله فيخترق حاجز المليون إذا علم منه الوفاء، فترنَّمَ بصلة الأرحام الإيمانية ثم وصل.

أخي : انتفض. أركض إلى السوق فوراً، الآن الآن وليس غداً.

❑ يا ترى ما الذي أذهلكم !
ما زلنا ننادي فيكم : المال المال، ثم هاأنتم ساكنون !
بأي لغات الكمبيوتر تريدون أن نتولى عملية التفهيم، وبأي البرامج ؟

لقد استعملنا حتى الآن ويندوز أكس بي بآخر إصدار لعام 2003 ثم أنتم سادرون ؟

يا أيها الدعاة..

يا إخوتي يا أملي...

أفيقوا، واخرقوا الشرنقة تجدوا الربيع والنور وألوان طيف جميل، وتجدوا أجنحة جميلة قد خلقها الله لكم.

❑ **إلا أني بريء من تهوركم !**

كلامي فصيح صحيح لا يحتمل المعاني المشتركة، وما هو بمغلق، بل أجازه سيبويه بما رأى فيه من نصب ورفع وتنوين.

لست أدعوك إلى هجمة بلا وعي، ولكني أُريدك أن تكون منهجياً، تخلو إلى نفسك سويعات كل يوم لشهر، وترسم خارطة طريقك، ثم تستشير الأقرب فالأقرب ممن سبقك وارتاد، ثم تطلب لرجلك قبل الخطو موضعها، فتتحسس وتتلمس وتتجسس، ثم تتدسس وتتغمس، ثم تقف تتهجس، وترسل التكبير وتميل أذنك إلى الصدى، فإن كانت نغمته حجازاً فذلك إذن لك بالطرب، فأمض على بركة الله وفق قواعد السوق، من دراسة الجدوى، والتدرج، والحساب، وطلب الشريك في الصفقة الكبيرة، في سلسلة من الوصايا التي يتوارثها خبراء الدينار، ويدركها أهل الدولار، حتى إذا عرفت منزلة رنين الدرهم من السلم الموسيقي : تركناك وشأنك، تجازف وتغرف، وتلفلف وتعزف.

أو نجعلك تستمتع بألحان جميلة لا تستطيعها حنجرة بشر ولا جان، وأنت وزوجك بآلاء ربكما لا تكذبان : أن تفعل ما فعله ذاك الذي روى لي قصته أبي رحمه الله.

قال لي أبي : كان فلان فقيراً، ثم أغناه الله تعالى، وكان قد حلف أنه إذا أدرك الثراء قبل موته أن يتمدد على منضدة مرتفعة، وتضع زوجه ليرات الذهب على صدره وبطنه، ثم تتركه ساعة، ثم يأمرها أن تغافله فتدغدغه، فيضحك ويهتز كرشه، فتتساقط الليرات على أرض الرخام فيطرب لرنينها، فكانت زوجه تفعل ذلك له كل جمعة، وكان يقول : والله إن هذا الرنين لأجمل من أغاني أم كلثوم ألف مرة.

❑ ومن يقف في تقاطع طريق داخل دكا عاصمة البنغال مثل وقوفي ذاك اليوم يعرف مثل معرفتي. كنت أقف مشدوهاً أمام أُلوف من الركشا، وهي عربات الدراجات الهوائية والنارية تندفع في الشوارع تنقل الركاب، يجلسون خلف السائق، ومناظرها في تقاطعات الشوارع لست أُمثلها بغير غابة كثيفة من الدراجات تندفع مثل كتلة واحدة.

هي أُلوف، ومنظرها لم أره في مكان آخر، لكنه لقنني درساً !

هذا السائق المسكين الذي يريد أن يكسب قليلاً من المال بشرف، وبعرق الجبين ودفع عضلات أرجله، إنه يكدح، ويتعب تعباً مضاعفاً، فيؤسر قلبك له، لكن الذكي منهم يجعلها مرحلة في حياته، ويجمع من المال ما يشتري به من بعد دراجة نارية، فيمكث معها دهراً، فيجمع ليشتري سيارة أُجرة، وينتظر زمناً، فيجمع

ليشارك في شراء سيارة حافلة، وربما أستأجر غيره ممن هو أفقر منه من المبتدئين ليستعمل دراجاته الهوائية والنارية وسيارته ويتناصف معهم كسبهم، وهكذا تدور حياة هذا الصنف من الناس، تماماً مثل دورة حياة المخلوقات البرية أو البحرية، كيف تكون مخلوقات صغيرة لا ترى بالعين المجردة طعاماً لأكبر منها، وهذه تكون طعاماً لسمك صغير، وهذا يكون لسمك كبير.

إنه درس نافع، وكذلك دواليب السوق والتجارة والزراعة والصناعة، تدور وتدور، لكن من الناس من يفهم دورتها ويفطن فيركض معها. ومن الناس من يغفل عن ذلك، فيعيش عمره على هامش الدوران، وهو يدعى في الناس بالداعية المسكين الغلبان بن النعسان، من قبيلة الفلتان، من العرب البائدة لا من عدنان ولا قحطان.

□ **سيقال : تريد كل الدعاة رجال سوق وأعمال، إذن من يكتشف الفقه، ومن يبحث ويكتب، ومن يربي وينشر الدعوة ؟**، فأقول : لا داعي للوجل، فإن القدر يتكفل بتوزيع إخوانك، وكل ميسر لما خلق له، وليس كل من ناديناه يستجيب وينجح، والهمم مراتب، والأرزاق مقسومة قبل ندائي، وهي في السماء، ومن في الأرض نوازعهم شتى، ومحركاتهم مختلفة، فلم القلق؟ وأنا إنما أردت رجال الأعمال ليزودوني بالمال، **وبالمال أصنع الكفايات، وأفتح مراكز البحث وألج السياسة، وأنشر الخبر، و أطيل النظر، وأدفع الضرر، وأدخل البرلمان، واشتري الإنسان،** فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟

وسيقال : ستفتح باب التحاسد بذلك !

فأقول : أما المؤمن فيرضى ويدعو بخير لأخيه إذا وفق، وأما الحاسد فدعه وما اختاره ودعه يترك ويباعد، ووجوده معنا يعني أن هناك نوعاً من الخطأ ارتكبناه حين آويناه، ثم انكشف أمره، وهذا خير، والمحسودون محروسون بحراسة الله وبركة قرآن يتلى ومعوذات وصدقات.

وسيقال : فتحت باباً للدنيوي أن يتمول فيتبطر ويكسل ويتركنا !

فأقول: ولم لا، ضعيف لا تفضحه فراستك الضعيفة، فيفضحه المال، وتتخلص من عنصر لا بركة في صحبته، وأما الحر فهيهات لأنه أصيل، وفي أنفاسه البركات قبل أمواله، والموفق من وفقه الله والمخذول من خذله الله، لست عليهم بوكيل، ولا تعلم مكامن الخيرات، ومنطق الفقه يدعونا إلى اتخاذ الأسباب، وإشارات

العقيدة تحدونا إلى طرق الأبواب، والتثبيت من الله، ليس بدرس منك ولا حرص ولا خطاب.

❏ وأظن أن المجادل سيقاتل في خندق أخير فيزعم أن كون الداعية مهندساً يكفيه، وأداؤه الهندسي سيمكنه من تجميع انعكاسات الأداء المبرمج وإيحاء الآلة، ولذلك يكفي أن ندفع الدعاة إلى دراسة الهندسة وأداء الوظيفة الهندسية!

وهذا صواب ناقص مبتور، لأن صاحب المشروع الصناعي يشتغل بكل حواسه وطاقاته وإبداعه، فيكون الإيحاء التربوي المنعكس وافراً، وأما الأجير فهيهات أن يبلغ تشغيله لحواسه ربع ذلك.

❏ وهل يعني هذا أن التفضيل في الدعوة للمهندس، وأننا يجب أن ندفع الدعاة لدراسة الهندسة ؟

كلا ، بل الشمول أصوب، وفيمن تسوقهم الأقدار إلى الدراسة الهندسية كفاية، وما هم بقلة الآن، والواجب توزيع الدعاة الشباب الجدد قبل اختيارهم تخصصاتهم عند التسجيل في الجامعات إلى دراسة الإعلام والاقتصاد والعلوم السياسية، والقانون والأدب والتاريخ، إذ التربية كما أسلفنا ليست كلها ضمن المنهج الأسري بل بما يشيع في المحيط الدعوي في الحياة اليومية المنسابة من وجوه جَدَل مع الخصوم وردود وحجج، وهذه التخصصات الشمولية هي التي توفر ذلك، ثم لسنا نمنع شاباً أن يختار دراسة الهندسة والطب والفيزياء والكيمياء، وفي كلٍ بركة وخير.

إن محور فكرة لزوم الصناعة أننا نقول بوجوب العلم التطبيقي لنا وأن نبرّز فيه ونطوره ونكون قدوة الأمة في اكتسابه، و بالفحص نجد أن العلم في الغرب لم يزدهر إلاّ لأن الصناعة تتطلبه وتعتمد عليه، ولذلك تصرف عليه وتحرص على إسناد المختبرات والعلماء، ولهذا نطلب الصناعة نحن أيضاً من أجل تطوير مقدار علومنا، فإذا مارسناها : سنجد لها من الإيحاء التربوي الشيء الكثير، من تعليم النظام والمنهجية والصلابة والتحدي، فينضاف ذلك كعامل آخر يزيد مقدار حرصنا على أن نمارس الصناعة، ثم ينضاف طلب المال والغنى كعامل آخر.

❏ ثم ينسى آخر سياق البحث والمقدمات التي أسلفناها فيأخذ بظاهر الاصطلاح، ويظن أننا ندعو إلى مشروع صناعي واحد جبار ينافس المشاريع العالمية

العملاقة، فيدعو إلى إلغاء الفكرة، للصعوبة الظاهرة في إنشاء مثل هذا المشروع بالحجم الضخم.

وهذا خطأ ناتج عن سرعة في محاولة استيعاب ما نقول، ذلك أننا ندعو إلى مشاريع صناعية وتجارية صغيرة، يديرها الداعية الفرد، أو مجموعة دعاة شركاء عددهم قليل، ورأسمالهم في حدود الاستطاعة العرفية، وإنما تنتج صفة الضخامة من كونها كثيرة العدد، وتنتج صفة كونها مشروعاً واحداً من كونهم جميعاً من الدعاة الذين وحدهم الفكر ونسقت بين أعمالهم الخطط، ومن هنا كان الاصطلاح الذي وضعناه لهذا التوجه الواسع وتسميتنا له بأنه (المشروع الصناعي الجبار)، فهو تيار صناعي تجاري، يستخدم المال الحلال، ويهدف إلى استقلالية الأمة الإسلامية في وقت العولمة، وإلى تمكين الدعوة والدعاة، وإلى سيطرة إيمانية على حركة الحياة. ومن الواضح أن الدول الصناعية المتقدمة الكبرى قد أحكمت قبضتها الإحتكارية جيدا ، وتستطيع تقديم السعر الرخيص المنافس، وأن استقلالية الأمة صعبة المنال، ولكن ما تزال هناك ثغرات كثيرة يمكن الولوج منها، وما زال التملص ممكناً في بعض الميادين، وبعض الاستدراك أولى من الاستسلام السريع، ثم هي البركة من الله تجعل قليلنا كثيراً، ثم هي ظواهر حركة الحياة التي تجعل العاتي المستكبر ينبطح أحياناً أمام عوامل لم تكن في حسابه، فتصيبه بصداع ثم تراجع، فينفذ المستعد الحاضر من تلك الفرصة، فتكون الأيام دولاً بين الناس، وفي التواريخ شواهد.

❑ أول المشروع صندوق

وهناك جملة توصيات لمن يؤمن بضرورة هذا التوجه وبروم التنفيذ، أهمها :

❑ أن لا تكون أعداد المساهمين في المشروع كبيرة بمشاركات صغيرة، لأن صاحب المال القليل جداً مصدر إقلاق للإدارة، ويجزع عند الخسارة.

❑ أن يبادر بعض الدعاة الذين ارتادوا فنجحوا ووفقهم الله تعالى إلى إنشاء صندوق دعم المستثمرين الجدد، وأن يكونوا أول المتبرعين لهذا الصندوق بجزالة، ومهمة هذا الصندوق في كل بلد : تقديم راتب يكفل الموظف المستقيل الراغب بالتجارة خلال المدة الحرجة بما يكفي لمعيشة عائلته لمدة سنة مثلاً، وتقديم منحة له لتأسيس المكتب، وتقديم قرض يسترجع بعد تحقق الأرباح، وأمثال ذلك.

ولعل نقطة البداية تكون عبر قيام شركة إسلامية للإستثمارت والإستشارات وتعقد مؤتمرات على هامش المعارض التجارية، ويكون لها موقع على الإنترنت، ويرأسها رمز يستوعب هذه الخطة الإستراتيجية ويظل متحمساً لها، ويمكن لهذه الشركة أن تتولى صندوق دعم المستثمرين الجدد والمساهمة بعشرة بالمائة في كل مشروع جادّ، ويتيح لها ذلك أن تكون ممثلة في مجلس إدارة جميع المشاريع الجديدة المسندة من أجل ترشيدها.

ولست أشك في أن اتفاقية التجارة العالمية ستضيّق على صناعات الدول الفقيرة جداً وتزاحمها وتسلب منها شيئاً كثيراً مما يمكن أن تتمتع به اليوم، وقد جاء استدراكنا متأخراً جداً، ولكن مع ذلك : فإن حُسن التخطيط قد يمكننا من التملص من حصارهم الشديد وممارسة سلسلة أعمال صناعية صغيرة لا تستطيع الشركات الكبيرة العالمية أن تنافسنا فيها في الأسعار ربما، مثل :

- الصناعات التي تكون مواردها الخام محلية، فنحصل على فرق سعر النقل ونقدمها في بلدنا بأرخص من سعر المستورد لأنتفاء كلفة النقل.

- المواد التي هي كبيرة الحجم ورخيصة السعر، فتكون كلفة النقل عاملاً مهماً في تحديد سعرها، ونحن نصنَعها محلياً حتى ولو كنا نستورد مكوناتها، وبخاصة أننا يمكن أن نبيعها محلياً بدون تغليف، والمستورد يُغلّف، فنحصل على فارق سعر آخر.

- التصنيع الزراعي، وتحويل البذور إلى زيوت مثلاً، والتعليب الذي يحفظ المنتوج لمدة طويلة ونبيعه غالياً، أو في سوق آخر بعيد، وتدخل في ذلك صناعة الأعلاف من بقايا معامل السكر ومعاصر الزيت، وتحصيل فرق سعر النقل فقط يتيح لنا أن ننافس المستورد.

- تصنيع المواد المحلية وتصديرها، مما لا تستطيعه الدول الكبرى أيضاً، مثل تحويل الخشب المحلي في جنوب شرق آسيا إلى أبواب وشبابيك وأثاث يصدر إلى أسواق العالم.

- المقالع والمرمر والحجر، والمناجم والتعدين عموماً.

- إعادة التصنيع، كإعادة تصنيع ورق من الورق المستهلَك، وزجاج من القناني المكسورة.

• تجميع الكمبيوتر و الألكترونيات للتصريف المحلي، إذ تبقى احتمالات المنافسة قائمة لرخص اليد العاملة، وبخاصة مكيفات الهواء الكبيرة الحجم التي تمثل كلفة نقلها نسبة كبيرة من سعرها.

• صناعة الواح وجدران الاسمنت السابق الاجهاد بأبعاد قياسية تستخدم في البيوت الجاهزة والسياجات، ومواد البناء عموماً.

وهذه أفكار مستعجلة أردتُ من ذكرها التدليل على إمكان شيء، وعند الخبراء قول أدق، وعقد مؤتمرات لتعيين ما يمكن فعله أولى.

وفي كل ذلك تفصيل يؤخذ مشافهة، والسريرة الصالحة، ونية الإنفاق، والتفاؤل: هي المفاتيح ؟

❑ أسلك المسار... وشيّد ركناً في المشروع الجبار

إن روح الجهاد التي ننتظر م ن الصناعة أن تذكيها، المقترنة بمقاومة التطبيع مع يهود، ستدعمها نزعة تحدٍ واع للنظام الأمريكي العالمي الجديد، المنحاز للعدو، والقلِق من ومضات الجهاد ولمعات البوارق المؤمنة، وهذا التحدي للعولمة هو من مِنح الصناعة ومعايشة الآلات وفرقعة المعادن إذ تقصّ وتثنى وتَربط، فتتربّى قلوب على تلك الأصداء، تضع نفسها في موضع الإمامة، فيتربى ألوف مع كلِ إمام، وتتصاعد أحاسيس العزة والإباء والاستقلال، ويخرج لكل أزمة أصيلٌ يضرب المثل في الاستعلاء، فتزول عن كل مستضعف وساوس الاستخذاء .

والتحليل التاريخي يكشف لنا بوضوح أن سيطرة الأُمم الصناعية على العالم واستعمارها للأُم الزراعية لم تكن بسبب السلاح فقط أو وفرة المال الذي أسند مواقفها، وإنما كان أيضاً بأسباب التفوق النفسي الذي حصل لتلك الأُمم، وامتلاكها لعنصر الثقة بالنفس والاعتداد بالذات، وبروح المبادرة والمبادأة وحب الاندفاع إلى الأمام وإلى المجهول، وبروح التحدي والرغبة في الحسم والجزم والتقدم الحازم، والنظر المستقبلي البعيد، وحسن التخطيط، والطبيعة النظامية، والسلوك المنهجي، وما كانت جميع هذه المحاسن متولدة من فراغ، ولا تناسقت من لا شيء، إنما هي كلها من عطايا الصناعة وإيحائها النفسي وتأثيرها المعنوي، ولئن لم نعاصر المرحلة الأُولى من الاستعمار لندرك ذلك جليا، فإننا عاصرنا أزمة

الكويت، ورأينا كيف أن تحريرها لم يكن بتفوق الأسلحة فقط، وإنما بالتفوّق التخطيطي والخطوات الموزونة أيضاً، وما كانت تلك عطايا آنية بمقابل ارتجال لاصق بصدّام، ولا بأدوية تعاطاها جورج بوش اشتريت له من صيدلية، إنما كانت هي تراكمات السلوك المنهجي وانعكاسات البيئة ذات المستوى المنطقي الرفيع، وكنا قد رأينا قبل عشر سنوات منها تجربة مثيلة في جزيرة فوكلاند، لما احتلتها الأرجنتين عبر عملية قادها تبجّح ونمط فوضوي، فصبر الجيش البريطاني قليلاً، ثم استدرك بخطوات بطيئة، لكنها واثقة ذات حساب، وأنجز الدمُ الباردُ المهمة بإتقان، ثم في التاريخ تجارب كثيرة تشهد بمثل هذه الشهادة.

ولست أقبل منك أيها الداعية الانسحاب واتهام نفسك بضعف، إنما تتأسى بما كان من النبي ﷺ أول الوحي حين قيل له : اقرأ. فقال : ما أنا بقارئ، ثلاثاً، فقيل له : اقرأ باسم ربك الذي خلق.

قال ابن حجر : (أي لا تقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك، لكن بحول ربك وإعانته، فهو يعلمك كما خلقك). قال : ذكره السهيلي.

فأنت أيضاً أيها الداعية : تريد التربية على الجهاد بالصناعة، وتريد حفظ مكان للأمة في عالم الصراع زمن العولمة، وذلك أمر كبير شاق، لكنك لا تقيّم معاملك بقوتك ولا بمعرفتك، إنما بحول ربك وإعانته، فاقتحم، أنت لها، وربك يصنع معك.

قال ابن حجر :

(فإن قيل : لم كرر ذلك ثلاثاً ؟

أجاب أبو شامة بأن يُحمل قوله أولاً : ما أنا بقارئ على الإمتناع. وثانياً على الإخبار بالنفي المحض. وثالثاً : على الاستفهام. ويؤيده أن في رواية أبي الأسود في مغازيه عن عروة أنه قال : كيف أقرأ ؟ وفي رواية عبيد بن عمير عند ابن إسحاق : ماذا أقرأ ؟ وفي مرسل الزهري في دلائل البيهقي : كيف أقرأ. وكل ذلك يؤيد أنها استفهامية، والله أعلم.)[17].

وكذلك أنت أيها الداعية : تمتنع أولاً، ولك ذلك، فإن المشروع جبار يقذف الرهبة في قلب أشجع المسلمين. ثم ندعك على رسلك تؤكد عجزك فتقول : ما أنا

---

(17) فتح الباري 26/1.

بصناعي، ولا نلومك، لأن مناهج التربية السابقة أهملت تنبيهك إلى الدخول من أبواب التمكين، أما دلالك وغنجك إن أردته ثالثة فرفيض، لأنه محض تمريض، إنما لك أن تسأل فقط : ما أنا بصانع ؟ فتقول لك قرارات مؤتمرات الدعاة المختصين : اصنع كذا، واسلك اليمين، وأصعد، واعبر النهر، وتسلق الجبل، واهتف بالأذان، ونضع لك لكل ذلك هندسة وخارطة، **لكن بعد أن تسأل سؤالك الواعي : كيف أصنع ؟ وليس عند اعتراضك : لست بصانع.** ۞

ربما

يحار الداعية اليوم حين ينظر يميناً في الكتب فيرى أوصاف القادة التي ذكرها الفقهاء والحكماء والأدباء ترسم صورة لها جمال فائق وبهاء، وفي خطوطها ما ينبي عن تكامل ومنازل استثنائية إذا قاس نفسه بها ازدرى ما هو عليه، ثم ينظر يساراً يتمعن في الواقع ليرى أكثر رجال الطبقة القيادية أهل فضل وإيمان وشجاعة وبذل وذكاء، ولكنهم دون الصورة النموذجية المثالية الرفيعة التي انطبعت في ذهنه عبر الوصف النظري، فيبهت، ويأخذه ذهول، إلا أن التأول منه قريب، وسرعان ما يقنع نفسه بأن المكانة التي يفترضها الشرعيون والفلاسفة والشعراء الراثون والمؤرخون للقيادي إنما يتعمدون جعلها رمزاً تربوياً عالياً من أجل تحفيز الهمام لارتقاء وصعود، لعله يصل النصف أو الثلث، والثلث كثير، فيكون ضرب المجازيات وسيلة لاستنزاف طاقة موفق في نيته يرنو بعيداً، لكنه مأسور إلى طبيعته البشرية والمقادير المحدودة التي أودعها الله فيها من القابليات ودرجات الإدراك والتحمل.

• لكن الحيرة الكبرى ليست هذه، وإنما هي التي تستولي على الداعية حين يطالع مسيرة الدعوة في الحقبة الأخيرة خلال أكثر من نصف قرن، منذ الومضات الأولى حتى الامتداد العالمي، فيكتشف **أن الدعوة بحمد الله حافظت على وتيرة التقدم وحشد الإنجازات، وما زالت تنتصر لقضايا الأمة، وتنشر العلم والمعروف والأخلاق، وتزداد خيرا، وتضخم الصغير الضامر، وتؤجج معنى الجهاد، وتمضي واثقة في الدرب الحضاري الشمولي**، رغم ما هنالك من نزول مستوى الجمهرة القيادية عن الصورة المثالية المفترضة التي انطبعت في أعماقه لمعنى القيادي.

فكيف يحدث هذا ؟ وكيف نفهم الأمر على وجهه الصحيح ؟

هنا يتدخل التحليل الموزون منقذاً لكل حائر، ومؤيداً لكل فائر، فالبركة الربانية التي تتنزل على كل ذي نية نقية تأويل قريب أيضاً، أقرب من ذاك الأول، ولكن الله يجعل لكل شيء سبباً مرئياً محسوساً معقولا، وما هو بغريب عن منطق جريان حركة الحياة.

• التحليل المتأني يرينا أن هذه البركة الهابطة من السماء تتقمص أحد وجوه الأداء الدعوي الجماعي من غير أن يشعر الدعاة أنفسهم، ربما، إلا بعد حين طويل من المراقبة ورصد الظواهر والتأمل فيما كان بين كل مقدمة ونتيجة.

إن تجزيء الواقع الدعوي إلى أجزاء صغيرة، إذ هو كتلة مخلوطة مندمجة، يمنحنا إمكانية إعادة تركيب الشظايا المتماثلة، فتنفصل المعاني وتستقل، فيكون من الممكن تمييزها ورؤيتها مستقلة وفهمها.

وعبر محاولاتي في التفكيك والتركيب : هداني ربي إلى الانتباه إلى الإشكال بحمد الله، مما يتيح لنا المزيد من الإتقان في استعمال بعض الظواهر الحيوية والدعوية التي يتيح التركيب فهمها استعمالاً أوسع وجعلها مورداً من موارد الإنتاج والتقدم والإيجابية، بل مورداً ثرياً جداً يقفز بخطط التطوير قفزات جريئة نحو الأمام، وسيكون في ذلك ـ بعد تقرير القضية ـ البرهان الجلي على **حاجة الأمر الدعوي إلى الفكر الدعوي حاجة حتمية قبلية، قبل التوغل، فعبر الفكر يمكن فهم المعضلات**، وإدراك الطريق الأقرب إلى تحقيق الغايات، ولن يعمر فكر من غير تفريغ داعية مخضرم طال تجريبه، تفريغه من رهق التنفيذ الإداري اليومي وتدبيرات المعاش، ليصفو له الوقت، ليفكر نيابة عن رهطه، فيرجع لهم بالرأي والفقه والتخطيط والتعليل وسر حركة الحياة.

إن العملية القيادية في المحيط الجماعي الدعوي لها مجريان يكشف عنهما التدبر الهادئ لطريقة ولادة كل خير أو إنجاز أو عمل كبير وإحلاله في عالم الواقع والتأثير :

❑ **المجرى الأول : يكون عبر تجزؤ الوصف النموذجي للقيادي وحلول أنواع من أجزائه في المجموع**، وذلك قَدَر رباني محض جعله الله تعالى سبباً لظهور البركة، وتأتي الحقيقة التنسيقية المتولدة من وجود كيان دعوي لتترجمه إلى " مقدار " من التأثير، يجتمع إلى مقادير أُخرى، فيكون زخماً يحرك الحياة. وهذه إحدى منح العمل الدعوي الجماعي التي لا يغفل عنها الفرديون فقط، بل حتى الدعاة يلبثون في رفل من عطائها دهراً، ولربما لا يعرفون دقائق عملية تسلسل ورودها وظهور الأثر الدعوي الإيجابي وكيفيته من أجل السيطرة عليه والتحكم ومضاعفة المحاسن الناتجة منه، وكلنا نلهج بأن من ميزات العمل الجماعي التنسيق، **ولكن نجهل كيفية ولادة هذا التنسيق ومراحله وصوره العديدة**، وهو جهل ضار، أقل سلبياته تعطيله للطاقات وهدره بعض " أكمام " طاقات الصفات القيادية التي تيسرها طرائق

الفيزياء الدعوية كمثل تيسير فيزياء الكم حصول تأثيرات الأشعة والموجات الضوئية والكهربائية، سواء بسواء، لأننا نعيش وإياها تحت سقف واحد اسمه " الحياة " التي تخضع لقوانين واحدة وظواهر متظاهرة متكاملة، وكما صرخ (ماكس بلانك) الصرخة الثانية في التاريخ بعد صرخة أرخميدس الأولى وصدع في برلين أنْ قد وَجَدها : أن الطاقة ليست سيلاً متصلاً ولكنها أكمام متقطعة متتالية : يؤذن للداعية الباحث عن " فقه الدعوة " أن يصرخ أنْ قد وجد " معادلة التأثيرات القيادية "، وأنها نفس معادلة بلانك تماما، وأن الطاقة الدعوية القيادية إنما هي أكمام موزعة متكاملة، وأن معادلة قياسها هي :

عدد أفراد الجماعة الدعوية × ($6.63 \times 10^{+1000000}$) = التأثير القيادي الموسمي

فرقها عن معادلة بلانك أن السالب أصبح موجباً، فقط، مع التضخيم، لأن القياس هنا ليس عبر ثانية، بل عبر موسم.

وذلك أن البحث الدقيق يرينا أن تلك الصورة المتألقة للقيادي، التي رسمها الفقهاء والفلاسفة : لم يخلق الله منها إلا أفراداً قلائل في الأُمة الواسعة كل قرن، لا طاقة لهم أن يرفأوا الفتق، ولكن الله تعالى بحكمته وزع الأوصاف القيادية على عشرات أُلوف في الأمة، فإنك لا تجد النقي الشجاع المتئد الكريم الصبور الحليم الذكي الفقيه البليغ المثابر الثائر السريع النهضة الحاضر البديهة إلا قليلا، لكنك تجد أُلوف الأتقياء، وأُلوف الشجعان الكرماء، وأُلوف الأذكياء، وأُلوف الفقهاء، ولا يعدو أحدهم قَدْره المختصر الناقص، فيقرن بين التقوى وضحالة العلم، وبين الشجاعة وعي اللسان إذا تكلم، وبين الذكاء والغضب، والمثابرة والتهور.

- **هنا يأتي أُسلوب تركيب الأجزاء الصغيرة المتناثرة والشظايا المبعثرة، كفرع عملي للأداء الدعوي الجامع، فينضم ألف جزء من الشجاعة عبر الخطة لتكوين "كتلة شجاعة" تحتل حيِّز الشجاعة في الوصف النموذجي للقيادة، وتملؤه إلى حد الكفاية وزيادة. وينضم ألف جزء من الذكاء عبر المراكز واللجان لتكوين "كتلة ذكاء" تحتل حيِّز الذكاء في الوصف النموذجي للقيادة، بل وتتحول إلى"عبقرية " كاسحة للعقول الفردية التي تعاكسها، وكذا الصفات الأخرى، وبهذا الانضمام والاجتماع تتكون "القيادة الجماعية" التي تتمثل فيها الصفات القيادية النموذجية جميعاً إذا أحسن مهندس التركيب تصاميمه وجعل طرق الالتقاء سالكة.**

وكنا لا ننتبه إلى هذه الإمكانية المتاحة لتحشيد القابليات المتماثلة التخصصية في تيار واحد عاصف لأن بقية من المفاهيم الفردية كانت عالقة بنا، جعلتنا ننتظر إنجازاً عظيماً من الفرد، ونحلم بالقائد الفذ الذي جمع المناقب الفردية، البارع في كل فن، المعوض بشخصه الوحيد عن نقص الجمهرة، حتى تحوّل هذا الوهم إلى مرض نفسي يوسوس لنا بالإحباط، إذ وجود هذا البطل الشمولي عزيز إن لم يكن أقرب إلى المستحيل، أو نخرج إلى خداع أنفسنا، فنزعم أن فلاناً هو الذي استوعب وجمع وأحصى الأخلاق والمهارات، ولعله هو نفسه أعرف بقدر نفسه وقصوره عن وصف المعجبين به، فيرفض الوهم، فيزداد الأتباع تعلقاً يظنونه يتواضع، ويكرر النفي، ويرفضون، حتى ييأس فيستسلم ويبدأ يعتقد ما يعتقدونه من الإحاطة ومقاربة العصمة، وما يدري أنهم بصنيعهم إنما يملأون فراغاً نفسياً يستبد بهم من حيث لا يشعرون، ويرون في تخيل القائد الملهم تعويضاً عاطفياً عن حالة العجز، فيدورون في لا عقلانية، تسلمهم إلى لا واقعية، لأن آلة القياس ومعيار الفحص وقواعد فهم الحال وموازين إدراك الموقع من مسيرة الحياة كلها خطأ في خطأ، وتعمها فوضى، ولو حللوا مثل تحليلنا لعرفوا أن التعويل في حركة الحياة كما يكون على عاتق الأفذاذ القلائل أهل الكمال : يكون عبر تركيب شظايا الخير أيضاً وربطها وتكتيلها وإطلاقها، فتكون جارفة لما أمامها، فتنعطف الحياة انعطافاتها الكبرى، فإذا كان انتظار الفلتة الخيرية القدَرية صعباً، فإن التكتيل الألفي أسهل وأسلم وأبقى وأمضى، وبذلك تعود القضية القيادية قضية " منهجية " قبل أن تكون "تفتيشاً عن عباقرة"، وقضية "فكر" قبل أن تكون مزاعم شاعر و مؤرخ، ثم هي هندسة وتخطيط وتقاسم أدوار، وتبرأ أن تكون رؤى مُغرم وإحالة اتكالي يأنف الانسحاب، فيدّعي الحياء من أن يتقدم بين يدي كامل، ويخترع مثاله الأعلى ويوهم نفسه بالإذعان له، وما ثَمّ شيء، والمخرج إنما يكون بإفاقة التوابين، وتوكل السائرين، وأن ينزل كل داعية إلى الساحة العملية الدعوية الإنتاجية مهما عابته أنواع النقص، يعرض ما يحسن، ويهب ما يملك، ليكون مفصلاً أو عتلة أو حتى مسماراً في الآلة الهادرة.

• وأثناء ذلك لن نزهد بداعية مهما بدا ساذجا، فإنّ حال مَن اكتشف المغزى الدعوي فبايع لن يُغلق على عجز تام، بل إن كان بطيء الفهم فاتر التعلم فقد يكون سريع النفرة جادا في الجهاد، وإن كان قليل العبادة فلربما تلمس منه لمعة اجتهاد، وهكذا سائر الصفات، وبإمكان " غرفة السيطرة التربوية " أن تشخص حالته وتكتشف مقادير العدل والعوج فيه، فترشحه لما هو له أهل، وتصبّ فيه

خيراً، وتقوم بتجبير رجله العرجاء، فيستوي مهرولا، ثم تقدمه هدية إلى "غرفة السيطرة الحيوية" لتعصره وتستنزف منه كل سيل الأكمام.

وما قلناه من أن الدعوة تتقدم في طريق الإنجاز بخطى واثـقة، وأن ذلك يحيّر الداعية الذي رَصَد فصدمه غياب المثال الأعلى الشمولي : فيه دليل على أن الجيل الماضي من الدعاة والجيل الحاضر قد أدركا عطايا العمل الجماعي وأثر الأداء الدعوي في إبراز القيادة الجماعية، ولكننا نتحدث عن مستوى هذا الإدراك والوعي، وهل هو تام أو بالمستوى الكافي الذي يجد لكل الطاقات قنوات خيرية تجري فيها.

هنا أنا أزعم أن ذلك لم يكن كافيا، لا لضعف في الهمم، بل لضعف في فهم انسياب هذا التوزع القدري للصفات في مجموعة الدعاة كلها، والرزح تحت ثقل مفهوم القيادة الفردية، فلم يكن حشد التخصصات وافيا، ولا إجراءات التكامل، وكنا ندع المبدع لقدره، يعرض نفسه إن استطاع أو ينسحب ويركن لخمول، وفراستي تدلني إلى أن تحليل طريقة عمل القيادة الجماعية إذا شاع وآمن به الدعاة فإن أضعاف حجم الإنجازات السابقة مرشحة للظهور والحلول في عالم الواقع في السنوات العشرين القادمة إن شاء الله، وهي سنوات الحسم كما تفيد معالم التطور الدعوي.

❑ القَـدَر يضمن كتلة إيجابية في الجماعة كل يوم لكن يتبدل مُكَتِّلوها

❑ المجرى الثاني للعملية القيادية في المحيط الجماعي : استثمار اللحظات الرحمانية في الداعية الواحد وانتظار تراكمها ليتكون منها رصيد يكفي لإحداث زخم مؤثر في مسيرة الدعوة، ثم لاحقا في حركة الحياة.

وسبب هذه الظاهرة أن ساعات المؤمن ليست متساوية، وإنما هو يتأرجح بين رغبة وعزوف، ونشاط وكسل، والمربي العاجز عن إدراك هذه الحقيقة الخلقية يعتدي على نفسه وعلى الدعوة فيجنح إلى تضعيف المتأرجح إذا قضى الله أن يأتيه ويربيه حين استيلاء قـدَر الكسل عليه، ولا يفطن إلى ضرورة الصبر على خطوه الوئيد الذي سيتسارع مع ورود الخير والنشاط وفق عملية التناوب التي لمهرة المربين خبرة بها، ولو هدي لصبر وسمع صدى بذله، ولكنه يستعجل ويخرج إلى ملل، مع أن العقيدة تقرر بوضوح أن الإيمان يزيد وينقص، والصحابة تقرر أن للقلوب إقبالا وإدبارا، لكنه لا يتعمق في فهم مغزى هذا التقرير.

والمجتمع الدعوي حين توسعه أثناء مراحل العمل المتقدمة يصير مجتمعاً ضخماً جداً تقدره بعشرات ألوف المخضرمين والقدماء، مع أضعافهم من الجدد وأنصار الدعوة، حتى يكون المليون هو وحدة الإحصاء، فلربما ربع مليون أو نصف مليون أو المليون كاملا وأربى، فتكون الومضات والنبضات والسكون والجوامد والسكتات في هذا المجتمع الضخم مختلطة، إذ الشيطان لا يزور الجميع في وقت

واحد، وإنما يغزو، فغافل ومنتبه، ولذلك تضمن الصفة الجماعية وجود ثـلّة يقظة متحفزة فاعلة في كل وقت، ليست ثابتة الأشخاص، وإنما هم يتبدلون، لكن ضمن هذا المجموع الضخم، **فلن تغلـق الجماعة وأنصارها على تفريط وتضييع وخمود، بل في لحظة القياس الواحدة هناك شطر من مجموعة الدعاة دائب في العمل والإنتاج، لكن الأشخاص الذين يمثلونه يتبدلون،** كمثل تبدل أشخاص الخفارات في الجداول الإدارية لتنفيذ الأعمال الاستـثـنائـية في غير وقتها الطبيعي، وبين التقدم والتأخر منازل، وأصحاب الدأب سائر ومهرول وراكض ومحلق ذو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، ثم أصحاب العزوف فاتر وبطيء وواقف ومسرف يتراجع ومَن هوى، والمهم أن لا تفزعنا أخبار التسيب، لأن لنا في أخبار الباذلين سلوة، والشطر المعافى القلب من كتلة الجماعة، المعروف بوصفه في كل حين لا بأسماء أفراده : هو الذي يجب أن تلحظه غرفة السيطرة القيادية وتسعى لتوظيف نبضاته ضمن البدائل التخطيطية الكثيرة، وبمثل هذا كان تطور الدعوة دائما كأسلوب ثان مقترن بأسلوب تركيب الشظايا، وبمثل هذا سيكون استمرار تقدمها المستقبلي، والكل تحت المشيئة الربانية وفي خضوع للقدر الخيري الذي ينتخِب أصفياءه، ولقدرِ الشر الذي يستزل ضحاياه، وكل ميسر لما خلق له، وقد رفعت الأقلام وجفـت الصحف، وقد تبدو بعض ملامح الحكمة في التوزع إذا كان المؤمن يقيس وفق موازين الشرع، ثم قد تبدو له بعض الطرقات التي يسلـكـها الحياة عند تحركها وإن كان هناك ضباب، ولكن الله جعل الإتقان سبباً للإجزال، **وغاية هذه التحليلات إقناع الدعاة بوجود تطور دعوي ينتظرهم إذا أتقنوا التحرك المنهجي الواعي هو أضعاف ما يحصل من السير العفوي.**

☐ البؤرة القيادية الجامعة لمتناثر الإيجاب

والذي يتحصل من هذه التحليلات أن القادة ثلاثة :

☐ فقائد فرد بلا أعوان وأتباع، وإنما هو يعمل مستقلاً لوحده، يحركه الإخلاص، وتستفزه مصالح الأمة، فيحاول تقديم ما يستطيع في صورة أمر بمعروف، ووعظ وحث، وكتابة وتأليف وأداء إعلامي، وهذا هو أشبه أن يكون من صنّاع الحياة من أن يسمى قائدا، وفي حاله تتضح أهمية الصفات القيادية العالية في تقرير نجاحه في إحداث تأثير في جمهور المسلمين أو محدودية الأثر، فلا شك أن عمق إيمانه وقوة شخصيته و وفور علمه وبلاغة لسانه وقلمه ورصانة منطقه وحِدّة ذكائه : كل ذلك يحدّد درجة تأثيره، إذا ساعدته أسباب أخرى، من الصحة، والفراغ، والمال، والأمن.

❑ وقائد دعوي، وهو في الصفات مثل الأول، لكنه يعمل مع عصبة من أمثاله، فتزيده المحاورة والمناظرة نضجاً ووعياً، ويزيده شعور الانتماء الجماعي ثقة، فيكون أصبر وأشجع، ثم هو والعصبة الأقران يمارسون **الفذلكات التنظيمية والتخطيطية لتجميع وتركيب الشظايا الإحسانية الإتقانية المتوزعة في الأتباع الكثيرين، فتتكون من ذلك عملية قيادية جماعية واسعة عريضة**، توفر جميع أنواع الصفات الإيجابية، من إيمان وشجاعة وعلم ووعي، بكميات ضخمة تتحول إلى تيار جارف للأضداد، فتكون تحولات كبرى في مسيرة الحياة في القطر الذي تعمل فيه، كمثل ما انتقت عصبة العلماء اليورانيوم الخصب، واستوعبته في ثلاث وعشرين من الأوعية الصغيرة، تم دمجها في لحظة الحاجة، فتحقق الوزن الحرج لليورانيوم الخصب، فحصل الانفجار النووي الذاتي ودمرت ناكازاكي وأزال كبرياء اليابان، وأنا أُقدر مثل هؤلاء القياديين الذين تتكون منهم البؤرة القيادية المتمكنة من جمع الشظايا المتفرقة وإزالة كبرياء مانعي الحرية بمائة قيادي في البلد المتوسط ذي العشرين مليوناً، وبمائتين في بلد كبير ذي ستين مليونا، ووجودهم ضروري، والقول بإمكان تحصيل جهد قيادي عام من تجميع الشظايا القيادية لا يلغي الحاجة لهؤلاء، لأنهم هم أصل هذه العملية التركيبية، وهم مهندسوها.

❑ وقائد رجل دولة، يماثل قادة الدعوة فيما يفعلون من حشد الطاقات الصغيرة وتوظيفها في عملية قيادية جماعية، إلا أن الفرق يكمن في أن قادة الدعوة يستعينون بالترغيب، لأن الأتباع إنما اتبعوا عن رضا وطواعية، ورجال الدولة يعينهم الترهيب من بعد الترغيب، والقسر والإلزام والإجبار الذي يحصل إلى درجة البطش، وهنا تكمن نقطة الضعف الكبرى التي يمكن أن تستثمرها الجماعات المعارضة، إذ أن أصحاب الكفايات يخضعون زمناً، ثم يفتشون عن طريق للتملص والنجاة، وكان صدام حسين مثلاً يأمر بإعدام الهارب من جبهة الحرب الإيرانية أمام داره ويجبر أمه وأخواته وخالاته وعماته أن يزغردن لحظة قتله، وكان نسيبه حسين كامل يضرب رؤساء المهندسين ويجعلهم مثل الكرة بين رجله إذا تأخر أحدهم خمس دقائق عن وقت بدء العمل في معامل التصنيع العسكري، وكان نادر شاه قبل أكثر من قرنين يجعل عوائل جنده رهائن يبيح أعراضهن إذ هرب الجندي، في عشرات الأساليب التي يبتكرها مَن يتسلط، وذلك دأبهم منذ التاريخ القديم، والقرآن الكريم يتحدث عن تقتيل فرعون لأولاد بني إسرائيل، وإنما نجا موسى عليه السلام بمعجزة، إلا المتسلط الأقرب إلى العدل مع قومه، فإنه يستخدم الترغيب والترهيب معاً في تكوين عملية قيادية جماعية، وهو ما حدث في الغرب في القرنين الأخيرين ودفع المسيرة الحضارية وحكر نتائجها لنفسه دون أُمم الأرض،

فأوصله إلى مرحلة العولمة التي هي في حقيقتها : الانفراد بالقيادة، ولولا أن الدعاة يعلمون أن الظلم مصرعه وخيم لوصلوا إلى يأس، لكنهم يفهمون من مجمل موازين الإيمان والسنن الألهية الكونية أن ظلم الحاكم لقومه أو ظلمه لغير قومه سواء، وعما قريب تفتق الفتوق على الظلم الاحتكاري الغربي وتتنفس أُمة الإسلام، لابتناء العملية القيادية الدعوية على الترغيب المحض دون ظلم مبدؤه الترهيب، والأُمة في حالة فراغ قيادي، وكفر بالنكرات، والقيادة الدعوية هي التي ستملأ الفراغ، وفقاً لفيزياء ارخميدس العتيقة الأولى الإزاحية، دون حاجة لشهادة من بلانك وفيزياء الكم وأخبار مختبرات القرن الحادي والعشرين.

☐ في غير الدعاة طاقات شتى يمكن أن توظفها الخطة الدعوية

هذه الظاهرة في تركيب شظايا الصفات القيادية عبر العمل الجماعي تعمل كذلك في المحيط الاجتماعي العام الأوسع الذي لا يربط أفراده التزام مع الدعاة، وليس في المجتمع الدعوي الخاص فقط، وبذلك يمكن توظيف طاقات أهل النقص والعيوب أيضاً، ومَن يتألم منهم القائد الفردي وينكر حالهم، لا طاقات الدعاة فقط.

• فالوعاظ والكاتبون يكثرون من ذم الناس، ويرون تبدل الزمان، وذلك دأبهم جيلاً بعد جيل، منذ صدر الإسلام، فيقول أحدهم :

ذهَب الرجال المقتدى بفعالهم
والمنكرون لكل أمر منكَر
وبقيت في خَلَفٍ يزين بعضه
بعضاً، ليدفع معور عن معـــور

وقال آخر : نحن في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدبارا، والشر إلا إقبالا، والشيطان في هلاك الناس إلا طمعا. اضرب بطرفك حيث شئت : هل تنظر إلا فقيراً يكابد فقرا، أو غنياً بدل نعمة الله كفرا، أو بخيلاً اتخذ بحق الله وفرا، أو متمرداً كأن بسمعه عن سماع المواعظ وقرا ؟

وهذا من القول الصادق، وهكذا هي الحياة، وهذا هو المجتمع، لكن الطريقة الدعوية في التعامل مع هذه الحقائق المؤلمة تختلف جداً عن طريقة الفردانيين مهما صلحوا.

• تختلف أولاً في الوصف، فما ذكروه إنما هو ظاهرة عامة يتلبس بها أكثر الناس، لكن الاستقراء الدعوي يأبى أن يقول أن جميع الناس قد تلبسوا بهذه الأسواء، وإنما هناك بقية ذات بقية، هم الذين عنتهم الآية حين يقول القرآن (فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ)، وأول هؤلاء : المكابدون الذين زفروا هذه الزفرات واستفزهم الجحود والجهل، **وعلى هذه القلة التعويل في الإصلاح إذا اجتمعت وانتظمت ووضعت خطة الاستدراك واستقبلت الحقيقة المرة استقبالاً إيجابياً ينطلق من عزم مبْرَم على احتلال الموقع القيادي في المجتمع، ومن موطن الفوقية يمكنهم بث التربية والترغيب**، مع مقدرة على النهي والترهيب عند الحاجة، بعدل وبمقدار، فتكون مقاربة.

• ثم تختلف ثانية في المقدرة الدعوية على التعامل مع هؤلاء الناقصين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب أحد أنواع النقص هذه، وهذا مؤسس على رأيٍ وفكرٍ دعوي أسبق منه يقوده، مفاده الإذعان لهذه الحقيقة التي استفزت الصالحين : أنها شرٌ ملازم وظاهرة في الحياة لا يؤذن لأحد أن يكون عنها بمعزل، فأحلام المدينة الفاضلة الفلسفية وهْم، وأكثر المجتمع يرزح تحت نوع من أنواع الظلم والسلب والكفران، **وإنما التعويل على " فن الصفوة المؤمنة " في تحصيل جزء خيري من الناقص في ساعة من ساعاته ينتظرونها في شكل أريحية تغمره يعرفون بالفراسة متى تعتريه، فيوافونه حين ورودها**، فينتزعون منه ما يأباه في الساعات الأخرى، أو يدغدغون عواطفه فيصلون إلى مرادهم منه، ثم يعطونه مهلة أُخرى طويلة، ثم يعاودون، أو يفهمون إملاء الظروف والتحديات الكبيرة على النفوس، فيتقربون من مترف أيقظته المواجهات الحاسمة، فيستخلصون منه مشاركة عما قريب ستنقطع إذا بردت المنافسات، فيجمعون ما يأتي من هذا وهذا وهذا، التي لعلها أرقام مليونية، **فتكون زخماً مؤثراً في الحياة تمكنت الخطة من جمعه وتوجيهه كتيارٍ فاعل،** وربما أتت هذه المشاركات في صورة عمل شجاع جهادي، أو تبرع بمال، أو كتابة مقالات صحفية تدافع عنا، في أشكال أُخرى كثيرة، أدناها : منح صوته الانتخابي لنا عند الاقتراع، أو الشفاعة لداعية، أو رفع ظلم، أو إهداء سر، وكل هذه الأفعال الخيرية ممكنة من فاسق وجاحد وبخيل وغافل، لا على سبيل الخلق الدائم، وإنما على سبيل الفلتة الموسمية عند استيقاظ قلبه من غفلة مسيطرة هي الغالبة عليه، ولكن الحنين إلى الفطرة يجعل انتباهته ممكنة، وإن كانت نادرة، والفردي المتألم الذي قال الشعر الآنف لن يعدو قدره، وما هو بمستطيع أن ينتفع من إفاقات السادرين، وكذا أمثاله، **لكن الفن الدعوي عبر التخطيط الحسن يمكنه ذلك، فيجتمع الخير الصغير إلى مثله، ثم إلى أمثال كثيرة له، فيكون خيراً كبيرا،**

ولـن تسـتنكف الطريقة الدعوية من ذلك، لأنها تدرك أنها مجبرة على أن تتعامل مع حقيقة حيوية آيتها : أن أغلب الناس صرعهم نوع من السوء أو أكثر، ثم يجمعون معهـا الـتعامل مع حقيقة حيوية أخرى مفادها : أن الناس قائد ومقود، وأن الدعاة عـبر احتلال المركز القيادي يمكنهم تركيب شظايا الخير في المجتمع العام أيضاً، وحشـدها فـي تـيار واحـد، وهـم فـي عملهـم هذا كأنهم يستثمرون العطاء الرباني المذكـور فـي قول أبي الدرداء رضي الله عنه : تعرضوا لنفحات رحمة الله فإن لله نفحـات يصـيب بهـا مـن يشـاء من عباده، وذلك لأن الفعل الحسن الذي يبديه أي مسـلم إنما هو انعكاس لهذه النفحة الربانية في ساعة من الساعات الرحمانية، ولسنا نـدري علـى وجـه التعييـن مَن هو السعيد الذي تصيبه النفحة فيفعل خيرا، لكن هي موجـودة فـي كـل سـاعة، والفـن الدعـوي يكلف الداعية أن يطوف الصفوف وزوايا المجتمع يبحث عنها ويقطف أزهار من حلّت فيهم النفحات كما يخرج العطار أيام الربـيع يجمـع أزهـار الـبابونج الصـفراء ليسـقي نقيعها من بعد إلى لاهث فيتنفس، أو كمـا يجمـع الأزهـار الزرقاء في بوادي خراسان ليسقي ماءها إلى مهموم حزين فيسري عنه وينطلق مبتسماً من بعد عبوس.

- وقريب من مغزى هذه المعادلة قول الشاعر :

* الناس إخوان، وشتـّى في الشِيَم *

فـهُم يستوون فـيِ الخِلقـة الإنسانية، وبيـنهـم قاسم مشترك حتى في الأخلاق، مـن حـياء ورحمـة مثلاً، واحترام الكبير، ونجدة المظلوم عند الاستطاعة، لكنها في المقاديـر الدنـيا مـن هـذه الأخلاق، وتكاد أن تتلاشى عند بعضهم، وأما المقادير العظمـى مـن هذه الأخلاق وغيرها فإنها تتوفر في معظمهم، ولكن بصورة مقـصـورة، فلكـل فـرد خلـق واحد يحل فيه بمقدار كبير، وبه يوصف ويكون له جنسية وشهرة، وأمـا بقـية الأخـلاق فهـي ضـامرة فيه، إلا مَن رحم ربك، فيقال فلان كريم، وفلان حلـيم، وفلان حريص على التعلم، وأما الذين يجمعون صفات عديدة خيرية في آن واحد فعددهم قليل.

وفي شعر البحتري يمدح صاحبه أنْ :

خِصال الـنُبل في أهل المعالي مفرقـةٌ وأنـت لـهـا جِـمـاعُ

والشاهد فيه أنه يلتقي مع ملاحظتنا ويؤيد أن (خصال النبل في أهل المعالي مفرقة) موزعة، ومعنى ذلك أن اليد الخبيرة والخطة الماهرة تستطيع أن تجمعها وتجنيها كما يجني البستاني الثمر ويتم التعبئة ويتاجر به، فالخطة الدعوية يمكنها إنتاج أعداد كبيرة من هذه الوحدات الأخلاقية المجمعة المعبأة في عبوة قياسية نموذجية، فتكون كأنها نسخ كثيرة من هذا النبيل ممدوح البحتري، وبهم تصول الدعوة صولتها التفوقية.

❑ منهجية الأداء القيادي تتيح توجيه المشروع الحضاري

ومثلما ينتظم الأداء الاقتصادي في الحياة البشرية عبر مجموعة من الأثمان والأوزان تحدد مراتب الأشياء وتمنح قيمة نسبية لكل جهد أو خدمة أو معدن مستخرج أو مادة خام تلتقط، ومن ثم قيمة لكل منتوج هو حاصل الجمع بينهما، وإرجاع كل ذلك إلى قيمة الذهب كمحور تدور عليه التقويمات : فكذلك العمل الفكري السياسي الاجتماعي : إنما ينتظم عبر وضوح أثمان مفرداته وأدوات تشكيله، وتحديد مراتب الجهود والخدمات، وترتيب جدول " النظام القيمي " لأنواع الأداء فيه، والشأن الجامع لهذه الظواهر أنها تتكامل مع العلم التطبيقي ومع الأدب والرصد التاريخي وبقية العلوم الإنسانية، ومع الفن، لتكوين أداء أوسع وأشمل : هو الأداء الحضاري، الذي تحتاج كل أجزائه إلى هذه الأنظمة القيمية، من أجل أن يسترسل مستمرا، فإن أصاب التقويم بعض خلل وفوضى، بتصغير الكبير، وتكبير الصغير : اضطرب الأداء، ونقص بمقدار المفارقة والجنوح.

هذه المقدمة ضرورية لفهم مكانة " القيادة " في المشروع الحضاري الإسلامي المعاصر، وقيمتها وبيان أهمية دورها، وتأثيرها في الأداء الدعوي الذي يقود بمجمله هذا المشروع الحضاري، في عملية قيادية مركبة، بؤرتها أولئك المائة في البلد المتوسط والمائتين في البلد الكبير. بمعنى أن العمل الدعوي يقود المشروع الحضاري الإسلامي عبر جميع أنواع الأداء، مثل الأداء الفكري والفقهي الاجتهادي، والأداء العلمي العام، والأداء السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإعلامي، وإحياء عوالي المعاني بالأدب، وترويج النظر الجمالي بالفن، بوسائل التخصص والجماعية والأنماط المؤسسية، ثم يتقدم الأداء القيادي من بين كل ذلك ليقود بدوره هذا العمل الدعوي، طبقاً يركبه الأداء عن طبق، في تداخل وتظاهر، بهما تكون " القيادة " المحور الثاني بعد محور " مجموعة الأحكام والموازين الشرعية والفكر الاجتهادي المستند إليهما " في عملية الإداء، وهذه المحورية تمنح القيادة ولا شك أهمية بالغة وقيمة استثنائية كبيرة في سلم القيم،

تستوجب بالتالي أنواعاً من الاحتفاء بها، والإعانة لها، وتطويرها، وتوفير احتياجاتها، ورصد حصة من الجهود لتحقيق وجودها بمقدار مناسب، مع تقنين حقوقها وواجباتها بما يضمن الوضوح في الأداء القيادي، والاستمرارية، وإخراجها من أن تكون آنية، أو عفوية، أو مشتبهة غامضة، إلى أن تكون محكمة هادفة دائمة.

☐ تكوين داعية واحد إنما تترجمه عملية جماعية ذات ألف تأثير

ولئن كانت الثوابت الفكرية في الدعوة تمثل شطر الضمانة في عدم الانحراف، واللبث الدائم على الخط، فإن " ثبات " زمرة القادة المائة أو المائتين على الخط، وإبداء الشمم والأنفة إزاء المغريات ودواعي اللين، والصلابة في اعتقاد ثوابت الفكر : يمثل الشطر الثاني في الضمانة، وهو الذي يمنح السير الدعوي استقامته، واستقلاليته عن الأغيار، والانتصاب في عرصات الحياة كتلة متميزة يرصدها الناظرون والمتعاملون بسهولة، فيؤمها المؤمن آنذاك، والتائب، والمستدرك، ومَن جرّب الأغيار فزهد وانفضح له عوار كل كتلة جاهلية على الساحة. وهذا يعني أن العملية التجميعية تستند إلى هذا " الشخوص القيادي المميز" مثلما تستند إلى البشارة والنذارة و "الاتصال الفردي" الذي يقوم به الداعية في حركته اليومية، مثلما تستند أيضاً إلى المساندة الإعلامية والنتاج الفكري والآلة الدعوية التي يمسكها الداعية بيده ويقدمها إلى المدعو، من كتاب وصحيفة وشريط، وبذلك ينهار الزعم الذي زعمه الافتراض الواهم بأن نشر الدعوة يمكن أن يكون عبر الاتصال والواجب الفردي فقط، وهو افتراض لا يشهد له تحليل العملية الدعوية وكيف تتم عبر تكامل مكوناتها، وكانت له جناية على المصلحة الدعوية، فقد عطّل التجميع الواسع، وعطل الايجابيات التربوية الكثيرة المنبثقة تلقائياً من حالة النجاح في رؤية الدعاة أنفسهم يزدادون، وأول تلك الايجابيات : الثقة بالنفس، والاعتداد، وتأسيس الأمل، وارتقاب الفرج. وتنتج من حالة الجمود الناحتة من العدد ولا بد أسواء مقابلة. أضرها : اتهام النفس بالعجز، والانحدار في درك التشاؤم، ووساوس من ألوان الإحباط، فما يكاد أحد من أنشط الدعاة أن ينجح في كسب فرد جديد يحوله من سائب إلى ملتزم، لانقطاع متوالية المؤثرات المنتجة لمحفزات كثيرة هي التي تدعو ذلك السائب إلى التعلق بمن يمنحه إياها، وبذلك لا يقتصر هذا الافتراض الواهم على تعطيل التجميع وإنما يؤدي أيضاً إلى تدمير نفسي تدريجي يدبّ بخفاء يعطل التطلعات التي اكتسبها الدعاة القدماء، فيصيبهم خدَر، وتثاقل إلى الأرض، وتعويل على معجزة غيبية ترفع عنهم رهق البذل والصبر، وتظهر موجة من رؤى يطلبون تفسيرها عند الصالحين أو من كتاب ابن سيرين، ولربما استبدت بأحد الدعاة ذكرى الأيام الطيبات فيجد في ساعة خفة ميلاً إلى انتفاضة على واقعه، لكنه سرعان ما يكتشف أنه كالأسير الذي أوثقته الحبال والقيود، لن تزيد حركته عن تململ، ويكون أعجز عن خاطرة ثانية تطرقه، حتى يستسلم عند ثالثة أو رابعة ربما، كأنه طير ذبيح تتناقص رجفته حتى يسكن،

فيعود الداعية محبوساً في جلده، يرى بعينه، ولا تسعى قدمه أو تبطش يده، فتتوالى مجموعة أسواء ثانية تغزوه ولا يستطيع لها ردّاً ولا طرداً، بينما تضمحل هذه الظواهر السلبية في الأيام الطبيعية حين يكون التكامل بين شخوص القدوة والذخيرة الفكرية والأداة الإعلامية منتجاً لتجميع وازدياد، حتى الساذج والكسول والعاجز الذين لم ينجحوا في كسب جديد إنما تعتريهم نشوة نفسية عبر فرحهم بالتوفيق الذي يجري على أيادي غيرهم من الدعاة، لأن الدعوة ملك مشترك لا يحوج أحداً إلى إبداء جسد أو تفكير باستئثار، فما من جديد يضاف إلى الرهط إلا ويشعر الجميع بأخوتهم له وبازدياد الرصيد الجماعي، **إذ كان انضمامه** نتيجة اجتماع جهد من الجميع رغم انتساب الوافد إلى داعية واحد، ليس فقط في صورة فكر دونه أحد آخر انتفع به الجديد، أو في انتصاب القيادة قدوة رمزية له، أو في بذل خدمات مؤسسية زادته قربا، وإنما حتى في صورة دعاء من ذاك العاجز، أو تمويل من الآخر الكسول، أو تكثير سواد من الساذج لمنظر المجمع الدعوي قذف في قلب الجديد نسبة من الطمأنينة مهما كانت ضئيلة، وهذه التحليلات ما هي من الخيال، وإنما هي من الخبرة التجريبية التي يكتسبها الدعاة عبر الممارسة الطويلة وتقلبهم في يوميات العمل والقرب من العاملين في الساحات الجزئية، فيتراكم رصد مسالك الدعاة في العمليات التبشيرية التجميعية لدى كل مراقب من التربويين والمخططين حتى يخرج الواحد منهم باستنتاج مماثل لهذا يستيقن معه **أن كسب فرد جديد إنما هو عمل جماعي تعاضدت فيه جميع أنواع المؤثرات**، لكن القائد إذا عزل نفسه عن مخالطة أتباعه في ساحاتهم الجزئية واعتمد الوكالة والرواية فإنه يوشك أن ينسى هذه العوامل الجماعية في إنجاح الاتصال الفردي، فيزعم إمكان تحصيل نتيجة من الأداء الفردي ويغفل عما يظاهره، فيرهق أتباعه من أمرهم عسراً، ويكون التعطيل، ثم الدمار النفسي، بما سوغ لنفسه من عزلة عن المجموع المنبث في الساحات العملية الجزئية، فما عاد يرى المراحل السبعين التي تمر بها عملية " ضم جديد " إلى صفوف الدعوة، والتي يؤثر في معظمها مجموع التنوع التخطيطي، وفنون وأساليب الأداء التنفيذي، **ويكون "ثبات" القيادة من بعد "ثوابت الدعوة" من جملة المؤثرات الحاسمة في تحديد وجهة الجديد واستمراره وتصاعد أحاسيسه، وكلما زاد الحضور القيادي في هذه العملية : زاد ولاء الجديد، واقترب أكثر، في إطراد**، حتى لتتحول العلاقة إلى نوع هيام بالقائد إذا كان متميزا في معانيه، بليغاً في مبانيه، ثم إلى تعلق قلبي شديد بالقيادات الدعوية المتكاملة الأدوار، من إعجاب بشعراء الدعوة واتخاذ أبياتهم شعارات وحكم يرددها، ومن اعتقاد لاجتهادات مفكري الدعوة في ربطهم بين الواقع المتجدد والموازين الشرعية، ومن اقتناع بتحليلات سياسية يدلي بها قياديون آخرون، وارتداع عن غيّ وإبطاء عن المعصية تقذفه في قلبه تخويفات الدعاة الواعظين، وانتفاع بمقارنات تاريخية تكشف عنها بحوث المؤرخين، بحيث **أن "الجديد ما بين انتباهته من رقدة الغافلين حتى استوائه ضمن الصف" يكون قد تعرّض ربما لألف دفعة تأثيرية قيادية بدرت من مائة داعية قيادي في بلده، من بين سياسي وأديب وفقيه ومؤرخ وفنان وإعلامي، يتصدرهم القائد الأول بهيبته وسمعته وحسن**

سمته ودلّه وهديه، والقابع منهم في زنزانة ليس بأقل تأثيراً وتحفيزاً عبر قيام قصته كدليل عملي على البذل والثبات، ونقل الملائكة لخبره إلى قلوب طاهرة، حتى الشهيد في قبره شريك في تربية كل جديد، بما ضرب من مَثل على صدق انتساب القافلة المعاصرة لقافلة ربانية واحدة عتيدة تحدث عنها القرآن، وهذا المعني القانوني لشهادة مسلم قتيل هو أحد المعاني التي يتضمنها اصطلاح " الشهيد " في العرف العقيدي الإيماني، فإنه، في أحد مراميه : هو شهيد على وجود ظلم، وشهيد على أن ما معه هو الحق الذي ما زال يحمله منذ ألوف السنين " ربيون كثير " فيثبت بشهادته القضائية هذه " الأصالة " وعراقة الانتماء. وتقترن بهذه المؤثرات الألف على طول المدى ألوف ومضات أخرى مماثلة تأتي عبر الحدود من مجموعة القياديين في العالم لتؤثر في الجديد الثاوي في أي قرية، عبر كتاب أو خبر، وقد أتاحت المخترعات اليوم ذلك، فإن كان البلد " سجناً كبيراً " توصد أمام هذه المؤثرات الإسلامية الخارجية أبوابه : قام من ذلك دليل على وجوب مضاعفة المؤثرات القيادية المحلية، وليس العكس، كما ذهب إليه وهم الزعم بتجريد العملية التبشيرية الفردية من أبعادها الجماعية ومواردها القيادية، وهو الوهم الذي سيطر على قيادة من القيادات أكثر من ثلاثين سنة حصل فيها تجميد التنظيم وتعليق التخطيط والتنفيذ وتبكيت " الفرد المقصوص الجناح " بعدما وهن عن خفقات يطالبه بها إعنات تعجيزي يتجاهل ظواهر الحياة، وكان التسويغ عند الاحتجاج يستند إلى منطق تجنب محنة، دون النظر إلى أن هذا التجنب يؤدي إلى تفويت استنبات جيل جديد، ويؤدي إلى ذبول القديم.

• هذا ما لقّننا إياه التجربة الميدانية والنزول إلى المستويات الدنيا في أكثر من قطر مع اختلاف الساحات الجزئية، مما تركنا نجزم بأن الأداء القيادي هو الشرارة القادحة لزناد العمل الإسلامي العريض، فإذا افتقدنا الصاعق : دام السكون، مهما كان المخزون قابلاً للإنفجار أو الاشتعال، وهذه حقيقة قدَرية وسنة كونية، ليس من الصواب تجاهلها، وأولى إسالتها بترتيب وتقنين وسلسلة صمامات آمنة ومسالك ومداخل، في عملية توزيع تسيطر عليها رقابة ومنظومة قيم وأوزان تجعل لكل شيء قدْرا، وهو ما يعيدنا إلى المعايير التي سلفت في صدر الكلام، وإلا فإن عاصفة ذات رعد وبرق قد تفجأ، فتسقط صاعقة ينفجر بها المخزون المكشوف القابل للأنفجار حين يترك عاريا، وهو في مثل العراق يكون في صورة هنود خضر يغزونه من جبال الجزائر مهلهلين، ويرمون سهامهم النارية فيكون اللهيب، وهو الأمر الذي خفته وأرعبني وأرهبني وأقلقتني توقعاته فأصدرت فتواي بكسر حاجز الفردية وأجزتُ الحفَظة أن يؤمنوا الطرق ويمنعوا قطع السبيل المسترسل المنساب الهادئ، فإن الوهم في الزعم أورد احتمالاً لفوضى ذات هَرْج من حيث أراد صاحب رأي التعطيل منعها، لغياب هذا التحليل عنه حين افترض افتراضاً خيالياً سريعاً إمكان ما لا يمكن وتسليك ما لا قناة له، ونسي الطوفان إذا تراكم الماء بلا

تصريف، ولم يعظه ذكر سيل العرم حين تلاوة القرآن، وكأنه يستروح أن المحنة حين ذاك لا تقع عليه وعلى مقلديه، وإنما على دعاة تجاوزوا وخرقوا الأمر، وكأنهم ليسوا ضحية خطأ التحليل، ولا تدرأ الغضبة عنهم شبهة التأويل.

❑ تجريد عملية التجميع من روافدها القيادية يوقفها

وفي التطبيقِ العملي لظنون إمكان تجريد العمل الفردي عما يسنده من التأثير الجماعي : قطع الامتداد الزمني المستطيل إمكانية تصويبه، فإن الخطأ حين التجريب الأول قد لا يبدو سريعاً موضعُ المفارقة فيه، فيمنح المختلفون مدة انتظار طويلة يرجون بذلك فرصة إثبات الظنون عملياً أو قيام شواهد نافية وقرائن تلغي الظن، وقد حصل ذلك بما فيه الكفاية وزيادة، وطرأت ظواهر ضعف عمّت أكثر أفراد الجيل القديم، أقلها : وقف التطور في المستويات التربوية، فيحافظ المرء على ما اكتسبه وما يكاد. وأما النحت فكثير، والصدأ وذهاب البريق، وخمول الذهن عن تداول المعاني الدعوية، وتشتت القلوب مع الهمم الدنيوية، وضمور الأحاسيس الأُخوية، حتى أن تعمّد الزيارة والتفقد لا يكون بتاتاً، ويكتفى باللقاء القَدَري التصادفي، وهذا حال يقوم كبرهان على خطأ ظن تجريد وَرَدَ به التجريب، ويمكن أن تقع هذه القصة في بلد آخر، وبذلك تعدى قولنا أن يستند إلى التحليل فقط، بل إلى مفاد الواقع المنظور جلياً، وتعدى أن يكون رواية إلى أن يكون تقرير درس دعوي عام الدلالة.

• هذا يعود بنا بلا نكير إلى ما تقرره بدائه العقول وما قررته ملاحظاتنا الأولى من منح العمل القيادي أهمية محورية وأساسية في المسيرة الدعوية، ليس إسناد عملية التجميع الفردي إلا واحداً من وجوهها العديدة، وذلك أن الموقف القيادي الصلب هو الترجمة العملية أيضاً لثوابت الدعوة الفكرية، وعن القيادة ينبثق حسن التخطيط، وشخوصها يحقق الامتلاء النفسي عند الأتباع، ويجلب الوحدة، ويكبت الفتنة، وحقائق الإقتداء تنبعث تلقائياً بلا إهابة وتكرار تذكير، وأيما رأي طارف مفيد سوف لا يبقى حبيس صدر صاحبه، بل يجد له مسرباً عبر القيادة التي تعممه وتضيفه إلى رصيد الوعي، بل منها تبدأ التحولات الكبرى الاستراتيجية، تنبيهاً واكتشافاً وتوصيفاً وتخطيطاً وتنفيذا، ومنها يكون القرار الحاسم إذا تردد المترددون، وبُعد نظرها توائم بين الأداء الدعوي والحاجات الحضارية الشمولية، لما يحتاجه الأمر من إطلالة معرفية عريضة هي أحرى أن تكون الحائزة لها.

من هنا نستطيع أن نتغنى حالمين متمنين محلقين في آفاق الخيال الرمزي لنتصور صفة القيادي في الرهط القائد.

• فالقيادي، الذي هو أحد هؤلاء المائة أو المائتين في كل قطر، الذين يمثلون قلبَ العملِ النابض وروحه الوثابة : هو مسلم أول أوصاف هويته التي تبيح له أن يزعم شيئاً ويأمر بآخر : أن يكون له في الحياة الواقعية السائرة أثر وبصمة مشاركة.

فمما اكتشفه السلف أن المكانة القيادية نتيجة، لها مقدمة من عمل.

والناسُ أكيس من أن يبرزوا رجلاً

حتى يروا عنده آثار إحسانِ

فالمنزلة القيادية لا تؤسسها رغبة مستشرف لها، إنما هي مجموعة إنجازات ترفع صاحبها.

• وقد تشفع وراثة أب، أو تلمذة لعالم، ولكنها تبقى مرجوحة وفي منزلة ثانية، والأصل العصامية والإبداع والتكوين الذاتي.

وهو مفهوم أحمد بن سهل للقضية، فعنده أن :

(الرجال ثلاثة : سابق، ولاحق، وماحق.

فالسابق : الذي سبق بفضله.

واللاحق : الذي لحق بأبيه في شرفه.

والماحق : الذي محق شرف آبائه)[1].

فالأول فقط هو الذي يتعامل من موطن قوة، ويؤهل للصدارة، لأنه قد وضع ختمه الخاص على منتوجه. وأما الثاني فمكانته مجازية وتشفع له علاقته بذي شرف مضى. ونعوذ بالله من آخر لا يكتفي أن يكسل عن إضافة حتى يكون لما ورث هادما، وكذا النفس أحيانا إذا ارتكست، لا يرضيها إلا أن تبالغ.

• ويبدو لي عند التأمل أن اللاحق قد يرضى بسير الهوينى إذا كان المبدع المؤسس حيّاً، يستحي أن يتقدم بين يديه، أو حتى أن يقارن أو يساوي، لكنه إن رأى الساحة تشغر برحيل أبيه أو أستاذه : بادر للتعويض والحفاظ على وتيرة

---

(1) المستطرف من كل فن مستظرف 205/1.

الأداء العالي، يحركه الشعور بالمسؤولية، وارتفاع الحرج عنه إن احتل المقدمة، وهو معنى ابتكره أرسطو يوم مات الإسكندر فقال :

(أيها الملك : **لقد حرّكتنا بسكونك.!**)[2].

وهذه إشارة في أوج العلو، فيها ما هو أكثر من المقابلة البلاغية.

بل قول يكشف عن معادلة مهمة من معادلات حركة الحياة.

فوراثة القادة لا تكون بنحيب، فذلك شأن النساء، ولا برثاء، فذلك شأن الشعراء. ولكن بنفضة وعزائم وحركة تتم ما بدأوه، وتنشر ما أسسوه .

وهكذا تتحرك الحياة، فهي في جزء منها : مجموعة مبادرات واستدراكات، يتم بها اللاحق ما بدأه السابق، ثم يزيد.

• وبسبب هذه المتابعة استوى علم القيادة وتراكمت أعرافها، فهو من علوم الخبرة التي تنمو ويكتب كل جيل سطراً في وثيقتها، ويضيف كل قائد خطاً في صورتها ولوناً وظلاً ونورا، وتغدو التجربة محوراً لتطوير مفادها وتوسيع آفاقها والتعريف بأخلاقها.

فمن فصاحة العربي قوله لما سُئل : هل لك بالأمور ؟

فقال :

(إني لأنقض منها المفتول.

وأبرم منها المحلول.

وأُجيلها..... حتى تجول

ثم أنظر فيها إلى ما.... تؤول.).

وخلاصة ما يفتخر به، أنه لا يلقي قوله على عواهنه، ولا يدلي برأي قبل تعتيقه وتقليبه، فهو يحلل ويركب ثم يرقب مستقرّات الأمور بعد تحريكها ليجزم بالرأي النهائي، وتلك هي أرفع الممارسات القيادية عند قوم يعقلون، وبهذه الطريقة تتم صناعة القرار الجيد، وتتكشف البصائر السياسية.

• لكن طريق ذلك التشاور والمحاورة والمناظرة.

---

(2) المستطرف 377/2.

وهو قولهم :

إن اللبيبَ إذا تفرّق أمـُره   فـَتـَقَ الأُمور مناظراً ومشاورا

فيعود مجتمعا.

حتى كاد التفرد أن يكون جهلا ، وجزموا بتصنيفه عجزا.

فقد تساءلوا : مَن العاجز ؟

فقيل : (المعجب بآرائه، الملتفت إلى ورائه).

ذلك أن حصيلته لا تكون كتلة واحدة مجتمعة تقوده، بانتصابها أمامه، فتجذبه، وإنما أمره موزع، فهو مضطر أن يلتفت إلى الوراء ليضم أمره إلى بعضه من بعد شتات، فيكون ذلك أول التأخر، بل أول الجبن والوهن، كجفلة الظبي إذا التفت إلى ذئب يطارده : ترعبه، فيكون إبطاء، وارتجاف، وعما قريب يفترس.

• وأكثر تعباً من هذا المنفرد : مَن يختار صحبة الجاهل، فكأنه رضي أن يعاقب نفسه، كما قال أبو الأسود الدؤلي :

(إذا أردتَ أن تعذب عالما، فاقرن به جاهلا).

فإنه سيعكر عليه صفاء أوقاته، بالقول السخيف، والتصرف الأرعن، فيتبدد رأيه هو، إذ يبقى أكثر ساعاته آسفاً متوترا، ويفقد صوابه الذاتي بالتعطيل.

• لكن المستبد بالصواب : عاقل يحاور عاقلا ، كالذي أنشدوا

وما بـقـيـت من اللـذات إلا   محادثة الرجال ذوي العـقـول

وُصنـّفت في اللذات لأنها تؤدي إلى اكتشاف ما يليق من التصرف، فيكون ابتعاد عن خطأ، فيسعد بمكوثه الطويل مع ما هو صالح ومفيد.

وقيل : الرأي السديد أحمى من البطل الشديد.

بل هو لا يحـوج لـه أصلاً، بما يلـقن صاحبه من تملص من مواطن العطب، وتحاشي أسباب المشاكل، وليس يحتاج العلاج صحيح، ولا يسأل الدفاع مستقيم لم يجنح، وإنما هو المريب يضطر الناس أن يقوموه.

ولذلك يغلب الرأيُ المفردُ الكتيبةَ الألفية الخشناء الطيشاء.

وقد قال أبو القاسم النهروندي :

وما ألف مطرور السنان ُمسدّد　　　يعارض يوم الروع رأياً مسددا

وهذا مفهوم معرفي يشهد به التاريخ المدني، فإن الحضارة إذا حرّرت الفكر، وأذكت الأدب، وأرست القانون، ومثّلت الفن : فلنفسها مهدت، و لاستمرارها قدمت، وإنما هو دفاع معرفي يأتي أحمى من حركات سلاح لها ضريبة ثم سمعة سوء، فإن كان لابد من مواجهة : كان التفلت إلى جانب، فيكون الانقضاض المهيمن على قفا قوي متوغل خالف المفاد.

• ومن هنا كانت " محادثة الإخوان " هي الطريقة القديمة التي لا تبلى، والنمط العتيد الذي لا يتطرق إليه ملل، فكل فن مصطنع يقذف في القلب سأما، ويحتاج صاحبه أن يعود إلى الفطرة والسليقة السلسة، إلا الحوار العقلي : تظل النفس عطشى له، لأنه غير مفتعل، فتكون به السلوة، ولن يزهد به سمير.

وقد قال معاوية رضي الله عنه :

(شربتُ الأشربة.... حتى رجعت إلى الماء.

ولبست الثياب.... حتى اخترت البياض.

فما بقي من اللذات ما تتوق إليه نفسي إلا محادثة أخ كريم.).

• وهذا تمييز وتخصيص يمنع اختلاط المعاني، فليس هو كل أخ تتوق إليه النفوس، وإنما هو الكريم فقط، وذلك شرط.

وفي القصص : أن معاوية كلّم الأحنف في شيء بلغه عنه، فأنكره الأحنف، فقال معاوية : بلّغني عنك الثقة !! فأجاب الأحنف أنْ : إن الثقة لا يبلغ مكروها.

• وهذا الاستدراك الحق من الأحنف في وصف ُخلق مهم من أخلاق الثقة : يفتح الباب لمستطرد أن يتوغل في اكتشاف بقيتها، التي تأسست في الابتداء وقبل كل شيء على نية جازمة بلزوم أوصاف التوثيق ومقصد فعل الخير وإضمار ما هو حسن، مما لا يحوج المتعامل مع الثقة إلى مطالبة وتذكير وموعظة، كالذي كان من الخليفة المتوكل ناصر السنة رحمه الله.

قال عبد الأعلى بن حمّاد : دخلتُ على المتوكل فقال : يا أبا يحي : قد هممنا أن نصلك بخير فتدافعته الأُمور.

فقلت : يا أمير المؤمنين : بلغني عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال : مَن لم يشكر الهمّـة : لم يشكر النعمة.

وأنشدته :

لأشكرنّ لك معروفاً هممتَ به فإنّ همك بالمعروف معروفُ (3)

فالهمم جزء من محركات الحياة، بل لها زخم قوي في هذا التحريك، ولولا نوايا المعروف وإلحاحها على الأحرار ودفعها لهم نحو دروب البذل لسكنت الحياة وخمدت ما بين نائل متبطر ومغلوب حزين، إذ الحائز يرضى فيخدر، والآسف مكبوت هامد، ولكن نفضات الهمم تحمل الـهمام على استئناف وزيادة، أو شق حصار الألم، فيجذب الأمل.

وتلك هي ترجمة حكمة مَن قال :

أمس مثل، واليوم عمل، وغد.... أمل.

• **وهي بدورها معادلة من معادلات حركة الحياة لو تأملها الفاحص بروية، فكما أن الأمل يغري باستمرار المسيرة، فإن دروس الأمس تدفع وتضبط التقدم، إذ ليس أمس الفائت مجرد زمن انصرم وأنتهى تأثيره، ولكنه مجموعة دروس تجريبية توجه** وتهدي، وهو أيضاً مجموعة أساسات لأخلاقيات أرساها الـهمام يحرص على أن ترتفع جدرانها وتستمر ويخشى توقفها، كالذي أشار إليه إبراهيم بن المهدي عم المأمون حين ثار عليه ثم عفا عنه، فقال :

(والله ما عفا عني المأمون تقرّباً إلى الله تعالى، ولا صلة لقربى، ولكن له سوق في العفو يكره أن تكسد بقتلي.).

فهذا محرك من محركات الحياة آخر، يدعو صاحب السوق الرائج أن يوالي ترويجه، فالعفو صفة ثبتت للمأمون، وبها لهج الشعراء، وصارت له علامة، ويكون هو الخاسر لو قطع استمرارها، إذ يفقد الرصيد المتراكم، ثم الله أعلم من إبراهيم بدواخل الصدور : إن كان المأمون يتقرب ويتخلق معاً، أم يكتفي بصناعة العفو.

• لكن الأقرب في مشاهدات الحياة أنه يجمعهما، كما قال الشاعر :

إذا رام التخلـقَ جـــــاذبته

خلائقه إلى الطبـــع القديــــــم

---

(3) المستطرف 338/1.

وليس في ظاهر ذلك شهادة للمعنى، لكن في الباطن يكمن إيماء، فإنّ التخلق المتكلف لا يصمد أما الخلق الأصلي الذي جبلت عليه نفس المتصنع، لأنه على الضد من ذلك، وجذره أعمق وأقوى رسوخا، إنما يستعين المتخلقون بالتعبّد والتأله، فلربما يتيسر لهم ذلك بالإعانة والتوفيق.

ويؤيد هذا المعنى ما يقوله فقهاء النفس من أن الرادع ذاتي داخلي ينبع من أعماق الشخص، وليس ينفع حث خارجي.

وروي أن أبا العتاهية مَرّ بدكان ورّاق، وإذا بكتابٍ فيه :

لا ترجع الأنـفُسُ عن غيّها ما لم يكن منها لها زاجرُ

فقال : لمن هذا البيت ؟

فقيل : لأبي نؤاس، قاله للخليفة هارون الرشيد حين نهاه عن حُب الجمال وعشق الملاح.

فقال : وددت أنه لي بنصف شعري.

وهذا البيت يكشف عن حقيقة تربوية مهمة، فإنّ الأخلاق والتقوى لا تقتحم على صاحبها من خارج في عملية اختراقٍ سريعة إذا احتاج مشرفٌ على ذنب لها، وإنما هي نتاجُ بطيء يترسب في القلب ذرة بعد ذرة في عملية تربوية طويلة يدفع المعلم أجزاءها إلى تلميذه تباعا، حتى إذا وصلت كثافتها إلى درجة ما : فإنه يؤذن لها آنذاك بالتأثير وردع صاحبها، وتقوم في قلبه كواعظ داخلي تحركه ضد المنكر وكل شيء اعوج بحساسية بالغة، وغاية التربية أن توصل المرء إلى هذه الحالة الرقابية الذاتية، ثم تدعه بعد ذلك يقود نفسه مميزاً الصواب، وهذا ملحظ لابد لكل مربٍ أن يدركه، فإن الموعوظ إذا بقي عالة على واعظه كل دهره فيكاد الواعظ أن يكون لم يفعل شيئاً، إنما هي الدفعة وإعانة المبتدي، ثم المتوغل أعرف بنفسه.

ويتمم هذه الملاحظات ما قد قيل من أن :

(جرعة النصيحة مُرة، لا يقبلها إلا أولوا العزم.).

فهي ليست مرفوضة من الجميع، إنما ينتفع بها أُناس هم فوق المستوى العادي، قد روضوا أنفسهم، وأعلوا هممهم، فانبغى لهم تصميم وإصرار على تناوش الأمر الرفيع، يبذلون له الإذعان لما تكرهه نفوس المستكبرين.

• ويظل هذا التمرين على الإذعان يتحكم ويسيطر على حركات النبلاء حتى يحولهم إلى حالة فهم مغزى النبل ومعناه وحدوده وطرائقه، ويتركهم على أهم خلق من فروع النبل، عنوانه : أن النبيل يرعى مَن دونه، ويكفله، ويربيه، ويصوبه، ويمنحه فرصه للإقتباس والتشبّه، ويظل يطرد هذا الأسلوب عنده حتى لا يبقى عنده حساسية تنفره من غافل يقارف وفاسق سادر، بل يراهم ضحايا لتأثيرات سوء، ويجعل واجبه الانتشال، ويفهم أنه أمام معادلة أخرى من معادلات حركة الحياة، عنوانها هذه المرة : **التأثير في الحياة عبر إضافة جهد الفسقة في ساعاتهم الخيرية إلى جهد الصالحين، عن طريق قيادة الطائفتين، بقبول الولاء من قوم تعبيهم الطاعة.**

ولست أرى ذلك إلا مذهب معروف الكرخي الزاهد، فقد قال أحد أصحابه :

(كان معروف قاعداً يوماً على دجلة ببغداد، فمرّ بنا صبيان في زورق يضربون بالملاهي، ويشربون، فقال له أصحابه : أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء ؟ فادع الله عليهم.

فرفع يديه إلى السماء وقال :

إلهي وسيدي : كما فرحتهم في الدنيا أسألك أن تفرحهم في الآخرة.

فقال له أصحابه : إنما سألناك أن تدعو عليهم، ولم نقل لك ادع لهم !!

فقال : إذا فرّحهم في الآخرة : تاب عليهم في الدنيا.)(4).

فأصل أمرنا الدعوي وشعورنا قائم على محبة الناس والعطف على العصاة والفساق ومحاولة انتشالهم مما هم فيه، لا الشماتة بهم، ولا تركهم لشيطانهم.

ثم قد قادتنا هذه الملاحظة بالتجربة الدعوية إلى نظر تخطيطي دقيق، فهؤلاء أهل الطرب والمجون تكمن فيهم قابليات لومضات إيجابية، فلماذا أدعها تفلت مني ولا أحوزها بجميل تعاملي معهم وتوسعة صدري لهم ؟

• **وأنا ما زلت ألحظ في أوساط الدعاة توتراً حاداً من مناظر اللهو والغناء والسفور والاختلاط، واهتماماً مضاعفا، إذ الأمر أبسط وأهون، فبدلاً من التوتر**

---

(4) المستطرف 215/1.

واستهلاك النفس أسفا : يمكن اتخاذ نظرية الولاء أصلاً لحل المعضلة، وتحصيل خير هؤلاء بالحسنى، وتوظيف شظايا خيرهم ضمن خطة الحل الإسلامي، فإنه سيوجد حلاً تلقائيا لمشكلتهم ودواء من أزهار أرضهم نفسها، ويكفي الله المؤمنين التوتر والقتال ببديل من العلاقة السلمية الواقعية المستثمرة لإحسان لا يخلو منه طروب، وبإعانة من أصواتهم وأموالهم وجهودهم أحقق تبدلاً في مسيرة يوفر جواً يصلحهم هم أنفسهم قبل غيرهم ويوفر لهم محيطاً نظيفاً يتناوشون فيه التوبة من قريب.

لكن كم داعية يدرك هذه الفذلكة التخطيطية ويكبح شهوة نفسه في التعامل الغليظ مع الفساق ؟

ونحن نزعم الجماعية، ولكن ما تزال فينا مفاهيم الفرديين !

ونزعم التخطيط، ثم نهدر طاقة في المجتمع لعلها ضعف طاقتنا.... !

- **إن هذه الرحمة إذا قصرها الأدب الزهدي على طبيعة أخلاقية فحسب، فإن فقه الدعوة يعدّيها إلى أبعد من ذلك، ويجعلها قاعدة تخطيطية تمنح العمل الإسلامي تفوقاً استراتيجياً في الصراع، وليس من ثمن لها غير تعويد الدعاة أنفسهم كظم الغيظ والعفو عن الناس وبذل الحب للمسيء كبذله للمحسن. وسبب هذه القابلية على تحويل الطبيعة الأخلاقية إلى حقائق تخطيطية يكمن في الصنعة القيادية التي حبانا الله بها، واستطاعتنا إدارة جانب من الحياة بها، وشدّ شطر المجتمع إلينا واقتفائهم لأنماطنا وأعمالنا، ودفعهم إلى عمل الخير وتحقيق المصالح الإسلامية عن طريق الإقتداء بنا، والتقليد لنا، والمحاكاة، عبر الفن التربوي الإملائي الذي نمهر فيه، حتى لو كان يلفهم فسوق.**

- ووقفة تأملية أمام مشهد من مشاهد الحياة تكشف لنا بالتحليل شيئاً من هذه المعاني، وأن الحياة صراع قادة وأتباع لهم مع قادة وأتباع.

قال عبد الملك بن عمير فيما روى عنه الثوري :

(رأيت رأس الحسين رضي الله تعالى عنه بين يدي ابن زياد في قصر الكوفة.

ثم رأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار. ثم رأيت رأس المختار بين يدي عبد الملك.

قال سفيان : فقلت له : كم كان بين أول الرؤوس وآخرها ؟

قال : اثنتا عشرة سنة)[5].

فتعال وحلّل : يتضح لك أن اللاحق استدرك وجمع أتباعاً فزاحم فتمكن وأزاح. فهذا المشهد الحيوي مليء بالحركة، وينطق بما لم يقله هذا المراقب من صنعة التنافس المبنية على الصنعة القيادية التربوية.

وصاحب النقص في التحليل سترهبه الأقدار الربانية التي جعلت التحولات تترى سريعة في هذا المشهد، وأبدته مفعماً بتدحرج الرؤوس، كأنه فلم سينمائي لألفريد هيتشوك، فلربما يهاب ويظن أنا ندعوه ليعلو ليتدحرج رأسه، وليس كذلك الأمر، بل هناك مَن يسيطر ويستمر له الأمر دهراً طويلا ، وإنما جيء بالمشهد لازدحامه بالدلائل، وليس هو النمط الغالب، ولئن نقصت أصحاب تلك الممارسة فنون تربوية وتنظيمية وتخطيطية يديمون بها تفوقهم، فسهلت إزاحتهم، فإن للمحتاط النبه الحازم أن يحمي أمره بهذه الفنون، ونعيش اليوم زمن نكرات أداموا بالاحتياط أزمانهم عشرات السنين، وهم على باطل، وصاحب الحق أحرى أن يطيل أيامه باحتياط مثله.

❑ والذي يؤكد نفاذ هذه الصنعة القيادية التي تسوق الناس إلى مثل ديدن القائد : أربعة مشاهد حيوية أُخرى من مشاهد الخير والشر، يعرفها الكثير ولا يتفطن لمغزاها ومعناها وفقهها إلا القليل.

(روى أصحاب التاريخ في كتبهم قالوا :

• كان الناس إذا أصبحوا في زمان الحجّاج يتساءلون إذا تلاقوا : مَن قُتل البارحة، ومَن صُلب، ومَن جلد، ومن قطع، وما أشبه ذلك.

• وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع واتخاذ مصانع، فكان الناس يتساءلون في زمانه عن البنيان والمصانع والضياع، وشق الأنهار وغرس الأشجار.

• ولما ولي سليمان بن عبد الملك، وكان صاحب طعام ونكاح : كان الناس يتحدثون ويتساءلون في الأطعمة الرفيعة، ويتغالون في المناكح والسراري، ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك.

• ولما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان الناس يتساءلون : كم تحفظ من القرآن، وكم وردك كل ليلة، وكم يحفظ فلان، وكم يختم، وكم يصوم من الشهر)[6].

---

(5) المستطرف 54/2.

وبإمكان الجهد الدعوي إحياء المشهدين الثاني والرابع معاً، إذ بإجتماعهما تنتظم الحياة كأجمل ما تكون، ويكون عمران بقيادة الإيمان.

إن جميع هذه المشاهد إنما هي استجابات في اللاشعور من السواد الأعظم المفطور على تقليد المسموع والمنظور، يتابعون بها أنماط القادة، ولئن ينحت افتقاد السلطة من المكنة التأثيرية القيادية الدعوية، فإن تنوع الفن التخطيطي وتكامل الأداء الفكري الوعظي الإعلامي المؤسسي بإمكانهما الجبرٍ والتعويض والاستدراك وتوفير نصف هذه المكنة المبتغاة، والنصف يُعتبر واحداً كاملاً في القياس الشرعي النصي الجهادي، ثم الواحد يكون أكثر في القياس الإيماني التباركي، فيغدو الحساب التنافسي وارداً جداً بذلك، ويصح ترشيح النفس.

❑ لأهل النقص من عامة الناس وظائف خططية نحتاجها

والمستقبل لأصحابه، يمشي مع من يبادر إلى إمساك زمامه.

أما المتردد المستقل لعَدد إخوانه، المستصغر لحجم رهطه، إذا هاب وتخوف ورأى في هذا الحث تجاوزاً لمفاد الحساب والأرقام، بما له من اقتباس جامد من علوم الإدارة الحديثة بلا وعي ونظرات نسبية واستدراكات إيمانية : فإنما نرد عليه برد إيماني حر ندعوه به إلى أن يتجاوز الشكليات الإحصائية إلى رؤية فلسفة الرياضيات والمنطق الجبري، ليدرك معادلاتٍ حركات الحياة التي أدركها قيصرٍ وكسرى وفهمها جيل المسلمين الأول، ثم عسرت على داعية مستعجل هام غراماً بالحق والإيمان، فاستبد به التسامي العاطفي فتركه بمعزل عن المفاد العقلي، ومنطق استجلاب النصر منه قريب يكمن في معادلة " تحصيل الولاء " ما دامت بؤرة أهل الطاعة قد استحكمت وتركزت.

- فمن خبر الحكماء أن رجلاً قال لكسرى : ليس في الناس كلهم خير.

قال كسرى : هذا صحيح.

فقال الرجل : ولا بُدّ منهم.!

قال كسرى : صدقت.

---

(6) المستطرف 161/1.

فقال الرجل : فالبسهم على قدر ذلك..!! [7].

وهذا القول الصحيح البسيط إنما هو نظرية كاملة للحكم، وجماع قواعد السياسة الناجحة، ومعادلة مهمة من معادلات حركة الحياة.

ففي الناس أصحاب نقص متعدد الوجوه، بل أسافل وسخفاء، لكن سلسلة المنافع لا تكتمل بدونهم، بل تقوم بهم المصالح الدنيوية والدينية، ولذلك يكون واجب الرؤساء أن يتعاملوا معهم على قدر قيمتهم، بتمكين الشجاع، وتقديم الكريم، وتفريغ العالم، ثم ترك العامة يسدون الثغرات، يتوزعون على المهن والصناعات والفنون، لتكتمل الحياة. وكما راعى أكثر الملوك والخلفاء ذلك في القديم : تراعي النظم الحديثة هذه السياسة المعتمدة على تلك الحقيقة، فتركت الناس واختياراتهم، وأذنوا لهم بتأسيس نقاباتهم ونواديهم وجمعياتهم ومدارسهم، حتى حصل إسراف في ذلك عبر تقنين حماية السوء ورديء التصرف.

- **والعمل الدعوي الناجح الذي يبغي دوران دولاب العمل الإسلامي إنما ينطلق من نفس هذه الرؤية الفطرية والتعليلات الفلسفية، وينبغي أن ندرك أن ليس في كل الدعاة مقدرة وافرة، وإنما هم درجات، ولكن لابد منهم حتى الضعيف، فتلبسهم الخطة على قدر ما فيهم، بتنويع طرق العمل والبذل الدعوي، وتكثير اللجان والجمعيات والنوادي والمؤسسات والمثابات والمنطلقات، لتوافق كل هوى في أفراد الجماعة ومناصريها، وعن طريق الاختيار نؤسس شغل خير لكل أحد، وتلك صفة بهيّة في التربية المنهجية يجدر بنا أن نعرفها.**
- **ثم تكتمل هذه الطريقة في السيطرة على الحياة بأن نقترب من العامة الذين لا يليق أن تحويهم صفوف الدعاة، فنجمع جزئيات الخير الصغيرة المتوزعة فيهم على طريقة تركيب الشظايا تلك، مهما كانوا فساقا في القياس الشرعي إذا لم يكونوا أهل دناءة وإسفاف، ومهما كانوا أصحاب نقص فطري وقلة ذكاء وضعف في القدرات، فإنهم لم يغلقوا على عيٍّ وعجز يهبط بهم إلى درجة الصفر في العطاء والنفع والمقدرة، ولذلك نطلب ولاءهم فقط على وفق نظرية صناعة الحياة، ونقطف منهم ثمرات ليست هي من الصنف الأول المخصص للتصدير، وإنما من الصنف الثاني والثالث المخصص للاستهلاك المحلي فقط، وإنما هي ثمرات يانعة أيضاً بإذن الله، وفيها لذة ورواء وطب وشفاء، وكما أدار كسرى ثم جمهرة قادة الدول دولاب الحياة المدنية بالناقصين حين تمّ التعامل مع الناس حسب مقاديرهم،**

---

(7) البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي 115/7.

كل واحد في منزلته، فإن الخطة الدعوية تدير دولاب العمل الدعوي والتأثير الإسلامي بهم، وتجعل السيطرة عليهم وتحصيل الولاء منهم وتسييره في الطريق الصحيح والتحكم به رقماً في معادلة السيطرة الإسلامية على الحياة.

• وهذه الملاحظة الحيوية لاحظها علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال :

(الغوغاء إذا اجتمعوا : ضروا، وإذا افترقوا نفعوا.

فقيل قد علمنا مضرة اجتماعهم، فما منفعة افتراقهم ؟

قال : يرجع أهل المهن إلى مهنهم فينتفع الناس بهم، كرجوع البنّاء إلى بنائه، والنساج إلى منسجه، والخباز إلى مخبزه.

وقال بعض السلف : لا تسبوا الغوغاء، فإنهم يطفئون الحريق، ويخرجون الغريق)[8].

وخُطتنا لا تسمح للغوغاء أن يجتمعوا، ليقلق عليّ، وإنما هي تجمع ما يحسنون.

وقال الجاحظ يوماً لكهل فاضل قد أبيض رأسه : لقد عجّل عليك الشيب ! فقال : وكيف لا يعجل عليًّ وأنا محتاج إلى مَن لو نفذ فيه حكمي لسرحته مع النعاج، أو لفظته مع الدجاج؟[9].

فهذه ظاهرة حيوية أيضاً : أن هؤلاء العامة والغوغاء فيهم أصحاب مال، وأصحاب مراكز وسطوة، فيحتاجهم مثل هذا النبيل المسكين الذي لقننا سبب بياض رؤوسنا وكنا عن ذلك غافلين، لكنه نسي إذ هو يبث لوعته أن النعاج والأبقار تمنح حليبا، ومن تجميع كؤوس من هذا الحليب قامت شركة نستلة العابرة للقارات وحصل لها عنفوان وأثر سياسي، ونسي أن عمداء في الجيوش يقفون في الطوابير ساعات ليأتي دورهم لاستلام طبقة من بيض هذا الدجاج في بلاد يشاء المستبد أن يذل الناس ويلهي خصومه بالحاجات المعاشية..!

• ومرة أخرى يتوهم المستعجلون أن هذه القابلية في التحرك بالعوام والمستضعفين يستوي فيها الحاكم الظالم والدعاة، بل يظنون أنه أقدر وأمكن، لأنه في مكان السلطة.

وهذا قياس مع الفارق، إذ نحن الأقدر بحمد الله، لأن اندفاعنا ذاتي، وتجذبنا منازل الجنان.

---

(8) المستطرف 232/1.

(9) البصائر والذخائر 70/4.

ففي القصص الرمزية أن كلباً عدا خلف غزال، فقال الغزال : إنك لا تلحقني. قال : لم ؟ قال : لأني أعدو لنفسي، وأنت تعدو لصاحبك !

ففي كل بلد كتب الله عليه المحنة هناك زبانية وجلاوزة ومن يعدو خلف الملائكة، لكنهم لا يستطيعون غير تمزيق أطراف أرديتها، وتبقى محلقة بأجنحتها، لأنها مستأجرة لا تعدو قدرها ومنزلتها الواطئة، ولا تحركها ذاتية، بل تبعية يأنف منها الأصيل، ويتعفف عنها الشريف.

❑ العمل الجماعي يتيح تراكم تأثيرات الأجيال

بل أبعدِ من هذا : أن ظاهرة الأجيال القيادية تعمل لصالحنا، فيتراكم الخير عندنا جيلاً بعد جيل، وطبقة بعد طبقة، وفي دورة الحياة الواحدة التي تجمع الشيخ والكهل والشاب في آن واحد : يتكامل أداء الجمهرة كلها، وتظل كلمات وإنجازات وسِيَر الذين ماتوا تؤثر في الأحياء وإلى أجيال عديدة، وما زلنا في الزمن المتأخر تضيئ لنا بطولات وعلوم وحكمة السلف، فتجتمع من كل ذلك ذخيرة قيادية عظيمة الكتلة ترجح الميزان لصالحنا، إذ المستأجَر الحي تائه في ظلام ظلم سيده، والخاسر الميت مطوي الذكر منسي.

وهذا الجانب من نظرية الأجيال القيادية قد اكتشفه أحد نبلاء السلف فقال :

(معادن البهاء لا يقطع بين متصلها تفاوت الأعمار، ولا يُعفّي آثارها بِلى الأبدان)[10].

وما كنت أدري انتباه الأولين لها حين دونتها في المسار. فالعلم والوعي والأخلاق، التي يجمعها اصطلاح " معادن البهاء " إنما هي سَنَد متصل تمثله سلسلة أهل الخير على اختلاف أعمارهم، **الشاب منهم يكمل الكهل ثم الشيخ، بل حتى الذي يمضي إلى جوار ربه إنما هو غائب الجسد حاضرٌ بسيرته ومفاد تجربته ونظراته النقدية ووصاياه الوعظية واختياراته الفقهية، وتتكون مدرسة لها طبعاتها الحيوية وإن اختلفت أسنان ممثليها وغابت أشخاص مَن سَلف من مؤسسيها وموسعيها ومروجيها وناقليها، وتجتمع من أداء الأجيال المتعاقبة كتلة تأثيرية لها وقعها المعنوي وحسمها الفاصل، أتاح بروزها العمل الجماعي** المستمر الذي يدفع سيداً إلى الساحة كلما مضى سيد، وتلك منحة لا يعرفها فردي، وهو عن إدراكها بعيد.

---

(10) البصائر 39/8.

لكنا في ذلك لسنا قدرية نعوّل على البهاء الذي يهبه الله لجماعة المؤمنين ثم نزوي جانباً، وإنما ندرك الأسباب والوسائل والأساليب، وأن مِنح الوعي والبصيرة والحكمة التي هي ترجمة البهاء إنما تخدم العامل لا القاعد.

• وندرك أن أول ذلك : الخطو في درب العلم، وقد قيل : (مَن خَدَم المحابر: خدمته المنابر)، أي أنه درب أوله حبر وأقلام وتسطير أوراق، لكن آخره بياض واستواء وسيطرة ولهج تصدع به المنابر.

• ثم ندرك أن العلم البارد كاسد، حتى نساء المؤمنين يدركن ذلك، فتطفق إحداهن تحرض على جهاد يحمي العلم ويثبته في أرض الواقع، وتبشّر أنْ عما قريب يكون (قد التأم شمل الشتات، وظهرت كلمة العدل وغلب الحق) (**ألا وإن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء.**).

لكنه الجهاد الواعي، عبر نمط الأداء الحضاري، لا الإرتجالي المرسَل الذي لا يضبطه تخطيط وتدرج وهدف، وإنما هو مأسور إلى قياسات الواقع والظرف والمرحلة.

❑ وردتنا البيضاء في الوعاء الأصفر

ولكي تكون الخطوات الجهادية واعية : يلزم أن يخدمها مال وافر يفي بأثمان الأداء الحضاري الغالي، وكل تقدم مكشوف لا تسنده خزانة عامرة يصيبه التعثر، ويعكره التأخر، والأعمال في المجتمعات المعقدة المشحونة بالتنافس لا تحتمل ذلك، بل تريد موافاة في الموعد المضبوط، واستعداداً يسبق الفرصة وينتظرها، والوصول المتأخر صورة من صور الغياب، ومرارة طعم هذه الحقيقة لا تبدل هذا الوصف الصحيح.

• والأمر في الأداء الدعوي في هذا المجال يماثل الأمر في أداء الدولة، فمن المعادلات في حركة الحياة ما اكتشفه جعفر بن يحيى البرمكي منذ القديم في ارتباط السياسة والوجود السلطاني بالتكامل المدني والمال، ثم ارتباط المال بالعدل، وهو قوله :

(الخراج عماد الملوك، وما استعزوا بمثل العدل، وما استنذروا بمثل الظلم، وأسرع الأمور في خراب البلاد : تعطيل الأرضين وهلاك الرعية وانكسار الخراج من الجور) (وإذا ضعف المزارعون : عجزوا عن عمارة الأرضين، فيتركونها،

فتخرب الأرض، ويهرب المزارعون، فتضعف العمارة، ويضعف الخراج، وينتج من ذلك ضعف الأجناد، وإذ ضعف الجند : طمع الأعداء في السلطان.)[11].

وهذا من رفيع الكلام، ويشكل نظرية في الفقه السياسي يلزم أن يستعيرها الفقه الدعوي، فجنود الدعوة إنما يحركهم المال كما يلهب عواطفهم الإيمان ويؤكد عزائمهم الفكر، وهذا المثلث كامل، وإذا رفعت منه ضلعاً يصير الباقي منفتحاً مكشوفاً لا يستوعب شيئاً ولا يحوي رصيداً ولا يؤوي أهلاً.

- وقد قيل :

إنما قوة الظهور النقودُ
وبها يكمل الفتى ويسودُ
كم كريمٍ أزرى به الدهر يوما
ولئيم تسعى إليه الوفودُ

- وقيل :

فقوة العين بإنسانها
وقوة الإنسان بالعَينِ

والعين الثانية هنا : الذهب.

فهذا حديث معادلات حيوية، وماهو بحديث عواطف.

إنها معادلة تتحدث عن قوة الظهور، وقوة الإنسان.

وهل نمط الأداء الدعوي غير قوة الظهور وقوة الداعية ؟؟

نعم، لسنا أهل تفسير أُحادي، ولا نغفل عن آثار الإيمان ولمعات الفكر، ولكن لا نغفل أيضاً عن لمعات الذهب. !

والسبب أنك تحتاج المؤسسات، والتفرغ، والدعاية، والكفالة، والشراء، ومفتاح كل ذلك : الثراء.

والسبب فوق ذلك أيضاً : أنك مضطر لأن تخاطب الناس على مقدار عقولهم، وبلغتهم التي يفهمونها، في الأول، لينصتوا لك، لتبدل موازينهم ولغتهم في الثاني، كما أوصى بعض الحكماء ولده فقال :

(يا بُني : عليك بطلب العلم وجمع المال، فإن الناس طائفتان، خاصة وعامة، فالخاصة تكرمك للعلم، والعامة تكرمك للمال).

- وأعراف هؤلاء الناس وموازينهم عجيبة غريبة، فقد قيل أنه ما مِن خلّة هي للغني مدح إلا وهي في لغتهم واعتبارهم للفقير عيب.

---

(11) المستطرف 168/1.

فإن كان شجاعاً.... سُـمي أهوجا.

وإن كان حلـيماً .... سُمي ضعيفا.

وإن كان وقورا .... سُـمي بلـيدا.

وإن كـان لَسِـنا.... سُمي مِهذارا.

وهذا وضع مأساوي مرهق، لطالما حاصر الدعاة، ولا يكتمل الأداء التربوي المنهجي ما لم يُتمم ويُردف بمال نرفع به الداعية المتربي عن حدِ الفقر ونجعله طليقاً إذا أراد التجول الإيجابي، ليصح نطقه وتفصح لغته من بعد عجمة الحرمان ومكوث طويل في قفص الاتهام، وما أظلم الغوغائي حين يكون قاضيا.

إن تحرير الداعية من رهق الحاجة والقروض : إنما هو جزء من منهجية التربية الدعوية، من أجل أن يصدح ويغرّد، فإنه مكبوت، وما هو بأخرس.

• وكان في القديم شاعر، كأنه داعية، أذهلته إيماءات الدائنين، وإذ بلسانه يصبح معقولا، ويقول :

لقد كان القريض سمير قلبي

فألهتني القـروضُ عن القــريضِ

فقريض الإيمان ومتن الفكر : سمير قلب كل داعية.

وحكاية واقع العالم الإسلامي وتحليل الأحداث صنعة كل داعية.

ورواية التجريب وفقه الدعوة والمفاد الحضاري أناشيد كل داعية.

لكن : كم من داعية أسكته الفقر وألهته رهبة القروض ؟

فذلك هو الذي جعل تحرير الداعية من رهق طلب المال واجباً موضوعاً على عاتق منهجية التربية الدعوية لا يسعها التنصل منه.

لأن الإنسان في ذروة الشرف.

أشرف ما فيه : العقل.

❑ نقطةٌ في الخيال.... ملحمةٌ في المآل

وبذلك تكون معادلة تحرير العقل أهم معادلة في حركة الحياة.

والمفروض أن تدرك منهجية التربية الدعوية ذلك، بجلاء، إذ أن هذا التحرير هو الخطوة الأولى في الإيمان، لمكانة الفطرِة الغالبة، وكما يستعبد الطغاة العقول فيحرمونها من الإيمان : يستعبد الفقرُ العقلَ المؤمن، فيشتته، وقد كاد الفقر يكون كفرا بمثل هذا التشتيت.

إن الخالق قد حبا الإنسان بعقل عجيب، له مقدرة فائقة على التخيل، وإنزال ذلك على الواقع، ومقدرة على القياس، والترتيب المنطقي، والتعبير الفني، والاحتكام إلى المعايير، والتجانس مع سلوكيات مخلوقات الله الأخرى.

• ولكي ندرك أهمية العقل وطاقاته الجبارة : يلزم أن نراه في الحالات المطلقة من عمله ونشاطه، قبل تجمله بالإيمان، لأننا إذا أحسسنا حقاً ببراعة أدائه المطلق : سهل إدراك جمال أدائه الإيماني عندما يؤمن ويتخلص من المعكرات.

وفي هذا السياق حقائق مبكرة، منذ الزمن الحضاري القديم، **وقد أعجبتني قطعة من العمل العقلي المطلق في الفلسفة الرياضية والمنطق الهندسي نقلها أبو حيان التوحيدي** عن **قسطا بن لوقا** عن علماء اليونان فيما يبدو، وهذه المقطوعة التأملية ترينا بوضوح عميق قابلية التأمل والخيال التي أودعها الله في العقل، ولذلك هي تحرضنا على أن نصونه ونحرره ونمهد السبل أمام سياحاته، وأن نجعل ذلك أول منهجية التربية الدعوية، إذ في ذلك تمهيد للإيمان أن يدخل العقل، ثم تدخله اللمسة العاطفية القلب، ومن يجعل ذلك أول المنهجية واعياً : يجعله آخر المنهجية أيضاً، بمثل ذاك الوعي.

• يقول قسطا بن لوقا : (الخط هو مقدار ذو نعت واحد، وهو الطول، بلا عرض ولا عمق، وهو يدرك على الإنفراد بالعقل والوهم، لا بالحس. وأما وجوده بالحس : فإنه في البسيط *، إذ هو نهايته، فإن البسيط إذا ألقي منه عرضه : بقي طوله فقط، وذلك هو الخط. ونهاية الخط نقطتان : فالنقطة هي شيء لا بعد له، أعني لا طول ولا عرض ولا عمق، وهي موجودة على الإنفراد بالعقل والوهم لا بالحس، وأما وجودها بالحس فهو في الخط.)(12).

• ولو تأملت ملياً : لأدركت أن هذا الوصف الواضح الذي تظنه سهلا **إنما هو إعجاز إنساني رفيع المستوى ينبي عن ذكاء ومكنة تصورية قوية**، بمثلها تتحرك الحياة، وتتفجر الطاقات الكامنة، ولا تستطيع أبداً أن تجرد هذا المقطع في التأمل العقلي العالي العتيق من ارتباطه بسياحات آينشتاين الذهنية في تمثل النسبية، أو تجربة عملية لها أجريت في استقبال ضوء كوني بعيد أثبتت انحناء مسار الضوء، بل هو جذر من جذور فيزياء الكم، وللمنطق الذي فيه أثر في صياغة عقل ماكس بلانك. ثم لا نستطيع أن نفصله عما أودع المهندسون في أعماق الكمبيوتر التحتية من قابليات تجسيمية وأقيسة تبادلية التأثير، فإن هذه النهايات تستند كلياً إلى جذر تلك البدايات في تخيل الخط والنقطة، ولولا ذاك ما كان هذا، ولولا إدراك وضع البسيط ما كان إدراك المجسم، والعلم كتلة نامية، وشجرة أصلها بذرة، ثم يأتي دارون يستعصي عليه أن يفهم دلالة هذا الإعجاز، وعبقرية العقل الإنساني، فاستغلق عليه فهم استثناء آدم، وذهل عن إدراك أبعاد معاني الفلسفة الرياضية هذه، وعصفها العاصف إذا عصفت فألزمت بالمنطق من في عرصة الحياة أن يقدم لها

* يعني : الهندسة المستوية لا المجسمة.

(12) البصائر والذخائر 93/9.

الولاء، فباتت تسيطر على المكان والزمان ومَن فيهما وما فيهما مما يُدرك ويُرى ويحسّ، كله جميعاً، بلا استثناء، وهو الموفق فقط يفقه قيمة العقل الإنساني الذي حبانا الله به دون سائر المخلوقات، وهو المؤمن فقط ينتبه إلى أن حركة الحياة أساسها عقل ونفس.

• أما لماذا كفر ابن لوقا هذا، ولماذا كفر آينشتاين ؟ فذلك لخبر آخر من أخبار الإيمان، والإيمان ليس أحادي التفسير، بل تحكمه حقائق شتى، مثل الشهوة والشبهة، وإغراء الشيطان، وما يعاكس ذلك من التوفيق الرباني، وأسرار حكمة القدر. وليس هذا مجال شرحها، **إنما أردنا التذكير بعنفوان الأداء العقلي، لندرك تأثيراته إذا ازدان بالإيمان، لنحرص على رعايته وجعله شغل المنهجية التربوية إذ أرادت التجانس مع حقائق الكون والخلق.**

مَن يتم فهم هذه المعادلات الحيوية في وصف النقطة والخيال العلمي، وأثر المال، ومعادن البهاء المترابطة، وخضاب الرجال، واحتياج الخطط التفوقية للعامة السفلية، ومنطق الغزال، وختمات عمر، ومصانع الوليد، وتبدلات في قصر الكوفة، والوعي الكرخي، وذاتية الوازع النفسي، وسوق الأخلاق، وهمم المعروف، وجذبات الأمل، ومحادثة الإخوان، والسكون المحرك، واستدراك اللاحق، والشرارة القيادية القادحة، وجمع نفحات الله التي تنعش كل فرد من الناس في أوقات متباينة، وضمّ أخلاق الناس المتفرقة المتوزعة فيهم إلى بعضها، وتراكم ألف سبب لتحويل السائب إلى داعية : فقد أذن له أن يفهم طرائق حركة الحياة و الأصل الشرعي والجذر الفلسفي والمنبع الفيزياوي لمنهجية التربية الدعوية. ۞

أما بعد...

❑ فأنا أعرف أن الخيالِ سهل، وأن التفكير المجاني لا حدود له، وقد أطلقتُ لنفسي العنان فأوجبت أشياء كثيرة وزعمت صورة مثالية لمنهجية التربية الدعوية، وما ذاك إلاّ لأني لا أجد أحداً يطالبني بتنفيذ ويحصي عليّ ويحاسب، لكن اللجان التربوية مسكينة، فإنها مكلفة بإنزال هذه التمنيات العِراض على الواقع، وتوجيه يوميات تحرك الدعاة وفق ما تقتضيه، وهذا هو الموطن الصعب، وهناك البطولة الحقيقية.

❑ لكن إذ أنا برجال تربية شفيق : أُحب أن أسأل : **أما كانت الخيالات والرؤى الحالمة هي مصدر التخطيط الناجح دائما ؟**

إذن.... لا تزهد بالذي أعرضه وأقترحه، فلربما وجدت حلول معضلات التربية بين هذه الإشارات الطموحة.

ومن هنا أفهم أن الطريق العملي للاستفادة من هذا الحشد من الملاحظات والتحليلات أن يقرأ الداعية التربوي الكتاب ثانية متروياً، ويستخرج منه المطالب والاقتراحات والمفردات التربوية ويجعلها في قائمة يقرنها بمماثلات يستخرجها من المسار وصناعة الحياة وأُصول الإفتاء والإجتهاد ورسائل العين، ثم يلحق بذلك مقترحات أوردها غيري في كتبهم، ويجعل من جميع ما هنالك مثل دستور للعمل التربوي في صياغة تقعيدية تخطيطية، ثم يدعو إخوانا له إلى مؤتمر لتقويم ذلك وتحديد مدى إمكانية الإستفادة مما ورد، فما يقر يرفع إلى مؤتمر ذي مستوى أعلى، حتى يصل مستوى أهل الاختيار والقرار، فيُمرِّر الصواب ويوصى به، ويكون استبعاد الخطأ وما فيه إرهاق. وأما ما يكون من عمل غير تربوي يؤدي إلى تأثير تربوي، مثل فكرة الصناعة، فإن تقريرها يكون أبعد من محيط التربويين، ولها أولياء يتولونها.

❑ ويقع بيتي على طريق عام موصل إلى مركز المدينة، لذلك أصبحتُ أشاهد يومياً منظر عشرات ألوف من الناس أو مائة ألف أو يزيدون يسعون من بيوتهم صباحاً إلى وظائفهم في دواوين الوزارات والشركات والمعامل، وعشرات ألوف

أُخرى من طلاب الجامعات، ثم أراهم ثانية كل مساء يروحون إلى بيوتهم تنقلهم الحافلات في ازدحام مثير للانتباه، وجزما أن هذا المنظر يتكرر في الشوارع الرئيسة الأُخرى المؤدية إلى مركز المدينة، فأقول : حقاً إن مهمة الدعوة صعبة، فكم من داعية عندنا بين هذا العدد المليوني ؟ عددنا قليل، والناس كثير، ولذلك يجب على تخطيطنا أن يراعي هذه الحقيقة، فلا يتورط في استعجال، إذ يحتاج هؤلاء إلى تربية وفكر وموازين وأخلاق ليكونوا شعباً صالحاً لدولة إسلامية نحلم بها، ولا يكفي أن تكون قيادات الدولة مسلمة وسواد الشعب الأعظم في تخلّف عن إدراك مسؤوليته الإسنادية التكاملية مع الدولة، كما يحدث في السودان اليوم. بل حتى الجانب الأخلاقي يتراجع في الناس في كل الأقطار، بتأثير القنوات الفضائية والشعوب الأُخرى النصرانية والوثنية، وأصبح الميزان المصلحي هو مذهب الناس.

وأمر كهذا يدفعنا إلى أن نطور خُطتنا ومفاهيمنا في العمل بما يناسب هذه الحقائق والظواهر، بحيث نجعل تحصيل ولاء الناس هو الركن الأكبر المعتمد في العمل الإسلامي، وليس تنظيمهم، بل نكتفي أن يكون التنظيم بؤرة مركزية عالية المستوى يتوسع حجمه بتدرج آمن وفق نظرية الشروط المتشددة، ويكون مدى توسعه كافياً لتعويض الفاقد بالموت والشيخوخة والانعزال، ثم كافياً لرصد عناصر دعوية مشرفة على التوسع الذي يحصل في الولاء، أي كلما ازداد الولاء في الحجم: ألزمنا أنفسنا بتنظيم دعاة جدد يتولون إدامة معنوية الموالين الجدد وتغذيتهم بالفكر وتجميلهم بالأخلاق، مع تنظيم آخرين ينتجون توسعاً آخر، في عملية متصاعدة، لكن هذه العملية المتصاعدة، الداخلية التنظيمية، والخارجية الولائية : تحتاج حلقات تدور حول المحور القيادي، وهذه الحلقات هي أهل الاختصاص العالي المستوى، من علماء الشرع والوعاظ والمفكرين والإعلاميين والأُدباء والشعراء والمحللين السياسيين والرموز الدعوية والصناعيين ورجال الأعمال ونبلاء العمل الخيري وأعضاء البرلمان ورؤساء المؤسسات الدعوية، رجالاً ونساء، ولا مجال للتخطيط الدعوي إلا أن يقبل هذا التحدي الثقيل و المهمة الصعبة ليدوم الأمر في مجتمع معقد، والذي ألاحظه في منهجية التربية المعمول بها أنها تعتني بالتربية الداخلية بشكل مكثف، ولم تتكيف لهذه النقلة التخطيطية في التوسع في طلب الولاء، ولذلك أرى أن تطوير منهجيتنا ينبغي أن يأخذ ذلك بنظر الاعتبار وأن نتوسع في التربية الخارجية الموجهة لجمهورنا، والتي من وسائلها : نشر الكتب الفكرية الدعوية والرسائل المبسطة، والمجلات الإسلامية، ونشر كتب العلوم الشرعية بطبعات شعبية، وعقد حلقات تدريس العلوم

الشرعية، وإجادة مواقع الإنترنت، والشريط المسموع والمرئي والأقراص المدمجة، والعمل الإعلامي بصورة عامة، ويحدث تقدم جيد في ذلك، ولكن بشكل مستقل، وكأن الأمر لا يعني منهجيتنا التربوية، واللازم إجراء تنسيق لكل هذه الأعمال الفكرية والإعلامية وجعلها ضمن رقابة أجهزتنا التربوية، مع التركيز على إبراز رموز دعوية بعدد أكبر وإحلال تنسيق آخر بين كلامهم، لما له من تأثير تربوي، **وربما تكون القناة الفضائية الإسلامية الثقافية هي المحور الرئيس الذي يمكن أن تدور حوله منهجية التربية الخارجية الموجهة للأنصار والموالين مثلما هي موجهة لتطوير الدعاة**، ولست أفصل بين السياسة والثقافة، ولكن أمر القناة السياسية أشد، وحديثها ذو شجون.

❑ لكن حرصنا على ولاء الناس لا يعني أن نحرص على رضاهم وننزل إلى مستواهم، إنما نرفعهم لمستوانا ما استطعنا، و إلاّ فإن فيهم بَطَراً وجهلاً وتمرداً، ويغلب على العامي أن يطلب من الداعية أن يجاريه، وأن يقره على شهواته وتساهله، ولكننا أصحاب ثوابت ومبادئ، فلسنا نقول إلا الحق، ولا ننطق إلاّ بما يرضي الرب، وبعض الجهلة من العامة على استعداد للملاحقة، وبقلة أدب يستفز.

وكان العامي قد جاء إلى الشيخ القدوري رئيس فقهاء الأحناف ببغداد وصاحب المختصر المشهور في الفقه، فدفع إليه ورقة فيها استفتاء، (فاتفق الجواب على خلاف غرض المستفتي، فقال له : يا شيخ : أتلفت ورقتي.)[1] فعوضه الشيخ ورقة من عنده.

فنحن نعمل في محيط ملغوم بالجهل، وليست هي السلاطين فقط تؤذينا، بل الناس أيضاً، وقد يتسلطن عليك جاهل في المسجد الذي تنطلق منه فيسومك العذاب ويتهم ويفجر لسانه ويهذر، فتضطر أن تقرأ سبع مرات " لا يستفزنّك الذين لا يوقنون " وتنطق عشراً : سلاماً، سلاماً، سلاما.

❑ ويبقى أمر تطوير منهجنا التربوي أبعد من الحصر والتدوين، وكل مَن له تجربة عملية تصح منه الإضافة، وهو مدعو أن يبدع ويضيف معنى أو ملاحظة نقدية.

وإنّا وجدناك أيها الأخ الداعية ذكياً ألمعياً صاحب كياسة، والدليل على ذلك أنك فهمت حال الأمة الإسلامية وأدركت طريق الاستدراك عبر العمل الدعوي، وذلك فضل من الله تعالى عليك ميّزك به عن أهل العجز الذين تسيبوا فكسلوا وانحرفت اهتماماتهم إلى دنيويات مفضولة وجلسوا على سفوح تلال الغفلة، ولذلك ندعوك إلى أن تلبي مراد الله منك.

---

(1) أدب المفتي والمستفتي لابن الصلاح /147.

قـد وهبك الذكاء بقَدَر، كما في صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال : " كل شيء بقَدَر حتى العجز والكيس. ".

فأنت ذكي بقدر الله.

وأنت داعية بفضل الله.

والمفـروض أن تسـتطرد مـع الحكمة الربانية فتحرص على تسخير ذكائك لخدمة العلـم الشـرعي، أو لتحلـيلات تكشف عالم السياسة، أو لإضافة وصية تربوية تحتل مكانها ضمن المنهجية العامة.

كَيسُـك وذكـاؤك ما اشتراه أبوك من السوق، إنما هو منحة ربانية خالصة، ويليق أن تشكرها كشكرك الرزق والدينار.

فقم بنا نفكر، ونستطرد في اصطياد اللمعات.

ثم اجلس بنا في مؤتمرٍ سويعات نتحرى صفة منهجية التربية الدعوية.

وادع معـي ربـنا الرحـيم أن يعطّـر ذكر نبينا الكريم بعطر شذي عبقٍ زكي من صلاة وتسليم. ۞

يشكر

محمد أحمد الراشد

إخوانه من دعاة الإسلام وشباب الصحوة الإيمانية في العالم أجمع

على ما أبدوه ويبدونه من احتفال بكتبه وترويج لها

ويبشّر قراء هذا الكتاب

بصدور كتاب آخر له أكبر وأهم بعنوان

" أُصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدعوة الإسلامية "

وتهذيب لكتاب الغياثي لإمام الحرمين الجويني الذي هو من كتب السياسة الشرعية

فلولا سارع الإخوة إلى اقتنائها وإجادة مطالعتها من أجل الاستعداد لفهم

" موسوعة معالم التطور الدعوي "

في خمسة أجزاء

التي ستصدر بإذن الله في أواخر سنة 2003

مع رسائل كثيرة ضمن سلسلة مواعظ داعية، وكتب أُخرى صغيرة في فقه الدعوة

ثم في خُطة دار المحراب شيء كثير جديد إن شاء الله ببركة دعاء الدعاة وتشجيعهم

ويحبذ الراشد للمتمكنين من إخوانه شراء ثلاث نسخ

واحدة للمطالعة اليومية والتأشير عليها

وأُخرى للحفظ في مكتباتهم لطوارئ الأيام

وثالثة يهدونها إلى داعية بعيد يصعب حصوله عليها

ويهيب بأهل اليسار من الدعاة الذين يرغبون في إشاعة الوعي وفقه الدعوة

أن يستثمروا الخبرة الميدانية لدى المؤلف بمواطن الحاجات

فيمولوا بالتعاون معه توزيع نسخ في البلاد الفقيرة وبخاصة خارج العالم العربي

مع التذكير بالمسار وصناعة الحياة والمنطلق وتهذيب المدارج

انطلاقا من حقيقة أن

نيِّر الفكر : يقود العملا مثل رعدٍ بعد برقٍ : جلجلا

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

" براءة "

تعلن دار المحراب للنشر والتوزيع

أن كتابا صغيرا بعنوان

" الأخوة في الله "

قد شاع قديما ونشرته دار الدعوة بالإسكندرية

منسوباً إلى

محمد أحمد الراشد

ثم جددت نشره مكتبة الإرشاد بصنعاء

وهذا الكتاب مزور موضوع

كتبه شاب غِرّ كاذب يسترزق

ولم يكتب الراشد حرفاً منه

وكل ما لم يصدر عن دار المحراب في المستقبل

فالأصل فيه أنه مزور

ولأن التدليس قد أنطلى على البعض :

لزم هذا التنويه

دار الخلدونية

05 شارع مسعودي محمد - القبة القديمة - الجزائر
هاتف فاكس : 021.68.86.49

سيف ... ومحراب ... ودمعة عابد